معالم التاريخ البيزنطي
(السياسي والحضاري)

الأستاذ الدكتور
ابراهيم خميس ابراهيم
أستاذ ورئيس قسم تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

الأستاذ الدكتور
حسن عبد الوهاب حسن
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

دكتوره
سهير ابراهيم نعينع
أستاذ تاريخ العصور الوسطي المساعد
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

٢٠٠٣

دار المعرفة الجامعية
للطبع والنشر والتوزيع
٤٠ شارع سوتير - الأزاريطة - الإسكندرية ت: ٤٨٧٠١٦٣
٣٨٧ شارع قنال السويس - الشاطبي - الإسكندرية ت: ٥٩٢٣١٤٦

دار المعرفة الجامعية

للطبع والنشر والتوزيع

- الإدارة: ٤٠ شارع سوتير الأزاريطة الاسكندرية
ت: ٤٨٧٠١٦٣

- الفرع: ٣٨٧ شارع قنال السويس الشاطبي الاسكندرية
ت: ٥٩٢٣١٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

«وفوق كل ذي علم عليم»

صدق الله العظيم

مقدمة

يتناول موضوع هذا الكتاب معالم التاريخ البيزنطى بشقيه السياسى والحضارى. وفى القسم الأول دراسة لبداية التاريخ البيزنطى والآراء التى عالجت هذا، ثم دراسة لمعالم الأسرات البيرنطية وسياسة الأباطرة البيزنطيين الداخلية والخارجية. أما القسم الثانى فيتناول مجموعة من المقالات التى نعالج بعض الجوانب الحضارية فى ناريخ الدولة البيرنطية مثل تاريخ برقة وطرابلس، ومعاهدات السلام بين المسلمين والبيرنطيين، ودور المرأة فى مصر البيرنطية. وأخيراً جوانب من ناريخ صقلية. وأختتم الكتاب بقائمة لإسماء الأباطرة البيزنطيين وسنوات حكمهم.

المؤلفون

مقدمة

امتد التاريخ البيزنطى قرابة عشرة قرون وذلك منذ تأسيس القسطنطينية فى عام ٣٢٤م وافتتاحها رسمياً فى عام ٣٣٠م وحتى سقوطها فى عام ١٤٥٣م على يد السلطان العثمانى محمد الفاتح. وشكّلت الامبراطورية البيزنطية جزءاً من الامبراطورية الرومانية القديمة؛ تلك الامبراطورية التى امتدت فى قارات العالم الثلاث القديمة وبلغت أوج اتساعها فى القرن الثانى الميلادى. غير أن عدداً من العوامل أدت إلى ضعفها واضمحلالها ثم سقوطها. وبذل عدد من الأباطرة مثل دقلديانوس وقسطنطين الكبير محاولة مستميتة من أجل الإصلاح، ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل. وسرعان ما تركت العوامل الخارجية والداخلية أثرها فانقسمت تلك الإمبراطورية إلى ثلاثة أقسام هى العالم البيزنطى والغرب الجرمانى والعالم الإسلامى وهم ورثة تلك الامبراطورية الرومانية القديمة. وصار لكل قسم خصائصه التى تميزه عن بقية الأقسام وشعوبه ولغاته. وتبلورت شخصية كل قسم فصار القسم الشرقى بلغته اليونانية وتقاليده الشرقية يختلف عن القسم الغربى بلغته اللاتينية والتى تأثرت باللهجات الجرمانية. وعلى الرغم من أنهما كانا على ديانة واحدة هى المسيحية، إلا أن كل منهما كان له مذهبه. فانتشرت الأرثوذكسية فى الدولة البيزنطية، بينما كانت الكاثوليكية هى السائدة فى الغرب الأوروبى.

أما فيما يتعلق بتاريخ الدولة البيزنطية، فقد اختلفت آراء المؤرخين حول بدايته ونهايته. وظهرت العديد من النظريات التى تتناول هذا الجانب والتى نعرض لها فى الفصل الثانى. ويرى بعض المؤرخين أن عام ١٤٥٣م هو نهاية التاريخ البيزنطى وهو العام الذى شهد سقوط القسطنطينية فى قبضة العثمانيين وأنهى هذه الامبراطورية البيزنطية. بينما يرى البعض الآخر أن عام ١٢٠٤م وهو العام الذى سقطت فيه القسطنطينية أيضاً فى قبضة لاتين أو صليبى الحملة الرابعة يمثل نهاية الدولة البيزنطية الحقيقية. وذلك لأن الفترة التالية تأثرت فيها بيزنطة بعوامل كثيرة ولم يعد التاريخ البيزنطى تاريخاً نقياً خالصاً.

ومن ناحية أخرى فالتاريخ البيزنطى له سماته التى ميزته عن التاريخ الأوروبى الوسيط أو بالتحديد عن الغرب الجرمانى. فقد تعاقب على حكم الدولة البيزنطية عدداً من القادة شكلوا أسرات توارثت الحكم بدءاً بأسرة قسطنطين وإنتهاءً بأسرة كومنين فى عام ١٢٠٤م. ثم جاءت الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية حتى عام ١٢٦١م وبعدها استعاد البيزنطيون الحكم حتى سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م. ولاشك أن هذه المرحلة تراوحت السياسة البيزنطية فيها ما بين القوة والضعف، وأحرزت الانتصارات وتعرضت للهزائم خاصة وأن كثير من القوى أحاطت بها ورغبت فى فتح هذه المدينة المنيعة التى استعصت على العديد من القوى. ولذلك لا نجد غرابة فى أن بداية التاريخ البيزنطى ونهايته ترتبط مباشرة بسقوط القسطنطينية، كما حدث فى عامى ١٢٠٤م و١٤٥٣م.

أما عن المنهج المتبع فى هذا الكتاب فقد بدأت الحديث عن عوامل ضعف وسقوط الامبراطورية الرومانية القديمة وذلك كمدخل طبيعى للتعريف بهذه الفترة وما سبقها. ثم انتقلت إلى موضوع آخر يرتبط مباشرة بالتاريخ البيزنطى وهو الآراء والنظريات المتعلقة ببداية هذه الفترة. ثم تناولت عصر الامبراطور دقلديانوس وقسطنطين الكبير ومحاولات الإصلاح فى عصريهما وأهم ما يميز هذه الفترة لما كان لها من أكبر الأثر فى بداية التاريخ البيزنطى خاصة ما يتعلق بالاعتراف بالمسيحية، وإنشاء القسطنطينية أما الأسرات التى حكمت بيزنطة فقد اتبعت منهج يعتمد على التعريف بأباطرة الأسرة، ثم تناول أهم معالم السياسة الخارجية بصفة عامة وإبراز الجوانب الداخلية فى عصر كل أسرة. وأتبعت كل فصل بقائمة للكتب الأجنبية والعربية المتعلقة بالموضوع. ثم اختتمت ذلك بعدد من الملاحق المتصلة بالموضوع وعدد من الخرائط والرسوم والأشكال التوضيحية.

وأخيراً فإننى أدعو الله عز وجل بالتوفيق والسداد

واخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

د. حسن عبد الوهاب حسين

الموضوع الأول
التعريف بالإمبراطورية الرومانية
وعوامل سقوطها

مقدمــة:

امتدت الإمبراطورية الرومانية فى أقصى اتساعها إلى أكثر من ألفى ميل عرضاً، من سور أنطونينوس والحدود الشمالية لداشيا إلى جبال أطلس ومدار السرطان أو الصحراء الكبرى. أما طولها فقد امتد إلى أكثر من ثلاثة آلاف ميل، من المحيط الأطلسي إلى الفرات. وهكذا فقد امتدت فى أجمل بقاع الدنيا بين خطى عرض ٢٤°، ٥٦°، وبلغت مساحتها حوالى مليون وستمائة ألف ميل مربع.

بلغت الإمبراطورية الرومانية أقصى اتساعها فى عهد الإمبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧م)، وقد اشتملت على العديد من الشعوب المتباينة فى أجناسها ولغاتها وحضارتها. وتماسكت هذه الشعوب نتيجة العديد من العوامل منها: كفاءة الأباطرة والذين حمل البعض منهم صفات مقدسة، بالإضافة إلى سلسلة القوانين والتشريعات التي أصدرها السناتو لكى تتلاءم مع هذا التباين الجنسى واللغوى. كما كان للسياسة الدينية لهؤلاء الأباطرة أثرها فى ذلك. وهكذا وصلت روما إلى ذروة قوتها فى القرن الثانى الميلادى، غير أن عوامل عديدة بدأت تؤدى إلى ضعف وانهيار هذه الإمبراطورية الضخمة وهى:

أولاً: العوامل السياسية والإدارية:

أضاع خلفاء أغسطس Augustus وتيبريوس Tiberus ما حققاه، حتى أن الحكم المستبد أصبح معترفًا به فى النهاية من ناحية المبدأ على أنه

حكم الإمبراطورية الرومانية. وبدأ تدهور الأرستقراطية والشعب حتى أنه لم يعد يتم تجنيد جيش من إيطاليا. وفي عصر سبتميوس سيفيروس Septimius Severus كان الإمبراطور يمثل بالنسبة للعامل الروماني المركز والمصدر الوحيد للقوة السياسية. وتم المحافظة على الطبيعة العسكرية للدولة الرومانية في لقبه الإمبراطوري Imperator. وكان قادة الولايات في عصره حكاماً عسكريين، ووجد دعماً أكثر للنظرية في اعتماده العملي على الجيش والذي كان في يوم ما أصل ومصدر دعم سلطته. وجمع الإمبراطور في سلطته السلطتين المدنية والعسكرية معاً، وكان الموظفون يعملون بتكليف منه، وكذلك كان مصدراً للقوانين. وعندما كان سبتميوس على فراش الموت كانت نصيحته لأبنائه: «اجزلوا العطاء للجند، ولا تهتموا بالآخرين».

ومن أبرز أباطرة أسرة سبتميوس والتي استمرت في الحكم حتى عام ٢٣٥م، الإمبراطور كاراكلا Caracalla (٢١١ - ٢١٧م) ومن بين أهم أعماله إصداره لقانون المواطنة والذي بموجبه حمل جميع الناس الأحرار الجنسية الرومانية. وبهذه السياسة التي ألغت التمييز في المنزلة القانونية بين الناس الأحرار، فقد أكمل العوامل الأخرى التي كانت تربط أجزاء هذه الإمبراطورية وهي التجارة والأدب والتسامح. وبذلك تمكن أباطرة هذه الأسرة من أن تؤجل الكارثة التي حلت بالإمبراطورية إلى القرن التالي.

وفي خلال الخمسين عاماً التي تلت نهاية هذه الأسرة - أي حتى عام ٢٨٤م؛ أخذت المشاكل التي تعاني منها الإمبراطورية في التفاقم. فعلى سبيل المثال حكم خلالها ثمانية عشر امبراطوراً.وكان للصراعات الداخلية على العرش الامبراطوري أثرها المباشر على البنية الداخلية. وفي الفترة التي أعقبت الإمبراطور ڤاليريان تدخلت الفرق العسكرية في رفع قادتها في جميع أجزاء الإمبراطورية وحكموا ولايات كبيرة كحكام منفصلين لا يدينون بأي ولاء للمسيطر على العاصمة. وكان هذا من العيوب الإدارية التي كانت من

سار سقوط تلك الإمبراطورية حيث أصبح الحكام العسكريون يتحكمون في عرش وإقامة الأباطرة وانتقل هذا إلى الفرق العسكرية نفسها والتي سابقت في ذلك أيضاً

حاول الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ ٣٠٥م) معالجة هذا الخلل بما سحدثه من تقسيم السلطة فيما عُرِف بالنظام الرباعي وقسّم السلطة بين ...عة من الحكام يحكمون متضامنين أو مشاركين في أربعة عواصم، ثم ...حث عن إعطائهم قوة خياليه بإحاطتها بأبهة وعظمة شرقية والتي كان ...قصد ...سلالة وأصبح شخص الحاكم مقدساً أكثر من ذى قبل غير أن هذ النظام أدى أيضاً إلى صراع على السلطة ولم يحل المشاكل التى تعانى منها الإمبراطورية وتحول الأمر إلى مبدأ وراثة العرش وذلك فى النصف الأخير من القرن الرابع الميلادى، وبعد سقوط روما أو القسم الغربى من الإمبراطورية الرومانية انتقل هذا النظام إلى الإمبراطورية الرومانية الشرقية أو الدولة البيزنطية وبالرغم من ذلك فإن هذا التغيير لم يوقف الاتجاه نحو الانهيار وخاصة فى القسم الغربى

ثانياً العوامل الاقتصادية

الزراعة الصناعة التجارة الضرائب العملة

أخذت الأزمات الاقتصادية تعصف بالإمبراطورية الرومانية وذلك فى أواخر القرن الثانى ومن أسباب ذلك اعتمادها على العمالة اليدوية دون تطوير فى وسائل الصناعة أو اكتشاف مصادر جديدة للطاقة وكان العبيد هم عماد هذه الحياة الاقتصادية وارتبط ذلك ببساطة الإنتاج وسهولة تقليده أما التجارة فقد أدت إلى استنزاف ملحوظ للذهب وذلك باتجاه الشرق فلم ... ...دى روما ما تقايض به من منتجات مقابل البضائع الشرقية الفاخرة مما أدى إلى تصدع نظامها النقدى وعندما حاول الأباطرة معالجة ذلك بوسائل

عديدة منها تخفيض قيمة العملة، أو تزييف العملة وذلك بخلطها بالفضة أو النحاس وأدى ذلك في فترات كثيرة إلى إفلاس كثير من التجار وارتفاع الأسعار بصورة جنونية وحاول دقلديانوس جاهداً إصدار قانون في عام ٣٠١م بتحديد سعر كل سلعة على حده ولكنه لم ينجح في ذلك أما الضرائب فقد أخذت في الازدياد مع تناقص الأفراد الذين تحملوها وكانت نسبتها تتراوح ما بين ٢٪ إلى ٢٠ هذا بالإضافة إلى ما فرضته المدن من ضرائب على ما يرد إليها من المدن الأخرى. كانت هذه الضرائب تجمع عيناً بخلاف الضريبة الذهبية الفضية التي كانت تجمع نقداً

وفي مجال الزراعة. عانت الإمبراطورية من مشاكل نزوح العديد من صغار المزارعين إلى المدينة، بينما واصل العبيد العمل في الأرض والذين كانوا يعاملون معاملة سيئة للغاية يضاف إلى ذلك العوامل الخاصة بانتشار بعض الأوبئة مثل الملاريا والتي تركت أثرها المباشر على عماد الحياة الاقتصادية وخاصة الفلاحين وهكذا فقد بات واضحًا مدى تأثير هذه العوامل على ضعف وانهيار الإمبراطورية الرومانية

ثالثاً العناصر الجرمانية واستحواذها على السلطة الحقيقية

تكونت فئات السكان في الإمبراطورية من الطبقة الأرستقراطية والمتوسطة وكلاهما لم يشكلا عماد الفرق العسكرية فقد أحجم الأباطرة عن استخدام أفراد الأولى حتى لا يستولوا على السلطة، بينما كان أفراد الطبقة الثانية مشغولين بأعمالهم ولم يتبق سوى العبيد وبروليتاريا المدن والعناصر الجرمانية وهنا لجأ الأباطرة إلى استخدام هذه العناصر الأخيرة ضد بعضها البعض وفي البداية تم منحهم منبارات وأراضي مقابل ذلك حيث لم يشكل ذلك خطورة في ظل وجود حكومة قوية وقاعدة ثابتة للحكم غير أنه عندما حلّت عوامل الضعف الإدارية والسياسية وارتقى العرش جال لهم

طموحات من أبناء العشائر الجرمانية فإنهم سرعان ما انقلبوا على هؤلاء الأباطرة ويقول المؤرخ برايس أن تقسيم النصف الغربى من الإمبراطورية إلى ممالك منفصلة كان يمكن أن يتم قبل مائتى عام لو كانت هذه القبائل أكثر جرأة فى ذلك الوقت.

رابعاً- الأخطار الخارجية:

أحاط بالإمبراطورية العديد من العناصر، وكان من أبرز هذه الأخطار ذلك الصراع الدائم ضد الفرس الساسان والذى استمر إلى ما يقرب من أربعة قرون من الزمان وحلت بالرومان هزائم عديدة فى أثناء هذا الصراع بل راح ضحيته بعض الأباطرة مثل فاليريان الذى وقع فى الأسر عام ٢٩٥م، وجوليان الذى مات بعد معركة وراء نهر دجلة فى عام ٣٦٣م. أما العناصر الجرمانية فقد أخذت فى الاندفاع عبر حدود الإمبراطورية مثلما حدث فى عامى ٢٣٥م، ٢٥٦م عندما أغار الفرنجة على أراضى الراين الأعلى، كما اجتاح القوط إقليمى داشيا ومواشيا فى عام ٢٥١م، وكذلك الألمانى فى عام ٢٥٨م حيث اندفعوا نحو سهل البو فى شمال إيطاليا. وفى الوقت الذى كان فيه الأباطرة يهتمون بالجزء الشرقى من الإمبراطورية تركوا الجزء الغربى منها يحدد مصيره هؤلاء الجرمان، والذين تمكنوا بالفعل من إسقاط روما فى عام ٤١٠م وعزل أخر الأباطرة الرومان فى هذا القسم الغربى عام ٤٧٦م وحلّت ممالك عديدة محله

خامساً- إهمال روما كعاصمة:

ظلت روما عاصمة لهذه الإمبراطورية الضخمة لعدة قرون واستطاعت أن تنافس أزهى المدن فى تلك العصور. وكان لموقعها الاستراتيجى فى ظل تلك الإمبراطورية القديمة ملائمًا، وكان حرص الأباطرة على أن تؤدى جميع طرق الإمبراطورية إلى هذه العاصمة.-ولكن لعوامل الضعف الإدارية

والسياسية والأخطار الخارجية التى تعرضت لها الإمبراطورية، أخذ الأباطرة فى البحث عن مواقع لعاصمة جديدة. فكان التقسيم الإدارى الذى بدأه دقلديانوس أن أوجد أربعة أقسام إدارية كان لكل منها عاصمة إدارية. وبرزت أهمية نيقوميديا فى الشمال الغربى من آسيا الصغرى على بحر مرمرة، وكذلك ميلان أو ميلانو التى أصبحت مركزاً هاماً للجيوش الإمبراطورية لصد الهجمات من غالة أو ألمانيا. وتعرضت روما للخطر حيث تقدمت مجموعة من البرابرة في حوالي عام ٢٦٨م حتى أنها أصبحت على بعد حوالى سبعين ميلاً. وهنا يهتم الإمبراطور أورليان Aurelian بوقف هذا الخطر من ناحية، وتحصين روما ضدهم إذا ما عادوا مرة أخرى. ولاحظ المؤرخ زوسيموس Zosimus ذلك فقال: «إنها كانت المرة الأولى أن يكون لروما أسوارا». وبطبيعة الحال فقد كان لروما أسوار ولكنها لم تكن بحاجة إليها قبل ذلك.

سادساً: الاستشراق:

يرى بعض المؤرخين أن الاستشراق كان سبباً من أسباب سقوط الإمبراطورية الرومانية فقد تسربت روح جديدة وحضارة من الشرق إلى الكيان الرومانى مما أدى إلى تخلى الناس عن الاهتمام بأمور هذا العالم الروحانى. كما نتج عن ذلك فقدان العناصر القيادية الحقة. وفى هذا المجال انتقلت أيضاً ديانات من الشرق فى ظل الفراغ الروحى الذى كان يعانى منه الغرب، ومنها عبادات إيزيس وسيرابيس والفلسفات مثل الأفلاطونية السكندرية الجديدة، وساعد على انتشارها أنها ربطت بين معتقدات مدارس كثيرة وربطها بين غموض مصر والشرق والفلسفات اليونانية. وكان ذلك مقدمة لانصراف كثير من الناس عن عبادة الإمبراطور والتى كانت تقوم عليها وحدة الإمبراطورية آنذاك.

سابعاً تمرد الجماهير

يرى المؤرخ ... وهو من أكبر مؤرخي هذه الإمبراطورية - أن تمرد الجماهير كان سبباً في نهايتها فقد وصل أفراد من الطبقات الدنيا من الكادحين والعبيد إلى أعلى المناصب بل وتمكنوا من السيطرة على الحين والحكومة وتحدهم في تشكيل حرس أغسطس أو البرايتوريز Praetorians الذين كانوا ... من أشجع الفرق الحدودية وخاصة من الجرمان، ووصل هؤلاء في القرنين الثالث والرابع إلى المناصب العليا، ولم يكن لديهم صورة واضحة عن المثل الأعلى الإمبراطوري، بل إنهم عجزوا عن فهم تقاليد الصفوة التي عرفها العالم القديم

ثامناً التدهور الأخلاقي

أدان سالقيان أحد رجال الكنيسه في القرن الرابع الحياة الفاسدة التي عاشها هؤلاء الرومان وبالفعل فقد تفشت الدعارة والشذوذ الجنسي في هذا العالم الروماني والذي لاشك أنه ترك أثره على الإمبراطورية ولم يقتصر ذلك على المستوى الشعبي بل وصل إلى الطبقه الحاكمة ذاتها ولا شك أن هذه النظريه تندرج في ظل العوامل الاجتماعيه التي تؤثر على انهيار الإمبراطوريات من ناحيه، وكعقاب إلهي من ناحية أخرى

تاسعاً الاختلافات الحضارية واللغوية

ضمت هذه الإمبراطوريه بين دفتيها العديد من الحضارات المتباينة في اللغة والجنس وكانت أسبق منها في هذا المجال ولكنها كانت قد اختفت عند استيلاء روما عليها وفي الفتره الأخيره ظهرت هذه الاختلافات على السطح مره أخرى فلم تقم روما بتجميع سطحي لهذه الحضارات خاصة في شرق البحر المتوسط حيث ظل غالبيه السكان متمسكين بشخصيتهم اللغوية والدينيه التي ترجع في أصلها إلى عده قرون وبعبارة أخرى لم تستطع روما

أن تتغلب على هذه الحضارات كما حدث فى غالة والجزيرة البريطانية. وأبرز دليل على ذلك أنه على الرغم من أن الرومان ظلوا بالجزيرة البريطانية لمدة أربعة قرون، إلا أنها سرعان ما انسلخت بعد انسحاب آخر حامية رومانية منها.

عاشراً: ظهور المسيحية وانتشارها:

اعتمدت الإمبراطورية الرومانية على عبادة الإمبراطور كديانة رسمية وخاصة منذ أوغسطس الذى أضفى عليه صفات شبه مقدسة وخارقة بعد وفاته. وفى ظل الفراغ الروحى الذى عانى منه الناس، بدأوا فى البحث عن ديانة تضمن لهم الخلاص الفردى. فاليهودية كان أتباعها نادراً ما يقومون بنشاط تبشيرى، كما أنها كانت ما تزال غير واضحة فى مفهوم الحياة الأخرى. كما أن الفلسفات وخاصة الأفلاطونية صعب على الغالبية قبولها حيث طالبت أتباعها بالبحث عن إله بنفسه. أما العبادات الشرقية فقد كان يحيط بها العديد من الطقوس السرية، كما أن عبادة «مثرا» لم تسمح للنساء بالمشاركة فى العبادة.

وهكذا كان الناس بحاجة إلى ديانة عالمية، تدعو لعبادة إله واحد وهو ما جاءت به المسيحية ولم يكن الأمر سهلاً أمام هذه الديانة الجديدة فى ظل هذا الكم الهائل من الديانات والفلسفات وفى ظل موقف الأباطرة منها حيث وجدوا فيها تهديداً خطيراً لوحدة العالم الرومانى. ولكنها لم تيأس وقاومت الاضطهاد حتى نجحت فى الحصول على اعتراف رسمى بها فى عهد قسطنطين وذلك فى مرسوم ميلان. وهكذا فقد أصبح تدهور هذا العالم الرومانى وانحلاله يسير فى خط مواز لنهوض الكنيسة المسيحية وانتصارها.

قائمة بالمراجع الهامة للتاريخ البيزنطى

(المقدمة والفصل الأول)

للمزيد من المعلومات عن التاريخ الأوروبى الوسيط يمكن للقارئ أن يستخدم هذه القائمة من الكتب والتى تتناول كثيراً من موضوعات هذه الفترة، كما يجد بها قائمة لأهم المراجع المتخصصة.

1. L. J. Pactow, Guide to The Study of Mediaveal History, New York, 1931.

2. J. W. Thompson, Refernce Studies in Medieval History, 3 vols., Chicago, 1925 - 30.

قائمة المراجع الموجودة فى مجموعة كامبردج للتاريخ الوسيط وتتناول مجموعة من المراجع المتعلقة بالتاريخ الوسيط، وكذلك مجموعة من المقالات المتعلقة بالجوانب الحضارية.

3. J. W. Thompson, Middle Ages, 2 vols. (New York, 1932).

ويتناول العديد من الفصول المتعلقة بالفنون، والخطابات والأحوال الاجتماعية.

4. J. L. La Monte, The World of The Middle Ages, (New York, 1949).

ويتناول العديد من الجوانب وخاصة ما يتعلق بالدولة البيزنطية والمناطق الملاصقة لها.

ثانياً: مجموعة مراجع ملحق بها وثائق ومواد أخرى:

1. Translations and Reprints from the Original Sources of European

History, University of Pennsylvania Press, (Philadelphia, 1897ff).

2. E. F. Henderson, Select Historical Documents of the Middle Ages, (London, 1896).

3. O. J. Thatcher and E. M. McNeal, A Source Book of Mediaeval History (Boston, 1904).

4. R. C. Cave and H. H. Coulson, A Source Book for Mediaeval Economic History (Milwauke, 1936).

مراجع هامة للموضوع الأول: التعريف بالإمبراطورية الرومانية وضعفها

The Cambridge Ancient History.

- يمكن للقارئ الرجوع إلى مجموعة كامبردج فى التاريخ القديم. حيث تتناول أجزاء منها تاريخ الإمبراطورية الرومانية، وبها قائمة من المراجع المتعلقة بهذا الموضوع.
- مجموعة أخرى من الدراسات والمقالات عن أوجه معينة فى الحضارة القديمة يمكن مراجعة كل من:

1. The Legacy of Greece, ed. by R. W. Livingstone (Oxford, 1921).

2. The Legacy of Rome, ed. by Bailey (Oxford, 1923).

أفضل المراجع التى تناولت الجوانب الاجتماعية والاقتصادية للإمبراطورية الرومانية هو:

3. M. J. Rostoutzeff, The Social and Economic History of The Roman Empire, (Oxford, 1926).

كما أن الفصل الذى كتبه C. E. Stevens فى كامبردج «التاريخ الاقتصادى»، الجزء الأول، يعتبر من أفضل ما كتب عن الزراعة فى الإمبراطورية الرومانية.

4. A, M. H. Jones, The Decline of The Ancient World, (London, 1966).

5. S. Dill, Roman Society from Nero to Marcus Aurelius (London, 1925).

6. T. R. Glover, The Conflict of Religions in the Early Roman Empire, (London, 1910).

7. S. Kats, The Decline of Rome and The Rise of Mediaeval Europe. (New York, 1955).

8. A. H. M. Jones, The Decline of the Ancient World, (New York, 1966).

وتوجد مجموعة من المراجع العربية والمعربة تتعلق بهذا الفصل منها على سبيل المثال لا الحصر:

١ - بينز، الإمبراطورية الرومانية، ترجمة حسين مؤنس ومحمود زايد.

٢ - إدوارد جيبون، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ٣ أجزاء.

٣ - روستزفتزف، تاريخ الإمبراطورية الرومانية، ترجمة زكى على.

٤ - فشر، تاريخ أوروبا فى العصور القديمة، ترجمة إبراهيم نصحى ومحمد عواد، القاهرة، ١٩٥٠.

الموضوع الثاني

آراء ونظريات حول بداية

التاريخ البيزنطي

آراء ونظريات حول بداية التاريخ البيزنطي

- مقدمة - تقسيم العصور الوسطي إلي فترات زمنية.
- عصر الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤- ٣٠٥).
- عصر الإمبراطور قسطنطين الكبير (٣٠٥- ٣٣٧).
- جوليان الكافر أو المرتد (٣٦١- ٣٦٣).
- اعتناق القوط الغربيون للمسيحية.
- معركة إدرنة ٣٧٨.
- ثيودسيوس الكبير ٣٧٩- ٣٩٥.
- تقسيم الإمبراطورية الرومانية ٣٩٥.
- اغتيال ستيلكو وسقوط روما ٤٠٦- ٤١٠.
- عزل رومولوس أوجستولس ٤٧٦.
- ما بعد جستنيان ٥٦٥.
- تتويج شارلمان إمبراطوراً ٨٠٠.
- خاتمة.

الموضوع الثانى
آراء ونظريات حول بداية التاريخ البيزنطى

مقدمة:

تعددت آراء المؤرخين حول بداية التاريخ البيزنطى، ويعتمد كل مؤرخ فيما يقدمه لنا من رؤى أو نظرية على أسانيد مختلفة لذلك فمنهم من أخذ بعهد إمبراطور، أو معركة من المعارك الفاصلة، أو صراع بين الوثنية والمسيحية، ومجمل هذه الآراء هي:

أولاً: عصر الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥م):

يرى بعض المؤرخين أن عهد الإمبراطور دقلديانوس هو البداية الحقيقية للتاريخ البيزنطى وذلك بما قدمه من إصلاحات فى مجالات عديدة، وكذلك موقفه من المسيحيه. فقد جعل من نفسه فى حمى چوبيتر كبير الآلهة وسمى نفسه Jovius أى المنتمى إلى چوبيتر، وجعل شريكه ماكسيميان تحت حماية هيراكليس بن چويتر وأطلق عليه Heraclius أى المنتمى لهيراكليس. وذلك فى محاولة منه لمقاومة انتشار المسيحية آنذاك. ولم يقتصر دوره على ذلك بل اضطهد المسيحيين حيث وصل ذروة ذلك فى عام ٣٠٣م حتى أنه أطلق عليه سفاح المسيحيين وعلى عصره عصر الشهداء. ولم تنجح محاولاته فى وقف انتشار المسيحيه مما سيؤدى إلى اختلاف نهج خلفه قسطنطين نحوها. كما كان لإصلاحاته فى المجال الإدارى أثرها على بدء انقسام الإمبراطورية ونقل العاصمة من روما. ولهذا يرى بعض المؤرخين فى عصره بداية للتاريخ الأوروبى الوسيط.

ثانياً: الإمبراطور قسطنطين الكبير أو العظيم (٣٠٥ - ٣٣٧م):

يميل كثير من المؤرخين إلى اعتبار عهد قسطنطين الكبير بداية للتاريخ البيزنطى لأمرين هامين:

الأول: الاعتراف بالمسيحية كأحد الديانات الرسمية فى الإمبراطورية:

وذلك بموجب مرسوم ميلان أو ميلانو فى عام ٣١٣م Edict of Milan واستطاعت المسيحية أن تصبح ديانة رسمية جنباً إلى جنب مع الوثنية. وبهذه الخطوة انهارت إحدى الأسس التى كانت تقوم عليها الإمبراطورية ألا وهى عبادة الإمبراطور. وكما يقول برايس أن المفهوم كان قبل ذلك «أن تكون رومانياً يعنى أن تكون مسيحياً. ولكن سرعان ما أصبح المفهوم أن تكون مسيحياً يعنى أن تكون رومانياً».

الثانى: بناء القسطنطينية أو روما الجديدة أو الثانية:

ويرتبط ذلك بالخطوة السابقة. فقد جسد قسطنطين بذلك البناء عاصمة إمبراطورية جديدة حيث تتفوق المسيحية تفوقا لا يقبل التحدى. وأدى انتقال الأباطرة إلى هذه العاصمة الجديدة إلى ازدياد طمع الجرمان فى حاضرة الرومان القديمة. كما انفرد أسقف روما بالزعامة حيث أصبحت مقراً للبابوية فيما بعد، فى الوقت نفسه حاول هؤلاء البابوات وراثة مكانة العاصمة القديمة مما سيؤدى إلى أحد الملامح الرئيسية للعصور الوسطى وهو صراعهم مع الأباطرة حول من يكون له السيادة على العالم المسيحى بأسره.

ثالثاً: چوليان الكافر أو المرتد Julian The Apostste (٣٦١ - ٣٦٣م):

يأخذ فريق آخر من المؤرخين بأن عهد هذا الإمبراطور يصلح لأن يكون بداية للتاريخ البيزنطى خاصة لموقفه تجاه الوثنية. ففى الوقت الذى كانت فيه المسيحيه تسير نحو التفوق والسيادة، حاول هذا الإمبراطور وقف ذلك. وفى بداية حكمه أصدر مرسوما للتسامح، ولكنه منع رجال الدين المسيحيين من إلحاق الأذى بالوثنيين. ثم سرعان ما بدأ فى اضطهاد المسيحيين مثل منعهم من العمل فى التعليم، وإبعادهم عن وظائف الجيش والإدارة. وأخذ يصرف ببذخ لإعادة المعابد الوثنية إلى سابق عهدها. وكذلك إجبار المسيحيين على دفع تعويضات عن الأراضى التى أخذوها من الوثنيين، ومن لم يستطع

الدفع أباح للمدين حرية التصرف فيه، ونتج عن ذلك الكثير من أعمال التنكيل مثلما حدث فى معبد دافنى بأنطاكية وفى الإسكندرية. غير أنه بمقتل چوليان انتهت محاولات إعادة الوثنية وبات واضحاً أن المسيحية أصبحت الديانة الرسمية. فتم مصادرة المعابد الوثنية وكان آخرها ما شيده القديس بندكت فى عام ٥٢٩م فوق أنقاض معابد أبولو.

رابعاً: اعتناق القوط الغربيون للمسيحية:

تحرك القوط الغربيون تحت ضغط عناصر الهون والتى أثارت الرعب طوال تحركاتها. وتمكن القوط من الحصول على موافقة الإمبراطور فالنز (٣٦٤- ٣٧٨م) على السماح لهم بالعبور داخل حدود الإمبراطورية لكى يتخذ منهم ساتراً ضد الهون. ونتيجة لجهود المبشر القوطى أولفيلاس Ulfilas استطاع إقناع قومه بالمسيحيه. ولكن القوط اعتنقوا المسيحيه على المذهب الأريوسى، وحذا حذوهم أيضا قبائل الوندال والبرجنديين واللمبارديين بخلاف الفرنجة. وكان لذلك آثار هامة فى التاريخ الأوروبى الوسيط وفى علاقة هذه الجماعات الجرمانية بالشعوب الأوروبية.

خامساً - معركة أدرنة Adrianpole عام ٣٧٨م:

استقر القوط بعد السماح لهم بعبور حدود الإمبراطورية في إقليمى تراقيا ومواشيا. ولكهنم لم يتحملوا العيش فى هذه المناطق فبدأوا التوسع على حساب الإمبراطورية مما أدى إلى صدام مباشر فى معركة أدرنة وذلك فى عام ٣٧٨م حيث انتهت بمقتل الإمبراطور وهزيمة الرومان. وتعددت آراء المؤرخين حول أسباب الهزيمة، فيذكر كوبجزبرج أن ذلك مرجعه إلى الثقه المفرطة من فالنز وكذلك أخطاء تكتيكية. وبالفعل كان القوط قد استخدموا خيالتهم الثقيلة ضد الجيوش الرومانية الراجلة. وعلى أية حال، فقد نتج عن هذه المعركة نتائج هامة منها القضاء على أكثر من ثلثى الجيش الرومانى، كما قضى على الإمبراطور نفسه فى المعركة. ويذكر أحد المؤرخين أنه لم يضع حدا لتلك الكارثة سوى حلول الليل.

ويأخذ بهذا الرأى المؤرخ إدوارد جيبون حيث يعتبرها من المعارك الفاصلة، ما بين التاريخ القديم وبداية التاريخ الوسيط. ويضيف كانتور أنه على الرغم من أن الضرر المباشر لها كان ضعيفاً، إلا أنها أظهرت أنه بمقدور أى قبيلة جرمانية أن تهزم جيشاً رومانياً. وكانت هذه الحقيقة المشئومة هى بمثابة جرس الموت للسلطة الرومانية.

سادساً: حكم ثيودسيوس الكبير (٣٧٩- ٣٩٥م)

: Theodosius I, The Great

كان من أبرز ما قدمه هذا الإمبراطور هو تحسين علاقته بالقوط بعد هزيمة ومقتل فالنز. ونجح بفضل مهارته السياسية فى كسب ولاءهم من ناحية، والقضاء على بدعة آريوس من ناحية أخرى. كما كان عهده يمثل مرحلة هامة فى العلاقة بين الكنيسة والإمبراطورية. فقد عاصره القديس أمبروز والذى تمكن من التصدى لثيودسيوس العظيم مرتين وألجأه إلى التسليم والتوبة حتى أنه يستشهد به فى الصراع ما بين القوتين الزمنية والروحية فى التاريخ الوسيط. ومن ناحية أخرى أصبحت المسيحية فى عهد هذا الإمبراطور هى الديانة الرسمية.

سابعاً: تقسيم الإمبراطورية إلى قسمين شرقى وغربى (٣٩٥م):

اتجهت الإمبراطورية فى الغرب نحو الإنهيار وذلك بما أحدثه ثيودسيوس قبل وفاته من تقسيمها إلى قسمين أحدهما شرقى، جعله لابنه أركاديوس Arcadius (٣٩٥- ٤٠٨م)، والآخر فى الغرب لابنه هونوريوس Honorius (٣٩٥- ٤٢٤م). ويذكر كانتور أنهما اتصفا بالحماقة والطيش حيث أحاط بهما مجموعة من رجال البلاط المرتشين العاجزين عن معالجة الموقف الخطير الذى أمست فيه هذه الإمبراطورية. وفى نفس الوقت اعتلى حكم القوط الغربيين واحد من أكثر زعماء الجرمان طموحاً هو آلاريك الجسور Alaric The Bold. وبهذا التقسيم تأكد اتجاه القسم الغربى إلى

نهايته المحتومة وجعله فريسة لأطماع تلك العناصر الجرمانية والتى ازداد طمعها بعد معركة أدرنة.

ثامناً: اغتيال ستيلكو وسقوط روما (٤٠٦ - ٤١٠م):

يرى كانتور أن عام ٤٠٦م يمثل حدثاً هاماً فى تاريخ الغزوات الجرمانية. فقد اغتيل ستيلكو Stilicho قائد الجيش الإمبراطورى فى هذا العام والذى كان له الفضل فى وقف تقدم قوات القوط إلى إيطاليا فى الوقت الذى كان فيه الإمبراطور قد فر إلى قلعة رافنا المنيعة. ولكنه بحماقته وافق على اغتيال ستيلكو بأيدى الأرستقراطيين الحانقين مما جعل الطريق مفتوحاً أمام القوط للتقدم نحو روما عاصمة الإمبراطورية. وبالفعل نجح آلاريك فى دخولها واحتفظ بها لعدة أيام لإجبار الإمبراطور على اعطائه موطناً يستقر فيه مع جماعته. ولا شك أن سقوط روما تلك المدينة التى فاقت غيرها من المدن الأخرى فى مجدها وثروتها وشهرتها والتى صمدت قروناً عديدة وكانت حاضرة لإمبراطورية متخمة وضع نهاية لعصر هذه الإمبراطورية وبداية لفترة تاريخية هى التاريخ الوسيط.

تاسعاً: عزل رومولس أوجسطولس Romulus Agugustulus عام ٤٧٦ :

كان آخر انتصار يحرزه جيش يحمل شارة الإمبراطورية هو ما تم فى معركة شالون Cholons فى غالة عام ٤٥١م. فقد أنقذت هذه المعركة الغرب الأوروبى من غزو الهون بقيادة آتيلا Attila والتى كان عدد ضحاياه ما يقرب من ١٦٠ ألفا واعتبرها أحد المؤرخين أنها نقطة تحول فى الصراع مع الهون ولكنها لم تؤثر فيهم لأن أتيلا توجه إلى غزو إيطاليا فى العام التالى، ولم ينقذها سوى انتشار وباء الطاعون بين جيشه ووفاته المفاجئة فى عام ٤٥٣م مما أنقذ الغرب من مزيد من الدمار الذى ألحقه الهون بالمناطق التى مروا بها.

وأخذت الإمبراطورية فى الغرب فى التدهور وذلك بوفاة آخر إمبراطور

من سلالة أسرة ثيودسيوس فى عام ٤٥٥م. وفى عام ٤٧٦م نجح أدوفاكر Odovacar القائد الجرمانى من عزل آخر الأباطرة الرومان وأرسل شارات الإمبراطورية إلى الإمبراطور زينو Zeno الجالس على عرش الإمبراطورية البيزنطية واكتفى بأن حمل لقب «ملك الجرمان فى إيطاليا». وبذلك تم عزل آخر الأباطرة الرومان فى الغرب وببدء صفحة جديدة فى هذا الجزء الغربى يتأكد فيه تماماً انهيار هذه الإمبراطورية الرومانية القديمة حيث لم يعد ممثلا سوى الأباطرة فى القسطنطينية.

عاشراً: عصر الامبراطور جستنيان: (٥٢٧- ٥٦٥)

على الرغم من أن جستنيان يعد مؤسس أحد الأسرات التى عرفت فى التاريخ البيزنطى باسمه، إلا أن بعض المؤرخين يرون أن عهده كان يعتبر آخر المحاولات لاحياء الامبراطورية الرومانية القديمة. فقد سعى لجعل نفسه إمبراطورا مطلقاً فى حكمه، وعمل بكافة الوسائل والسبل من أجل اعادة امجاد الامبراطورية الرومانية القديمة. فقام بتكوين جيش قوى لتحقيق طموحاته الخارجية، كما نجح فى جمع وتسجيل مجموعة القوانين الرومانية القديمة، بالإضافة إلى سياسة التشييد والبناء التى ازدهرت فى عهده ونتج عنها مجموعة من الآثار الباقية مثل كنيسة سانت صوفيا وكنيسة الرسل المقدسين ودير سانت كاترين فى سيناء وغيرها. كما حرص على محاولة القضاء على النزعات الدينينة الانفصالية وتوحيد المذهب الدينى المسيحى وذلك لارتباطه بمحاولات نشر النفوذ السياسى والعسكرى.

وعلى الرغم من هذه الجهود التى بذلها جستنيان فى محاولة إعادة الإمبراطورية، إلا أنها لم تنجح وذلك بسبب استنفاد موارد الدولة مما اضطره إلى فرض المزيد من الضرائب وأخذت الكوارث تحل على بعض المناطق مثل انتشار القحط والأوبئة والأمراض فكان ذلك كله سبباً فى عدم تحقيق أهدافه وانهيار الامبراطورية التى كونها بعد وفاته وعودتها إلى الاتجاه نحو الانفصال عن الجزء الغربى.

حادى عشر: عصر ليو الأيسورى (٧١٧- ٧٤٠):

يتخذ بعض المؤرخين من عهد الامبراطور ليو مؤسس الأسرة الآيسورية بداية للتاريخ البيزنطى وذلك للعديد من الأسباب ومن بينها، ثبات حدود تلك الامبراطورية بصفة عامة، ظهور الحملة على الأيقونات أى تحطيم الصور والتماثيل وما حدث من رد فعل من جانب البابوية تجاه هذه الحركة وعلاقتها بالامبراطورية البيزنطية. وكذلك ما عرف بالحركة المونوفيزية التى أدت إلى أنفصال مصر والشام وأعالى العراق عن الدولة البيزنطية، والأخيرة عن الغرب الأوروبى. ولذا فقد أخذت الامبراطورية البيزنطية تبعد شيئاً فشيئاً عن الغرب الجرمانى، وتباعدت بينهما الحواجز الحضارية واللغوية والمادية والمذهبية، بالإضافة إلى التباين الاقتصادى والإجتماعى. ولهذه الأسباب نظر بعض المؤرخين إلى عصر ليو الآيسورى على أنه يمكن أن يكون بداية لتاريخ الإمبراطورية البيزنطية.

ثانى عشر: عصر الإمبراطور شارلمان (٧٦٨- ٨١٤):

خاض شرلمان العديد من الحروب فى فرنسا ووسط أوروبا وجنوب إيطاليا، فضلاً عن حروب ضد العرب فى أسبانيا وذلك بهدف إعادة مجد الامبراطورية الرومانية مرة أخرى. وقد ساعدته الظروف عندما سارع بتلبية دعوة البابا أوربان الأول (٧٧٢- ٧٩٥) ضد ملك اللمبارديين، ونجح فى ذلك مما أدى إلى تخلص البابوية من تبعيتها الأسمية لبيزنطة، واقتصر النفوذ البيزنطى على أبوليا وكالابريا فى جنوب إيطاليا، بالإضافة إلى صقلية، وعاد شرلمان مرة أخرى إلى إيطاليا لنجدة البابا ليو الثالث (٧٩٥- ٨١٦) فى عام ٨٠٠م، وتمكن من نجدته، واعترافا له بالفضل ألبسه البابا التاج فى ليلة عيد الميلاد. وأصبح بموجب ذلك وجود امبراطور فى الغرب الأوروبى، وآخر فى الامبراطورية البيزنطية مما أدى إلى انفصالها عن بعضها. ومنذ ذلك الحين أصبحت توجد إمبراطورية غربية بجانب الامبراطورية الرومانية الشرقية، أو البيزنطية على وجه أدق.

ويفترض بعض المؤرخين أمثال نورمان بينز أن هذه النظرية ليس لها تأثير واضح على التاريخ البيزنطى فقد كانت الامبراطورية البيزنطية قد تأسست وأصبح لها حدودها ولها ديانتها، وتأسست مدينة القسطنطينية وانتقل إليها الأباطرة مما يؤكد وجود دولة فى الشرق لها حضارتها ونظمها فى الدين والسياسة والاقتصاد ومشاكلها الخاصة بها بخلاف الحال عما هو عليه فى الغرب الأوروبى.

الخلاصة:

من خلال ما سبق يتضح لنا أن هناك العديد من النظريات والآراء التى تناولت بداية التاريخ البيزنطى وهى ترتبط إما بانشاء مدينة القسطنطينية أو تقسيم الامبراطورية الرومانية إلى قسمين شرقى وغربى، أو بالاعتراف بالمسيحية ضمن الأديان الرسمية فى الامبراطورية الرومانية القديمة أو كدين رسمى فيما بعد، أو يتولى أحد الأباطرة الذين كان لهم بصمة واضحة فى التاريخ البيزنطى. وفى النهاية فاننا لا تستطيع أن نرجح رأى على آخر أو نظرية على أخرى لأن كل منها له أدلة يستند عليها. والخلاصة أن التاريخ البيزنطى على الأرجح يبدأ فى القرن الرابع الميلادى.

الموضوع الثالث

عصر الإمبراطور دقلديانوس

(٢٨٤ - ٣٠٥م)

ومحاولات الإصلاح

عصر الإمبراطور دقلديانوس ومحاولات الإصلاح

- مقدمة
- الإصلاحات الإدارية
- الإصلاحات الاقتصادية.
- الإصلاحات العسكرية.
- موقفه من الكنيسة.
- أسباب فشل محاولات الإصلاح.

الموضوع الثالث

عصر الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥م)

ومحاولات الإصلاح

تعاقب على حكم الإمبراطورية الرومانية ثمانية عشر إمبراطوراً فى خلال الخمسين عاماً (٢٣٥ - ٢٨٤م) التى سبقت حكم الإمبراطور دقلديانوس Diocletion (٢٨٤ - ٣٠٥). بل إننا نجد أنه تعاقب على العرش اثنان من الأباطرة فى نفس العام الذى حكم فيه دقلديانوس وهما كارنيوس Carinus ونيومريان Numerian. وكان هذا أحد أوجه الاضطراب الذى عانت منه الإمبراطورية الرومانية. ويرى المؤرخ برايس أنه كان يمكن أن تسقط روما قبل سقوطها بقرنين لو كانت القبائل البربرية على الحدود أكثر جرأة، ولو لم يكن قد ظهر دقلديانوس ذلك الأمير النشط والماهر بشكل كان أقدر على ربط أجزاءها قبل أن تفقد التماسك وواجه الظروف المتغيرة بعلاج جديد، سلك دقلديانوس طريق الجندية ووصل إلى مرتبة القنصل ثم إلى قيادة حرس القصر وهى وظيفة خطيرة. وتجلت كفايته فى حرب فارس. وبعد موت نيومريان اعترف منافسوه بأنه أجدر شخص يتولى الحكم. وتجلت مواهبه باعتراف أعوانه قبل أصدقائه.

محاولات الإصلاح:

وضع دقلديانوس نصب عينيه ثلاثة أهداف يرى تحقيقها وهى: تقوية نفوذه، إعادة تنظيم الجهاز الحكومى، وتجديد نظام الجيش.، وبدأ بإقرار الأمن والنظام فى مختلف الولايات وذلك بإخضاع الثورات وصد هجمات البرابرة على امتداد جبهتى الراين والدانوب. كما واجه هجمات الفرس سنة ٢٩٧م.

أما فى المجال الإدارى: فقد أعاد تنظيم الجهاز الحكومى، كما قضى على التفرقة بين الولايات الإمبراطورية وولايات السناتو. كما قسم الإمبراطورية إلى أربعة أقاليم إدارية كبرى على رأس كل منها حاكم إدارى

عام يتمتع بلقب أوغسطس أو قيصر والحكام الأربعة حكموا متضامنين أو مشاركين معاً فى غالة وإيطاليا واللّيريا والشرق. واحتفظ قسطنطين بالإقليم الأخير، وجعل من نيقوميديا مركزاً له، هذا فضلا عن إحتفاظه بلقب الإمبراطورية ووظيفتها. كما كان بيده السلطة العليا فى الإمبراطورية والإشراف العام على جميع شئونها كما كان القائد الأعلى للجيش وبعبارة أخرى فإنه ظل من الناحية العملية يقبض على زمام الأمور فى الإمبراطورية. وللمزيد من إحكام قبضته فقد تم تقسيم الأقاليم الأربعة الكبرى إلى سبعة عشر وحدة أصغر، ثم قسمت هذه إلى مائة ولاية وولاية. وتم تعيين حكام ونواب وتسلسل هؤلاء فى المسئولية حتى دقلديانوس الذى كان مسئولا عن سلطة تعيينهم أو عزلهم.، وبهذه الطريقة أراد دقلديانوس أن يعالج الخلل الإدارى الذى استشرى فى جسد الإمبراطورية وأن يحكم قبضته ويقضى على الفساد بها. ويذكر كانتور أنه أقام هذا النظام المركزى على غرار النظام المصرى القديم. ويضيف جيبون أن السلطة فى هذا النظام امتدت على المملكة بأسرها، وكان كل منهم على استعداد تام لمعاونة زملائه بمشورته أو بحضوره، لقد كانوا أشبه بفرقة موسيقية نجح قائدها فى إيجاد التناسق والانسجام بينها.

أما فى مجال الإصلاح الاقتصادى: فقد حاول إدخال إصلاحات على النظم المالية والضرائب لكى يتم توزيعها بصورة عادلة. فقام بإصدار عملة جديدة تعالج ما أصاب العملة من تزييف وخلط معادن بأخرى أقل منها. كما فرض تسعيرة جبرية على السلع الأساسية. كما تم مسح شامل للأراضى الزراعية لتقدير الضرائب عليها. ويبدو أن المتاعب الاقتصادية التى كانت تعانى منها الإمبراطورية أقوى من هذه الإصلاحات التى قام بها دقلديانوس فلم يظهر أثرها جلياً. ولكنها على أى حال أوقفت مؤقتاً أنهيار الإمبراطورية.

وفى النواحى العسكرية: حرص دقلديانوس على إنشاء قوات متحركة

لرد الهجمات عند الحاجة إليها. فضلا عن الاهتمام بالحرس الإمبراطورى. كما وجه اهتمامه إلى القلاع وأبراج المراقبة والطرق التى تسهل سرعة تحرك هذه القوات. كما إستخدم قوات من المرتزقة من الجرمان لحاجته إليها حتى أن منهم من تدرج فى مناصبه حتى وصلوا إلى المراتب العليا فى الجيش الرومانى على الرغم من أصولهم الجرمانية وهو ما أدى أيضا إلى ازدياد معرفتهم بأحوال الإمبراطورية فيما بعد.[٤] وهذه الخطوات كان من شأنها حماية الإمبراطورية من الأخطار الخارجية التى تعرضت لها فى عصر دقلديانوس وأجلت إلى حين سقوطها.

موقفه من المسيحيه:

أما عن موقفه من أهم المشاكل التى واجهتها الإمبراطورية وهى انتشار المسيحيه، فلم يبدأ دقلديانوس بالاضطهاد فى بداية عهده وذلك لأن زوجته وابنته كانتا مسيحيتين، بل يذكر أيضا أنه كان هناك مسيحيون من بين خدمه. ونظراً لأن وحدة العالم الرومانى آنذاك كانت تقوم على مبدأ عبادة الإمبراطور فقد أراد دقلديانوس التقريب بين الوثنية والمسيحية فجعل نفسه فى حمى جوبيتر كبير الآلهة وسمى نفسه Jovius أى المنتمى لجوبيتر. أما شريكه فى الحكم ماكسيميان فقد جعله تحت حماية هيراكليس ابن جوبيتر وأسماه Heraclius أى المنتمى لهيراكليس.

ولكن ذلك لم يجد قبولا لدى المسيحيين، بالإضافة إلى التعصب الذى كان لدى جاليريوس القيصر وذلك عندما بدأ اضطهادهم فى عام ٢٩٦م.

وبدأ بتطهير الجيش والإدارة من المسيحيين، ثم ألقى باللوم على المسيحيين فى الحريق الذى شب فى القصر الإمبراطورى والذى ربما تم بإيعاز منه لاستكمال المخطط ضد المسيحيين. وبدأ الاضطهاد فى عام ٣٠٣م واشتدت وطأته فدمرت الكنائس وأحرقت الكتب المقدسة وتم حجز وسجن الأساقفة ،وألزم المسيحيين بعبادة الأوثان حتى أطلق على عصره عصر

الشهداء وعليه «سفاح المسيحيين». وعلى الرغم من أنه كان ينوى أن يقلع عن سفك الدماء إلا أنه أصيب بانهيار عصبى لازمة بضعة أشهر، ولما شفى منه كان الاضطهاد قد بلغ ذروته فى الشرق معقل المسيحية آنذاك. أما فى الغرب فنجد أن الاضطهاد كان في حدود معينة. وإذا كان هذا الاضطهاد قد أدى إلى ارتداد البعض عن المسيحية وأطلق عليهم «المرتدون» Lapsi، فإنه أدى إلى انتصار المسيحية بعد ذلك فى عهد قسطنطين الكبير كما سنرى.

نهاية حكمه:

بلغ دقلديانوس الستين من عمره فى عام ٣٠٥م فتنحى عن العرش هو وزميله ما كسيميان على أن يحل محلهما القيصران حسب النظام الرباعى الذى وضعه دقلديانوس. وبالإضافة إلى تلك الحروب الأهلية التى عانت منها الإمبراطورية لمدة سبع عشرة سنة فقد أدت عوامل أخرى إلى صعوبة ظهور نتائج ملموسة لما قام به دقلديانوس من إصلاحات. فقد انتشرت بعض الأوبئة والأمراض مثل الطاعون مما أدى إلى نقص عدد السكان والتى تركت أثره بصفة خاصة علي اقتصاديات الإمبراطورية ومن أخطر العيوب فى النظام الإدارى هو زيادة تكاليف الإدارة الحكومية وتفاقم الزيادة فى الضرائب وظلم الشعب. وبدلاً من بلاط إمبراطورى واحد تنافس الأربعة عنى البذخ الشرقي، وتضاعف عدد الموظفين لملء وظائف الدولة ومصالحها، ومن أشد الضرائب التى فرضت كانت ضريبة الأرض وضريبة الرأس. ومما لا شك فيه أن دقلديانوس نجح فى تأجيل سقوط هذه الإمبراطورية بما قدمه من أعمال فى مختلف المجالات. يضاف إلى ذلك أنه نعم باحترام الأمراء الذين تنازل لهم عن ملكية العالم. وقضى السنوات التسع الباقية من عمره فى الزراعة وأجاب مكسيميان عندما طلب منه استعادة العباءة الأرجوانية بقوله أنه لو استطاع أن يرى مكسيميان الكرنب الذى زرعه بيديه فى سالونا، فإنه لن يعود يصغى لأى إغراء يثنيه عن التمتع بهذه السعادة طلباً للسلطة.

الموضوع الرابع

الإمبراطور قسطنطين الكبير

والإعتراف بالمسيحية وإنشاء القسطنطينية

(٣٠٦ - ٣٣٧م)

الإمبراطور قسطنطين الكبير
والاعتراف بالمسيحية وإنشاء القسطنطينية

- مقدمة
- الاعتراف بالمسيحية.

١- مرسوم جاليريوس وليفيوس ٣١١م.

٢- مرسوم ميلان ٣١٣م.

- إنشاء عاصمة جديدة.

١- اضمحلال روما العاصمة القديمة.

٢- التفكير في إنشاء عاصمة جديدة.

٣- موقع وإنشاء روما الثانية أو الجديدة (القسطنطينية).

٤- النتائج المترتبة علي ذلك.

الموضوع الرابع
الإمبراطور قسطنطين الكبير
والإعتراف بالمسيحية وإنشاء القسطنطينية
(٣٠٦- ٣٣٧م)

ولد قسطنطين فى عام ٢٨٠م تقريباً وكان والده قسطنطين خلوروس Constantius Cholours الذى تولى منصب القيصرية حسب النظام الرباعى. وارتحل قسطنطين فى أرجاء الإمبراطورية الشرقية حيث تعرف على الكثير من أحوالها وخاصة أحوال المسيحيين بها. واستطاع حسم الصراع على العرش فى واحدة من أهم المعارك وهى معركة جسر مالفيان Milvian Bridge وذلك فى عام ٣١٢م حيث تمكن من الانتصار على خصمه مكسنتيوس Maxentius وقتله، كما قتل أبناءه ونكل بكل من ينتمى إليه، وشاركه فى الحكم ليكنيوس حاكم الشرق حتى عام ٣٢٤م. وظهرت براعة قسطنطين السياسية عقب انتصاره فقد أصدر عفواً عاماً، كما احترم مجلس السناتو ووضع في خطابه أمامه خدماته ومشروعاته، كما أكد احترامه له.، كما رد المجلس بأن منحه مرسوماً بأحد الأباطرة الثلاثة الذين يحملون لقب «أوغسطس» ولم يقضى قسطنطين أكثر من شهرين أو ثلاثة فى روما بعد ذلك الانتصار حيث كان دائب الحركة فى الولايات المختلفة.

الاعتراف بالمسيحية:

كان على قسطنطين أن يواجه المشاكل المتراكمة التى أصابت الإمبراطورية وحاول سلفه دقلديانوس جاهداً معالجتها قبله. ومن أبرزها الموقف تجاه المسيحية والذى أثرت عليه عدة عوامل من أبرزها: عدم فاعلية الاضطهادات السابقة تجاه المسيحيين. فقد رأى قسطنطين أن الاضطهاد

الأعظم فى عهد دقلديانوس لم يؤد إلى نتيجة حاسمة. كما أن المسيحيين كانوا يمثلون ثقلاً هاماً فى الجزء الشرقى من الإمبراطورية وهو ما اهتم به، خاصة مع التفكير فى نقل العاصمة إلى أحد مدنه. وأخيراً عوامل شخصية وأسطورية تدخلت فى اتجاه قسطنطين نحو التسامح مع المسيحيين وهو ماسوف نتناوله لاحقاً.

اتجهت سياسة دقلديانوس وقسطنطين إلى التسامح بصفة عامة، غير أن مكسيميان وجالريوس أضمرا عداوة شديدة تجاه المسيحيين. وبدأ سياسة الاضطهاد العنيفة وقدمت لنا المصادر المعاصرة أمثلة على تنفيذ أحكام الإعدام مثلما حدث ماكسيميانوس ومارسلوس، كما تم طرد عدد كبير من الموظفين المسيحيين من وظائفهم وذلك لأنهم أعلنوا مبادئ تضر بسلامة الدولة وبات بالتالى أن يصبحوا عاطلين لا يرجى منهم نفع. واستطاع جالريوس أن ينتزع من دقلديانوس ترخيصاً بدعوة مجلس من نفر قليل حيث أرضوا غروره بتدمير المسيحية. ولم يكن دقلديانوس يستطيع أن يقف أمام هذه الادعاءات حيث بدأ الاضطهاد فى نيقوميديا بإحراق الكتب المقدسة وهدمت الكنيسة الرئيسية بها. وصدر مرسوم الاضطهاد العام والذى تضمن العديد من العقوبات مثل هدم الكنائس وإعدام من يجرؤ على عقد اجتماعات عبادة عامة وغيرها .

لم يكن الاضطهاد هو السمة العامة فقد قام قسطنطيوس باتباع سياسة التسامح حيث عمل على حماية المسيحيين فدانت ولايات الغال بالهدوء. ولما تبوأ مرتبة أوغسطس قام بإرساء أسلوب جديد للتسامح، حيث احتذى ابنه قسطنطين به كما سنرى .

مرسوم جالريوس وليفيوس ٣١١م :

لم يستطع جالريوس أن يحقق من وراء اضطهاده للمسيحيين ما كان يصبو إليه، وضاعت سدىً تلك السنواتٍ الست، بالإضافة إلى المرض الذى ألمّ به، ولذا فقد أصدر مرسوماً عاماً حمل معه اسمى ليفيوس وقسطنطين. وتضمن الحقائق التالية :

١ ـ شارك فى إصداره ثلاثة من الحكام من بينهم قسطنطين مما يوضح سياسته مستقبلاً تجاه المسيحيين .

٢ ـ كان الهدف العام هو مصلحة الإمبراطورية «من أجل مصلحة الإمبراطورية والحفاظ عليها» .

٣ ـ الترخيص للمسيحيين بالإعلان عن آرائهم الخاصة فى حرية تامة، وعقد اجتماعاتهم السرية دون خوف أو إزعاج .

٤ ـ ضرورة مراعاتهم القوانين والحكومة القائمة .

٥ ـ طلب منهم التضرع إلى الإله الذى يعبدونه من أجل سلامته ورخاء الجميع .

٦ ـ لم يتضمن المرسوم اسم ميسينيوس والذى كان مسئولاً عن حكم ولايات آسيا .

وأعقب صدور هذا المرسوم فترة من الهدوء، وأرسل سابينوس رئيس الحرس الإمبراطورى كتاباً دورياً أدى إلى إطلاق سراح عدد كبير من المسيحيين من سجونهم، كما سمح لهم باجتماعاتهم السرية. غير أن هذا التسامح لم يدم طويلاً، فقد سيطرت على عقل مكسيميان القسوة والخرافة. وحاول أن يعيد تنظيم الوثنية على نهج المسيحية. وعادت الاضطهادات مرة

أخرى على الرغم من توصية بعدم سفك الدماء. وجاءت وفاته لكى تخلص المسيحية من آخر أعدائها وأشدهم ضراوة وعناداً .

مرسوم ميلان ٣١٣م Edict of Milan :

عمل قسطنطين على إلغاء آثار الاضطهاد الغاشمة ضد المسيحيين بعد أن لمس بنفسه ذلك سواء فى الشرق أو الغرب، وسلك فى ذلك مسلك والده واتباعاً لمشورته. فمنح حرية الشعائر الدينية لكل الذين أعلنوا فعلاً اعتناقهم المسيحية. وهناك العديد من العوامل التى أدت إلى إصداره لهذا المرسوم: منها موقف والده، وكذلك عدم جدوى سياسة جالريوس الاضطهادية، وموته بعد مرضه الطويل والذى فسره أن ذلك كان عقاباً له على موقفه من هذه الديانة المسيحية وقوة إله المسيحيين، كذلك روايات المؤرخين المعاصرين حول انتصار قسطنطين فى معركة جسر مالڤيان وما دار من روايات حولها بالنسبة لرؤى مسيحية وغيرها .

جاء إعلان هذا المرسوم بعد خمسة أشهر من الانتصار الذى أحرزه قسطنطين فى معركته ويقول جيبون أنه جاء إعلاناً صادقاً أصيلاً عن عواطفه والذى أعاد السلام والهدوء إلى الكنيسة الكاثوليكية. ووافق ليفيوس زميله على هذا المرسوم والذي أعقب مكسيميان. غير أنه بالرغم من ذلك صار قانوناً أساسياً من قوانين العالم الرومانى. وبموجب هذا المرسوم يمكن أن نلاحظ الآتى :

أولاً: إعادة جميع حقوق المسيحيين ومنها إعادة جميع أماكن العبادة والأراضى العامة المصادرة كما اقترن ذلك بتعويض من اشترى هذه الأماكن من قبل وذلك من الخزانة الملكية .

ثانياً: أعلن الإمباطوران إلى العالم أنهما منحا المسيحيين الآخرين وغيرهم

سلطة حرة مطلقة فى اعتناق أية عقيدة يرى الفرد من الأوفق له أن يؤثرها، أو أنه وهبها عقله ونفسه، أو أنها أصلح ما يمكنه أن يمارسها .

ثالثاً: حرصهما على توضيح كل لفظ مبهم، واستبعاد أى استثناء، ومطالبة حكام الولايات بالالتزام الدقيق بالمعنى الحقيقى والدقيق للمرسوم ومنح الحرية الدينية وتأمينها بلا حدود .

رابعاً: أوضح المرسوم أن الدافع من وراء إصداره: المقاصد الإنسانية التى تستهدف راحة شعبهما وسعادته، ثم إرضاء إله السماء .

ومما لا شك فيه أن المسيحية نجحت فى صراعها ضد الوثنية، وحظت بمكانة هامة. إذ أصبحت ديانة مرخصة Religio Licita وصار لأصحابها جميع حقوق الديانات الأخرى فى الإمبراطورية. ومع مرور الوقت ازدادت الروايات حول رؤى وأساطير جعلت المسيحية تسير فى طريق التفوق. ومن أبرز هذه الروايات ما أشارت إليه المصادر حول رؤيا قسطنطين، ووصف ما سمى بالراية الرئيسية التى أشارت إلى فوز الصليب وأطلق عليها لفظ غامض يسمى لابروم Labarum، وكذلك ما قيل عن تلك العبارة التى رأها مكتوبة فى السماء «بفضل هذه الراية سوف تنتصر» .

ونتيجة لذلك فقد اختلفت آراء المؤرخين الحديثين حول اعتناق قسطنطين للمسيحية فمنهم من قال أنه مسيحياً ورعاً، وآخر ذكر أنه كان فلاحاً مشوش التفكير خلط بين الديانات وبعضها. ويذكر كانتور أنه على الرغم من أنه لم يتلق المعمودية حتى اللحظة التى رقد فيها على فراش الموت، فإن تعميد الأطفال لم يكن شائعاً فى تلك الأيام. وكان قسطنطين مسيحياً مخلصاً طوال السنوات الخمس والعشرين الأخيرة من حياته. كما كان يرى أن كلا من الإمبراطورية والكنيسة مرتبطتان معاً. وكان قسطنطين

هو الذى وضع الأساس ومهّد الطريق أمام الكنيسة فى العصور الوسطى .

ويذكر المؤرخ برايس أن قسطنطين عندما مدّ يد التسامح إلى المسيحية واعتنقها هو نفسه فى النهاية كان بالفعل قوة سياسية كبيرة قادرة ومستعدة لتعويضه بالمساعدة والخضوع. ولم يظهر فى هذه الفترة الأخطار المحتملة من هذا التحالف بين السلطتين الدينية والكنيسة وهو ما حدث فى القرن الذى تلا عصره. ولم تكن هناك حتى أية فكرة عن العداء بينهما. وفى المزامير والكتب التاريخية للتوراة ـ حيث كان تأثيرها على المسيحيين المبكرين عميقاً جداً ـ يظهران وحدة الأمة تقوم على أساس الدين. وفى العصر الرومانى كان الدين جزءاً مكملاً للدستور السياسى، وهى مسألة بعيدة عن الشعور القومى أو القبلى أو الأسرى أكثر من التقديس الشخصى لقوة روحية. وكان الخلط والمزج بين الحماسة الدينية والمدنية متجانساً ويعطى بذلك قوة ومرونة للحكومة ككل. ولم تعد الوحدة التامة ممكنة الآن فى الإمبراطورية الرومانية لأن الجماعة المسيحية كان لها بالفعل هيئة متمثلة فى أولئك الحكام والمعلمين والذين كانت تغدق الأسرار والقدسية عليهم كل يوم قوة أكثر وأكثر وتميزهم فى نفس الوقت عن جموع الشعب المسيحى. وبالتالى، وحيث إن التنظيم الكنسى لم يستطع أن يطابق التنظيم المدنى فقد أصبح مثيلاً له. وفجأة وبسبب الخطر والتهديد على مقر السلطة ونظراً لأنها وجدت نفسها عديمة الخبرة ومرتبكة فى مجال واسع من العمل فقد أجبرت الكنيسة على الاستمرار فى عملية كانت قد دخلت فيها بالفعل لتشكيل حكومتها على أساس نموذج الإدارة الدنيوية غير الدينية. وعندما كان دولابها معيباً به أخطاء كما هو الحال فى حالة المنازعات المذهبية التى تؤثر على العالم المسيحى ككل فقد بحثت عن عزل الحاكم وحاولت فى كل شئ عدم الغوص فى النظام الإمبراطورى وإنما استعادة نفسها من أجل

أغراضها الكنسية الخاصة. وكما هو الحال مع توسيع الإمبراطورية عندما اختفت كل الحقوق المستقلة للأقاليم والمدن أو القبائل، فكذلك الآن اختفت الحرية البدائية وتنوع المسيحيون والكنائس المحلية التى يحيطها صراعات مستمرة ضد الهرطقة والشقاق مع فكرة كنيسة كاثوليكية مرئية واحدة: ثابتة أو متسقة فى عقيدتها وطقوسها. ومتسقة وثابتة أيضاً فى علاقتها بالسلطة المدنية والطبيعة الأوليجاركية المتزايدة لحكومتها .

وهكذا، وفى ظل القوة الموحدة للنظرية المذهبية، والاحتياجات العملية شكلت لنفسها تسلسلاً هرمياً من البطاركة والمطارنة والأساقفة والذى اعترف بسلطتهم على الرغم من أنها لا تزال سلطة روحية، وبعد فترة من الوقت وبواسطة قوانين الدولة فرضت قيام أبرشياتهم وأسقفياتهم التى تتطابق مع الأقسام الإدارية الإمبراطورية. وهكذا فلم يتمتع أى بطريرك بأكثر من سيطرة شرفية بينما كان رئيس الكنيسة هو الإمبراطور نفسه بالفعل. وتم الاعتراف بحقه المفترض للتدخل فى الشئون الدينية والذى كان قد استمده من الأزمنة البعيدة من منصب الكاهن الأعظم Pontifex Maximus والذى حمله خلفاء أغسطس باستمرار. وكان رجال الدين الذين يعظون بواجب الطاعة الآن كما كان زمن نيرون ودكيوس برؤيته يترأس المجالس العامة ويصدر المراسم ضد الهرطقة ويثبت حتى بإجراءات مستبدة حماسة لتقدم العقيدة والإطاحة بالطقوس الوثنية. ولكن على الرغم من أن نغمة الكنيسة بقيت متواضعة، فقد ثبتت قوتها أكثر وسنحت الظروف التى أظهرت ما كان يخبئه المستقبل لها. إن مقاومة القديس أثناسيوس - كبير أساقفة الإسكندرية - ضد الإمبراطور وانتصاره النهائى فى الصراع الطويل ضد آريوس أثبتت أنه بإمكان المجتمع الجديد أن يقدم قوة أى لم تكن معروفة أبداً من قبل: وسمع تذلل الإمبراطور ثيودسيوس العظيم أمام القديس أمبروز كبير الأساقفة بسيطرة

للسلطة الروحية. ومع عجز المؤسسات وعقم الأدب وضعف الفن بحثت حياة الناس ومشاعرهم أكثر وأكثر عن ربط نفسها بالكنيسة. وفي القرن الخامس وعندما أظلم الأفق بسحب الدمار فقد فرّ أولئك الذين كانوا يراقبون في يأس وقلق اقتراب العدو إلى الكنيسة التي كان يجلها حتى أولئك الأعداء.

إلا أن ما نهتم بالتعليق عليه هذا أكثر من أى شيء آخر هو أن هذا النظام الكنسى الذى يتطلب اتساق وانسجام أكثر فى المذهب والتنظيم ويجعل فكرة مجموعة من المتعبدين متحدون بالمشاركة فى نفس الأشياء المقدسة حيوية أكثر وأكثر حفاظاً على نشر الشعور بشعب رومانى واحد فى جميع أنحاء العالم. وأصبحت المسيحية والحضارة ذات حدود مشتركة مع الإمباطورية الرومانية. وأن تكون رومانيا يعنى أن تكون مسيحياً. وسرعان ما انتقلت هذه الفكرة إلى العكس: أن تكون مسيحياً يعنى أن تكون رومانياً.

روما الجديدة أو القسطنطينية

اضمحلال العاصمة القديمة :

ظلت روما عاصمة للإمبراطورية الرومانية عدة آلاف من السنين، ومنها جاءت القوانين واللغة التى انتشرت فى جميع أنحاء العالم الرومانى وعند أقدامها وضعت الأمم تقديمات من عملها: فقد كانت رأس الإمبراطورية والحضارة وفاقت فى ثروتها وشهرتها ومجدها المدن الأخرى فى ذلك الوقت. ويضاف إلى ذلك أن البقعة التى تأسست عليها روما كانت قد اختصت بطقوس قديمة ومعجزات. فبدا أن وجود إله ما، أو ذكرى أى بطل ما أنعش كل أرجاءالمدينة وبعث فيها الحياة.غير أنه مع توسع الفتوح تقلصت سيادتها وارتقت الولايات إلى نفس المستوى، كما أن زيادة الأخطار

الخارجية التى تعرضت لها حدود الإمبراطورية جعل الأباطرة ينتقلون من العاصمة لمواجهة هذه التهديدات. فاستقر بلاط إمبراطور الغرب، على الأغلب، فى ميلان والتى كان لموقعها عند سفح جبال الألب أثره الهام فى مراقبة تحركات البرابرة فى ألمانيا. وكان لاهتمام الإمبراطور مكسيميان بإنشاء الدور،ودار سك النقود، ومختلف المبانى الاجتماعية، بالإضافة إلى تزيينها بالتماثيل وإحاطتها بالأسوار. أما المدينة الثانية التى أخذت تنافس روما فهى نيقوميديا حيث استغل دقلديانوس ثروةالشرق فى تجميلها ونجح فى ذلك حتى بلغت درجة من الفخامة ارتضاها ذوق الملك. ومن بين عواصم الأقاليم الإدارية كانت أيضاً مدينة تريف Triev الواقعة على نهر الراين، وسرميوم Sirmium أو بلجراد الحالية. وكانت المدينتان الأخيرتان ربما أقل أهمية نظراً لأنهما كانتا مقربتين للقيصرين فى ظل النظام الرباعى .

وعندما اعتلى قسطنطين العرش، وبعد نجاحه فى الانفراد بحكم الإمبراطورية بدأ ينفذ فكرته بإيجاد عاصمة جديدة بدلاً من روما التى لم تعد تصلح فى ظل التغييرات التى حدثت. فقد أصبح الشرق هو مركز الثقل الذى يهتم به الأباطرة، وكذلك لكى يكونوا على مقربة من حدوده المعرضة لأخطار العناصر الخارجية البربرية أو الفارسية. وقبل أن يقع اختيار قسطنطين على موقع عاصمته الجديدة فكر فى عدة مواضع منها نيش مسقط رأسه، وسرويكا ـ أو صوفيا الحالية ـ ونيقوميديا. وفى النهاية جاء اختياره لقرية بيزنطيوم لكى يبنى فوق أنقاضها روما الجديدة أو القسطنطينية حيث حملت اسمه .

وكعادة المؤرخين فى ذلك العصر ربط يوسبيوس مؤرخ قسطنطين بين اختياره لهذا الموقع وبين أسطورة تشير إلى أن اختياره جاء بناءً على أمر الله.

فقد ذكر أن قسطنطين رأى فى منامه ربة المدينة وحارستها قد تحولت فجأة من الشيخوخة إلى شابة فى أبهى زينتها حين ألبسها الإمبراطور بيديه شعارات العظمة الإمبراطورية. وعندما أفاق قسطنطين من نومه فسر ذلك بأنه امتثال لأوامر السماء. وسار قسطنطين فى موكب حافل تصدره وبيده حربة حدد بها موقع مدينته. وعندما ذكروا له أنه تجاوز المساحة المعقولة رد عليهم بأنه سيتوقف عندما يطلب منه الدليل الخفى ذلك. وهكذا ارتبط إنشاء هذه المدينة الجديدة بتلك الروايات والتى تعبر عن روح ذلك العصر، ورغبة قسطنطين فى أن يكون لمدينته نصيبها من تلك الأساطير لكى تنافس بها روما .

جنّد قسطنطين كل إمكانيته لكى تتألق هذه المدينة الجديدة منذ إنشائها. فبلغ ما أنفقه على الأسوار والأروقة وقناطر المياه ما قيمته ـ كما قدرها المؤرخ جيبون ـ مليونى وخمسمائة ألف جنيه.واستمد الرخام الأبيض من المناطق المحيطة بها وجلب عمالاً مهرة من روما لتجميل مدينته، وعندما لم ينفذوا ما أراد أرسل إلى الولايات المختلفة لكى يصل منها هؤلاء الصناع لكى ينفذوا له ما أراد. واستكمالاً لرغبته فى أن تسابق روماالجديدة جارتها القديمة، فقد شجّع قسطنطين كثيراً من أعضاء السناتو والموسرين إلى الإقامة بمدينته الجددة. وأنعم عليهم بالعديد من المميزات مثل الأراضى والرواتب وضياع وراثية شريطة الإقامة بها. وبسرعة عجيبة امتلئت المدينة بالسكان نظراً لهذه المغريات، بالإضافة إلى موقعها التجارى والاستراتيجى الهام. فهى على شكل مثلث غير متساوى الأضلاع، يلتقى طرفه المنفرج الذى يمتد شرقاً إلى شواطئ آسيا، بأمواج البسفور ـ أما الميناء فيحده الجزء الشمالى من المدينة والجنوبى فتحفه مياه بحر مرمرة. أما قاعدة المثلث فإنها تواجه الغرب، وعندها تنتهى قارة أوربا. وسرعان ما أطلق على ميناء القسطنطينية اسم القرن

الذهبى لأنه يشبه قرن غزال أو ثور، أما الذهبى فيعبر عن الثروة التى تدفقت مع كل هبة ريح من أقصى الأرض إلى ثغر القسطنطينية الآمن الواسع. كما كانت إمدادات المياه تصل عن طريق نهر ليسوس والذى أفاد الميناء أيضاً فى تنظيف قاعه وقدوم أسراب من الأسماك الموسمية. كما تم حماية الميناء أيضاً بوضع سلسلة متينة حمته من هجمات الأساطيل عبر عدة قرون تالية .

فى خلال سنوات قلائل نجح قسطنطين فى تشييد «روما الثانية» أو الجديدة «كما سجل ذلك على عمود من الرخام بموجب مرسوم إمبراطورى. وفى ذكرى هذا التدشين كان يسير موكب يحمل فيه تمثال من الخشب المموه بالذهب لقسطنطين حاملاً بيده رمزاً للمكان ويسير خلفه مواكب الحراس وهم يحملون شموعاً بيضاء ويرتدون أثمن الثياب. وتم ذلك الافتتاح رسمياً فى ١١ مايو ٣٣٠م لكى يصبح علامة بارزة فى تاريخ بداية العصور الوسطى .

النتائج المترتبة على إنشاء القسطنطينية :

يقول بيتر أرنوت: «أنه سرعان ما أصبحت القسطنطينية، كما كانت روما، معرضاً للعالم» وبعد قرن من إنشائها امتدت المدينة إلى أقصى اتساع لها. كما اهتم الأباطرة أمثال ثيودسيوس الأول بإنشاء المزيد من التحصينات، كما شيدت البوابة الذهبية بعد وصول أنباء سقوط روما فى عام ٤١٠م .

أما كانتور فيشير إلى أنه ببناء القسطنطينية جسّد قسطنطين عاصمة إمبراطورية جديدة حيث تتفوق المسيحية تفوقاً لا يقبل التحدى. كما أنها أدت إلى تصعيد عملية تقسيم الإمبراطورية الرومانية. فإن خلق عاصمة شرقية جديدة شجع على ذلك بين حاكم شرقى وآخر غربى. وبحلول القرن السادس صارت القسطنطينية يونانية تماماً فى لغتها وثقافتها. أما أهم النتائج

فقد تمثل فى أنها استطاعت أن تنقذ أوروبا الغربية المسيحية طوال العصور الوسطى ـ ونجحت فى التصدى للغزوات المختلفة ومن أبرزها الزحف الإسلامى. ويضاف إلى ذلك أيضاً أن البابوية استطاعت أن تحقق ما وصلت إليه نتيجة لانتقال الأباطرة إلى روما الجديدة أو الثانية. وجاء ذلك أيضاً لنجاح المسيحية فى تنظيم أمورها فى الوقت الذى أصبح الإمبراطور فى الغرب مجرد لقب فقط إلى أن تم عزل آخر الأباطرة الرومان وهو ذلك الصبى رومولوس أو جستولوس ولم يعد سوى الملوك البرابرة. ولا شك أن ذلك أتاح للبابوية أن تتفوق وتصبح إحدى سمات العصور الوسطى .

ولا شك أن ما قدمه قسطنطين من أعمال خاصة الاعتراف بالمسيحية وبناء القسنطنطينية جعلت المؤرخين يطلقون عليه لقب قسطنطين العظيم. وخلدت اسمه فى ذلك العصر الذى كانت تسير فيه الإمبراطورية نحو الانهيار .

الموضوع الخامس

خلفاء قسطنطين حتي معركة أدرنة

(٣٣٧ - ٣٧٨م)

خلفاء قسطنطين حتي معركة أدرنة
(٣٣٧ ـ ٣٧٨م)

- مقدمة
- الإمبراطورية الرومانية ما بعد قسطنطين .
- جوليان الكافر أو المرتد وأهم ملاح حكمه وخاصة موقفه تجاه المسيحية .
- جوفيان وإعادة المسيحية ديناً رسمياً .
- فالنز وعلاقته بالقوط الغربيين. مقتله في معركة أدرنة ٣٧٨م .

الموضوع الخامس
خلفاء قسطنطين حتى معركة أدرنة
(٣٣٧- ٣٧٨م)

لاتزال شخصية قسطنطين مثيرة للجدل ما بين مؤيد ومعارض. ولكن من الثابت أنه نجح في استغلال مواهبه أقصى استغلال. فقد كانت طموحاته غير محدودة. كما أنه نجح خلال الأربع وعشرين عاماً من حكمه في الارتقاء بإمبراطورية الرومان. ولكن بعض المساوئ أثرت على جهوده وخاصة ما صاحب ذلك من أعمال سلب ونهب، كما أن البذخ عاد بالضرر على الشعب الذي تحمّل عبء ذلك يضاف إلى ذلك ما حام من شبهات حول موت مكسنتيوس وليفيوس مما لطّخ سمعة قسطنطين في أواخر أيامه. وزاد من ذلك أيضاً موقفه مع ابنه كرسبوس . فقد أدى تخوف قسطنطين منه، خاصة بعد أن أبدى مكانة مرموقة ونشاطاً بارزاً، وقد استمع الوالد إلى الوشاة الذين اتهموا الابن بالخيانة وتخلى قسطنطين عن حنان الأبوة وفضّل السلطة. فلم تتم محاكمة عادلة للابن حيث تمت بصورة سرية وقصيرة وتشير بعض المصادر بأصابع الاتهام إلى دور زوجته الثانية والتي خشت من مكانة هذا الابن وشخصيته القوية على أبنائها. وأشاعت أنه حاول الاعتداء عليها مما أدى إلى إعدامه وتشاء الظروف أن تلقى حتفهاأيضاً فيما بعد .

آلت وراثة العرش إلى أبناء فاوستا الثلاثة وهم: قسطنطين، قسطنطينوس، وقنساطنز. ثم شارك اثنان آخران من أبناء أخيه مما أدى إلى حرب أهلية مريرة بعد وفاة قسطنطين. ونجح قسطنطينوس بالانفراد بالحكم بعد وفاة أخويه. ونافسه على العرش شخص آخر هو ماجنينيتوس Magenentius ولكنه هزم

وانفرد قسطنطينوس بالعرش فى عام ٣٥٣م حيث تولى حكم إمبراطورية موحدة غير مجزأة .

چوليان الكافر أو المرتد (٣٦١ ـ ٣٦٣م) :

نجح چوليان فى الوصول إلى الحكم بعد حرب أهلية ضد قسطنطينوس والذى اتسمت شخصيته بالضعف خلال الفترة التى حكم فيها منفرداً، كما أنه استمع إلى نصائح غير مخلصة من المحيطين به. كما دفعه خوفه على العرش إلى تحديد إقامة أبناء عمومته جالوس وچوليان. واضطر إلى منح الأول لقب قيصر وكان فى الخامسة والعشرين من عمره، وكان مقره فى أنطاكية أو ولايات الشرق، بينما ظل قسطنطينوس فى الغرب. وقُتل جالوس وأصبح چوليان قيصراً حيث تولى الدفاع عن ولايات الغال والتى تعرضت لهجمات الألمان والفرنجة ونجح فى إعادة الحياة إليها من جديد .

وتميزت شخصية چوليان بمميزات جعلته يختلف عمن سبقه من الأباطرة. فلم يميل إلى الترف والبذخ، أو إضاعة الوقت فى السيرك. وكان بطبعه يكره تلك الملذات الطائشة، أو إضاعة وقته فيها، بل كان يصرفه إلى العمل المنوع الذى كان يقوم به كمؤلف، وحبر أعظم، وقاض،وقائد وحاكم. ومما يشهد له بالمثابرة والعبقرية ما تركه فى كتابه الضخم المسمى «الميزوبوجون» وهى رسالة يرد فيها على الساخرين منه، وكذلك مؤلفه «القياصرة» وكثير من الخطب وكتابه ضد المسيحية. كما ساهم چوليان بالنظر فى القضايا بنفسه حتى أنه كان يقوم بمراجعة القضاة فى أحكامهم. ومن أبرز اهتماماته أيضاً مدينة باريس مقره الشتوى بما فيها من دور ومنازل وحمامات وغيرها .

موقفه من المسيحية :

من أهم العوامل التى تركت أثرها على موقف جوليان من المسيحية

نشأته المبكرة. فقد نشأ يتيماً على أيدى قتلة أسرته. وظل يتلقى تعاليم المسيحية فى صغره وحتى العشرين من عمره. ومع اكتمال مرحلة الرجولة لديه والنزعة الاستقلالية التى اتسمت بها شخصيته أخذ يقاوم ما يحاول رجال الدين المتغطرسون فرضه عليه من آراء جامدة فى نظره. ولم يستسلم لذلك وأظهر ميله إلى الجانب الآخر وهو الوثنية فأصبح نصيراً لها. وهكذا تعلق الوثنيون به حيث كانوا يأملون أن يعيد لهم مجدهم الغابر .

ولم يكشف چوليان مواقفه مرة واحدة ـ فقد فاجأ العالم الرومانى بإصدار مرسوم تضمن منح كل سكان العالم الرومانى مزايا التمتع بالتسامح الحر، كما قيد المسيحيين بقيد واحد وهو حرمانهم من القدرة على تعذيب الوثنيين. ثم أخذ يفتح جميع معابدهم، كما أعاد جميع من تم نفيه من رجال الدين المخالفين للآريوسية .

وتنفيذاً لذلك سار چوليان على وثنيته، فأقام معبداً لإله الشمس الذى كان يعبده، كما أخذ يشارك فى الأعياد والاحتفالات الرسمية التى تقام لذلك. وتعرض چوليان للنقد بسبب المصاريف الباهظة التى أنفقها. فقد كان يتم إحضار أندر الطيور قرباناً للآلهة حتى أن الناس تندروا بأنه إذا عاد چوليان من حربه الفارسية فإن جميع الثيران سوف تفنى. وكذلك الهدايا الفاخرة التى كانت ترسل إلى معابد الولايات فى الإمبراطورية، وما تم إنفاقه من زخارف على إعادة إنشاء هذه المعابد .

وكشف چوليان عن موقفه ضد المسيحية فقد أعطى أحبار الوثنية حق التصرف فى المنح السخية التى كان قسطنطين قد أغدقها على المسيحية. كما سنّ القوانين الصارمة ضد المسيحية وجعل المسيحيين فى زمرة أحقر الطبقات. كذلك منعهم من العمل فى التعليم، وأيضاً عن وظائف الدولة والجيش. ومن الأمور الهامة أيضاً منعهم من السفر بصحبة البريد

الإمبراطورى وهى خطوة لها دلالتها وذلك بمنعهم من القيام بأعمال التبشير. أما أهم القوانين المتعلقة بهذا الاضطهاد فهو ذلك القانون الذى فرض على المسيحيين دفع تعويضات عن أراضى الوثنيين والتى صودرت أو تم بناء كنائس عليها. وفى حال عجزهم عن ذلك فإن للمدين حق التصرف فى هذا الشخص. ونتج عن ذلك اضطهادات من أبرزها ما حدث للأسقف مرقس وأعمال التنكيل به. كذلك ما حدث فى معبد دافنى بأنطاكية وفى الإسكندرية من اضطهادات راح ضحيتها عدد كبير من الشهداء .

الإمبراطورية حتى هزيمة أدرنة ٣٧٨م :

تم انتخاب چوفيان خلفاً لچوليان وسط ظروف غريبة. ففى الوقت الذى عرض فيه المنصب الإمبراطورى على أحد الحكام رفضه نظراً لمرضه وكبر سنه. وبينما كان يتم ذلك إذ صاح أحد الأصوات بتحية چوفيان وردد جمع آخر ذلك وسرى الهتاف فى لحظات بين الجميع ولم يكن چوفيان سوى رئيس الحجاب، ودهش لهذا الحظ الذى هبط عليه وتم اختياره وتمت الإجراءات واستطاع أن يثبت وجوده فى ظل المعركة التى كان يخوضها الرومان ضد الفرس. ولكن دهاء الملك الفارسى فى أثناء المفاوضات تمكن من فرض شروطه على الإمبراطور الرومانى فى النهاية. وبموجب المعاهدة استعاد الفرس الكثير من المدن والمعاقل، وصلح لمدة ثلاثين عاماً، وتبادلا الرهائن مقابل ذلك .

وعلى الرغم من قصر فترة حكم چوفيان، إلا أنه سرعان ما أعاد للمسيحية ما كانت تتمتع به قبل عهد چوليان وأبرز ما قدمه أنه قام برفع العلم الإمبراطورى القسطنطينى ـ والذى كان عليه شارة الصليب ـ على رأس قواته مما يعد دليلا على عودة المسيحية كدين رسمى. وكانت الخطوة

الثانية هى تلك الرسالة الدورية التى أرسلها إلى حكام الولايات معترفاً بالمسيحية، وملغياً الخطوات السابقة التى أقرها چوليان بالنسبة للوثنية.وحاول التوفيق بين الفرق المسيحية المتنازعة، واتخذ المذهب الذى دعا إليه أثناسيوس. وعلى الرغم من موقف چوفيان تجاه الوثنية إلا أنه من الملاحظ أنها ظلت قائمة بسبب سياسة التسامح التى انتهجها الأباطرة تجاهها، ولم تنجح الكنيسة إلا فى العقد الثامن من القرن الرابع فى الحصول على تأييد الأباطرة فى قمعها .

فالنز وفالنتينيان Valens & Valentinian :

عاد تقسيم الإمبراطورية مرة أخرى بين الحاكمين، فقد أقر فالنز المذهب الآريوسى فى الشرق، بينما أقر فالنتينيان التسامح الدينى فى الغرب. وبينما كان الهون يتحركون نحو الإمبراطورية سمح فالنز للقوط الغربيين بالاستقرار داخل حدود الإمبراطورية، وسرعان ما أدى ذلك إلى المواجهة مع الرومان فى أشهر المعارك وهى معركة أدرنة ٣٧٨م. ونتيجة لاعتماد القوط على الفرسان، بينما كان الرومان يعتمدون على مشاتهم، وكذلك للثقة المفرطة التى أبداها الإمبراطور، فقد حلّت الهزيمة بفالنز وقُتِلَ فى المعركة. وتعتبر هذه المعركة هى البداية الحقيقية للغزوات الچرمانية، فقد أصبح بمقدور أى جماعة چرمانية محاربة الإمبراطورية وكان ذلك ناقوس الموت بالنسبة لها .

الموضوع السادس

أسرة ثيودسيوس

(٣٧٩ - ٤٥٧م)

أسرة ثيودسيوس
(٣٣٧ ـ ٣٧٨م)

ـ ثيودسيوس الأول	٣٧٩ ـ ٣٩٥م
ـ أركاديوس	٣٩٥ ـ ٤٠٨م
ـ ثيودسيوس الثاني	٤٠٨ ـ ٤٥٠م
ـ مرقيان	٤٥٠ ـ ٤٥٧م

الموضوع السادس
ثيودسيوس الأول
(٣٧٩- ٣٩٥م)

اعتلى ثيودسيوس الأول عرش المبراطورية الرومانية عقب مقتل الإمبراطور فالنز فى معركة أدرنة مع القوط. وبموته تظهر أسرة جديدة هى أسرة ثيودسيوس التى أنقسمت فى عهدها الامبراطورية إلى قسمين أحدهما غربى والآخر شرقى والذى عرف بالامبراطورية الرومانية الشرقية أو البيزنطية كما سيعرف بعد ذلك .

وقبل أن نتناول أهم ملامح السياسة الخارجية والداخلية فى عهد هذه الأسرة نتوقف قليلاً للتعريف بشخصية هذا الامبراطور ـ مؤسس الأسرة. يذكر المؤرخ جيبون أن ثيودسيوس تمكن من خلال القوانين أن يجعل حكمه مبجلاً فى أعين رعاياه، وكذلك عرف باعتداله وعدم ميله إلى الأسراف فى الملذات، بالاضافة إلى وفائه ورعايته لأبنائه وكذلك أقاربه. ونجح فى أن يحيط نفسه بمجموعة من الأصدقاء المخلصين، ولم يحاول الأنتقام ممن أساءوا إليه قبل ارتقائه عرش الأمبراطورية. ومن ناحية أخرى حرص على أن يحترم الفنون وأصحابها، وفى الوقت نفسه رضطهد الطراهقة وذلك لأن الامبراطورية كانت تسير آنذاك نحو القضاء على الوثنية تماماً بعد فشل جوليان الكافر أو المرتد فى محاولته السابقة. ومن بين اهتماماته الشخصية كان حبه لدراسة التاريخ الرومانى وعمله على الإستفادة منه بشتى النواحى. وانعكس ذلك على تصرفاته وأعماله. ولم يكتف بتعويض الكثيرين عندما تعرضوا للخسارة، بل أن سخائه امتد إلى أسرة عدوه مكسيميوس فقدم لها العون والمساعدة .

أولاً: معالم السياسية الخارجية فى عهد أسرة ثيودسيوس :

(١) القوط :

يعتبر ارتقاء ثيودسيوس عرش الامبراطورية فى الشرق نقطة تحول فى الحكم

الدنيوى والدينى. فمن ناحية علاقته بالقوط كان أول أمبراطور يتبع سياسة جديدة معهم. فبدلاً من سياسة الحرب والقوة عرض عليهم النزول فى أراضى الامبراطورية ومنحهم اعترافا ذاتيا من ناحية الإعفاء من الضرائب وكذلك تقديم رواتب لهم مقابل الخدمة العسكرية ـ وبذلك نجح فى ضم آلاف من هذه القوات دخلت فى خدمة الامبراطورية وعملت فترة طويلة بها حيث ظهر منها عدداً كقواد، مما أدى بعد ذلك إلى أن نجد معظم جنود الإمبراطورية الشرقية من القوط والذين استقرت منهم فرق كبيرة فى الولايات.ومن ناحية أخرى كان ثيودسيوس الأول أول من وضع سياسة المهادنة معهم وأعتبرهم معاهدين أو Feoderati وأقسموا له يمين الولاء .

عاود القوط اللجوء إلى سياسة العنف مرة أخرى بعد وفاة ثيودسيوس فى عام ٣٩٥م مستغلين الضعف الذى أصبحت عليه الامبراطورية خاصة بعد تقسيمها إلى قسمين احدهما شرقى والآخر غربى. اما القسم الشرقى فقد حكمه اركاديوس (٣٩٥ ـ ٤٠٨م) وكان فى الثامنة عشرة من عمره، ولم يكن بمقدوره مواجهة الأحداث التى تمر بها البلاد نظراً لضعف شخصيته. فى الوقت الذى اعتلى فيه حكم القوط أحد أقوى الملوك فى تاريخهم وهو آلاريك الجسور والذى قاد قواته وهاجم العديد من أراضى الامبراطورية الرومانية الشرقية مثل أثينا واسبرطة وتساليا وكورنثا محاولاً أن يضع موطئ لقدمه فى هذه البلاد ـ وكان ذلك فى الفترة من ٣٩٥ إلى ٣٩٨م. وسرعان ما تم عقد اتفاقاً سرياً بين آلاريك والحكومة الشرقية حتى تسهل له مهمة العبور إلى أراضى القسم الغربى والذى كان يعانى آنذاك معاناة شديدة أيضا. وفى النهاية تمكن آلاريك من غزو روما والأستيلاء عليها فى عام ٤١٠م وهو من الأعوام الحاسمة فى تاريخ الغرب الأوروبى. ومما كان أيضا تأكيداً لانقسام الامبراطورية إلى قسمين شرقى وغر بى. ومن ناحية أخرى فان النتائج المعنوية لسقوط روما كانت ضخمة وذلك لأنها لم تحتل أو تسقط منذ آلاف السنين. وبعد ذلك بدأت الأزمات المعنوية الحقيقية تظهر فى الغرب .

(٢) الهون The Huns :

يعتبر الهون من أكثر العناصر التى أثارت الفزع فى أنحاء الأمبراطورية الرومانية وأماتت كثير من الأساطير بتحركاتهم ـ فتقول أحداها أن أحد الرعاة عثر على خنجر يعلوه الصدأ فحمله إلى زعيمهم آتيلا والذى أعتقد بدوره أنه خنجر إله الحرب والذى سيغزو به العالم.ونتيجة لذلك فقد قام بقتل شقيقه لكى ينفرد بذلك الآمر وصار يعرف باسم سوط الرب أو غضب الرب The Scourge of God .

وكانت قبائل الهسيونغ ـ هو Hsioung - Hu قد تحركت من موطنها الآسيوى نحو الهند فى البداية ولكنها فشلت، فتحركت نحو الغرب الأوروبى والذى عرفها باسم الهون متى وصلت إلى منطقة البلقان. وأثارت الرعب والفزع حتى أن مؤرخاً معاصراً أطلق عليها أنهم شياطين لا يقهرون، ولا يحاربون من فوق ظهور الخيل بل أنهم يعيشون فوقها، واستند فى وصفه هذا على وصف الجرمان لهم بانهم كانوا يضعون اللحم المقدد فى سروج الخيل ويأكلون منها بينما يواصلون سيرهم .

آتيلا وثيودسيوس الثانى :

وقبل أن ينتصف القرن الخامس كان آتيلا زعيم الهون قد أجتاح أوروبا حتى مدينة القسطنطينية. وذلك بعد أن سيطر على كثير من القبائل الجرمانية التى كانت تعيش فى حوض نهر الدانوب. وفرض الأتاوة على الامبراطورية الشرقية وتعهد ثيودسيوس الثانى بتقديمها ذهبا، كما عقد صلحاً مهيناً مع أتيلا نظير عدم قيامه بمهاجمة الامبراطورية. وفى ظل هذه الظروف مات ثيودسيوس الثانى وخلفه على العرش الامبراطور مرقيان (٤٥٠ ـ ٤٥٧م) والذى تشجع ورفض دفع الجزية وقلده فى ذلك الامبراطور الغربى فالنتيان الثالث مما جعل آتيلا يتقدم نحو الغرب الأوروبى. ويصف

المؤرخون مرقيان بأنه كان رجلاً لا يلين فقد قال لآتيلا بان لديه ذهبا لاصدقائه وسيفا لأعدائه ـ فادركِ آتيلا صعوبة التعامل مع الامبراطور الجديد. بالاضافة إلى حصانة مدنية القسطنطينية والتى كانت قد توسعت واضيفت إليها بعض التحصينات الجديدة مما جعلها تضاهى روما فى عظمتها. وكان مرقيان آخر آباطرة هذه الأسرة والذى نجح فى التعامل مع الهون وأنقذ عاصمته من خطرهم وتوجههم بعد ذلك إلى الغرب الأوروبى حيث لقوا الهزيمة فى عام ٤٥١م فى موقعة شالون .

(٣) العلاقة مع الفرس :

يرجع الصدام بين الرومان والفرس إلى ما قبل عصر أسرة ثيودسيوس. فقد اصطدم الامبراطور جوليان معهم وكاد يحرز النجاح فى بداية هذه المعركة ولكنه أرغم على الانسحاب،وأصيب بجرح مميت فى معركة حاسمة فيما وراء نهر دجلة ثم مات فى ٢٧ يونيو ٣٦٣م. وتبعه على العرش جوفيان الذى عقد صلحاً مع الفرس لمدة ثلاثين عاماً وأقسم الطرفان على احترام الهدنة الطويلة، وتبادلا الرهائن ضماناً لتنفيذ الشروط. وهكذا فقد البيزنطيون بعض الأقاليم على الضفة الشرقية لنهر دجلة، وكذلك نصيبين وسنجار وعن مزاعمهم فى أمتلاك أرمينية. ثم عقد ثيودسيوس الأول معاهدة جديدة مع فارس ضمنت له السلام فى هذه الجبهة لفترة طويلة نسبياً .

أهم معالم السياسة الداخلية فى عصر أسرة ثيودسيوس

المجامع المسكونيةCouncils :

تطلق كلمة المجمع الكنسى على تلك المؤتمرات التى كان يتولى الدعوة إليها البابا أو الأمبراطور لمناقشة بعض الجوانب المتعلقة بالديانة المسيحية ومعالجة بعض المشاكل التى كانت تواجهها من حين إلى آخر. فقد أعقب الأعتراف بالمسيحية كأحد أديان الامبراطورية فى مرسومى جالريوس ٣١١، وميلان ٣١٣ أن أصبحت ضمن الأديان الرسمية فى

الدولة. ثم سرعان ما أحرزت الانتصار بعد ردة جوليان الكافر (٣٦١ ـ ٣٦٣). ويبلغ عدد المجامع التى تعترف بها الكنيسة الكاثوليكية الغربية، سبعة مجامع، أما الكنيسة الأرثوذكسية فتعترف فقط بواحد وعشرين مجمعاً. وثم ملاحظة أخرى هى أن المجامع ظلت تجمع بين الكنيستين الشرقية والغربية حتى عام ١٠٥٤م وهى ما عرف بالقطيعة الدينية الكبرى ـ وأصبح لكل كنيسة المجامع الخاصة بها. وبالأضافة إلى ذلك فقد كان هناك أيضا ما عرف بالمجامع الأقليمية والتى أتخذت طابعاً اقليمياً خاصاً. وكذلك ما عرف بالمجامع الأسقفية التى كانت تجمع الأساقفة التابعين للكنائس فى أسقفية واحدة.

مجمع القسطنطينية الأول ٣٨١ :

قبل الخوض فى تفاصيل هذا المجمع نتوقف عند تحديد بعض المصطلحات المستخدمة مثل الأرثوذكسية والتى تتكون من شقين هما آرثوس orthos أى مستقيم ودوكس Dox أى الفكر أو الرأى ـ والكلمة تعنى الفكر المستقيم ـ اما الكاثوليك فهى بمعنى كونى أو عالمى. كذلك كان هناك ما أطلق عليهم المالكنيين أى أتباع الملك فى الدولة البيزنطية.

وشهد عصر ثيودسيوس الأول أهتماماً بالمسيحية ومحاولة حل بعض مشاكلها. فأقر اتخاذ عقيدة مجمع نيقية السابق والذى أدان آريوس أحد قساوسة مصر وأتخذ عدداً آخر من القرارات وذلك بهدف توحيد الكنيسة. وأقر هذا المجمع المسيحية الارثوذكسية الملكية ـ ولم يعترف باى من الفرق الخارجية عن هذا المجمع وأعتبرها هراطقة ـ كما أصدر المجمع مجموعة أخرى من القوانين بهدف تنظيم الكنيسة على ما حدث فى الدولة.

مجمع أفسس ٤٣١م :

استمرت الخلافات بين الفرق المسيحية على الرغم من محاولات الآباطرة السابقة لتوحيد الكنسة. وكان ظهور ما عرف ببدعة نسطور وهو

أحد القساوسة الذى أصبح بطريركا على القسطنطينية فى عام ٤١٨م - ونادى بوجود طبيعتين بخلاف ما تمسكت به الكنيسة الآرثوذكسية. ولذا فقد تم عقد مجمع بدعوة من الامبراطور ثيودسيوس الثانى (٤٠٨ - ٤٥٠) ورفض الحاضرون هذه البدعة والذى لم يقبله نسطور. وحاول الامبراطور التدخل لحل هذا النزاع الذى نشب فى الكنيسة - واتخذ قرار بادانة النسطورية والتأكيد على مذهب الدولة السابق، وعزل نسطوريوس . .

أما آخر عهد الامبراطور ثيودسيوس فقد شهد انعقاد مجمع أفسس اللصوص والذى عقد فى عام ٤٤٩ حيث تناول طبيعة السيد المسيح عليه السلام - وكان بابا الاسكندرية هو الذى رأس جلساته وناقش ما نادى به أوتيخا أحد قساوسة القسطنطينية - وأيد المجمع آرائه تحت ضغط من الامبراطور - وسمى لذلك باللصوص ولم يعترف بابا روما بهذا المجمع .

وفى عهد الامبراطور مرقيان (٤٥٠ - ٤٥٧) شهد عقد مجمع جديد فى خلقدونيه حضره حوالى ٦٣٠ أسقفا من أنحاء العالم المسيحى - وأقر قرارات المجامع السابقة مع اضافة بعض التعديل عليها. وجاء رد الفعل من جانب كنائس مصر وأرمينية وبلاد الشام حيث رفضت قراراته معلنة الطبيعة الواحدة للسيد المسيح عليه السلام. مما أدى إلى ظهور بوادر انفصال هذه الأقسام عن الدولة البيزنطية .

الجوانب التشريعية :

عمل ثيودسيوس الثانى على جمع التشريعات القانونية الخاصة بالدولة منذ عهد قسطنطين الأول. وسهل بذلك وجود تشريع ثابت ومدون لدى الدولة. وظلت هذه القوانين هى المرجع حتى تولى جستنيان الحكم فى عام ٥٢٧م وكان من بين اهتماماته جمع القوانين واصدار مجموعة جديدة .

كذلك يرجع الفضل إلى ثيودسيوس الثانى فى حدوث عملية مزج ما بين الثقافة الكلاسيكية والمسيحية، وذلك تحت تأثير زوجته يودوكيا اليونانية

ووالدها الذى كان استاذاً لعلم البلاغة اليونانية. كما تم إعادة تنظيم الدراسة فى جامعة القسطنطينية فى عهده، وتدريس علوم مختلفة مثل اللغة اليونانية والفلسفة والقانون .

ولا شك أن ما قام به الأباطرة البيزنطيون من تشجيع التعليم وإصدار تلك المجموعة القانونية الشاملة كان له أثره على صمود هذا القسم الشرقى من الامبراطورية الرومانية ـ يضاف إلى ذلك حصانة مدينة القسطنطينية ونجاحها فى الصمود أمام الغزوات المختلفة التى تعرضت لها، ومن ناحية أخرى نجد أن الحكام البيزنطيين لم يتركوا للقادة الجرمان زمام السلطة العسكرية بعكس ما حدث فى الغرب الأوروبى وأدى إلى انهياره فى نهاية الأمر .

قائمة بأهم مراجع هذا الفصل

١ ـ محمد محمد مرسى الشيخ: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص ٣٠ ـ ٣٢ .

٢ ـ محمد محمد مرسى الشيخ: تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى، ص ٩١ ـ ١٠٢ .

٣ ـ محمود سعيد عمران: معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ٣٧ ـ ٤٠ .

٤ ـ نورمان كانتور: العصور الوسطى الباكرة، ترجمة وتعليق د. قاسم عبده قاسم، ص ٨٨ ـ ٩١ .

٥ ـ حسن عبدالوهاب: معالم التاريخ الأوروبى الوسيط، ٨٥ ـ ٩٣ .

- Cambridge Medieval History .

- E.A. Thomp son, A History & Attila and The Huns, (Oxford, 1948) .

- Hambis, Attila et les Huns, (Paris, 1972) .

الموضوع السابع

أسرة ليو

(٤٥٧-٥١٨م)

أسرة ليو
(٤٥٧ ـ ٥١٨م)

- ليو الأول (٤٥٧ ـ ٤٧٤م)
- ليو الثاني بضعة أشهر من ٤٧٤م .
- زينو (٤٧٤ ـ ٤٩١) .
- انستاسيوس الأول (٤٩١ ـ ٥١٨ م) .

مقدمة :

حكم أربعة من الآباطرة البيزنطيين فى هذه الأسرة والتى امتدت من عام ٤٠٧ وحتى ٥١٨م. وهى تعد ثالث الأسرات فى التاريخ البيزنطى حيث شهدت هذه الفترة استمرار محاولات الجماعات الجرمانية غزو الامبراطورية الرومانية خاصة منطقة البلقان التى شهدت كثيراً من هذه الهجمات ولكن سياسة الآباطرة البيزنطيين نجحت فى إبعاد هذه الأخطار إلى الغرب الأوروبى والذى شهد أيضا فى هذه الفترة عزل آخر الآباطرة الرومان وهو رومولوس اوجستولوس فى عام ٤٧٦م وكان لذلك تأثيره على بيزنطة. اما فى المجال الداخلى فقد استمرت الخلافات الدينية التى بدأت بعد الاعتراف بالمسيحية ولم تنجح المجامع الدينية فى وقفها. وكذلك نتعرض لمحاولات الآباطرة البيزنطيين المستمرة للاهتمام بالقسطنطينية وزيادة مناعتها حتى صارت عقبة أمام المحاولات المستمرة للاستيلاء عليها من قبل العديد من العناصر.

السياسة الخارجية :

شهدت هذه الفترة ظهور دور الأيسوريين ـ والذين كان ينظر إليهم سكان القسطنطينية على أنهم غرباء على الرغم من أنهم مواطنين بيزنطيين. وكان ليو الأول قد زوج أبنته من القائد الآيسورى زينو Zino حيث أثمر ذلك عن طفل عرف باسم ليو الثانى والذى لم يتول العرش إلا لبضعة أشهر حيث خلفه زينو على الحكم .

وفى خلال حكمه شهد الغرب الأوروبى حادثة تركت تأثيرها على التاريخ الوسيط وهى عزل آخر الآباطرة الرومان. فقد أعلن رومولس الملقب باغسطس استقالته من السناتو وأرسل أدواكر ملك الهيرول بعثة إلى زينو

الجالس على عرش القسطنطينية لكى تضع شارات الملكية عندأقدامه وأخبروه بانه لم يعد هناك حاجة إلى امبراطور وإنما يكفى العالم حاكم واحد فقط وطلب منحه لقب شريف وإدارة الولايات الإيطالية. وبالفعل وجد زينو أنه لا يستطع أن يرفض ذلك فخاطبه بكلمة شريف وكان ذلك فى عام ٤٧٦م .

ومن ناحية أخرى فقد تعرضت البلاد لخطر هجوم من جانب القوط الشرقيين حيث ظهر ثيودريك قائداً لهم. واكتسب خبرة بعد أن طاف كمحارب عبر سهول الدانوب، وتم احضاره رهينة إلى بلاط القسطنطينية وتعلم فيه الكثير من الثقافة والحضارة. وفى عام ٤٨٨ تمكن زينو من اقناع ثيودريك بالتحرك بجماعته من مواشيا (صربيا الحالية) إلى إيطاليا وذلك للقضاء على الهيرول وملكهم أدواكر. وبالفعل تمكن ثيودريك من ذلك فى عام ٤٩٣م. وتمكن بذلك من إخضاع ايطاليا وصقلية وحمل لقب Patricus وكان من الناحية النظرية تابعاً للامبراطور البيزنطى وممثلاً له[١].

واستمرت العلاقة بين الجانبين وذلك فى عهد الامبراطور انستاسيوس. فقد ارسل اليه ثيودريك يطلب منه الاعتراف بحكمه لايطاليا، فارسل ذلك اليه فى عام ٤٩٧م وكان ذلك الاعتراف عبارة عن الرداء الأرجوانى والتاج الخاص بأباطرة الغرب الأوروبى .

---

(١) تجدر الإشارة الى أن ثيودريك قضى نحو عشر سنوات فى القسطنطينية أسيراً. وتركت هذه الفترة تأثيرها عليه فنال قسطا من العلوم العسكرية، وكذلك تربى فى البلاط البيزنطى ـ ثم عاد إلى قومه فاعتلى عرش البلاد. أنظر : كانتور (نورمان) : التاريخ الوسيط، ترجمة وتعليق د. قاسم عبده، القاهرة ١٩٨١ ، ص ١٩٨

حسن عبدالوهاب : معالم التاريخ الأوروبى الوسيط، ص ١٠٣ .

مع الوندال :

يعتبر الوندال من أشد الشعوب الجرمانية وحشية وبدائية ـ وتحركوا عبر أوروبا حتى نجحوا فى العبور إلى الشمال الأفريقى واستقروا هناك مقيمين لهم مملكة تحت قيادة ملكهم جيسريك الأعرج Gaiseric The Lame . وفشلت محاولات الآباطرة الرومان فى القضاء على هذه المملكة ـ لكن حاول ليو الأول اعداد حملة بحرية فى عام ٤٦٧م للقضاء عليهم وجهزها بمبالغ ضخمة وتمكنت من استعادة سردينيا وطرابلس الغرب ثم انتهت الحملة بتحطيم الأسطول وفشله .

اما فى عهد الامبراطور زينو فقد حاول اللجوء إلى الحل الدبلوماسى وعقد صلح مع جيسريك ملك الوندال وتم الاتفاق على ذلك فى بنود معاهدة تمت فى عام ٤٧٥م وظلت سارية حتى عصر جستنيان. واستمرت السفارات متبادلة بين الجانبين وذلك لمعالجة جوانب عديدة مثل اضطهاد الوندال للارثوذكس ونجحت بعض هذه السفارات بينما فشلت الأخرى. واستمرت العلاقات بين الجانبين فى التحسن خاصة بعد أن هدأت حدة اضطهاد الأرثوذكس مما أدى الى توثق علاقة الصداقة بينهما فى عهد الامبراطور انستاسيوس .

مع الفرس :

شهدت هذه الفترة هجمات من جهة الشرق وخاصة من جانب الفرس. ولكن الربع الأخير من القرن الخامس الميلادى شهد سلاماً بين الجانبين. وعمل زينو على استغلال المساعدات المالية للفرس لكى يقوموا بمحاربة الهون الذين هددوا الأقاليم الشرقية لآسيا الصغرى بشكل لم يسبق له مثيل فوصلت الى ارمينيا وقبدوقيا وبنطس ـ وكانوا يعودون وهم محملين بالغنائم. واضطربت العلاقة بين الفرس والبيزنطيين بسبب تدخلهم فى الحركة

الانفصالية في أنطاكية ـ فعاد الفرس الى سياسة التسامح مرة أخرى. وهكذا فقد اتسم عهد زينو باللجوء إلى أساليب الحل الدبلوماسى فى كثير من علاقاته الخارجية .

اما فى عهد انستاسيوس توترت العلاقة بين الفرس والبيزنطيين بسبب امتناع الامبراطور عن دفع الاعانة المالية للفرس الذين هددوا باعلان الحرب فى حالة عدم دفعها. وبالفعل بدأ الصدام وسقطت عدداً من المدن فى قبضة الفرس. ومنها مدينة آمد Amida والتى لم يتمكن الامبراطور من تحريرها. وعاد انستاسيوس إلى طلب الصلح وتم عقد معاهدة سلام بينهما فى عام ٥٠٥م تعهد فيها بدفع ٥ آلاف رطل من الذهب سنوياً .

وعمل انستاسيوس على معالجة بعض جوانب القصور فى علاقاته مع الفرس. فأنشأ مدينة حصنها وعرفت باسم انستاسيوبوليس أو مدينة انستاسيوس Anastasiopolis والتى بنيت فى عامين. كما فصل نفس الشيء فى قلعة أرضروم فى أرمينيا. ولجأ ايضا الامبراطور البيزنطى إلى أسلوب الدبلوماسية عن طريق تقديم الهدايا والهبات للفرس. وظلت معاهدة ٥٠٥م هى الأساس فى العلاقة بين الفرس والبيزنطيين حتى بداية عصر جستنيان .

خطر البلغار :

عمل البلغار على مهاجمة الامبراطورية البيزنطية فى عهد الامبراطور زينو وخاصة اقليم تراقيا. وكان البلغار قد استقروا خلف نهر الدانوب وحدث صدام بينهم وبين القوط الشرقيين الذين تواجدوا فى المنطقة. ولكن بعد رحيلهم اصبحت الأقاليم الشمالية الشرقية لبيزنطة فى مواجهة الهجمات البلغارية. ثم اشتدت غارات البلغار فى عام ٤٩٩ وانتهت بهزيمة البيزنطيين هزيمة شديدة وقتل القائد البيزنطى وأربعة آلاف قتيل. وأخذت غارات البلغار تعتمد على السلب والنهب والهجمات السريعة ما بين ٤٩٩ ـ ٥٠٢م.

وفشل انتستاسيوس فى وقف الهجمات البلغارية لعدم وجود القوات الكافية لديه .

ومن خلال هذه الفترة يتضح أن الامبراطورية البيزنطية تعرضت لكثير من الهجمات سواء من العناصر الجرمانية مثل الهون والقوط الشرقيين، بالاضافة إلى هجمات البلغار والفرس. ونجح الأباطرة البيزنطيون فى اجتياز هذه العقبات سواء عن طريق عقد المعاهدات أو المواجهة العسكرية .

السياسة الداخلية

الخلافات المذهبية :

شكلت الخلافات المذهبية فى المسيحية جانباً هاماً فى عهد هذه الأسرة، خاصة بعد الانقسام بين أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزية) وهم أغلبية سكان مصر والشام، وبين أتباع الملكانيين ـ أو أتباع الملك. ونظراً للظروف الحرجة التى كان يمر بها الامبراطور زينو فقد أصدر ما يعرف بقانون الاتحاد Henoticon فى ٢٨ يوليو ٤٨٢م. .

وأهم ما ورد فيه هو عدم ذكر عبارة طبيعتين (المالكنيون) أو طبيعة واحدة (المونوفيزيون) ولكن لم ينجح الامبراطور فى هذه الصيغة التى لم يرض عنها أيا منهما. كما أن البابوية فى روما لم ترض أيضا عن هذا القانون لأنها رأت فيه تدخلاً من جانب الامبراطورية على الكنيسة. وفشلت محاولات البابا لاقناع الامبراطور بالتخلى عن هذا القانون مما أدى إلى بداية الانشقاق بين روما وبيزنطة .

اما فى عهد انستاسيوس فقد استمرت الخلافات ومحاولات تدخل البابوية، ولذا تم عقد مجمع دينى فى عام ٤٩٦م جدد فيه قانون الأتحاد. والتزم بالحياد بين المذاهب الدينية المتصارعة. وظلت هناك محاولات من

جانب البابوية للضغط على الامبراطور البيزنطى إلى أن مات انستاسيوس فى يوليو ٥١٨ م لكى تبدأ مرحلة جديدة فى عصر جستنيان .

الأهتمام بالعاصمة القسطنطينية :

وفى خلال عصر هذه الأسرة شهدت العاصمة القسطنطينية اهتماماً كبيراً لحمايتها. فقد أنشئ سور ضخم حولها وأطلق عليه «السور الطويل» شيدت عليه ابراج مرتفعة بدأ من البحر الأسود وحتى بحر مرمرة. وكان من أثر بناؤه أن توقفت غارات البلغار على العاصمة[١] .

وإلى جانب ذلك فقد عمل انستاسيوس على أصلاح كثير من الأحوال الأقتصادية وذلك لعلاج آثار الحروب السابقة. والدليل على نجاحة فى ذلك هو أن ترك آلافاً من أرطال الذهب مما كان له أكبر الأثر على سياسة جستنيان بعد ذلك. وكان لاختياره عدداً من الرجال الأكفاء من العوامل التى أدت إلى نجاحه فى سياسته هذه. ومنهم مارينوس السريانى ـ ومن هذه الاصلاحات الاقتصادية الغاء ضريبة التجارة فى عام ٤٩٨م وعوضها الامبراطور بالمساهمة من دخل الممتلكات التابعة للأمبراطور. كذلك حول ضريبة القمح إلى ضريبة نقدية وذلك بهدف إعانة الجيش . كما كلف موظفين يقومون بجمع حقوق الدولة وتقع مسئوليتهم مباشرة أمام رئيس حكام الأقاليم. كذلك حدد اسعار بيع اجبارى للمواد الغذائية وذلك للتخفيف عن الطبقات الصغيرة .

(١) يذكر رانسيمان أن ذلك يرجع إلى امتداد المدينة خارج أسوارها، وقام نائب الملك ببناء هذا السور من بحر مرمرة إلى القرن الذهبى ويبعد ميلين غرباً عن السور القديم. كما أضيفت أسوار أخرى بحرية اتصلت بالسور البرى الجديد وذلك فى عام ٤٣٩. انظر: الحضارة البيزنطية، ص ٣١ .

أهم المراجع

١ ـ محمد فتحى الشاعر: السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية فى القرن السادس الميلادى «عصر جوستنيان». القاهرة ١٩٨٩، ص ٢٣ ـ ٥٧.

٢ ـ السيد الباز العرينى: الدولة البيزنطية، القاهرة ١٩٦٥، ص ٥٨ .

٣ ـ محمود عمران ومحمد عزيز: محاضرات فى تاريخ بلاد الشام فى العصر البيزنطى، بيروت، بدون تاريخ ص ٧٩ ـ ٨٠ .

الموضوع الثامن
الرهبنة والديرية

الرهبنة والديرية

- مقدمة: التعريف والنشأة.
- القديس أنطونيوس.
- القديس باخوميوس ونظامه الديري.
- انتشار الرهبنة خارج مصر:
- في سورية.
- في آسيا الصغرى.

الموضوع الثامن
الرهبنة والديرية

التعريف :

الديرية هى شكل من أشكال النسك الدينى تضمن تنظيم وتقييد أو إنكار الذات فى الجوانب المادية والجسدية فى الحياة الإنسانية من أجل ضمان علاقة روحانية خاصة مع الرب تكون سبيلا إلى الخلاص. ويفرّق كانتور بينها وبين ما يطلق عليه التطهرية Puritanism وهى التحكم القاسى فى الحياة الإجتماعية لكى تكون البيئة مناسبة للناسك حتى يواصل حياته فى الدنيا. وفى ظل الظروف التى كان يعانى فيها المجتمع الوسيط كان من الصعب أن يتحقق هذا النوع الثانى، لذا فقد لجأ الكثيرون إلى حياة الديرية حتى غدا الدير مؤسسة اجتماعية فائقة الأهمية تقدم أعظم الخدمات للكنيسة والملكية وتمدهما بالدماء والقيادات الجديدة على مر فترات التاريخ الوسيط .

النشأة :

ويجمع المؤرخون على أن نشأة هذا النظام كان فى صحارى مصر ومنها انتشر إلى أنحاء العالم القديم. وكان أول من لجأ إلى حياة الرهبنة الإنفرادية هو «بولا الطيبى» منذ حوالى منتصف القرن الثالث. حيث كتب لنا القديس جيروم قصته. ويقال أنه فرّ إلى الصحراء وهو فى السادسة عشرة من عمره واستقر فى المنطقة التى تأسس عندها ديره المعروف فيما بعد باسم دير الأنبا بولا. وتضيف الروايات حوله هالة أسطورية ولكنه على أية حال نجح فى إيجاد نظام للرهبنة اعتمد على الحياة الانفرادية. فقد كان لكل راهب صومعته يتعبد فيها بمفرده. ولا يشتركون إلا فى إنتاج ما يلزمهم من طعام وملبس .

القديس أنطونيوس :

أما القديس أنطونيوس فقد كان معاصراً لسابقه، وسجل لنا أثناسيوس حياة هذا الراهب فى كتاب أسماه «حياة القديس أنطونيوس». وعندما كان يستمع لقداس قرر أن يتخلى عن أمواله وترك جزءاً منها لإعالة أخته. واتجه إلى حياة الرهبنة بالقرب من قريته في صعيد مصر، ثم اعتكف بعيداً عن الناس. وفى حوالى عام ٢٨٥م توجه إلى بقعة نائية، ولكنه لم يسلم من إتباع الناس له بعد أن ذاع صيته وشهرته. فترك مكانه السابق وتوجه إلى جبل «كوازون» بمحاذاة وادى عربة وذلك عند المنطقة التى حملت اسمه فيما بعد ـ عند البحر الأحمر. ويذكر المؤرخ جيبون أنه اعتذر عن قبول دعوة وجهها إليه الإمبراطور قسطنطين. وتذكر الروايات أن عمره وصل إلى حوالى المائة وخمسة أعوام. كما بلغ عدد أتباعه من الرهبان إلى ما يقرب من خمسة آلاف، وأقام تلاميذه ما يقرب من خمسين ديراً .

ويضيف الدكتور محمد عبد الغنى أن تأييد البطريرك أثناسيوس له كان عاملاً هاماً فى طبع حركته بالطابع الرسمى، إلا أنه لم تصل إلينا قواعد مكتوبة له. ولكنه كان يسمح لكل راهب أن ينتهج الطريق الذى يرغبه، كما أن لكل منهم كانت له صومعته الخاصة Cells والتى تبعد عن الأخرى. وقد استطاع أثناسيوس أن يبعد هؤلاء الرهبان عن تأييدهم لآريوس فى الصراع بينهما. وأورد لنا جانباً من رسالته التى وجهها إلى هؤلاء الرهبان.

القديس باخوميوس (٢٩٢ ـ ٣٤٨م) :

ولد فى أواخر القرن الثالث الميلادى بالقرب من إسنا بصعيد مصر. ثم التحق بالجندية. وعندما توقفت كتيبته فى طيبة استقبلها المسيحيون بها بحفاوة وكرم. وبعد ذلك تم تسريحه من الخدمة فقام بالدخول فى سلك الرهبنة وذلك بعد اعتناقه المسيحية. وفى البداية كان تابعاً لأحد الرهبان، ثم أقام فى عام ٣٢٠م مجتمعاً للرهبان فى إحدى القرى المهجورة بالقرب من إخميم .

النظام الباخومى :

يرجع إليه الفضل فى وضع قواعد لحياة الرهبان ـ حيث أقبلت أعداد غفيرة للانضمام إليه ـ عرف بالدقة وذلك على نمط المعسكرات الرومانية حيث تأثر بها أثناء فترة جنديته. وبالفعل يذكر إدوارد جيبون أنه انضم إليه حوالى ألف وأربعمائة من الرهبان، واجتمع له فى عيد الفصح حوالى خمسين ألفاً. وفرض على أعضاء الدير الطاعة والهدوء والنظام والعمل اليومى، بالإضافة إلى مباشرة الطقوس الدينية. وجعل لكل دير رئيسه المسئول عن نظام وتعاليم رهبانه وذلك أمام الرئيس الكبير للدير. كما تم تقسيم كل مجموعة من الرهبان حسب الحرفة التى يمارسونها. وكانت تجرى اختبارات مقابلة قبل دخول الدير يتلقى خلالها الشخص ما يتطلبه الانضمام ثم يسمح له بعد ذلك بالدخول فى سلم الرهبنة. وبالرغم من ذلك فإن هذا النظام كان يميل إلى العزلة والانفرادية لأن كل راهب كان يعيش فى صومعته مع اجتماعهم للقيام بالصلوات المشتركة .

ويقدم لنا الدكتور محمد عبد الغنى دراسة لأقدم وثيقة بردية وصلت إلينا ومؤرخة بالسادس من يونيو ٣٢٤م حيث ورد فيها اسم «الراهب إسحاق». ويشير القديس جيروم إلى ثلاثة أنواع من الرهبان، الأول: وهم الرهبان النساك فى الأديرة أو الـ Coneubium وكانوا يتحدثون لغة قومية متوارثة ويعيشون فى تجمعات. والثانى، الرهبان المعتزلون أو Anachoretae وكانوا يعيشون بمفردهم فى أماكن منعزلة بعيداً عن الناس. أما النوع الثالث ـ وهو المشار إليه أعلاه فى الوثيقة المذكورة ـ فقد كانوا يعيشون معاً، كل اثنين أو ثلاثة ويسيرون وسط الجموع وذلك فى المدن أو القرى لكى يحصلوا على غذائهم .

انتشار الرهبنة خارج مصر :

فى سورية :

كان من بين الذين أسهموا فى نقل النظام الباخومى إلى سورية أحد الرهبان المسمى هيلاريون Hilarion وكان قد اتخذ له مكاناً بالقرب من غزة.

ويقال أنه عاش به حوالى ٤٨ عاماً وانضم إليه العديد من الرهبان وكانوا يسيرون وراءه عند زيارته لأى دير من الأديرة. ومن أبرز الرهبان فى سورية يأتى سيمون العمودى والذى دخل حياة الرهبنة وهو فى الثالثة عشرة من عمره واتخذ من منطقة نائية تبعد عن أنطاكية حوالى أربعين كيلو متراً ثم ارتقى أحد الأعمدة وظل فوقه ما يقرب من ثلاثين عاماً ومات بعد هذا التعذيب الفريد للنفس وأخذت أنطاكية شهرتها منه .

القديس بازيل فى آسيا الصغرى :

كذلك أسهم القديس بازيل فى نقل حركة الرهبنة إلى آسيا الصغرى ـ ويعتبر واحداً من كبار رجال الكنيسة الشرقية وانعكست عليه ثقافته الكلاسيكية. وقام بزيارة مصر للاطلاع على أديرتها وأنظمتها حيث نجح بالفعل فى تطويرها وتخليصها من العيوب مثل الانعزالية سواء داخل الدير أو فى المناطق النائية. فقد قلل عدد الرهبان فى كل دير لكى يسهل لرئيس الدير التعرف على رهبانه، كما جاء نظامه دقيقاً فيما يتعلق بكافة تفاصيل حياة الراهب من ملبس ومأكل وصلاة وغيرها. ووجه نشاط رهبانه نحو العمل النافع مثل مساعدة الفقراء والمحتاجين فى منطقة الدير. ولا شك أن بازيل كان رائداً فى تكوين نظام الديرية الجماعى فى الكنيسة الشرقية وهو النظام الذى قدر له أن يتغلب بالتدريج على نظام الرهبنة الانفرادى القديم. وهكذا فإنه يمكن القول بأن القديس بازيل هو المؤسس الحقيقى للحياة الديرية فى المسيحية .

وتجدر الإشارة إلى أن هؤلاء الرهبان سيكون لهم دور هام فى التاريخ البيزنطى. فسرعان ما سيحصلون على العديد من الهبات سواء أراضى أو ممتلكات، وبالتالى سيكون لهم قوة اقتصادية هامة سرعان ما تجعلهم يشاركون فى الحياة السياسية فى بيزنطة وهو ما سوف نراه فى الفترة التالية.

الموضوع التاسع

أسرة جستنيان

(٥١٨-٦١٠م)

- جستين الأول ٥١٨-٥٢٧
- جستنيان ٥٢٧-٥٦٥
- جستين الثاني ٥٦٥-٥٧٨
- طيبريوس (٥٧٨-٥٨٢)
- موريس (٥٨٢-٦٠٢)
- فوقاس (٦٠٢-٦١٠)

سياسة جستنيان تجاه الغرب الأوروبي والفرس

- مقدمة
- تولية الحكم. والمصاعب التي واجهته في البداية .
- دور ثيودورا زوجته، والقضاء علي الثورة التي إندلعت ضده .
- حروب جستنيان في الغرب الأوروبي :
  - حروبه ضد الوندال في شمال أفريقيا .
  - حروبه ضد القوط الشرقيين في إيطاليا .
  - حروبه ضد القوط الغربيين في إسبانيا .
- حروب جستنيان في الشرق :
  - حروبه ضد ملوك الحيرة .
  - حروبه في البحر الأحمر .
  - حروبه ضد الفرس .

الموضوع التاسع
سياسة جستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥م)
تجاه الغرب الأوروبى (حروبه فى إيطاليا)

مقدمة :

أصبح إمبراطور القسطنطينية هو الوحيد منذ عزل آخر الأباطرة الرومان فى الغرب الأوروبى وذلك فى عام ٤٧٦م. وتطلع جستنيان إمبراطور بيزنطة (٥٢٧ ـ ٥٦٥م) إلى إعادة فرض السيادة على الغرب الأوروبى وخاصة استعادة روما العاصمة القديمة. يضاف إلى ذلك أن سياسة القوط الشرقيين فى إيطاليا كانت تهدف إلى إقامة إمبراطورية جرمانية فى حوض البحر المتوسط مما دفع جستنيان إلى تنفيذ مشروعه. وقبل أن نتعرض لهذا المشروع نشير إلى أن الموضوع هنا لا يتناول عصر جستنيان وإنما سوف نركز فقط على سياسته تجاه الغرب الأوروبى وهو موضوع هذا الكتاب .

توليه الحكم :

ولد جستنيان بالقرب من أطلال سارديكا ـ مدينة صوفيا الحالية ـ من أسرة مغمورة وبعد تنقلها فى عدة أماكن استقر بها المطاف أخيراً فى بلغاريا. وكان لجستين الأول (٥١٨ ـ ٥٢٧م) الفضل فى تولية ابن أخيه جستنيان الحكم. وكان جستين قد عمل فى سلك الجندية واستطاع أن يبلى بلاءً حسناً فى الحروب التى جرت فى آسيا الصغرى، ثم فى حروب فارس ـ وسرعان ما تولى وظيفة التربيون ثم كونت وقائد. وأصبح عضواً فى مجلس السناتو وقيادة الحرس وتمكن من الحصول على إجماع الجنود ورجال الدين والشعب لكى يرتدى العباءة الإمبراطورية. غير أنه كان فى الثامنة

والستين، ولم يكن على درجة كافية من التعليم فساعده فى إدارة الأمور وزير ماليته بروكلوس، كما تبنى ابنِ أخيه جستنيان والذى كان شاباً طموحاً ذكياً تلقى تعليمه فى القسطنطينية .

لم يكن الأمر مهيئاً أمام جستنيان، فقد واجهته العديد من المصاعب ولكنه تمكن من التخلص من المنافسين الواحد تلو الآخر. كما استطاع عن طريق الكنائس والملاعب ومجلس السانتو فى القسطنطينية التقرب لشعبه. وأخيراً وافق السانتو على مشاركة جستنيان لجستين فى اللقب الملكى ولم يستمر ذلك سوى أربعة أشهر، حيث انفرد بعدها بالحكم لكى يستمر حكمه حوالى ثمانية عشر عاماً .

ثيودورا زوجة جستنيان :

لا يستطيع المؤرخ أن يتناول عصر جتسنيان دون أن يتحدث عن تلك الزوجة التى تركت بصماتها واضحة على أحداث هذا العصر. مات أكاكيوس والد ثيودورا تاركاِ ثلاث من البنات كانت إحداهن. واضطرت للعمل فى السيرك حيث كان يعمل والدها، ثم احترفت الرقص وأقامت فى دار صغيرة عملت فى غزل الصوف لسد حاجتها. والتقت بجستنيان الذى تعلق بهاغير أنه منعه من الاقتران بها وجود قانون يمنع الزواج الملكى بمثل هؤلاء النسوة ذات الأصل الوضيع أو ممن عملن فى المسرح. وسرعان ما تغلب جستنيان على معارضة القصر لهذا الزواج، ثم أصدر قانوناً عن طريق جستين فتح باب التوبة أمام هؤلاء النسوة وأجاز لهن الزواج بأبرز الشخصيات الرومانية. وسرعان ما أخذ نجم ثيودورا فى الظهور وذلك بعد زواجها من جستنيان وأثبتت الأيام مكانتها ودورها إلى جانب زوجها. وبرز ذلك فى أثناء تلك الثورة التى عرفت باسم نيقا Nika (بمعنى انتصر) وذلك

بعد خمس سنوات من بداية حكمه وكادت تطيح به من فوق عرشه لولا ثبات ثيودورا وذلك فى عام ٥٣٢م. وفى ظل هذه الظروف العصيبة سجل لها التاريخ هذه الكلمات عندما أحست برغبة جستنيان فى الهرب :

«إذا كان الهروب هو الوسيلة الوحيدة للنجاة، فإنى أربأ بنفسى أن أهرب، وأن الموت هو مآل كل حى، وما ولدنا إلا لنموت، ولا يجوز لمن تولوا الملك أن يبقوا على قيد الحياة بعد فقدان ملكهم ومنزلتهم الرفيعة، وإنى لأدعو الله ألا يمد فى أجلى ولو يوماً واحداً بدون تاجى وحلتى الإمبراطورية، وألا أرى النور فى اللحظة التى لا يعود فيها الشعب يدعوننى بالملكة. وإذا اعتزمت الهروب فإن لديك ثروة وكنوزاً، وأن لديك سفناً، ولكن تدبر، حتى لا تعرض رغبتك فى الحياة إلى الانزواء فى منفى كئيب أو إلى ميتة شائنة، أما أنا فسوف ألتزم الحكمة القديمة القائلة بأن العرش مثوى كريم» .

وقعت هذه الكلمات وقع السحر على جستنيان، حيث قرر مواجهة الموقف. فأرسل قوات بقيادة بلزاريوس ومندوس حيث أطبقت على الثائرين الذين سقط منهم الآلاف قتلى كما تم إعدام القواد ونكل بهم وهدمت قصورهم وصودرت أموالهم .

وبالإضافة إلى ما سبق من العوامل الشخصية التى أهلت جستنيان، فقد كانت لديه موهبة أخرى تمثلت فى اختياره لذوى الكتابات الممتازة. وارتبط به عدد من الأسماء مثل نارسيس Narses وبلزاريوس Belisarius فى فن الحرب والقتال، وانثيميوس Anthemius فى مجال البناء خاصة فى كنيسة أيا صوفيا. وفى المجال القانونى يأتى المشرع تريبونيان Tribonian. أما يوحنا الكبادوكى John of Cappadocia فقد كان من أفضل وزراءه فى المجال

المالى. ولا يمكن أن نغفل فى هذا المجال المؤرخ بروكوبيوس Procopius صاحب التاريخ المشهور والمعروف بالتاريخ السرى Historia Secreta. وكان لوجوده فى البلاط، ثم عمله سكرتيراً للقائد بليزاريوس. ويرجع مولده إلى القرن الخامس ثم درس المحاماة، وكان تعيينه فى عام ٥٢٧م. واختلفت الآراء حول تاريخه الذى تضمن ثمانية كتب تناولت مختلف جوانب عصر جستنيان وقامت حروبه. واستكمل هذا التاريخ مؤرخ آخر هو أجاثياس Agathius.

حروب جستنيان فى الغرب :

عندما اعتلى جستنيان العرش كانت الإمبراطورية فى حالة من الانتعاش والخزانة عامرة بالمال، وتشعبت سياسته فى الداخل والخارج. ولكننا هنا سنقتصر على سياسته فى الغرب الأوروبى وذلك فيما يتعلق بموضوعنا. وهذا المجال كان يمثل أهمية قصوى بالنسبة للإمبراطور والذى كان حريصاً على جعل الحكم مطلقاً بيده. والعمل بكافة الوسائل على إعادة مجد الإمبراطورية القديمة خاصة فى إيطاليا وإسبانيا. وكان جيشه يتألف من المشاه والفرسان المسلحين ومن أجناس مختلفة، بل ضم العناصر الجرمانية. وأمكنه بفضل هذه الكتائب تحقيق الكثير من الانتصارات الحربية .

وكانت حربه ضد الفرس فى الفترة ما بين ٥٢٧ ـ ٥٣٢م هى أول تجربة عملية اختبر فيها قوة جيشه. ونجح بلزاريوس فى إحراز النصر على الفرس فى معركة «دارا» حيث تم عقد صلح أنهى المرحلة الأولى من العداء. ولكى يتفرغ بعدها لمرحلة جديدة وهى صراعه ضد الغرب وخاصة ضد الوندال ثم القوط سواء فى إيطاليا أو إسبانيا. أما فيما يتعلق بحربه ضد الوندال فقد نجح فى إرسال قواته إلى الشمال الأفريقى حيث كانت مملكة

الوندال وسقطت قرطاج وعاد الساحل الأفريقى لحكم الإمبراطورية الرومانية.

الحرب القوطية :

تفككت مملكة القوط الشرقيين فى إيطاليا بعد وفاة ملكها ثيودريك العظيم فى عام ٥٢٧م، ثم خلفه على العرش ثيوداهات الذى كان خاملا غير محبوب من شعبه. يضاف إلى ذلك العداء بين القوط والرومان بسبب النواحى الدينية حيث نظر الرومان إلى القوط على أنهم هراطقة. ثم جاءإعدام أما لاسنتا لكى يحرك جستنيان متخذاً ذلك ذريعة لمهاجمة القوط فى إيطاليا .

خرج بلزاريوس على رأس قوات بحرية توجهت إلى الاستيلاء على جزيرة صقلية واستطاع إخضاع العديد من المدن بها ولم تصمد سوى باليرمو والتى لجأ القائد البيزنطى إلى حيلة بارعة لإخضاعها. ونجح فى ذلك. قام الأسطول البيزنطى بعبور مضيق مسينا حيث سار والقوات البرية متجهين إلى نابلى وفرضا حصاراً عليها. وكان رجال بليزاريوس قد حاولوا قطع إمدادات المياه عن المدينة، واستغلال إحدى القنوات القديمة للدخول عبرها. وبعد حصار دام عشرين يوماً سقطت نابولى فى قبضة البيزنطيين ومنع بليزاريوس رجاله من أعمال السلب والنهب بها. وفى أثناء ذلك أرسل البابا سليفريوسSilverius (٥٣٦ ـ ٥٣٧م) إلى بليزاريوس لإقناعه بالقدوم إلى روما وأنها سوف تسلم إليه دون مقاومة .

سقوط روما (٥٣٦م) :

استمر زحف القوات البيزنطية تجاه الشمال حيث حاصرت روما فى عام ٥٣٦م. وبينما كان بليزاريوس يدخل من أحد أبوابها، فرّ القوط خارجها. وهكذا عادت روما مرة أخرى إلى الرومان ـ كما يقول بروكوبيوس. وأخذ

بليزاريوس يستعد لمواجهة عودة القوط مرة أخرى، فقام بتحصين روما خاصة الأسوار، كما قام بتخزين القمح فى مخازنن الغلال والذى جلبه من صقلية، كما جلب المؤن الأخرى من الريف استعداداً لهذه الحرب الطويلة .

أما القوط فقد ثاروا على ملكهم ثيوداهات وقاموا بخلعه، وأقاموا بدلا منه ضابطاً صغيراً، ولكنه تميز بالشجاعة وكان يدعى ويتجز Witiges. وعاد القوط بقيادته مرة أخرى لمحاصرة روما فى الوقت الذى كان بليزاريوس متحصناً بداخلها. وقام بإغلاق أبوابها جميعاً لكى يمنع خروج الرومان منها أو دخول القوط إليها. وحاول القوط استخدام سلاح المياه، حيث عانى بليزاريوس من ذلك معاناة شديدة، كما أن طول الحصار والذى بلغ نحو سنة وتسعة أيام زاد من هذه الصعوبات. واستمرت محاولات كل جانب من أجل إحراز النصر، حتى أن الرومان ادعوا أنهم قتلوا ثلاثين ألفاً من القوط. وفى أثناء ذلك كان بليزاريوس قد أرسل فى طلب الإمدادات من القسطنطينية، واستطاع أن يوفر حراسة شديدة على أبواب المدينة ويراقب أسوارها، وبدأت الإمدادات تصل إليه لكى تنتهى المحاولة الأولى من جانب القوط فى استعادة روما مما اضطر ويتجز إلى الانسحاب والارتداد. وكان من بين العوامل التى أدت إلى ذلك معاناتهم من نقص المؤن حيث انتشرت المجاعة، كذلك كان لانتشار الطاعون أثره فى ابتعادهم. أما بليزاريوس فقد وصلت إليه المؤن والإمدادات التى كان قد أرسل فى طلبها وذلك إلى ميناء نابولى. فأرسل المؤرخ بروكوبيوس لإحضارها ويشرح لنا بصورة تفصيلية ما قدم به من دور فى هذه الفترة الهامة وذلك بدقة متناهية. كما ساعد على انسحاب القوط أيضاً وصول إمدادات أخرى من الفرسان حيث وصلت إلى روما. فى الوقت الذى كانت فيه فرق من الرومان خارج روما نجحت فى استعادة مدن

أخرى، مثل ميلانو نفسها، والتى استعادها دانيوس أسقف ميلانو، والمناطق المحيطة بها وذلك من أجل الإمبراطور جستنيان .

سقوط رافنا عاصمة القوط :

عانى شمال إيطاليا من صعوبات جمة فى أثناء الصراع ما بين البيزنطيين والقوط فبالاضافة الى أثر هذه الحروب، وكذلك الأمراض مما أدى إلى موت الآلاف كما يذكر بروكوبيوس فى تاريخه. واستطاع القوط الاستيلاء على ميلانو مرة أخرى وقاموا بقتل الآلاف من سكانها، وبيعت النساء فى أسواق الرقيق. وفى اثناء ذلك لجأ الجانبان إلى محاولة إنهاء هذه المرحلة بالتوصل إلى اتفاق ينهى الصراع. فعرض القوط على بليزاريوس أن يكون ملكاً عليهم فوافق. ولكن بعد دخوله رافنا، حنث بوعده وقبض على ويتجز وأخذه معه عائداً إلى القسطنطينية. وعندما عاد بليزاريوس طغت شعبيته على الإمبراطور نفسه، والتى أدت إلى كراهيته له وحرمته من تحقيق نصر كامل. فقد كان الناس يحرصون على مشاهدته عند خروجه من منزله أو العودة .

توتيلا زعيماً للقوط :

عمل القوط على إعادة ترتيب أنفسهم مرة أخرى بعد أسر ملكهم السابق، ووقع اختيارهم على توتيلا Totilla لكى يكون ملكاً عليهم فى عام ٥٤١م. واستطاع فى وقت وجيز أن يجهض انتصارات بليزاريوس السابقة، فقد استعاد فلورنسا وفيرونا ومدن توسكانيا، ثم توجه جنوباً إلى نابولى فاستعادها حيث عاملها معاملة طيبة. وفى ظل هذه الظروف عاد بليزاريوس مرة أخرى لكى ينقذ روما التى كان توتيلا قد دخلها أيضاً فى ديسمبر ٥٤٦م. وكاد يدمر المدينة لولا استجابته لنصيحة قدمت إليه ونجح بعد ذلك

فى استعادة المناطق الجنوبية، واتخذ من روما عاصمة له.

لم تكن القوة التى حضر بها بليزاريوس فى هذه المرة كافية لكى يستعيد ما حققه من انتصارات سابقة، واكتشف توتيلا ذلك عن طريق جواسيسه، حتى أن بروكوبيوس ينقل إلينا نص خطاب من بليزاريوس إلى جستنيان يطلب فيه إرسال المؤن فلم يكن لديه أسلحة أو خيول أو أموال وهى الأشياء التى يحتاج إليها الرجل إذا كان عليه أن يشن حرباً بطريقة ملائمة. وبخبرة بلزاريوس يذكر أن الرجال الموجودين فى إيطاليا لم تكن لديهم خبرة فى القتال، كما أن القوات الموجودة بها من البيزنطيين كانت قليلة، ومعنوياتهم ضعيفة بعد أن تعرضوا لهزائم عديدة .

وصلت الإمدادات بقيادة نارسيس Narses والذى حضر بعد فشل بليزاريوس فى استعادة روما. وقرر البدء بشمال إيطاليا لإزعاج توتيلا، الذى حاول التوصل لاتفاق مع الإمبراطور، إلا أن جستنيان رفض ذلك العرض. وحسم الصراع معركة فاصلة عند تادينو. واستطاع نارسيس استخدام سلاح المال، وتمكن من تحويل حلفاء القوط إليه. وتمكن من إلحاق الهزيمة بتوتيلا والذى لقى حتفه فى عام ٥٥٢م. وهكذا انتهت مملكة القوط الشرقيين فى إيطاليا حيث استسلمت بقية الحاميات القوطية ما بين عامى ٥٥٥م و ٥٦٣م حيث عادت إيطاليا ولاية بيزنطية. غير أن ذلك الغزو جعل إيطاليا تدخل فى فترة تاريخية جديدة وذلك بعد غزو اللمبارديين لها فى عام ٥٦٨م .

نتائج الحرب القوطية :

لا شك أن هذه الحرب تركت أثرها على كل من إيطاليا والدولة البيزنطية، ويحدد لنا كانتور ذلك فى النقاط التالية :

أولاً: عانت إيطاليا من ضربة قاسمة لم تفق منها حتى القرن العاشر. فقد حدث نقص شديد فى عدد السكان، خاصة فى كبريات المدن الإيطالية، حتى أن أحد المعاصرين كتب «لم يبق لسكان إيطاليا شىء سوى الموت» .

ثانياً: تدهورت أحوال إيطاليا بشكلٍ فاق ما تعرضت له أثناء الغزوات الجرمانية، وفقدت زعامتها الاقتصادية والثقافية حتى أواخر القرن الحادى عشر .

ثالثاً: مثلت هذه الحرب عبئاً شديداً على بيزنطة حتى جعلت جستنيان يعيد فرض الضرائب بصورة أسوأ من قبل. ولذا نجد بروكوبيوس يصف جستنيان بأنه غشاش ومخادع ومحتال وغيرها من الأوصاف .

رابعاً: ألقى البعض مسئولية سقوط الأجزاء الغنية من الإمبراطورية البيزنطية فى يد العرب ـ فى القرن التالى ـ على جستنيان وذلك لأنه استنفذ موارد الدولة فى هذه الحروب بحيث أن الأباطرة من بعده لم يجدوا المال أو الرجال للحفاظ على الحدود .

ويضيف كونجزبرجر أن المؤرخين اتهموا جستنيان بإضاعة مصادر ثروات إمبراطوريته فى حروب لا طائل من وراءها بدلاً من أن يكرسها فى ولايته الشرقية وهكذا فإنه لم يوفر حماية آمنة لها من الكوارث التى ربما تحل بها. ولكن على أية حال فإن مثل هذه الاعتبارات لم تكن واردة فى الثلاثينيات من القرن السادس الميلادى .

خامساً: أما مدينة روما فقد عانت بصفة خاصة من هذه الحروب. فقد تم الاستيلاء عليها واستردادها خمس مرات خلال عصر جستنيان. وكان توتيلا قد أحرق أجزاء كبيرة من المدينة، وكذلك فى الأسوار.

وانخفض عدد سكانها إلى حوالى عشرين ألف نسمة. غير أن هناك عاملاً آخر حافظ على بقاءِ هذه المدينة، فقد كانت قوة الكنيسة المسحية التى استمرت تجذب تدفق الحجاج .

حروب جستنيان فى إسبانيا (ضد القوط الغربيين) :

كان القوط الغربيون قد استقر بهم المقام فى إسبانيا بعد تنقلهم فى العديد من أنحاء الغرب الأوروبى. ويرجع الفضل فى فتوحاتهم جنوب بلاد الغال إلى ملكهم ثيودريك الأول (٤١٩ ـ ٤٥١م) وذلك على حساب العديد من العناصر الجرمانية الأخرى. وواصل خلفه ثيودريك الثانى (٤٥١ ـ ٤٦٥م) سياسته حيث توسع فى إسبانيا ولكنه لقى حتفه على يد أخيه أيورك (٤٦٥ ـ ٤٨١م) والذى يعتبر واحداً من أبرع ملوك القوط الغربيين وذلك بما وضعه من أنظمة وغيرها .

أما عن تدخل جستنيان فى إسبانيا فيرجع إلى عدة أسباب من بينها:

أولاً: الصراع بين البيزنطيين والقوط الغربيين حول سبتة الواقعه على الشمال الأفريقى. فقد كان بليزاريوس قد استعادها من القوط وذلك فى أثناءحملته على الوندال،وحاول القوط استعادتها مرة أخرى وفشلوا فى ذلك .

ثانياً: استغل جستنيان الصراعات الداخلية فى مملكة القوط، ومقتل ملكهم ثيورس، وكذلك ضعفها بعد تعرضها للهزيمة على يد الفرنجة .

وبالفعل أرسل جستنيان إلى قواته المتواجدة فى الشمال الأفريقى، حيث عبرت إلى إسبانيا من هناك وتمكنت من إحراز الانتصار على أجيلا ملك القوط وذلك فى عام ٥٥٤م. ونجح البيزنطيون فى الاستيلاء على المدن الجنوبية على الساحل الإسبانى وبعض المدن

الهامة مثل إشبيلية ومالقة وقرطاجنة، وقرطبة. وعبثاً حاول القوط استعادة هذه المدن ولكنهم فشلوا فى ذلك وعقدوا معاهدة احتفظ كل منهما بما فى يديه من أملاك. كذلك نجح الأسطول البيزنطى فى استعادة الجزر الكبرى فى غربى البحر المتوسط وخاصة جزر البليار. وهكذا فقد نجح البيزنطيون فى فرض سيادتهم على معظم ساحل البحر المتوسط سواء على الساحل الأفريقى أو الساحل الإسبانى وكذلك فى إيطاليا. وسرعان ما سيتغير هذا الوضع بعد ظهور الإسلام وخروج العرب لفتح معظم هذه النواحى. وبالرغم مما حققه بليزاريوس من أمجاد إلا أن غيرة جستنيان من قائده الذى خدمه فى إحدى المؤامرات والتى ثبتت بعدها براءته منها، عجلت بوفاته بعد ثمانية أشهر من إطلاق سراحه. ويقول إداورد جيبون أن اسم بليزاريوس لن يمت أبد الدهر،... وهذه هى القصة البسيطة الصادقة لسقوط بليزاريوس وجحود جستنيان .

ثانياً : السياسة الشرقية فى عهد جستنيان :

جستنيان والفرس والغساسنة :

شكل الفرس عنصراً منافساً للرومان منذ زمن بعيد. ولجأ الجانبان المتنافسان الى استخدام العناصر العربية كوسيلة فى حربهما. ففى الوقت الذى استخدم فيه الفرس امراء الحيرة، لجأ جستنيان إلى عرب الغساسنة. وهكذا فقد نجح فى تحقيق هدفين: الأول إقامة توازن مع امارة الحيرة، والثانى ضمان عدم اعتداء هذه القبائل على دولته. كما أنهم اعتنقوا المسحية مما زاد من توثق العلاقة مع جستنيان. ثم حدث تعاون أيضا مع العرب الغساسنة والذين اقاموا لهم مملكة فى بلاد الشام حيث تولى حكمهم

زمن جستنيان القائد الشهير الحارث بن جبلة الغسانى وحصل على القاب عديدة من الرومان لم يحصل عليها قائد أو شيخ عربى من قبل. ومن بينهما الصفى والملك والأمجد والشريف وغيرها. وبدأ جستنيان يستخدم الحارث فى مهاجمة الحيرة ـ التابعة للفرس ـ ونجح فى إنزال الهزيمة بالمنذر أمير الحيرة وذلك فى عام ٥٢٥م. كما استخدمه جستنيان فى القضاء على ثورة السامريين مما أدى إلى اعتماد الامبراطور عليه اعتماداً كبيراً. كذلك عاون القائد البيزنطى بلزاريوس فى معركة الرقة ضد الفرس والتى على الرغم من أنها لم تحسم الصراع بين الجانبين .

وفى المجال الدبلوماسى نجح الحارث فى إقناع أبرهة الحبشى حاكم اليمن فى الانضمام إلى جانب بيزنطة فى حربها ضد الفرس وذلك غام ٥٣٩م. واستمرت الحرب سجالاً بين المنذر وأمراء الحيرة وهى فى الحقيقة حرباً بين بيزنطة والفرس. وواصل الحارث حروبه ضد الفرس فى عام ٥٤١م حتى وصل الى الأراضى القريبة من نصيبين بعد أن عجز بلزاريوس على أحتلالها مما أجبر كسرى على الأنسحاب بقواته التى كان يحاول بها الوصول إلى البحر الأسود .

استمر الحارث فى ممارسة دوره على الرغم من توقيع هدنة بين بيزنطة والفرس وذلك فى عام ٥٤٥م لمدة خمس سنوات وتم تجديدها مرة أخرى. وظلت الحرب دائرة بين الغساسنة وعرب الحيرة حتى تمكن الحارث من قتل المنذر نفسه فى عام ٥٥٤م فى تلك المعركة التى عُرفت فى المصادر العربية«بيوم حليمة». وهنا نجد جستنيان يتدخل حتى لا تشيع نطاق هذه الحرب فتوسط بدفع فدية لابناء المنذر أخذ يسددها طوال حياته ـ ثم توقف فى عام ٥٦٢م بعد توقيع معاهدة السلام مع الفرس .

عمل جستنيان فى هذا المجال الشرقى بالنسبة لحدوده مع الفرس على استغلال كافة الوسائل من دبلوماسية سواء عن طريق الهدايا أو الألقاب أو اللجوء إلى استخدام القبائل العربية ضد الفرس، وذلك لتأمين حدود دولته فى هذه المنطقة مستقلاً ما عرف حديثاً من استخدام «الدولة الحاجزة» فى تلك السياسة. ولا شك أنه نجح فى ذلك إلى أقصى حد .

الصراع بين الفرس وجستنيان حول البحر الأحمر :

شكل البحر الأحمر أهمية خاصة بالنسبة للفرس من ناحية ولجستنيان من ناحية أخرى. فقد كان شريان التجارة الرئيسى ومحاولة التحكم أما فى اليمن أو الحبشة اللتان تقعان على مدخله الجنوبى. وكانت المحاولات التبشيرية بالمسيحية هى المدخل إلى هذه المنطقة حيث وصلت المسيحية الى هناك، وكذلك لكسر السيطرة الفارسية على التجارة البحرية وخاصة تجارة الحرير فى هذه المنطقة. وأصبحت الحبشة هى السوق العالمية للتجارة خاصة فى ميناء عدول Adulis الحبشى. ولكن اليهود لم يفوتوا هذه الفرصة وحاولوا أيضا السيطرة على هذه التجارة بعد نجاحهم فى تهويد «ذو نواس» والذى قام بأعمال التنكيل بالنصارى فى اليمن. ولم يقف عند هذا الحد بل قام بقتل التجار المسيحيين ومنعه للقوافل التجارية عبر بلاد اليمن. وينسب إليه أيضا تلك المذبحة البشعة التى اقترنها فى حق نصارى نجران .

وكان لابد من تحرك الحبشة والبيزنطيين معاً ضد هذا الخطر الذى هدد دولتهم فخرجت حملة بقيادة أرياط الحبشى بدعم ومساندة من البيزنطيين والتى نجحت فى قتله والتخلص من ذى نواس. وعادت اليمن خاضعة للنفوذ الحبشى. وهنا نجد جستنيان يحاول تحقيق مكاسب سياسية واقتصادية من عدوه فى الشرق (الفرس). وبالفعل اعلن ملك الحبشة عدائه ضد قباذ

ملك الفرس وصداقته للبيزنطيين. وعبثا حاول جستنيان اقناع أصحاب السفن بدخول البحر الأحمر بدلاً من الخليج الفارسى (العربى) ولكن محاولاته باءت بالفشل. ثم أستمرت مجاولات جستنيان فى السيطرة على التجارة فى هذه المنطقة التجارية الهامة والتى نجح فيها نسبياً بنقل الجهود الدبلوماسية التى بذلها .

الحرب بين جستنيان والفرس :

اندلعت الحرب بين الفرس والبيزنطيين بعد فشل المفاوضات بينهما فى عام ٥٢٥م وذلك بسبب احتلال الفرس لاقليمى لازيقا وابيريا وهذا يعنى تهديداً مباشراً للبحر الأسود والوصول إلى القسطنطينية. وقامت القوات البيزنطية بمهاجمة بعض الأراضى الأرمينية الفارسية مقابل احتلال الفرس للاقليمين السابقين. وفى عام ٥٢٩ فشلت قوات بليزاريوس فى محاولاتها مهاجمة الفرس. وبسبب انشغال جستنيان فى حروبه فى الجبهة الغربية فقد لجأ إلى مهادنة الفرس حتى لا يحارب فى جبهتين فى وقت واحد. ولكن ثمة عوامل عرقلة التوصل إلى اتفاق ومنها الخلاف على منجمين للذهب على الحدود الأرمينية ـ الفارسية، وتدخل السامريين فى فلسطين واقناعهم قباذ ملك الفرس بمهاجمة هذه المناطق لما فيها من ثروات. وفشلت محاولة الفرس لمهاجمة دارا فى عام ٥٣٠م وتعرضوا للهزيمة ولكنهم سرعان ما عوضوا هذا الفشل فى معركة أخرى عند الرقة عام ٥٣١م تعرض فيها بلزاريوس للهزيمة. ثم اعتلى عرش الفرس كسرى حيث دخل فى مفاوضات مع البيزنطيين وذلك فى عام ٥٣٢ وأملى فيها شروطه التالية :

١ ـ جعل مدينة دارا منزوعة السلاح .

٢ ـ اعادة مناجم الذهب المتنازع عليها للفرس .

٣ ـ اعادة قلعتى بولون وفاراجيون للفرس .

٤ ـ دفع البيزنطيين ألف رطل من الذهب سنويا .

٥ ـ حماية الفرس لممرات القوقاز .

٦ ـ ايبريا تحت سيطرة الفرس .

٧ ـ إعادة لازيقا للبيزنطيين .

على الرغم من إجحاف هذه الشروط إلا أن الامبراطور البيزنطى قبلها وذلك بسبب انشغاله بحروبه فى الشمال الأفريقى. واستغل جستنيان السنوات السبع التالية فى تحقيق كثير من الانجازات فى حروبه فى الغرب الأوروبى .

ولكن ثمة عوامل أدت إلى نقض الصلح السابق بين الطرفين مما أدى إلى توتر فى العلاقات واشتعال الحرب بينهما من جديد وذلك فى عام ٥٤٠م. خاصة وأن كسرى استغل إنشغال جستنيان بحروبه فى الغرب الأوروبى. ولم يستطع القائد البيزنطى لقوات الشرق التصدى للفرس فى هذه المرحلة. ونتج عن ذلك أيضا تعرض أنطاكية للدمار على يد القوات الفارسية بعد أن رفضت دفع الفدية للملك الفارسى. وعندما علم جستنيان بهذا التهديد أرسل يستدعى بلزاريوس لمواجهة هذا التهديد الفارسى ـ واستغل الحارث بن جبلة فى مساعدته وتقدمت القوات البيزنطية والعربية وتمكنا من أحراز انتصار مؤقت. ثم عادت بعدها إلى موطنها وذلك فى عام ٥٤١ ـ ٥٤٢م .

واستمرت الحرب سجالاً بين الطرفين، خاصة محاولات الفرس الاستيلاء على الرها فى عام ٥٤٤م ـ مما جعل جستنيان يقدم على

التفاوض مع الفرس وعقد معاهدة جديدة معهم لمدة خمس سنوات. ثم جددت مرة أخرى بعد اضافة تعديلات عليها. وظل الحال على هذا النحو الى أن تم توقيع هدنة عام ٥٥٧م تعتبر بداية السلام الفعلى بين الجانبين .

ومرة أخرى مال جستنيان إلى عقد معاهدة طويلة الأمد، وهو ما أسفرت عنه المفاوضات بين الجانبين فى عام ٥٦٢م كانت مدتها خمسون عاماً ـ اشترطت دفع البيزنطيون لمبلغ قدره ٣٠ ألف رطل من الذهب، وشروط أخرى مماثلة للمعاهدة السابقة بشأن مدينة دارا وحماية ممرات القوقاز ـ وضمت أيضا العرب الموالية للجانبين ـ حرب الحيرة والغساسنة. بالإضافة إلى نظام الجمارك والزيارات المتبادلة بينهما .

السياسة تجاه الفرس حتى نهاية أسرة جستنيان

(٥٦٥ ـ ٦١٠م)

على الرغم من شروط الهدنة السابقة إلا أنها نُقضت فى عهد الإمبراطور جستين الثانى (٥٦٥ ـ ٥٧٨م) ورفض دفع المبالغ المتفق عليها فى الهدنة السابقة. وتجدد الصراع بين الجانبين حول أرمينيا التى كانت تمثل أهمية اقتصادية واستراتيجية خاصة للجانبين. وكان الفشل من نصيب البيزنطيين ـ فقد سقطت دارا فى قبضة الفرس مما ترك أثره على الامبراطور البيزنطى الذى أُصيب بالجنون. وألزم الفرس البيزنطيين دفع جزية مقدارها ٤٥ ألف قطعة ذهبية .

ثم تجددت الحرب من جديد زمن الإمبراطور طيبريوس (٥٧٨ ـ ٥٨٢م)، وكذلك فى عهد موريس (٥٨٢ ـ ٦٠٢م) والذى استغل طلب كسرى الثانى التدخل من البيزنطيين لمساعدته. واشترطت بيزنطة عقد السلم بينهما فأنهى ذلك هذه المرحلة من العلاقات بين الفرس والبيزنطيين لكى تعقد هدنة جديدة بين الجانبين فى عام ٥٩١ تنازل بموجبها عن أرمينية للبيزنطيين وكذلك الجزء الشرقى من اقليم الجزيرة بما فيه من مدينة دارا المتنازع عليها طيلة الفترة السابقة، كذلك اعفى بيزنطة من دفع الجزية التى كانت تقوم بدفعها وفى أواخر عصر أسرة جستنيان أو فى عهد فوقاس (٦٠٢ ـ ٦١٠م) على وجه التحديد تجدد الصراع مع الفرس ولكن لم يحرز مكاسب للبيزنطيين. وعانى من العديد من المتاعب فى الداخل والخارج .

السياسة الخارجية حتى نهاية أسرة جستنيان

ضد اللمبارديين فى شمال ايطاليا :

تقدم اللومبارديون Longobards - Lombards إلى نهر الدانوب والأودر ثم الى بانونيا واعتنقوا المسيحية على المذهب الآريوسى وكانوا يعتبرون من اكثر العناصر الجرمانية بدائية ووحشية .

وكان جستنيان قد استعان بهم وذلك عندما استخدمهم قائده نارسيس فى عام ٥٥٢م ضد القوط الشرقيين فى أثناء الحرب القوطية ـ مما جعلهم ينظرون الى ثروات ايطاليا. واندفع اللمبارد إلى الشمال الايطالى عام ٥٦٨م تحت قيادة ملكهم ألبوين ورحبت المدن الإيطالية بهم ولم تستطع المدن التى كان بها بعض الحاميات البيزنطية مقاومتهم واتخذوا من باڤيا عاصمة لهم وعرفت هذه المنطقة باسمهم وصارت تعرف بسهل لمبارديا .

وبعد وفاة ملكهم ألبوين اصطدموا مع البيزنطيين ولكنهم استطاعوا مد نفوذهم جنوبا واقاموا دوقيتى سبولتو وبنفنتو ـ كما ضموا أقليم بروفانس. وهكذا فقد تقاسموا السلطة فى ايطاليا مع البيزنطيين والبابوية .

وفى الفترة من عام ٥٨٤ إلى ٥٩٠م حاول اوتارى ملك اللمبارديين اعادة السلطة الملكية مرة أخرى على هذه الدوقيات بعد انقسامها ـ كما عملت بيزنطة على التحالف مع الفرنجة ضدهم وفشلت فى ذلك واستمر اللمبارديون فى إرساء دعائم حكمهم فى ايطاليا .

وفى أواخر عصر أسرة جستنيان قام البيزانطيون بنقض المعاهدة المعقودة مع اللمبارديين فقام اجيولف بضم بادوا ومانتوا فى عام ٦٠٢ مما اضطر الامبراطور البيزنطى فوقاس إلى عقد صلح معهم ودفع جزية سنوية للمبارديين .

ويلخص رانسيمان سياسة أفراد أسرة جستنيان بقوله أن الآفار انقضوا على الامبراطورية البيزنطية من جهة الشمال وغزا اللومبارد أيطاليا مما أدى إلى أصابة جستين الثانى بانهيار عقلى. ثم ترك طيبريوس معظم ايطاليا وتراجع نائب الامبراطور الى رافنا وإحتفظت الدولة بخط الساحل الجنوبى وأصبحت روما شبه مستقلة تحت سيطرة البابوية فى الوقت الذى هوت فيه اسبانيا فى قبضة القوط الغربية ـ وحاول طيبريوس إبعاد الفرس والآفار. وعلى الرغم من ذلك فقد توالت انتصارات الآفار وانهال الصقالبة عليها من كل جانب. وحاول الامبراطور موريس وقف هذه الهجمات ضد الآفار وهزم الفرس ولكن ميزانية الدولة لم تتحمل ذلك فثار الجند وقتلوا زعيمهم ـ وكان آخر الأباطرة هو فوكاس (٦٠٢ ـ ٦١٠) انهالت على الدولة المصائب فى عهده حتى ظهر هرقل منقذاً لكى يبدأ عصراً جديداً فى تاريخ الدولة البيزنطية.(١)

(١) الحضارة البيزنطية، ص ٣٦ ـ ٣٧ .

السياسة الداخلية فى عصر أسرة جستنيان

التشريع :

جرت محاولات سابقة على عصر جستنيان لتجميع القانون والذى كان عبارة عن مجموعة من الأوامر الإمبراطورية ومثال ذلك ما حدث فى عام ٣٠٠م على يد جريجورى وهرموجنيان. ثم محاولات ثيودسيوس الثانى السابقة. وعندما تولى جستنيان رأى الكثير من القوانين المتناقضة والغموض مما جعله يقدم على ترتيب هذه القوانيين. وساعده على ذلك وجود المشرع الكبير تريبونيان القانونى والذى عين عشرة مندوبين لاستخلاص قانون من المجموعات السابقة وصدر ذلك فى عام ٥٢٩م. ثم عين بعد ذلك ١٦ مندوباً آخرين للاطلاع على حوالى الفى مؤلف وجمع القانون منها وصدر هذا المؤلف تحت عنوان الديجست Digest فى عام ٥٣٣م أصبح المرجع الرئيسى فى القانون.[١]

وفى العام التالى أصدرت مجموعة أخرى من القوانين عرفت باسم النظم Institutiones وهى خاصة بطلاب الدراسات القانونية. خاصة وأن بيزنطة كان بها مدارس لدراسة القانون مثل ما كان موجوداً فى القسطنطينية وبيروت. وكانت المدرسة الأخيرة قد تأسست فى العصر الرومانى واستمرت حتى العصر البيزنطى. وكان كبار الدارسين فى مجال القانون يدرسون فيها حيث تستغرق الدراسة خمس سنوات. وكان بها بعض العادات السيئة التى أصدر جستنيان قانونا بمنعها. ونظم الدراسة بها فى عام ٥٢٩م ـ ولكن زلزالاً أصاب المدينة فانتقلت بعدها إلى صيدا ولكنها لم تعد مثل شهرة بيروت فإندثرت مع مرور الوقت .

(١) أطلق عليه جستنيان مصطلح Pandects. وعن مختلف التسميات التى أطلقت عليه أنظر: محمد فتحى الشاعر: السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية، ص٩٣ هـ (٥٠) .

وكان يقوم بالتدريس فى المدرسيتين السابقتين ثمانية من الأساتذة وصدر لهم القانون السابق والمكون من أحد عشرة فقرة وضع فيه برنامج تدريس وما يدرس بها. وقرر جستنيان التدريس بهذه القوانين فى المدرستين السابقتين ـ وفرض غرامة قدرها عشرة أرطال من الذهب والطرد من المدينة للمخالفين. كما أوضح جستنيان للطلبة أهمية دراسة القانون وأنها الركن الأول لتحقيق العدالة فى المجتمع .

ومن أبرز المجموعات القانونية التى أصدرها جستنيان ما بين عامى ٥٤٥ ـ ٥٦٥م. ما عرف باسم المتجددات Novella Leges وهى تتعلق بكبار موظفى الدولة فيما يتعلق بالمسائل العامة، وكذلك بعضها يتعلق بالمسائل الكنيسية. وصدرت باللغة اليونانية فى غالبيتها ـ وقليل منها صدر باللاتينية وذلك لسكان مناطق ايلليريا وافريقية وايطاليا .

وتعد هذه المجموعة من أهم مصادر دراسة عصر جستنيان تمكن للباحث التعرف خلالها على أحوال الإمبراطورية فى عهده خاصة الجوانب الداخلية منها .

ملاحظات على التشريع فى عهد جستنيان :

أولاً: أن المسيحية لم تؤثر تأثيراً كبيراً على هذه القوانين على الرغم من أنها كانت قد أصبحت الدين الرسمى ـ وقد أحتفظت هذه القوانين الجديدة بالطلاق والرق .

ثانياً: ألغى جستنيان ما كان معروفا بحق التسليم فى الولد فى نظير الضرر ـ وهو الذى كان يبيح للوالدين أن يبيعوا أطفالهم تعويضا عما ألحقوه بأى انسان من ضرر ـ ويتضح الدور «الانسانى» فى هذا الجانب من قانون جستنيان .

ثالثاً: تحسين جستنيان لدور المرأة وحقوقها بوجه خاص. كحق الزوجة في الحصول من زوجها على أملاك تعادل صداقها، وحق الأرملة في الوصاية على أطفالها. ويتضح تأثير ثيودورا زوجة جستنيان في هذا الجانب .

رابعاً: حرصت قوانين جستنيان على ضرورة التزام حكام الأقاليم بكل القيم الأخلاقية وذلك لتحقيق العدل بين الرعية وكان ذلك من الأهداف الإساسية لجستنيان في الحكم. ومن أبرز انجازاته في الجانب الأخلاقي محاربته للبغاء باسلوب عملي. فقد أصدر لمسئولي الأمن القضاء على بيوت الدعارة وطرد تجار الفاحشة من العاصمة. كما وفر للتائبات مكانا أطلق عليه قصر التوبة ـ وكان لزوجته ثيودورا تأثيرها في هذا الجانب .

الاصلاح الإدارى والمالى فى عهد جستينان

عمل جستنيان على اصلاح الإدارة وذلك لكى يحقق المشاريع الضخمة التى كان يأمل أن يحققها ومنها استعادة مجد الامبراطورية. ومن أبرز هذه الاصلاحات الإدارية:

١- وضع المبادئ الأساسية لصاحب كل منصب وأن يقسم على الالتزام بها عند توليه هذا المنصب - ومن بينها الإلتزام بالمسيحية وطهارة اليد وجمع الضرائب والعدل بين الناس ومعاقبة المذنبين.

٢- توحيد السلطة فى قبضة حاكم واحد، والزامه بالزيارات الميدانية بنفسه للاطلاع على أحوال المنطقة المسئول عنها - وعدم تحقيق المكاسب الشخصية سواء هو أو أفراد حاشيته. كما منحهم سلطة الأشراف على جامعى الضرائب.

٣- عدم شراء المناصب الإدارية - والتعهد بحسن معاملة الرعية والاكتفاء بالراتب الذى يحصل عليه من الدولة - ومعاقبة المجرمين بقسوة.

٤- وضع رقابة على الموظفين - فمنح الاساقفة حق تلقى الشكاوى ضد حاكم الأقليم، ومشاركتهم فى الاستماع للشكاوى. كما منح بعض الأشخاص حق سلطة كتابة تقارير ضد الحاكم. كما اعاد القانون الصادر فى عصر الامبراطورية زينو والذى كان يجبر حاكم الأقليم بالبقاء لمدة خمسين يوماً بعد انقضاء مدة خدمته وذلك للرد على أيه اتهامات ضده.

٥- عمل جستنيان على عدم الصدام بين السلطتين الإدارية والعسكرية فأعطى لحاكم الأقليم سلطات على الأقليم سواء بالنسبة للجوانب العسكرية أو الإدارية. كما أنه فى بعض الحالات الاستثنائية كان يمنح

بعض الحكام سلطات أعلى، كما حدث فى اقليمى بنطس وتراقيا.

٦- كان الفضل فى هذه الاصلاحات الإدارية لذلك الكفء وهو يوحنا القبادوقى John the Cappadocian - والذى شغل هذا المنصب نحو عشر سنوات صدرت خلالها معظم التشريعات الإدارية السابقة.

أما عن الاصلاحات المالية فمما لاشك فيه أن جستنيان كان بحاجة ماسة إلى ما يدعم تنفيذ مشروعاته الطموحة ولذلك فقد عمل على تنفيذ سياسة تهدف إلى زيادة موارده المالية. واعتمد فى ذلك على تنظيم بعض الضرائب القديمة، وفرض ضرائب جديدة - وتخفيف المعاناة عن بعض طبقات الشعب - ونجح فى هذه السياسة إلى مدى بعيد.

ومن بين الضرائب الجديدة ما أطلق عليه ضريبة الهواء أو السماء، وقد انفرد بروكوبيوس - مؤرخ عصر جستنيان - بالإشارة اليها - ولم يحدد على أى نوع فرضت هذه الضريبة - ولكن على أى حال نجد انها دعمت الميزانية بمبالغ كبيرة.

كذلك فرض ضريبة على أصحاب المحلات التجارية فى العاصمة تساوى ٥٠ ٪ من صافى ارباحهم السنوية مقابل عدم التقيد بالأسعار المحددة. كذلك فرض ضريبة على السفن التجارية التى تدخل إلى الميناء ، كما أقام مناطق جمركية ومنح العاملين فيه حوافز، وذلك لحثهم على جمع الضرائب وزيادة موارد الدولة.

أما الضرائب القديمة فقد اعاد جستنيان تنظيمها - مثل الضريبة التى تنص على ضرورة دفع ملاك الأراضى المنتجة للضريبة المستحقة عن الأراضى المجاورة لهم والتى أصابها البوار. فنظم قانون صدر عام ٥٤٥م هذه الضريبة. كما حول جستنيان الرسوم المفروضة فى المجالس المحلية إلى سلطته المباشرة - كما تقشف فى بعض الموارد، فألغى المنح التى كانت تعطى

للجنود والأطباء والمدرسين. كذلك تدخل فى بعض الظروف لفرض الأسعار بعد أن تجاوزت الحد المقبول كما حدث فى عام ٥٤٤م. وفى أحيان أخرى كان يلغى بعض المتأخرات من الضرائب فى حالة حدوث كوارث أو تعرضها للهجوم من جانب العدو. وأعفى أقليم ايلليريا من الضرائب المتأخرة عليه وذلك فى عام ٥٥٣م.

وعلى الرغم من جهود جستنيان فى هذا الجانب المالى إلا أنه تعرض للنقد وذلك بسبب ارهاقه لميزانية الدولة فى تلك الحروب الشاسعة التى خاضها ومابذله من هدايا وهبات فى حروبه الشرقية.وضاع ما حققه من مكاسب بعد موته فى حروبه الشرقية أيضاً مما أضاع ما حققه من مكاسب بعد موته.

السياسة الدينية فى عهد جستنيان:

مجمع القسطنطنية (الثانى ٥٥٣م):

عمل جستنيان على إيجاد حل وسط يحل به المشاكل الدينية التى كانت تعانى منها لابلاد خاصة وأن مناطق كثيرة كانت تأخذ بمبدأ الطبيعة الواحدة وأخرى خاصة القسطنينة بالملكانيين. ولمحاولة إرضاء أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة استمع إلى نصيحة لأسقف قيسارية وفلسطين وكاتم أسرار الامبراطورية باصدار ما يعرف باسم الفصول الثلاثة وتتعلق بمؤلفات ثلاثة من رجال الدين. ولقى هذا الأمر معارضة من الأساقفة الخلقدونين وأنضم اليهم البابا فيجليوس.

ثم عقد مجمع آخر فى القسطنطنية عام ٥٥٣م – ضم ثلاثة بطاركة و ١٦٥ أسقفا – وأعلن المجمع الذى عقد برئاسة بطريرك القسطنطنية أن مؤلفى الفصول الثلاثة والمدافعين عنها قد فصلوا من أخوية القديسيين. وأكره جستنيان الأساقفة على قبول قرارات هذا المجمع ونفى كل من

عارضها. وعلى الرغم من ذلك فقد استمرت الخلافات الدينية فى عصر جستنيان ولم تنجح محاولاته فى إيجاد الصلة بين المتنازعين.

ويرى رانسيمان أن جستنيان اختلف فى شبابه عن شيخوخته فيما يتعلق بموقفه الدينى. فبينما كان يرى فى البداية أنه لا يجب الانحراف عن الخط الأرثوذكسى، مال فى شيخوختة إلى حد الهرطقة المعقولة – وأساء إلى اليعاقبة والكاثوليك على حد سواء. أما فى عهد خلفاؤه فأن المصادر الدينية لم تشر إلى دور أيا منهم فى السياسة الدينية، وذلك حتى يأتى عصر أسرة هرقل.

خاتمة:

شهد عصر أسرة جستنيان وبصفة خاصة مؤسسها الامبراطور جستنيان محاولات ضخمة لاعادة مجد الامبراطورية. ولذلك خاض جستنيان العديد من الحروب سواء فى الغرب الأوروبى أو الشرق. ومن ناحية أخرى كان للاصلاحات الإدارية والمالية والقانونية أثرها الواضح فى عصر هذه الأسرة حتى أنه بدأت تظهر بصورة واضحة التأثير الهللينى أى البيزنطى. فقد صدرت المجموعة القانونية باللغة اليونانية، كما أن كثير من أوجه العمارة والفنون ظهرت فى تلك الفترة وبها معالم الفن البيزنطى. وشيد جستنيان كنيسة أيا صوفيا وأنفق عليها مبالغ طائلة، وكذلك فى كنيسة الرسل المقدسين فى القسطنطنية. ويظهر بذلك ذروة التقدم فى فن العمارة البيزنطى فى عصر جستنيان[1]. ولذلك يرى كثير من المؤرخين أن عصر جستنيان يصلح أن يكون بداية حقيقية للتاريخ البيزنطى.

---

(١) أورد رانسيمان وصفا تفصيلاً لتقدم الفن البيزنطى، وذلك فى الفصل الحادى عشر من كتابه الحضارة البيزنطية، ص ٣٠٧ – ٣٣١.

الموضوع العاشر

عصر أسرة هرقل

أباطرة الأسرة الهرقلية

- هرقل	٦١٠ - ٦٤١
- قسطنطين الثالث	٦١٣ - ٦٤١
- هرقليون	٦٣٨ - ٦٤١ - مارتينا وصية علي العرش
- قنسطانز الثاني	٦٤١ - ٦٦٨
- قسطنطنين الرابع (بوجوناتوس)	٦٦٨ - ٦٨٥
- جستنيان الثاني (الأشرم)	٦٨٥ - ٦٩٥
- ليونيتوس (مغتصب للعرش)	٦٩٥ - ٦٩٨
- طيبريوس الثالث أبسيمار	٦٩٨ - ٧٠٥
- جستنيان الثاني (فترة ثانية)	٧٠٥ - ٧١١
- فيليبكوس البرواتي	٧١١ - ٧١٣
- أناستاس الثاني	٧١٣ - ٧١٥
- ثيودسيوس الثالث	٧١٥ - ٧١٧

عصر الامبراطور هرقل ٦١٠ - ٦٤١

مقدمة:

يقول المؤرخ جورج استروجورسكى G. Ostrogorsky واصفاً أحوال الامبراطورية البيزنطية عندما أعتلى عرشها الامبراطور هرقل: «كانت هذه الامبراطورية محطمة عندما تولى هرقل أمور الحكم فيها ، فهى منهكة اقتصادياً ومالياً. ولم يعد الجهاز الإدارى يؤدى وظيفته. أما الجهاز العسكرى القائم على الجند المرتزقة فلم يؤدى مهمته، وذلك بسبب عدم وجود المال اللازم لذلك. يضاف إلى هذا أن المصادر القديمة للقوى البشرية لم تعد متوفرة، فقد اكتسح الأعداء مقاطعات الامبراطورية الرئيسية، فأقام السلاف والأفار فى البلقان، وتحصن الفرس فى أسيا الصغرى - ولم يكن ثمة ما ينقذ الامبراطورية من هذا التدهور سوى محاولة بعث الحياة فيها من جديد»(١).

تولى هرقل مقاليد الحكم وتأسيسه لأسرة جديدة:

عانت البلاد معاناة شديدة فى أواخر عصر أسرة جستنيان - فقد أحاطت بها الكوارث من جميع الجهات سواء داخلياً أو خارجياً. ففى الشرق استمر الفرس يهددون هذه الدولة. كما ضغط الآفار من ناحية الشمال ومن وراءهم كان السلاف بينما أحتل اللمبارديون ايطاليا وسقطت أسبانيا فى قبضة القوط الغربيين. ولم يقتصر الأمر على هذا النحو، بل كانت الخلافات الدينية قد زادت البلاد انقساماً وصراعاً، وكذلك انتشار الأمراض والأوبئة وحدوث الزلازل والمجاعات.

(1) History of the Byzantine State. Trans, by. J. Hussy, (Oxford, 1956), pp. 83 - 84.

وفى ظل هذه الظروف السابقة كان القسم الوحيد الذى لا يعانى من المشاكل هو الشمال الأفريقى والذى كان يحكمه هرقل والذى كان لابد من أن يتحرك لانقاذ البلاد من هذه الكوارث المحيطة بها. وتحت الحاح أهالى وأحزاب العاصمة تحرك هرقل باسطوله متجها إلى القسطنطنية ومعه أبنه هرقلون. وأتخذ من سلونيك مركزاً لتدعيم قواته والاتصال بالمعارضين لحكم فوقاس - ونجح فى الدخول إلى العاصمة واحضار فوقاس حيث حكم عليه بالاعدام - وتم تتويج هرقل امبراطوراً فى ١٥ اكتوبر ٦١٠م.

السياسة الخارجية فى عصر أسرة هرقل
٦١٠ - ٧١٧م

مقدمة:

يمثل عصر الأسرة الهرقلية مرحلة تاريخية هامة فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية. فعلى الرغم من نجاح هرقل فى احراز الانتصار على الفرس وتحقيق انتصار ضخم عليهم، الا أن هذه الأسرة شهدت ظهور الإسلام فى شبه جزيرة العرب ثم خروج المسلمين لإعلاء كلمة التوحيد، وبالتالى فقد اصطدمت مع «الروم» وهى التسمية التى عرف المسلمون بها بيزنطة. وتوالت المعارك بين الجانبين كان النصر فيها حليفاً للمسلمين فضاعت من بيزنطة بلاد الشام ومصر والشمال الافريقى وأسبانيا، وكذلك تقدم المسلمون إلى آسيا الصغرى محاولين فتح القسطنطنية والتى وقفت حجرة عثرة فى سبيل تقدمهم إلى أوروبا. كما أن أعداءاً آخرين أحاطوا بهذه الامبراطورية البيزنطية. يضاف إلى ذلك ظهور البلغار الذين سببوا خطراً داهماً على

القسطنطينية نفسها. ورغم كل هذه المحاولات إلا أن القسطنطينية وقفت تقاوم ولم تتمكن أيا من هذه القوى الاستيلاء على تلك المدينة المنيعة بسبب حصانتها وقوة دفاعاتها.

أولاً: العلاقة مع الفرس:

استغل الملك الفارسى كسرى الثانى ما حدث فى نهاية أسرة جستنيان ذريعة للتدخل ضد بيزنطة ومحاولة تحقيق المكاسب على حساب البيزنطيين. وتقدم الفرس نحو بلاد الشام حيث استولوا على أنطاكية ثم حمص وقيسارية الشام - واستولوا على طرسوس وأرمينية. وكان أكثر الأحداث تأثيراً هو تقدم الفرس نحو بيت المقدس، وذلك فى عام ٦١٤م. فقد نجح الفرس فى الاستيلاء على المدينة بعد حصار دام ثلاثة أسابيع وتعرضت القدس للتخريب وقتل من سكانها نحو ٩٠ ألفاً، وشارك اليهود فى هذه الأحداث. ولم ينج بطريريك المدينة من هذه الأحداث حيث أسره الفرس وحملوه معهم، كما استولوا على مايسمى بالصليب المقدس.

لم يكتف الفرس بالاستيلاء على بلاد الشام، فتقدموا نحو مصر واستولوا على الاسكندرية فى عام ٦١٩ . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تقدموا عبر آسيا الصغرى حتى كادوا يهددون القسطنطينية نفسها. ولاشك أن أحوال بلاد الشام فى تلك الفترة وما كانت تعانى منه من اضطراب فى الأحوال الدينية بصفة خاصة والخلافات بينها وبين بيزنطة والتى لم تفلح المجامع المسكونية أو محاولات الأباطرة فى وضع حدا لها. وأدى ذلك إلى ترحيب السكان بالفرس باعتبارهم مخلصين لهم من الأضطهاد الدينى الذى كانوا يعانون منه. يضاف إلى ذلك الأحوال السيئة التى كانت تمر بها البلاد فى أواخر عصر أسرة جستنيان وبداية أسرة هرقل.

رد الفعل البيزنطى أو حملة هرقل ضد الفرس
٦٢٢ - ٦٢٩م

كان على هرقل أن يبدأ باصلاح البلاد قبل أن يخرج لمواجهة الفرس فعمل على اصلاح النظام الإدارى وخاصة فى آسيا الصغرى وهى التى تمثل المواجهة ضد الفرس وأن توضع فى حالة دفاع متواصل . وتم إنزال ألوية معينة من الجند أو ما عرف بنظام الثيمات Themata فى أقاليم محددة. وكان القائد يمنح سلطات مدنية على الأقليم. ثم تحول هذا إلى أن أصبح يطلق على المنطقة العسكرية وصارت تعرف باسم الفرقة النازلة فيها - ومنها على سبيل المثال الثيم الأناضولى والتراقى وهكذا. ثم سرعان ماقسمت إلى مناطق أصغر.

كما عمل هرقل على ضم دماء جديدة إلى الجيش البيزنطى - فقد أدخل الفلاحين البيرنطين فى الجيش بعد منحهم إقطاعات صغيرة مقابل تأدية الخدمة العسكرية. كما نقلت أعداد من الصقالبة إلى الجيش. وهكذا وفر هرقل على الخزانة تكاليف الانفاق على هذا الجيش بما يمنحه من إقطاعات. وفى نفس الوقت كان للكينسة دورها الهام فى هذه الأحداث الهامة فقدمت الجواهر والتحف الذهبية حيث تم صهرها نقوداً للصرف على الحملة. كذلك فإن الكنيسة نظرت إلى هذه الحرب على أنها حرباً صليبية ضد الفرس واسترداد الصليب المقدس.

وكخطوة أولى عمل هرقل على عقد صلحاً مهيناً مع الآفار تعهد فيه بدفع مبلغاً ضخماً كجزية سنوية، وذلك فى عام ٦١٧م مما أمكنه من التفرغ لمواجهة الفرس. ثم قرر هرقل قيادة الحملة بنفسه فى عام ٦٢٢ وعبر

بقواته إلى آسيا - ثم شق طريقه عبر أرمينية وطرد الفرس منها. وواصل تقدمه فى السنوات التالية وذلك حتى عام ٦٢٥م.

غير أن عام ٦٢٦ شهد تحولاً مؤقتاً فى الحرب البيزنطية - الفارسية وذلك عندما نقض الآثار الصلح المعقود فى الحرب البيزنطية - الفارسية، وذلك عندما نقض الآفار الصلح المعقود مع هرقل - بل تم الأتصال بين الفرس والآفار لتكوين جبهة مشتركة معاً ضد هرقل مما أدى إلى تأزم الموقف. ولكن يظهر مرة أخرى دور الكنيسة فى الدفاع عن العاصمة وبذل البطريرك سرجيوس الأول جهداً كبيراً فى الدفاع عنها ونجح عن طريق الأسطول فى وقف هذا الهجوم الذى تعرضت له مما أدى إلى هزيمة قوات الآقار وغيرها. وفى هذا الوقت فشل شهرباراز الفارسى فى مواجهة البيزنطيين وأنسحب عائداً.

هزيمة الفرس:

تقدم هرقل بقواته حيث كانت المواجهة فى قلب بلاد فارس وذلك عند نينوى فى ٦٢٧ م وتقرر مصير النزاع بينهما - وتعرض الفرس للهزيمة وحل شيروية محل والده حيث بادر بعقد معاهدة مع هرقل وفقاً للشروط التالية:

١- استعادة بيزنطية للمناطق التى استولى عليها الفرس وهى أرمينية والشام ومصر وغيرها من المناطق الشرقية.

٢- اطلاق سراح الأسرى البيرنطيين.

٣- إعادة الصليب المعظم.

٤- دفع غرامة عسكرية.

واستكمالا لهذه الحملة فقد ذهب هرقل إلى القدس حيث أعاد الصليب اليها، وكذلك النفائس والكنوز التى سلبت منها. كما وزع المنح والهدايا على الجميع بما فيهم سكان القدس. وهكذا حقق هرقل أمله الذى كان يطمع فى تحقيقه وهو القضاء على قوة الفرس، والتى سرعان ما ضعفت وكان ذلك النصر سبباً فى تهيئة أحراز العرب أو المسلمين لانتصاراتهم على الفرس، وذلك بعد ظهور الإسلام وبدأ حركة الفتوحات العربية فى فارس.

العلاقة مع المسلمين فى عصر أسرة هرقل:

ولد المصطفى ﷺ فى عام ٥٧٠م، وظل فترة صباه فى مكة المكرمة إلى أن كلفه الله عز وجل بالدعوة إلى الإسلام خاتم الرسالات السماوية. فبدأ الدعوة حيث واجهتة صعاب جمة وإتهامات باطلة من جانب كفار قريش واليهود حتى هاجر إلى المدينة. وبها بدأت أسس دولته بعد أن أقام مسجده وآخى بين المهاجرين والأنصار وعقد الصحيفة مع فئات السكان المختلفة بها. ثم نزل تشريع الجهاد اعلاءً لكلمة التوحيد ودفاعاً عن الدين ضد أعدائه وهم: الكفار واليهود فى داخل شبه الجزيرة العربية حيث كانت أولى غزواته ﷺ ضدهم.

بداية الصدام مع البيزنطيين (الروم):

كانت بداية الأحتكاك بين المسلمين والروم فى عهد الرسول ﷺ وذلك فى تلك الغزوة التى شارك فيها الرسول ﷺ والمعروفة بغزوة دومة الجندل - الواقعة بين الشام والمدينة - وكان حاكمها يدين بالطاعة للبيزنطيين. ووقعت فى ٢٥ ربيع أول ٥هـ/ ٢٤ أغسطس ٦٢٦م. وهدف منها الرسول

ﷺ إفزاع الروم ومنع صاحب الدومة من تهديد التجار. وحققت الغزوة أهدافها. ثم استمرت سرايا الرسول ﷺ ضد محالفى بيزنطة والقاطنين على حدود شبه الجزيرة العربية ومن بينها سرية زيد بن حارثة وعبد الرحمن بن عوف.

وعقب صلح الحديبية أخذ الرسول ﷺ يرسل رسله إلى مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية وما حولها. ومن بينهم كان هؤلاء الذين على علاقة بالبيزنطيين مثل الغساسنة وصاحب دومة الجندل. وكذلك إلى هرقل نفسه والذى يذكر ابن سعد نص رد هرقل على خطاب الرسول ﷺ - والذى اعترف فيه برسالة الرسول ﷺ لأنه مذكور عندهم فى الأنجيل - ولكن قومه أبوا ذلك وختم رسالته «ولوددت أني عندك فأخدمك وأغسل قدميك».

ويضيف الطبرى معلومات أخرى بشأن هذه الرسالة.

واستمرت السرايا ضد محالفى الروم وذلك فى عام ٨هـ - وكان من أبرزها مؤته والتى استشهد فيها ثلاثة من كبار قادة المسلمين - ثم تولى القيادة خالد بن الوليد والذى نجح فى إنقاذ جيش المسلمين من كارثة حقيقية. ولكنها أثبتت قدرة المسلمين على مواجهة الروم على الرغم من التفوق العددى لهم فى هذه المرحلة مما أوقف الروم عن الأحجام على غزو المدينة. كما دعاهم الرسول ﷺ رداً على اتهام البعض لهم بالفرار من المعركة بقوله «بل هم الكرار إن شاء الله».

وشهدت تبوك فى العام التاسع للهجرة/ ٦٣٠م غزوة قادها الرسول ﷺ وسلم بنفسه - وعرفت بغزوة العسرة نظراً لما واجهته من صعوبات سواء فى توقيتها أو فى قيام بعض المنافقين بدعوة الناس لعدم المشاركة ما أدى إلى فضحهم فى آيات القرآن الكريم. وخرجت الغزوة وحققت الكثير من

الأهداف - فعلى الرغم من عدم حدوث اشتباك مباشر مع الروم، إلا أن النبى ﷺ عقد عدة مهادنات مع صاحب أيلة وأهل أذرح وجرباء ومقنا ودومة الجندل وضمن بذلك خضوع هذه المناطق الواقعة شمال الحجاز لدولته. ثم عاد الرسول ﷺ إلى المدينة. وبعد ذلك وجه النبى ﷺ سريتين فى عامى ٩، ١٠هـ/ ٦٣٠ - ٦٣١م وهى آخر سراياه ﷺ مع الروم إلى أن تبدأ مرحلة جديدة فى عهد الخلفاء الراشدين.

الصدام زمن الخلفاء الراشدين:

تركت وفاة الرسول ﷺ أثراً ضخماً على المسلمين حتى تمكنوا من تمالك أنفسهم وتجاوز هذه المحنة وذلك باجتماعهم على خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه. وكان من بين أولى مهامه الصعبة إنفاذ بعثه أسامة أبن زيد والتى كان الرسول ﷺ قد أعدها قبل وفاته. وأصر الخليفة على خروجها وبقيادة أسامة فخرجت فى ١١هـ/ يونيو ٦٣٢م. ونجحت السرية بالفعل فى وقف خطر العرب المتنصرة وأتضح بعد نظر الخليفة على ضرورة خروجها.

وبعد نجاحه فى القضاء على حركة الردة بدأ أبو بكر الدعوة من أجل جهاد الروم وأرسل الكتب والرسائل إلى كافة أنحاء الجزيرة العربية فقدمت القبائل من أجل تحقيق هذا الهدف وهو إعلاء كلمة التوحيد. وفى خلافته قسم أبو بكر الجيوش إلى أربعة وأنفذهم إلى الشام - وأرسل أيضا إلى خالد بن الوليد لكى ينضم إليهم وتبدأ أحداث المعارك التى ضمنها الواقدى فى كتابه فتوح الشام.

ومن أبرز هذه الفتوح وقعة أجنادين ١٣هـ/ ٦٣٤م الواقعة مابين الرملة وبيت المقدس. وبلغت القوات البيزنطية نحو مائة ألف أو يزيد، بنيما قوات المسلمين ما بين العشرين ألفاً والثلاثين. وانتهت بهزيمة البيرنطيين وراح ضحيتها أعداد كبيرة منهم ما بين قتيل وأسير، ثم كانت وفاة أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - وتولى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - الخلافة (١٣- ٢٣هـ/ ٦٣٤- ٦٤٤م).

وفى عصره وقعت معارك عديدة بين الجانبين فى بلاد الشام - والتى نجح فيها المسلمون من فتح دمشق فى رجب ١٤هـ/ سبتمبر ٦٣٥م - ثم تبع ذلك سقوط العديد من مدن الساحل والداخل مثل صيدا وعرقة وجبيل وبيروت وحوران وبيسان وطبرية وحمص وقنسرين وغيرها من المدن فى بلاد الشام. وتم وضع من يتولى أمر هذه المدن ويدافع عنها حتى لا يقوم البيزنطيون بالهجوم عليها مرة أخرى.

وقعة اليرموك رجب ١٥هـ/ أغسطس ٦٣٦م

عمل هرقل على محاولة حسم الصراع مع المسلمين وذلك بالدخول فى وقعة حاسمة، فأرسل إلى المدن التى لم تسقط بعد طالباً من قواته التى بها الانضمام إليه، كما أنضمت إليه قوات من الأرمن وكذلك من مستعربى الشام من الغساسنة والقبائل المتنصرة الأخرى وأوصاهم «أنه ليس بينكم وبين العرب إلا هذه الوقعة» وذلك كما يقول الواقدى فى فتوح الشام.

وتناولت المصادر والمراجع هذه المعركة بالتفصيل فيما يتعلق بالخطط وأعداد المشاركين، والجدير بالذكر مشاركة النساء المسلمات فيها. كما أن مؤرخاً أرمينيا وهو سيبيوس Sebeos ذكر تفاصيلها مما يعطى للمؤرخ الفرصة

للمقارنة بين المصادر الإسلامية والأجنبية منها. وعلى الرغم من الأسباب التى أوردها - لهزيمة البيزنطيين وهى الفزع والأحوال المناخية وطبيعة أرض المعركة، إلا أنه أغفل سببا هاما وهو اقتناع المسلمين بعدالة ما يحاربون من أجله وهو الجهاد فى سبيل رفع راية التوحيد.

ومن أهم نتائج هذه الوقعة رحيل هرقل عن بلاد الشام وعودته إلى بلاده - والتى ودعها بعد أن جاوز الدرب الذى يصل بين الشام وآسيا الصغرى بقوله «عليك ياسورية السلام، ونعم البلد هذا للعدو».

فتح بيت المقدس ربيع الآخر ١٦هـ/ مايو ٦٣٧م

كان لابد من فتح هذه المدينة والتى لها قدسية خاصة لدى المسبلمين - فهى أولى القبلتين وثالث الحرمين ومسرى الرسول ﷺ. وعلى الرغم من المعاناة الشديدة أثناء الحصار إلا أن المسلمين أصروا على فتحها. واستمر الحصار مما دفع أهلها إلى ضرورة تسليمها إلى عمر بن الخطاب نفسه والذى قدم إليها وكتب لهم عهدا بذلك ودخل المدينة ورفض أن يصلى فى أحد الكنائس وصلى فى مكان آخر ليس به موضع كنيسة وهو ما يعرف اليوم بمسجد عمر. وبسقوط القدس تنتهى مرحلة هامة فى تاريخ الفتوحات الإسلامية للشام حاول عبثا هرقل أن يوقفها بعد أن أرسل ابنه قسطنطين الثالث ولكنه لقى فشلاً ذريعاً.

بيزنطة والمسلمون من (٦٤١- ٧١٧م)

فتح مصر:

شهد عصر الإمبراطور قنسطانز الثانى (٦٤١- ٦٦٨م/ ٢٠- ٤٨هـ) محاولات مستميته من جانبه لوقف الهجمات الإسلامية ضد الدولة البيزنطية

سواء فى جبهة آسيا الصغرى أو الشمال الأفريقى. فقد أستأذن عمرو بن العاص الخليفة عمر بن الخطاب فى فتح مصر وعرض عليه الفكرة. ودارت آراء مختلفة حول عملية الفتح ومن صاحب هذه الفكرة. ودون الدخول فى تفاصيل ذلك، إلا أن فتحها كان ضرورة أملتها الظروف العسكرية والاقتصادية والسياسية. وبالفعل سارُ عمرو إلى مصر فى ١٨هـ/ ٦٤٠م وسار فى الطريق المحاذى للبحر المتوسط حتى وصل إلى العريش والفرما وأشتبك مع الحامية البيزنطية بها وبعد حصارها سقطت فى قبضة عمرو. ثم توجه إلى حصن بابليون ووصلت امدادات من عمر بن الخطاب إلى عمرو فى الوقت الذى اتصل فيه قيرس بهرقل وعرض عليه شروط المسلمين فغضب لذلك وتجدد القتال ونجح المسلمون فى فتح الحصن وعقدت معاهدة تعرف بحصن بابليون الأولى فى ١٩هـ/ ٦٤٠م. وأدى ذلك إلى فتح الطريق إلى الإسكندرية وباقى أنحاء مصر. وبالفعل واصل عمرو طريقه لفتح الاسكندرية حيث حاصرها لمدة ثلاثة أشهر وتم فتحها وقيل أنها حوصرت لمدة أربعة عشر شهراً، وذلك فى أول المحرم ٢١هـ/ ٦٤٢م. وتم عقد صلح بين الجانبين حيث أخلاها الروم وسلمت للمسلمين[(١)].

واستمر عمرو فى فتوحاته حيث توجه بعد ذلك لفتح برقة وطرابلس - وجه جيشاً آخر بقيادة قائدة عقبة لفتح الجهات الداخلية وتمكن من ذلك لكى يؤمن الفتوح الساحلية. وتم بذلك فتح برقة والقسم الشرقى من ولاية طرابلس وأراد عمرو مواصلة فتوحاته ولكن الخليفة منعه عن ذلك مما جعله

---

(١) يعد المؤرخ ألفريد بتلر الحجة الرئيسية فى الحديث عن فتح مصر. والكتاب مترجم إلى اللغة العربية وأعيد نشره فى جزءين فى سلسلة تاريخ المصريين - القاهرة ١٩٨٩.

يترك قائده عقبة بن نافع يدعو أهلها إلى الإسلام وأصبحت برقة قاعدة للجيوش الإسلامية فى الشمال الأفريقى.

الصدام البحرى بين المسلمين والبيزنطيين:

لم يكن للعرب خبرة بحرية تماثل ما كان للبيزنطيين فى الفترة المبكرة من تأسيس الدولة العربية الإسلامية. ولذلك فقد عهد عمر بن الخطاب إلى معاويه بن أبى سفيان والذى ولاه على الشام فى وضع نظام للمرابطة لكى يحافظ على الموانئ التى فتحها العرب فى الشام. وعندما تم فتح مصر بدأت الاستعانة بخبرة أهلها فى مجال صناعة السفن وتم إنشاء عدد من السفن وحاول معاوية الحصول على موافقه عمر لغزو قبرص ولكنه لم يأذن له بعد أن وصف له البحر وأهواله.

وعندما تولى عثمان بن عفان أخذ معاوية يلح عليه لغزو قبرص حتى أذن له فقام بذلك فى عام ٢٨هـ/ ٦٤٨هـ، ونجح فى فتحها مما يعد أول غزوة بحرية فى تاريخ المسلمين. وتتابعت الغزوات ما بين شاتيه وصائفه فى الفترات التالية. حتى حدثت وقعة ذات الصوارى فى عام ٣٤هـ/ ٦٥٥م - والتى غيرت مصير الصراع البحرى بين المسلمين والبيزنطيين. فقد أثبت المسلمون تفوقهم فى البحر كما اثبتوا ذلك فى البر من قبل واستطاع معاوية تثبيت أقدامه فى الشام. ثم عمل بعد ذلك على ترميم الحصون الساحلية مثل عكا وصور وجبلة وانطرطوس. ولم يكتف بهذه التحصينات، بل عمل على توطين المدن الساحلية بالسكان حتى تعمر وتتمكن من الوقوف ضد أية محاولات بيرنطية لاستعادتها. كذلك حرض على بناء أسطول بحرى للمسلمين وذلك بعد اغارة البيرنطيين عام ٤٩هـ/ ٦٦٩م فأمر بجمع الصناع والنجارين وذلك فى دار الصناعة فى عكا ومصر ثم نقلت بعد ذلك إلى صور.

محاولات فتح القسطنطينية:

واجه الامبراطور قسطنطنين الرابع (بوجوناتوس - ذو اللحية الحمراء) صعوبات عديدة فى فترة حكمه التى قاربت على السبعة عشرة عاماً. فقد استطاع المسلمون فتح العديد من جزر البحر المتوسط أو بحر الروم كما كان يعرف من قبل - مثل رودس وكوس وقزيقوس وخيوس وظهر الأسطول الإسلامى عند القسطنطينية - ذلك الحلم الذى ظل يداعب العرب فترة طويلة لفتحها - وذلك فى عام ٥٨هـ/ ٦٧٨م. ودارت معركة بحرية فاصلة عندها انتهت بهزيمة ساحقة للمسلمين وذلك بسبب جهلهم بإستخدام البيزنطيين للنار الأغريقية. وفرض البيزنطيون للمرة الأولى منذ فترة طويلة شروطهم على المسلمين. وتم عقد صلح مدته ثلاثين عاما، وتوقف زحف المسلمين عبر هذه الجبهة إلى أوروبا الشرقية، كما زادت من هيبة الامبراطور قسطنطين الرابع.

العلاقة بين المسلمين والبيزنطيين (٦٨٥- ٧١٧م):

يرى الدكتور وسام فرج أن هذه الفترة التالية من تاريخ الأسرة الهرقلية والتى أمتدت أكثر من ثلاثين عاماً تميزت بالفوضى والأقفار والأنهيار فى الداخل والخارج. وفيما يتعلق بالعلاقة بين الأمويين والبيزنطيين فى هذه الفترة- فقد بدأت بتجديد معاهدة السلام المعقودة بينهما - وذلك عندما تولى عبد الملك بن مروان وجستنيان الثانى الحكم فى الدولتين. وتمت تسوية المنازعات حول قبرص وأرمينية وايبيريا - وذلك باقتسام دخلها بين الجانبين - وذلك مقابل إزالة المردة - وكانوا مسيحيين مواليين لبيزنطة - من شمال الشام. وبلغ عددهم حوالى ١٢ ألفا وأثار نقلهم تساؤلات عديدة

لدى المؤرخين الحديثين[1]. ولكن حدث أن تم نقض الهدنة المعقودة بين الجانبين ولكن الخليفة الأموى لم يتمكن من الثأر وذلك بسبب انشغاله بمشاكله الداخلية آنذاك. ومن ناحية أخرى عمل جستنيان على تعمير السواحل المطلة على الهلسبونت بنقل إعداد غفيرة من السلاف إليها.

وفى عام ٦٩٢م/ ٧٣هـ تجدد الصدام بين البيزنطيين والمسلمين وذلك بسبب اصدار عبد الملك بن مروان لعمله إسلامية جديدة بدلاً من العملة البيزنطية التى كان يتم التعامل بها قبل ذلك بين الجانبين. وعلى الرغم من أنه سبق ذلك محاولات إصدار عملة ولكنها كانت على نسق العملة البيزنطية - كما حدث زمن معاوية بن أبى سفيان، وعبد الله بن الزبير - وتم ذلك على مرحلتين لإصدار عملة إسلامية جيدة وذلك ما بين عامى ٧٣و ٧٧هـ[2]. وكان ذلك سبباً فى حدوث صدام بينهما عند سباستابول حيث أنتهت بهزيمة البيزنطيين فى عام ٦٩٣م/ ٧٤هـ. واندفاع المسلمين إلى آسيا الصغرى واستعادوا أرمينية من جديد. ولم ينجح جستنيان الثانى فى بقية فترة حكمه بسبب شكه فى المقربين حوله حتى تم عزله على يد قائده ليوفيتوس وذلك فى عام ٦٩٥م.

وشهدت الفترة التالية مزيداً من هجمات المسلمين ضد الدولة البيزنطية والتى أخذت تعانى من فقدان الكثير من أراضيها فى آسيا الصغرى وشمال أفريقيا وغربى البحر المتوسط. وكان عقبة بن نافع قد نجح فى مد حركة الفتوحات الإسلامية غرباً وقام ببناء القيروان لكى تكون موضعا وعاصمة

(١) عن هذه الآراء بالتفصيل راجع: وسام فرج: العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادى الاسكندرية ١٩٨١، ص ٤٣- ٤٥.

(٢) عبد الرحمن فهمى: النقود العربية، ص ٤٢. وحمل الدينار الإسلامى عبارة التوحيد بدلاً من التثليث الموجودة على الدينار البيزنطى. ولكن وجود صورة عبد الملك على الدينار أثار ثائرة الفقهاء حول ذلك الدينار.

تنطلق منها حركة الفتوح فى الميدان الأفريقى. ثم خلفه أبو المهاجر دينار لكى يستكمل فتح الشمال الأفريقى عاد بعدها عقبة مرة ثانية. ولكن شهدت الفتوح انتكاسة إلى أن تولى حسان بن النعمان ومحاولات البيزنطيين أمام قرطاجنة. فقد أرسل ليونتيوس حملة بيزنطية بحرية من أجل استعادتها ولكن الأمويين أرسلوا إمدادات إلى الحسان فى عام ٦٩٨م/ ٧٩هـ. انتهت بانتصار المسلمين على البيزنطيين. وهكذا فقد ضاعت ولاية افريقية نهائيا من أيدى البيزنطيين - كما ترتبت على فشل هذه الحملة استيلاء ابسيمار على العرش وحكم باسم طيبريوس الثالث (٦٩٨- ٧٠٥م/ ٧٩- ٨٦هـ). واعتمد فى سياسة على محاولة انقاذ آسيا الصغرى من قبضة المسلمين - والتى شهدت انتصارات متبادلة بين الطرفين - كما أن الأرمن ثاروا ضد المسلمين وطالبوا بيزنطة بالتدخل التى أحرزت انتصارين عامى ٧٩٣، ٧٠٤م.

عاصرت هذه الفترة من نهاية الأسر الهرقلية تولى أربعة من أبناء عبد الملك بن مروان والذى عرف بأبى الملوك. وكان أولهم هو الوليد، والذى أستتبت الأمور داخليا وخارجياً فى عهده - وتواصلت حركة الفتوحات فى الشمال الأفريقى حيث تولى ذلك عامله موسى بن نصير والذى نجح أيضا فى فتح أسبانيا بعد أن دانت له ولاية افريقية ومن ناحية أخرى عمل على استمرار الفتوحات فى آسيا الصغرى وذلك بمحاولة فتح القلاع الواقعة على الطريق الرئيسى المؤدى إلى القسطنطينية والتى كان يأمل فى فتحها وشارك فى قيادة هذه الحملات ابناء الخليفة نفسه مما يدل على مدى اهتمامه بها. وكان أبرز الانتصارات فى هذا المجال ما حققه من فتح الطوانة Tyana وذلك فى عام ٨٨هـ/ ٧٠٧م. واستمرت حملات ضد ثيم الأناضول وذلك فى

عامى ٩٢، ٩٣هـ/ ٧١٠ و ٧١١م. وربما كان للأسطول الإسلامى دور فى هذه المرحلة. وهو ما كان دافعاً عاماً فى الإعداد للحملة الضخمة ضد القسطنطينية أو حملة مسلمة بن عبد الملك فى ٩٨ - ٩٩هـ/ ٧١٧-٧١٨م.

العلاقة بين بيزنطة والآفار والسلاف:

واجهت بيزنطة أخطار أخرى وذلك من جهة شبه جزيرة البلقان والتى استوطنتها عناصر سلافية وآفارية.، وانتهت هذه الغارات باستقرار الآفار شمالى الدانوب، بنيما اتخذ السلاف من البلقان موطنا لهم. ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل اخذوا فى تهديد سالونيك والقسطنطينية وذلك فى أثناء صراع هرقل مع الفرس مما أضطره لعقد صلح معهم بعد سيطرتهم على معظم البلقان. وكذلك لهجومهم الذى وصل إلى أدرنة وبدأوا فى الاتصال بالفرس وتخريب قنوات المياه التى تمد العاصمة. وكان هذا الجيش السلافى يضم معه عناصر عديدة أخرى من البلغار والجبيداى وغيرها ممن خضعت لهم حتى أن عددهم وصل إلى حوالى ثمانين ألفاً. ولعبت تحصينات العاصمة دوراً هاماً فى وقف هذا الخطر الداهم وتعرضهم للهزيمة، وكذلك إنفصال السلاف مكونين لإنفسهم مملكة خاصة، كذلك ظهر البلغار كقوة على مسرح الاحداث تحت زعامة قائدهم كوفرات Kuvrat والذى وجدت فيه بيزنطة حليفاً لها سرعان ما أنضوى تحت لواءها بعد أن أعتنق المسيحية.

استمرت محاولات السلاف فى التسلل وإقامة مستعمرات ضخمة لهم. ولذلك قد عمل الامبراطور جستنيان الثانى إلى القيام بحملات ضدهم، ونجح بالفعل فى ذلك حيث تمكن من أسر ٣٠ ألفاً من السلاف وإستخدمهم لتعمير شواطئ الهلسبونت والتى كانت تعانى من قلة فى

السكان. ثم اعتمد عليهم بعد ذلك لتكوين فرقة عسكرية. وسرعان ما خذل هؤلاء السلاف الامبراطور عندما دخل فى معركة بالقرب من مدينة سباستابول وذلك فى عام ٦٩٣م/ ٧٤هـ. وانضم حوالى عشرين الفا منهم إلى المسلمين مما أدى إلى هزيمة الامبراطور البيزنطى. وعندما عاد قام بالإنتقام منهم وأعدم الباقى ومعهم زوجاتهم وأطفالهم.

العلاقة مع البلغار:

يرجع أصل هذه الجماعات إلى أصول تركية استقرت شمال البحر الأسود ثم تمردوا عالى الآفار وأيدهم فى ذلك الأمبراطور هرقل وذلك بعد أن أعتنقوا المسيحية. وعلى الرغم من تعرضهم لضغوط من جانب عناصر أخرى إلا أنهم توجهوا إلى منطقة الدانوب واستقروا بهامستفيدين من خصوبة المنطقة مما أدى إلى استقرارهم بها واحدثوا ازعاجاً شديداً للبيزنطيين.

وفى عصر جستنيان الثانى (٦٨٥- ٦٩٥) قام بمحاربتهم ونجح فى هذه الجولة ضدهم، وفى محاولته الثانيةُ لاستعادة عرشه لجأ إليهم جستنيان فقدموا له العون والمساعدة وذلك فى عهد ترفل (٧٠١- ٧١٨م) خان التتار. ونجح جستنيان بالفعل فى استعادة الحكم مرة ثانية (٧٠٥- ٧١١) ومنح جستنيان ترفل لقب قيصر كما أعاد دفع الجزية السابقة له – ثم عاود البلغار هجومهم للانتقام من موت حليفهم جستنيان. فهاجموا العديد من المناطق مثل تراقيا والبسفور حتى وصلوا إلى مشارف القسطنطينية. وذلك فى عام ٧١٣م/ ٩٤هـ. ونجحت فى عزل فيليبكوس وتولى اناستاسيوس الثانى العرش. وظلت بيزنطة تعانى من هجمات هذه العناصر وذلك بسبب الضعف الذى أصابها فى أواخر أسرة هرقل.

السياسة الداخلية فى عصر أسرة هرقل

السياسة الدينية:

شهد عصر الامبراطور هرقل محاولة لإيجاد التوفيق بين العناصر المتنارعة فى الدولة البيزنطية. فأعلن الامبراطور تأييده لمذهب المونوثيلتيه أى مذهب المشيئة الواحدة الذى يقوله بان المسيح له طبيعة واحدة فقط. ولكن ذلك قوبل بمعارضة من البطريرك صفرنيوس وكذلك من جانب البابوية وفى عهد قنسطانز الثانى صدر قانون الإيمان لمنع المناقشات الدينية. ثم عقد مجمع دينى فى عام ٦٨٠م عرف بمجمع القسطنطينية حيث تم إدانة المذهب المونوثيلتى واعترف بالطبيعتين. مما أعاد الوفاق بين روما وبيزنطة. وفى عهد جستيان الثانى عقد مجمع آخر فى عام ٦٩١م، وذلك لكى يؤكد الامبراطور سيطرته على الكنيسة - ولكن البابوية عارضت قرارات هذا المجمع. وهكذا فقد ظلت الخلافات الدينية تهدد الامبراطورية فى عصر أسرة هرقل ولم يتم التوصل إلى حل مما زاد من حدة المشاكل التى كانت تعانى منها.

وهكذا فقد أنتهت فترة حكم هذه الأسرة بعد أن حكمت أكثر من قرن من الزمان. ولكنها عانت كثيراً وفقدت العديد من المناطق التابعة لها خاصة فى بلاد لاشام ومصر والشمال الأفريقى، وذلك عندما ظهر الإسلام وارتفعت راياته على هذه المناطق السابقة. ولاشك أن ذلك يرجع إلى رغبة المسلمين فى الجهاد من ناحية والظروف التى مرت بها بيزنطة داخليا وخارجيا من ناحية أخرى.

الموضوع الحادي عشر

الأسرة الأيسورية

(٧١٧- ٨٢٠ م)

أباطرة الأسرة الأيسورية

- ليو الثالث الإيسوري (٧١٧ـ ٧٤٠)
- قسطنطين الخامس (٧٤٠ـ ٧٧٥)
- ليو الرابع (٧٧٥ـ ٧٨٠)
- قسطنطين السادس (٧٧٥ـ ٧٨٠)
- إيرين فترة وصاية (٧٨٠ـ ٧٩٧)
- إيرين امبراطورة (٧٩٧ـ ٨٠٢)
- نقفور الأول (٨٠٢ ـ ٨١١)
- ميخائيل الأول (رانجابي) (٨١١ـ ٨١٣)
- ليو الخامس الأرمني (٨١٣ ـ ٨٢٠)

الأسرة الإيسورية
(٧١٧ ـ ٨٢٠)

مقدمة :

عاصرت الأسرة الإيسورية فترة هامة من فترات التاريخ الإسلامى. فقد شهدت الفترة الأخيرة من عصر الدولة الأموية، وبداية الدولة العباسية حتى زمن الخليفة العباسى المأمون (١٩٨- ٢١٨هـ/ ٨١٣ ـ ٨٣٣م) والذى عاصر أيضا فترة من تاريخ الأسرة العمورية. ولذلك فاننا سنشهد تأرجح العلاقات السياسية بين البيزنطيين والمسلمين خلال هذه الفترة والتى تأثرت بكثير من العوامل الداخلية فى كلا الدولتين. وعلى الرغم من أن بيزنطة نجحت فى وقف الهجوم الإسلامى على القسطنطينية عام ٩٨ ـ ٩٩ هـ/ ٧١٧م، وكذلك أحرزت العديد من الانتصارات على المسلمين فى البر أيضاً، إلا أن الأحوال الداخلية بها وخاصة ما عرف بمشكلة الأيقونات ترك أثره الواضح على تاريخ هذه الأسرة الإيسورية وأدى إلى الصراعات الداخلية بها خاصة الصراع بين الحركات الخارجية مثل الخوارج والشيعة والمعتزلة وغيرهم، وكذلك الصدام بين القبائل المختلفة من يمنية وقيسية والذى أدى فى النهاية إلى قيام الدولة العباسية.وكان لتوجه العباسيين نحو الشرق واتخاذهم من بغداد عاصمة لهم قد ترك أثره دون شك على العلاقات مع البيزنطيين. وقد عرفت هذه الحروب بينهما باسم حروب العظمة حيث حاولت كل قوة اثبات تفوقها على الأخرى وهو ما سنتناولة فى الأحداث التالية .

ولم يتوقف الأمر على العداء بين المسلمين والبيزنطيين فى هذه الأسرة، بل أيضا أمتد إلى البلغار الذين هددوا بيزنطة اكثر من مرة، كذلك ظهر

خطر السلاف، وتأثرت بيزنطة باعادة تتويج شرلمان مرة أخرى كامبراطور فى عام ٨٠٠م. وهكذا فقد تركت هذهِ العوامل أيضا أثرها الهام على بيزنطة وسياستها الخارجية فى عهد الأسرة الإيسورية .

ومن أهم معالم تاريخ هذه الأسرة الإيسورية ما عرف باسم حركة الأيقونات. فقد بدأ ليو الثالث سياسة تحطيم الصور والتماثيل والتى كانت منتشرة فى انحاء الإمبراطورية وفى الكنائس والأديرة ـ وعرفت هذه السياسة باسم محطمى التماثيل Image - Breakers وهى التى لقيت معارضة شديدة من جانب رجال الدين وكذلك البابوية.واستمرت هذه السياسة طوال عصر تلك الأسرة وهو ما ميزها من الناحية الداخلية .

الصراع مع المسلمين فى عصر الأسرة الإيسورية :

ليو الثالث الإيسورى (٧١٧ ـ ٧٤٠) :

ينسب ليو إلى اقليم إيسوريا Isauria الواقع فى آسيا الصغرى والذى يعد واحداً من أهم الأقاليم أو الثيمات. وأخذ يتنقل فى المناصب العسكرية بعد أن كان والده قد ارسله مع خمسمائة من الغنم إلى الإمبراطور جستنيان الثانى. وكانت الامبراطورية البيزنطية تعانى من الأضطرابات الداخلية والخارجية، فى عصره ـ وبلغته الأنباء باستعدادات الخليفة سليمان بن عبد الملك لغزو القسطنطينية والذى شكل تهديداً خطيراً للدولة وكان لابد من وجود الشخصية القادرة على مواجهة هذا التهديد. وبالفعل ظهر ليو فى الوقت المناسب ونجح فى الإفلات من المسلمين الذين كانوا قد وصلوا إلى آسيا الصغرى وكانوا يرغبون فى القبض عليه قبل وصولهم إلى القسطنطينية. وأدرك أهالى القسطنطينية ضرورة وجود الشخصية التى تستطيع حمايتهم دون النظر إلى أية اعتبارات أخرى. وبالفعل تم عزل ثيودسيوس الثالث ودخل ليو إلى العاصمة حيث تم تتويجة امبراطوراً فى كنيسة أيا صوفيا تحت أسم ليو الثالث .

وعلى الفور بدأ ليو الاستعداد لصد الهجوم الاسلامى على عاصمته، وهى تلك الحملة التى كانت بقيادة مسلمة بن عبدالملك شقيق الخليفة سليمان. وأعد ليو دفاعات قوية من اعداد آلات الدفاع وتنظيم السكان والقوات والمؤن وساعده على ذلك المامه بتكتيك المسلمين العسكرى لوجوده فى آسيا الصغرى واحتكاكه الدائم بهم. وقد تناول الدكتور وسام فرج بالتفصيل أحداث هذا الحصار[1] ويحلل العوامل التى أدت إلى هزيمة

(١) العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية، ١٢١ ـ ١٧٥ .

المسلمين فى هذه الحملة والتى راح ضحيتها العديد من المسلمين سواء فى البر أو البحر. ومن بينها خيانة بعض البحارة المسيحيين الذين كانوا فى الأسطول الإسلامى، وكذلك قلة المؤن وطول مدة الحصار حيث عانى المسلمون الأمرين بسبب الشتاء الذى لم يقدروا عليه بالاضافة إلى استخدام البيزنطيين للنيران الأغريقية ومعرفتهم باتجاه الرياح فى بلادهم وتيار المياه. وكذلك مشاركة البلغار فى مهاجمة المسلمين .

وعندما تولى عمر بن عبدالعزيز الخلافة أرسل إلى قائد الحملة يطلب منه رفع الحصار والعودة فرفع الحصار فى ١٥ اغسطس ٧١٨م / ٢٨ذو الحجة ٩٩هـ .

نتائج فشل الحصار للقسطنطينية :

ترتب على فشل هذا الحصار العديد من النتائج والتى من أبرزها :

١ ـ فقدان العديد من السفن الإسلامية أثناء عودتها، حتى أنه لم يعد منها إلى بلاد الشام سوى خمس سفن.وهذا يدل على مدى الخسارة التى تعرض لها الجيش الإسلامى .

٢ ـ نجاح ليو فى الدفاع عن روما الجديدة أو القسطنطينية والتى وصفت بانها الحصن الأعظم للمسيحية ولولاها لانتشر الإسلام فى أوروبا باكملها .

٣ ـ تحول سياسة الأمويين فى عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز من مجرد الحرب إلى ضرورة أن يكون جهاداً فى سبيل الله، وليس للغزو والحصول على الغنائم. ولذا فقد فضل القيام بتحصين الثغور، مع إرسال الصوائف المحدودة ـ وكذلك اهتمامه بسياسة فداء الأسرى .

٤ ـ استفادة ليو من هذا الهدوء فى العلاقات مع المسلمين فى أعادة تنظيم الإمبراطورية وخاصة الثيمات فى آسيا الصغرى ـ وإصلاح الجيش والبحرية وكذلك إيجاد تحالف مع الخزر للاستفادة منهم ضد الدولة الأموية.

على أية حال استغل ليو الفترة التالية فى إعادة ترتيب وتنظيم الإمبراطورية البيزنطية وخاصة منطقة الثيمات فى آسيا الصغرى لمواجهة الأخطار الخارجية وأدى ذلك إلى ظهور ثيم تراقيا وثيم بوكلارى. كما قسم الثيمات البحرية إلى قسمين. يضاف إلى ذلك إصداره القانون العسكرى مما يدل على دقة النظام العسكرى .

وشهدت الفترة التالية عدداً من الصوائف إلى حدود بيزنطة كما حدث عام ١٠٠ هـ / ٧١٩. وكذلك اهتمام عمر بن عبدالعزيز بموضوع فداء الأسرى والذى يعد أول خليفة أهتم بهذا الجانب الانسانى لاعادة هؤلاء الأسرى الى أوطانهم .

ثم تجددت الأحتكاكات فى عهد يزيد بن عبدالملك ـ فأغار الأسطول البيزنطى على دلتا النيل ٧٢٠م / ١٠١هـ. كما تجددت الصوائف فى العام التالى والتى لم تحقق نتائج حاسمة ضد البيزنطيين. واتسمت سياسة ليو فى هذه المرحلة بايجاد جبهات جديدة يشغل فيها الأمويين. فقد جعل من أرمينية وبلاد الخزر مناطق تمتص طاقة الأمويين وتشغلهم عن محاربة بيزنطة. يضاف إلى ذلك الصراعات الداخلية التى أخذت تعانى منها الدولة الأموية مما أدى إلى توجيه جزءاً من قواتها إلى هذه الثورات الداخلية وخاصة الصراع القبلى الذى أدى إلى سقوطها فى نهاية الأمر .

اما فى عهد هشام بن عبدالملك (١٠٥ ـ ١٢٥هـ/٧٢٣ ـ ٧٤٣م)

فقد عاد إلى مواجهة البيزنطيين. واستهل ذلك ببناء بعض الحصون فى مواجهة بيزنطة، كما عادت الصوائف تخرج سواء ضد البيزنطيين أو الخزر. وعادت البحرية الإسلامية إلى المشاركة فى جانباً من هذه الغزوات ولكن على نطاق محدود وذلك بسبب الضعف الذى أصاب الأسطول بعد كارثة القسطنطينية السابقة. والذى حاول الخليفة هشام معالجته بنقل صناعة السفن من عكا إلى صور. ويذكر الطبرى مساهمة الأسطول فى بعض الغزوات فى حوض البحر المتوسط فى عام ١١٠هـ / ٧٢٨م .

استمرت المحاولات الأموية ضد بيزنطة وفى عام ١١٣هـ / ٧٣١م غزا المسلمين قبادوقيا. وكذلك حملة أخرى وصلت إلى بفلاجونيا. واستمرت الصوائف تتوالى على العديد من المناطق البيزنطية. ولكن بيزنطة لم تقف امام هذه الهجمات فأغار الأسطول البيزنطى على بيروت،كما قام بالهجوم على دمياط ١٢١هـ / ٧٣٩م. وهكذا بذلك هشام بن عبدالملك آخر المحاولات الأموية القوية حيث خلفه مجموعة من الخلفاء الضعاف وأوشكت الدولة الأموية على الأنهيار نتيجة للعديد من الأسباب الداخلية والخارجية .

واختتم ليو الثالث عهده بالانتصار على الأمويين فى معركة أكرونيون Acroinon التى وقعت فى عام ١٢٢هـ / ٧٣٩ ـ ٧٤٠م. وقد بلغت القوات البيزنطية حوالى مائة ألف فى مواجهة القوات الأموية التى كانت حوالى عشرين ألفا. ووقع المسلمون فى أخطاء عديدة عندما أقدموا على الأشتباك مع هذه الأعداد الضخمة، كما أن أصلاحات ليو العسكرية تركت تأثيرها الواضح فى هذه المعركة. وهكذا نجح ليو فى توجيه ضربة أخرى للمسلمين بعد معركة القسطنطينية السابقة. وتوقفت مؤقتا محاولات الأمويين ضد بيزنطة .

العلاقات البيزنطية ـ الإسلامية بعد عهد ليو الأيسورى :

شهد عصر قسطنطين الخامس (٧٤٠ ـ ٧٧٥) العديد من المعارك مع المسلمين. وكان أبرزها تلك المعركة البحرية التى وقعت بالقرب من قبرص عام ٧٤٧م / ١٣٠ هـ وراح ضحيتها العدد من السفن الإسلامية. وترتب على هذه المعركة اختفاء دور الأسطول الإسلامى لفترة طويلة تقارب قرن من الزمان. وتمكنت بيزنطة من استعادة زمام السيادة البحرية فى حوض البحر المتوسط بعد أن كانت قد فقدتها. ويرفض بعض المؤرخين الحديثيين هذا الرأى ويستندون فى ذلك إلى أن النشاط البيزنطى كان ضعيفاً فى أعقاب هذا الانتصار وذلك خلال معظم القرن الثامن الميلادى/ الثانى الهجرى .

وشهدت هذه الفترة نهاية الدولة الأموية فى عام ١٣٢هـ / ٧٤٩م وقيام الدولة العباسية التى استمرت فى إرسال الصوائف والشواتى، كما حرصت على تحقيق السواحل بالحصون، كما قسمت الثغور إلى نوعين احدهما للدفاع والآخر للهجوم. ولكن عامل آخر ترك تأثيره على السياسة الإسلامية فى تلك الفترة وهو الاتجاه الشرقى للدولة العباسية مما أدى إلى قلة نشاطها فى حوض البحر المتوسط(١) .

استغل قسطنطين الخامس هذه الظروف وتقدم فى ذى القعدة ١٣٤هـ/ يونيو ٧٥١م حيث استولى على أرضروم أو The odosipolis ولم يستطع العباسيون مقاومة هذا الهجوم. ثم استمر الامبراطور البيزنطى فى هجومه على الثغور الجزرية وخرب العديد من الحصون .

---

(١) تناول أحداث الفترة من ٧٤١ إلى ٨٢٠م / ١٢٤ ـ ٢٠٥ هـ الدكتور وديع فتحى فى كتابه: العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامى الاسكندرية ١٩٩٠ .

وبعد استتباب الأمر للخليفة العباسى أبو العباس السفاح عادت الصوائف والشواتى مرة أخرى كما ظهر نشاط الأسطول الإسلامى مرة أخرى عند صقلية وسردينيا .

اما فى عصر الخليفة المنصور (٣٦ ـ ١٥٨هـ/ ٧٥٤ ـ ٧٧٥م) والذى عاصر الفترة حتى نهاية قسطنطين الخامس ـ فقد انتهج سياسة إرسال الصوائف والشواتى، كما عقد مع بيزنطة هدنة مدتها سبع سنوات ووافق على تبادل الأسرى بينهما[(١)] وعلى الرغم من ذلك فقد استمرت الصوائف والشواتى والتى كانت تسفر عن أعمال عسكرية محدودة. كما استمرت أعمال تحصين هذه الثغور لمواجهة الهجمات البيزنطية، مع تزويدها أيضا بالمرابطين بها من المسلمين.ويعدد الدكتور وديع فتحى هذه الصوائف فى الفترة التالية .

ولكن هناك عوامل هامة أثرت دون شك على كل من الخليفة العباسى المنصور والتى تمثلت فى الثورات التى قامت فى عهده وبذل محاولات مضنية من أجل القضاء عليها. كذلك سببت مشكلة الأيقونات تأثيراً كبيراً على سياسة قسطنطين الخامس، بالأضافة إلى خطر البلغار الذى هدد بيزنطة واضطره لشن حملات عديدة ضدهم حتى وصف فى المصادر بانه سفاح البلغار .

ومع عام ٧٧٥م / ١٥٨هـ اعتلى عرش بيزنطة ليو الرابع، بينما حكم بغداد المهدى العباسى. وفى بداية حكمهما حاولا عقد هدنة أو بداية صفحة جديدة فى العلاقات بينهما تمثلت فى إطلاق سراح أسرى وهدايا متبادلة

(١) أورد المقريزى الفداء الذى حدث بين الجانبين وخاصة المشهور منها والأقل أهمية دون أن يشير الى ما حدث اعلاه ـ والذى أورده الطبرى وابن الأثير وابن كثير .
راجع: المقريزى: الخطط ، جـ٢، ص ١٩١ ـ ١٩٢ .

بينهما. ولكن سرعان ما عادت الحرب بين الجانبين والتى بدأها ليو الرابع بشن حملة على سميساط وأسر بعض المسلمين فى عام ١٦٠هـ / ٧٧٦م. وكان رد فعل المهدى سريعاً عندما أرسل قوات بقيادة عمه للانتقام مما حدث. وبالفعل وصل الى مدينة كاسن لأهميتها الاقتصادية. كما استمرت الصوائف بين الجانبين حول مرعش فى عام ١٦١هـ / ٧٧٧م. وتمكنت بيزنطة من تحقيق النصر على العباسيين فى هذه المعركة السابقة. وأسر العديد من المسلمين نقلهم إلى منطقة تراقيا.ولذا فقد عمل الخليفة المهدى على الرد سريعاً على هذه المعركة فأرسل قواته لغزو المناطق البيزنطية ونجحت فى الوصول الى ضورليوم ومحاصرتها بالاضافة إلى أعمال السلب والنهب فى المناطق المحيطة بها .

انشغل المهدى فى الفترة التالية باحداث الحركات المذهبية فى بلاده وخاصة ما عرف باسم ثورة المقنع والتى تطلب من الخليفة إرسال عدة حملات حتى تمكن من القضاء عليها وذلك فى عام ١٦١هـ. وأعد المهدى حملة ضد بيزنطة وتبالغ المصادر العربية فى ذكر عددها الذى بلغ مائة وخمسين ألفاً وذلك فى رجب ١٧٣هـ / مارس ٧٨٠م ـ وخرج على رأسها بنفسه حتى وصلت إلى حلب فجعل قيادتها بعد ذلك إلى ابنه الرشيد والذى واصل اعمالها فدخل آسيا الصغرى ونجح فى تخريب العديد من الحصون بها وضم حصن سمالو ومجموعة من الأسرى وصلوا إلى بغداد. وقد عاصرت هذه الأحداث السابقة عصر الامبراطور ليو الرابع (٧٧٥ ـ ٧٨٠م) .

اما فى عهد قنسطنطين السادس والذى كان لا يزال طفلاً صغيرا فقد عينه والده امبراطوراً بعد أن حصل على قسم القادة والشعب ومجلس

الشيوخ وغيرهم من طبقات المجتمع.وتولت أمه إيرين الوصاية عليه وذلك حتى عام ٧٩٧م ونجحت فى القضاء على العديد من المؤامرات التى دبرت فى بداية حكم قنسطنطين السادس مما دل على قوة شخصيتها. ومنه خرجت حملة أخرى فى عام ١٦٥هـ / ٧٨٢م وذلك بقيادة هارون الرشيد بن المهدى، وكانت معدة اعداداً قوياً، ومعه مجموعة من القادة ذوى الخبرة لان الرشيد كان آنذاك لا يزال فى التاسعة عشرة من عمره. ووصلت هذه الحملة إلى آسيا الصغرى حيث هاجمت العديد من الحصون والقلاع وألحقت خسائر فادحة بالبيزنطيين.ولكن الأمور تحولت بعد ذلك لصالح بيزنطة عندما وقع الجيش العباسى فى حصار القوات البيزنطية. وكاد البيزنطيون يفرضون شروطهم لولا أن حدثت خيانة فى صفوفهم وأدى ذلك إلى التفاوض بين الجانبين.ووقع القادة البيزنطيون أسرى فى قبضة هارون.وعاودت القوات العباسية تقدمها حتى أصبح فى أمكانها تهديد العاصمة القسطنطينية نفسها.ولكن تم التوصل إلى هدنة بين الجانبين فى عام١٦٦هـ / ٧٨٢م لمدة ثلاث سنوات، ودفعت إيرين جزية للعباسيين تراوحت ما بين ٧٠ ، ٩٠ ألفاً من الدنانير. وتبادل الأسرى وفتح الأسواق للجيش العباسى أثناء عودته وكذلك المرشدين وحمل الغنائم. وهكذا فقد كانت هذه الهدنة «مخزية للغاية فى حق بيزنطة»(١) .

واستمرت الهدنة سارية حتى قامت بيزنطة بنقضها ـ فعادت الصوائف مرة أخرى وتبادل الطرفان الهجمات ـ حتى كانت وفاة المهدى فى ١٦٩هـ/ ٧٨٥م. ثم تولى الهادى الذى لم يحكم إلا فترة قليلة ـ ثم حكم هارون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣هـ / ٧٨٦ ـ ٨٠٩م). ووصفته المصادر بانه «كان يحج سنة، ويغزو سنة» وقيل أنه «غزا ثمانى غزوات» وكان رده سريعاً

(١) تناولت الدكتورة علية عبدالسميع فى كتابها المرأة فى الحضارة البيزنطية، دور إيرين وشخصيتها ـ للمزيد راجع: ص ٢٥ وما بعدها .

عندما تصله إستغاثة من صاحب الثغور «أنا فى الأثر، ومن الله الظفر» « ووقع على كتاب آخر بآية من سورة الرعد «وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار»[1] .

ولم يكتف هارون بذلك بل نهج سياسة ترميم الحصون وإعادة بنائها مثل الحدث وزبطرة وكفربيا وطرسوس. وعمل على شحنها بالجنود والمؤن وغير ذلك مما تحتاج إليه أثناء الحصار. كذلك أهتم بالجيش العباسى بصفة عامة وكذلك نظام التجسس. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أعاد تنظيم المناطق الحدودية التى عرفت بالثغور ـ سواء الجزرية أوالشامية. كما فرض رقابة صارمة على منطقة الدروب التى تصل ما بين الشام وآسيا الصغرى لمراقبة تحركات العدو. كذلك أهتم باعادة الأسطول وتزويده بما يحتاج إليه من سفن وامدادات .

ونتيجة لذلك فقد عادت الصوائف تخرج من جديد كما حدث فى أعوام ١٧١ و ١٧٢هـ ٧٨٨م. وكذلكك عادت الأشتباكات البحرية. مرة أخرى فى عام ١٧٤هـ / ٧٩٠م. وذلك عندما أغار الأسطول البيزنطى على الأسطول (المصرى). مما أدى إلى إرسال هارون الأسطول الشامى لمهاجمة الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى. وعادت إيرين من جديد إلى سياسة المهادنة فقبلت عقد الهدنة ودفع الجزية وتبادل الأسرى[2] .

وفى عام ٧٩٠م بدأ قسطنطين السادس حكمه منفرداً ـ وحاول شن هجوم ضد المسلمين ولكن ذلك باء بالفشل.وعادت الصوائف مرة أخرى لمهاجمة بيزنطة وذلك فى العامين التاليين. وحققت بعض النتائج مثل أسر

---

(١) ابن ظافر: أخبار الدول المنطقة. تحقيق د. عصام هزايمة وآخرون، ٢جـ، الأردن ١٩٩٩، ص ٣١٨، ٣٢٠ ـ وراجع أيضاً الطبرى، وتاريخ بغداد .

العديد من البيزنطيين والحصول على الغنائم. واستمرت الأشتباكات البحرية والبرية بين الجانبين خلال السنوات التالية. ومن ناحية أخرى نقل هارون مركز عملياته العسكرية إلى الرقة وذلك لمواجهة الهجمات البيزنطية .

وعملت إيرين على الأستفادة من الكراهية التى زادت ضد قسطنطنين السادس وذلك بسبب موقفه امام البلغار عام ٧٩٢م / ١٧٦ه، وكذلك ضد العرب فى مارس ٧٩٧م / ١٨١هـ ـ وقامت بسمل عينى أبنها دون مراعاة لمشاعر الأمومة حيث تغلبت الأطماع السياسية على هذا الشعور .

وعلى الرغم من استمرار بعض الأشتباكات اثناء فترة حكم إيرين كامبراطورة (٧٩٧ ـ ٨٠٢م)، فانه جرت محاولات لعقد هدنة بين الجانبين ـ وأرسلت السفارات وتم عقد صلح مدته أربع سنوات وتبادل الأسرى بينهما. وتصف المصادر عملية تبادل الأسرى وكيفيتها عند نهر اللامس. وقد أختلفت آراء المؤرخين الحديثين حول هذه الهدنة وجدواها بالنسبة لبيزنطة جاء فى أعقاب حكم إيرين ـ نقفور (٨٠٢ ـ ٨١١) لكى يتولى زمام الأمور فى بيزنطة. وعمل جاهداً على إعادة تنظيم البلاد مالياً وعسكرياً، وكذلك مواجهة ثورة قامت ضده فى بداية حكمه. ونجح ايضا فى صد هجوم قام به العباسيون فى عام ٨٠٢م / ١٨٧هـ. كذلك عمل على صد هجوم آخر فى العام التالى وذلك بان عقد أتفاقاً مع العباسيين للانسحاب مقابل الإفراج عن الأسرى المسلمين. وبعد عدة سنوات توقف نقفور عن دفع الجزية وأرسل له خطاباً مهدداً له باعادة الأموال التى حصل عليها من إيرين وإلا فانه سيعلن الحرب. وعندما تسلم هارون الخطاب أمر بدواة وكتب فى ظهر الخطاب بعد البسملة من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، أما بعد فقد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه وما تسمعه

والسلام». وأرسل حملة ضخمة فى ابريل ٨٠٤م.وتعرض نقفور للهزيمة وكاد يُأسر فيها بخلاف الخسائر المادية الضخمة التى تكبدها الجيش البيزنطى. ثم اتبع هارون ذلك بحملة أخرى قادها بنفسه وعرض نقفور الصلح مقابل دفع غرامة مالية سنوية. وتم عقد فداء للأسرى بلغ ثلاثة آلاف وسبعمائة أسير(١) .

وعندما نقض نقفور الصلح السابق خرج هارون على رأس حملة أخرى وذلك فى عام ١٩٠هـ / ٨٠٦م خاض فيها العديد من الحروب عند هرقلة التى فتحها وكذلك ضد العديد من الحصون البيزنطية الأخرى فى هذه المناطق، ووصل بنفسه إلى حصن الطوانة. كما ساهم الأسطول الإسلامى فى شن الهجمات ضد قبرص تمكن من مهاجمتها وأسر العديد من أهلها. وبعد تشاور بين نقفور وقادته قرر إرسال وفداً إلى هارون الرشيد يطلب منه عقد الصلح والذى تم التوصل اليه مقابل عدة شروط كانت كلها لصالح الخليفة العباسى. وتبودلت الهدايا بين الجانبين وكذلك خطابات تحمل روحاً سلمية بينهما .

على أى حال استمرت العلاقة بين بيزنطة والخلافة العباسية تتراوح ما بين العداء والسلم خلال الفترة التالية حتى نهاية عهد هارون الرشيد والذى انشغل فى نهاية حكمه ببعض الثورات الداخلية وذلك عندما اضطرب مشرق الدولة وقامت بسمرقند ثورة رافع بن نصر ابن سيار. وشهدت أيضا هذه الفترة تبادلاً للأسرى بين الجانبين فى عام ١٩٤هـ / ٨١٠م وذلك بعد وفاة الرشيد بعام واحد .

ويصف المقريزى الفداء الذى تم فى عهد الرشيد على النحو التالى: (الفداء الأول) باللامش من سواحل البحر الرومى قريباً من طرسوس فى سنة

تسع وثمانين ومائة وملك الروم يومئذ نقفور بن اشبراق وكان ذلك على يد القاسم بن الرشيد وهو معسكر بمرج دابق من بلاد قنسرين فى أعمال حلب فنودى بكل أسير كان ببلاد الروم من ذكر أوأنثى وحضر هذا الفداء من أهل الثغور وغيرهم من أهل الأمصار نحو من خمسمائة ألف انسان بأحسن ما يكون من العدد والخيل والسلاح والقوة قد أخذوا السهل والجبل وضاق بهم الفضاء وحضرت مراكب الروم الحربية بأحسن ما يكون من الزى معهم أسارى المسلمين فكان من فودى به من المسلمين فى أثنى عشر يوما ثلاثة آلاف وسبعمائة أسير وأقام ابن الرشيد باللامش أربعين يوما قبل الأيام التى وقع فيها الفداء وبعدها[(١)] .

وقال مروان بن أبى حفصة فى هذا الفداء يخاطب الرشيد من أبيات :

وفكت بك الأسرى التى شيدت بها محابس ما فيها حميم يزورها

حين أعى المسلمين فكاكها وقالوا سجون المشركين قبورها

وعلى الرغم من وفاة هارون الرشيد واعتبار نقفور ذلك يوم عيد بالنسبة لبيزنطة عندما تخلصت من هذا الخصم العنيد، إلا أنه لم يستطع أن يستفد من هذه الأحوال لصالحة. فقد انشغل نقفور بالعديد من المشاكل داخليا وخارجياً. ولم تحدث إلا بعض الأشتباكات المحدودة بينهما فى الفترة التالية. حتى أنتهت حياة نقفور أيضا نهاية بشعة عندما لقى حتفه مذبوحاً على يد البلغار وذلك فى عام ٨١١م. وخلفه على العرش ميخائيل الأول والذى حكم لمدة عامين،لم يتمكن فيها من الدخول فى مواجهة مع المسلمين على الرغم من الخلاف الدائر آنذاك بين الأمين والمأمون. وكانت العلاقات بينهما تمثلت فى محاولة كل جانب تأييدثورة داخلية لدى الطرف الآخر. ولم يعد هناك استباكات ذات تأثير حتى عام ٢١٥هـ / ٨٣٠م. وذلك

(١) الخطط، جـ٢، ص ١٩١ .

حتى نهاية الأسرة الإيسورية وفترة تالية من عصر الأسرة العمورية .

العلاقة بين بيزنطة والبلغار والخزر فى عهد الأسرة الإيسورية

ساهم البلغار بدور هام فى إنقاذ بيزنطة أثناء حملة مسلحة على القسطنطينية وذلك عندما هاجموا القوات الإسلامية التى كانت بقيادة عمر بن هبيرة. وكان ليو الثالث قد سمح للبلغار بالتقدم إلى تراقيا. ويروى ابن كثير رواية هامة عن كيفية خداع البلغار للمسلمين عندما وعدوهم بارسال المؤن. وعندما ذهب المسلمون إلى المكان الذى حدده انقض عليهم البيزنطيين مما أدى إلى استشهاد عدد كبير من المسلمين. وكان ذلك أحد الأسباب الهامة التى أدت إلى فشل الحملة على القسطنطينية .

وبالأضافة إلى البلغار فقد ظهر عنصر آخر أسهم بدور رئيسى فى علاقته مع البيزنطيين ضد المسلمين وهو عنصر الخزر والذين جمعتهم مع بيزنطة مصلحة مشتركة منذ القرن السابع الميلادى. وبدأت حدودهم تلاصق حدود المسلمين مما جعل بيزنطة تستخدمهم فى سياستها ضد المللمين. ويرجع أول أحتكاك بين المسلمين والخزر إلى عام ١٠٢هـ/٧٢١م وأنتهى بفشل قائد الحملة الإسلامية فى إلحاق الهزيمة بهم. ثم تجددت الصدامات بينهم فى المرحلة التالية. كذلك دخل ليو فى علاقة مصاهرة مع خان الخزر حتى يضمن ولاءهم إلى جانبه فى الصراع ضد المسلمين[١] . وبالفعل ظل هذا التحالف ركناً أساسياً طوال القرنين التاليين. وهكذا فقد شغل الخزر الأمويين وفتحوا جبهة قوية لشغلهم عن مهاجمة بيزنطة طوال الفترة التالية.واضطر المسلمون لإرسال العديد من الحملات ضد هذه العناصر

(١) راجع محمد محمد مرسى الشيخ: الخزر وعلاقتهم بالإمبراطورية البيزنطية ـ مجلة كلية العلوم الاجتماعية ـ السعودية الرياض ١٩٨٠م/ ص٣٤٨ وما بعدها. وسام فرج: العلاقات، ص ٢٠٣ـ٢٠٤ .

لوقف تقدمها ضد الدولة الأموية خاصة وأنها كانت تحتل موقعاً استراتيجياً هاماً على حدود الدولة جهة الشمال. ومن ناحية أخرى فقد سلك معهم الخليفة الأموى مروان بن محمد سياسة الهجوم وطلب الهدنة فى نفس الوقت ونجح فى إلحاق الهزائم بهم من خلال العديد من الهجمات مما أدى إلى توقفهم فترة عن مهاجمة الأمويين وهو ما ترك أثره بدون شك على بيزنطة التى كانت تعتمد عليهم فى شغل الأمويين عنها. وفى عام ١٢٠ هـ/٧٣٨م نجح مروان بن محمد فى الوصول إلى عاصمتهم البيضاء وعقد صلحاً مع خان الخزر والذى تعهد فيه الخان بالدخول فى الإسلام. ونتج عن ذلك أيضا وقف خطر الخزر فى هذه المرحلة الهامة من العلاقات بين بيزنطة والدولة الأموية .

عاود البلغار تهديدهم لبيزنطة فى عهد قسطنطين الخامس حيث اقتربوا من العاصمة القسطنطينية. وعمل على تقوية تحصيناتها فى البداية لمواجهة هذا الخطر، ثم قام بشن تسع حملات متتالية فى الفترة من ٧٥٥ إلى ٧٦٤م انتهت بعقد هدنة بينهما ثم عاد الصدام بينهما مرة أخرى لمدة ثلاث سنوات أنتهى بعقد صلح جديد وذلك فى عام ٧٧٥م. واستعادت بموجبه بيزنطة سيادتها فى منطقة البلقان. ونتيجة لهذه السياسة العنيفة لقسطنطين تجاه البلغار عرف فى المصادر باسم ذابح البلغار. ولكن كانت نهايته على يد هؤلاء البلغار عندما قتل فى احدى حملاته ضدهم .

وكان من حسن حظ الامبراطور ليو الرابع أن هدأت هذه الأخطار التى هددت دولته من جهة البلغار ـ فقد ضعفوا بعد الحملات السابقة ضدهم وما تكبدوه خلالها من خسائر، بالإضافة إلى أن زعيمهم هرب إلى القسطنطينية وعاش بها بعد اعتناق المسيحية وتزوج من أحدى أخوات الامبراطور البيزنطى ليو الرابع .

وفى فترة وصاية إيرين ثم انفرادها بالحكم عاد خطر البلغار مرة أخرى فى الظهور مستغلين الظروف السيئة التى كانت تمر بها بيزنطة فى تلك الفترة. فقاموا فى عام ٧٨٨م بمهاجمة تراقيا ولم يستطع الحاكم البيزنطى الدفاع عنه وتعرض لخسائر فادحة نتيجة لهذا الهجوم. وهكذا فشلت سياسة إيرين أمام هذه القوى الخارجية العديدة التى هددتها وكان من بينها الخطر البلغارى. ولكى تنتهى عصر هذه الأسرة الايسورية وتبدأ صفحة جديدة بتولى عدد من الأباطرة تميزت فترات حكمهم بالعديد من الثورات (٨٠٢ ـ ٨٢٠م) .

عادت الحرب ضد البلغار لكى تستنزف من جديد طاقة بيزنطة.وفقدت بيزنطة جزءاً من الأنتصارات التى حققها من قبل. كما فقدت سرديكا فى البلقان، وعندما أراد نقفور حسم هذه الحرب لصالحه كما فعل قسطنطين السادس ذايح البلغار من قبل، فشل فى ذلك وأنتهى الأمر إلى ذبحه على يد البلغار وذلك فى عام ٨١١م. وكان تأثير هذا الأمر معنوياً اكثر منه من الناحية الفعلية .

وفى عهد ليو الأرمينى ٨١٣٠ ـ ٨٢٠م) عمل على مواجهة خطر البلغار وذلك بالأهتمام بدفاعات العاصمة القسطنطينية مضيفاً إليها سوراً منيعاً خارج السور الأصلى. ولذلك عندما حاول كروم خان البلغار مهاجمة العاصمة القسطنطينية فشل فى ذلك ألهجوم على ٨١٤م. وتوقف بذلك خطر البلغار لفترة تالية قاربت الثلاثين عاماً .

بيزنطة وعلاقتها بالغرب الأوروبى فى عصر الأسرة الأيسورية :

كان للحركة المضادة للأيقونات التى قام بها ليو الثالث الإيسورى أثرها على علاقة بيزنطة بايطاليا وتركت آثاراً خطيرة عليها. فقد ضعف النفوذ البيزنطى فى ايطاليا ولم تتمكن بيزنطة من إعادة سيطرتها هناك مرة أخرى.وعملت البابوية على استغلال هذا الأمر مستغلة حركة تحطيم الصور وتم التحالف مع اللمبارديين لطرد الحاميات البيزنطية من جنوب ايطاليا.ورد الامبراطور البيزنطى بحرمان بابوية روما من أملاكها فى صقيلة وجنوب ايطاليا. وزادت هوة التباعد بين الجانبين مع ظهور قوة الفرنجة ممثلة فى الدولة الكارولنجية. وبعد تولى شرلمان حكمها وخروجه لنجدة البابوية مرتين احدهما فى عام ٧٧٣م والثانية فى عام ٨٠٠م. وفى المرة الثانية قام البابا (ليو الثالث) بتتويج شرلمان إمبراطوراً وتم إحياء الإمبراطورية الرومانية الغربية المقدسة. وهكذا أصبح شرلمان بموافقة البابا ومباركته خليفة القياصرة القدامى. وعاصر ذلك حكم الإمبراطورة إيرين مما أدى إلى فصم الإرتباط بين روما والقسطنطينية. وهكذا وجدت إمبراطورية غربية بجانب الإمبراطورية الرومانية الشرقية أو البيزنطية بتعبير أدق .

ورفضت بيزنطة الاعتراف بالامبراطور الجديد والذى كان فى نظرها مدعيا ومغتصبا وتافها وسخيفاً.وباختصار كان ذلك انقلاباً سياسيا فاشلاً. وتجاهل نقفور الأول (٨٠٢ ـ ٨١١) الادعاء الغربى بشأن تتويج شرلمان وزاد العداء بينهما. ولكن سلطة شرلمان أخذت فى الأزدياد، ومن ناحية أخرى ظهرت عوامل فى عهد ميخائيل الأول (٨١١ ـ ٨١٣) ومن بينها استعداده للاعتراف بهذا اللقب مقابل استعادة بعض الأراضى التى فقدها.ولذلك أرسل فى عام ٨١٢ سفراء إلى آخن تم الأعتراف به امبراطوراً

كما رغب فى المصاهرة بينهما. وهكذا أصبح هناك امبراطوران احدهما فى الشرق والثانى فى الغرب. وربما كان لهزيمة بيزنطة على يد البلغار فى العام السابق أثرها على هذا الأمر مما أدى إلى تغيير موقف الامبراطور البيزنطى .

وعلى الرغم من ذلك فقد تحاشى شرلمان أن يطلق على نفسه لقب امبراطور الرومان، بينما أصر البيزنطيون على أنهم أصحاب الحق القانونى،ووجودفارق بين الامبراطوريين. ولم يستمر الأمر طويلاً بينهما خاصة وأن تفكك امبراطورية شرلمان بعد موته، جعل بيزنطة تفكر مرة أخرى فى تجاهل الأعتراف البيزنطى بالامبراطور الغربى[1] .

---

(١) يعتبر كتاب هارتمان وباراكلاف: الدولة والأمبراطورية فى العصور الوسطى، ترجمة وتعليق د. جوزيف نسيم يوسف ـ الإسكندرية ١٩٨٤ ـ من أفضل الكتب التى تناولت هذه الفكرة وأثرها على بيزنطة والغرب الأوروبى .

السياسة الداخلية في عصر الأسرة الإيسورية

موقف أباطرة بيزنطة من المشكلة الأيقونية :

ظهرت فى عصر الأسرة الإيسورية حركة عرفت باسم محطمى الصور والأيقونات image Breakerd . وعرف الأباطرة الذين أيدوا تلك الحركة باسم الأباطرة اللا أيقونيين.وتناول الكتاب الحديثون هذه الحركة ما بين مؤيد ومعارض ـ فنجد كاتبا مثل شارك أومان C. Oman يقول عن ليو الأيسورى أنه كان من الأفضل له أن يموت بعد صده هجوم العرب على القسطنطينية. فقد أساءت الحركة اللاأيقونية له أساءة بالغة وقللت من شأنه فى نظر المعاصرين له والمتأخرين عنه .

وترجع جذور هذه الحركة إلى فترة بعيدة. فقد تأثر المسيحيون بعد فترة من ميلاد السيد المسيح عليه السلام بما عثروا عليه من آثار أدعوا أنها للسيد المسيح عليه السلام وإقاموا عليها الكنائس مثل كنيسة القيامة أو الضريح المقدس. وأخذ الناس يشتد ولعهم بهذه الجوانب وحملوها معهم من الأراضى المقدسة أثناء عودتهم للغرب الأوروبى. كما ظهر من هذه الاثار ما عرف بالصليب المقدس والذى كان له أثر كبير خلال حملة هرقل على بيت المقدس واسترداده من الفرس فى احتفال كبير. وكانت لهذه الآثار الدينية فى نظر معتنقيها. ولكنها وجدت معارضة من جانب آخر نتيجة لأن المسيحية هى دين سماوى يتعارض مع هذه الأشكال الوثنية، كما كان هناك قرارات لمجامع دينية أنكرت وجود هذه الصور فى الكنائس أو الحوائط لغبادتها أو تبجيلها. كما أعلن يوسبيوس القيصرى أن عبادة هذه الصور هى «عادة وثنية» . غير أن ازدياد الجهل زاد تعلق العامة بهذه التماثيل وزاد من صعوبة التخلص منها. ولذلك فعندما بدأ ليو الثالث بازالة صورة للسيد

المسيح فوق أحد أبواب المدخل العظيم للقصر الامبراطورى ثار العامة وقاموا بقتل الضابط المكلف بتنفيذ هذا الأمر. ولم يقف الأمر عد هذا الحد بل قاوم ذلك البطريرك البيزنطى جرمانوس وكذلك البابا جريجورى الثانى واندلعت الثورة فى امكان كثيرة من الامبراطورية البيزنطية .

على أية حال يعتقد البعض أن ليو تأثر أثناء نشأته فى آسيا الصغرى بموقف الإسلام من عبادة الصور والتماثيل وهى التى يحرمها تماماً،وكذلك عندما أصدر يزيد بن عبدالملك قراراً بازالة جميع الصور والتماثيل الموجودة فى الكنائس الواقعة فى داخل حدود الدولة الأموية.ويرى آخرون أن دافع ليو من ذلك يرجع إلى رغبته فى إزالة الحاجز ما بين المسيحيين واليهود والمسلمين بسبب هذه الصور ورغبته فى ادخالهم تحت حوزته بعد نجاحه فى ذلك.ولذلك فقد تعرض ليو لكثير من التهامات حتى أن أُتهم بأن الخليفة يعمل سراً على ادخاله فى الإسلام .

وعلى الرغم من ذلك فقد استمر ليو متمسكاً بسياسته التى تركت تأثيرها على التاريخ البيزنطى لمدة قرن من الزمان تقريباً. وزاد الأنفصال ما بين الكنيستين الشرقية والغربية.وهكذا فقد اختلطت الدوافع لدى الامبراطور البيزنطى ووقف الرهبان على رأس المعارضين لهذه السياسة والتى كانت ستلقى بظلالها عليهم دون شك. وتناول الدكتور وسام فرج هذه الأراء المختلفة فى كتابه العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية .

واستمرت الفترة الأولى من النزاع اللاأيقونى من عام ٧٢٦ إلى ٧٨٠م. وانتهت بالمجمع المسكونى السابع وفى عهد قسطنطين الخامس استمرت المشكلة الأيقونية وزادت حدة العداء بين البابوية وبيزنطة وضاعت الكثير من أملاك بيزنطة فى ايطاليا. وانقطعت العلاقة بينهما نتيجة للسياسة اللاأيقونية.

غير أن قسطنطين الخامس أثبت أنه لا يقل كفاءة عن والده فى سياسته ضد الأيقونيين.وكلف عدداً من الأشخاص بالبحث فى أقوال الآباء الأوائل لتدعيم موقفه من الأيقونات كما حرص على تدعيم ذلك من خلال الخطب والعظات التى تلقى فى الكنائس. وأتبع ذلك بالدعوة لعقد مجمع دينى أو مسكونى لمناقشة هذا الأمر والذى عرف بالمجمع السابع وحضره نحو ٣٣٨ من رجال الدين. ودعم قسطنطين مواقفه بارسال مجموعة من الرسائل للمجمع لتوضيح آراؤه معارضاً بشدة أمر تشبيه المسيح أو رسم على أساس ماله من صفة آلهية .

وبالفعل نجح قسطنطين فى استغلال هذا المجمع وصدرت قرارات لصالحه استغلها فى معاقبة المخالفين وذلك إما بالسجن أو مصادرة أملاكهم سواء أكان من رجال الدين أو العلمانيين. واشتد فى التنكيل بالمخالفين وابعادهم عن وظائفهم. كما كان الرهبان اكثر من تلقى هذه العقوبات بسبب عنادهم وأصرارهم ضدسياسته .

اما فى عهد ليو الرابع فقد مال إلى استخدام سياسة الأعتدال فتوقفت أعمال الأضطهاد مما أدى إلى استعادة الرهبان جزءاً مما فقدوه. ولكنه عدل عن هذه السياسة عندما لمس قوة الأيقونيين فقام بفرض بعض العقوبات مرة أخرى سواء الجلد أو الحبس أو المصادرة.وكان لإيرين زوجة ليو أثرها الواضح على مواقفه المعتدلة. فقد كانت من مؤيدى عبادة الصور والأيقونات.واعلنت هذه السياسة بعد وفاة زوجها ليو الرابع. وعاد الناس إلى هذه العبادة وعينت فى الوظائف من أشتهر بحبهم لهذه الصور ثم قامت بالدعوة لعقد مجمع مسكونى انعقد فى عام ٧٨٧م فى نيقية وذلك لإلغاء القرارات السابقة التى صدرت فى عهد قسطنطين الخامس. وحضرة حوالى ٣٥٠ أسقفا وعادت بموجبه عبادة الصور والأيقونات وأنها تتفق مع ما جاء فى الكتاب المقدس.

وفرض المجمع قرار الحرمان على المخالفين لقراراته وأعيدت الصور والأيقونات إلى ما كانت عليه من قبل .

وعلى الرغم من ذلك فقد استمرت السياسة المتعارضة بين الأيقونيين واللاأيقونيين وذلك بعد الأطاحة بايرين وحتى نهاية الأسرة الإيسورية حيث جلس على العرش عدة من الأباطرة فى أواخر هذه الفترة .

سلك نقفور الأول سياسة معتدلة تجاه عبادة الصور والأيقونات بخلاف سياسة إيرين السابقة المؤيدة لها. وتمكن من أتباع سياسة معتدلة وذلك لحاجته إلى أصلاح أحوال البلاد وأخراجها من الحالة السيئة التى وصلت إليها قبل توليه الحكم. غير أن المشاكل أحاطت به من جهات عديدة سواء من ناحية الغرب الأوروبى أو العباسيين أو البلغار مما أدى إلى موته فى معركة ضد البلغار عام ٨١١م. ثم عاد خلفه ميخائيل الأول رانجاب إلى عبادة الصور وحماسته لها وخضوعه للكنيسة التى زاد نفوذها فى عهده. وربما كان لموقفه هذه أثره على تلك الهزيمة التى تعرض لها فى عام ٨١٣م عندما تخلى عنه جنوده المناهضين لعبادة الصور فى معركته ضد البلغار مما أدى إلى خلعه عن العرش وتولى مكانه ليو الأرمينى حتى نهاية هذه الأسرة فى عام ٨٢٠م. وكان انتماؤه لآسيا الصغرى أثره على السياسة المناهضة للأيقونات فعاد إلى مناهضتها خاصة بعد تغلبه على خطر البلغار وكذلك انشغال العباسيين بالصراع الداخلى. فأمر فى عام ٨١٥ بازالة الصور ولكن البطريرك البيزنطى رفض ذلك فعزله وولى آخر بدلاً منه ـ وعقد مجمعاً دينيا لذلك أعاد قرارات مجمع القسطنطينة السابق فى عام ٧٥٤م.ولكن لم يستمر الأمر طويلاً لهذا الأمبراطور حيث أنتهت حياته على يد أحد أتباع ميخائيل الأول لكى تبدأ فترة جديدة فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية وذلك فيما عرف بالأسرة العمورية.(٨٢٠ ـ ٨٦٧م) .

الموضوع الثانى عشر
الأسرة العمورية
(٨٢٠ـ٨٦٧م)

أباطرة الأسرة العمورية

- ميخائيل الثاني العموري (٨٢٠-٨٢٩) .
- ثيوفيلوس (٨٢١-٨٢٩) .
- ثيوفيلوس (٨٢٩-٨٤٢) .
- ميخائيل الثالث (السكير) (٨٤٢-٨٦٧) .
  - وصاية ثيورورا على العرش (٨٤٢-٨٥٦) .
  - بارادس وصياً على العرش (٨٦٢-٨٦٦) .
- باسيل الأول قبل تأسيس الأسرة المقدونية . (٨٦٦-٨٦٧) .

الأسرة العمورية (١)

مقدمة :

حكمت هذه الأسرة من عام ٨٢٠ إلى ٨٦٧م. اعتلى العرش البيزنطى خلالها ثلاثة من الأباطرة وفترة وصاية، من خلال حكم ثيودورا وبارداس قبل نجاح باسيل فى إنهاء حكم هذه الأسرة. وخلال هذه الفترة نجد تضاءل حدود الدولة البيزنطية حيث فقدت العديد من أملاكها سواء فى الشرق أو الغرب. فقد نجح المسلمون فى فتح جزيرة كريت وظلت فى أيديهم إلى عام ٩٦١م، كما نجح الآغالبة فى فتح جزيرة أخرى هى صقيلة والتى نجحوا فى ضمها أيضا لسيطرتهم وذلك على عدة مراحل. وأيضا شكّلت الثورات فى الجانبين عوامل ضغط حيث حاولا استغلالها ضد بعضهما البعض. فقد عمل المأمون العباسى على استغلال ثورة توماس الصقلبى، ثم رد عليه ثيوفيلوس بمحاولة الأستفادة من ثورة بابك الخرمى، كذلك شهدت هذه الأسرة تبادلاً للأسرى فيما عرف بنداء الأسرى واستمرت الصدامات بين الجانبين فى آسيا الصغرى. كما حدثت معارك بحرية بينهما حيث تعرضت دمياط لغارة بيزنطية فى عام ٢٣٨هـ / ٨٥٣م .

ومن ناحية أخرى أستمرت المشكلة الأيقونية فى عصر هذه الأسرة العمورية. وارتبطت هذه الناحية بالجانب السياسى فعمل الأباطرة على الربط بين المشكلة وأحوالهم السياسية. ومن جانب آخر ظهر دور البلغار والروس وعاد البيزنطيون للتحالف مع الخزر لوقف هذا الخطر الجديد. ولجأت بيزنطة من ناحية أخرى إلى محاولة نشر المسيحية بين هذه العناصر وذلك لجذبها إلى صفها بدلاً من الدخول فى نزاعات حربية معها .

(١) يُعد كتاب أ. فازيليف: العرب والروم من أفضل الكتب التى تناولت عصر هذه الأسرة العمورية ـ وترجمة د. محمد عبدالهادى شعيرة .

ميخائيل الثانى العمورى (٨٢٠ ـ ٨٢٩م) :

نُسبت الأسرة العمورية إلى مؤسسها ميخائيل الثانى العمورى وهو من بلدة عمورية بآسيا الصغرى. وتعرف أيضا بالأسرة الفريچية Phrygian. وسوف نسير على نفس المنهج المتبع من قبل والذى يتناول السياسة الخارجية للأسرة بصفة عامة فى مختلف الجبهات، ثم أهم معالم السياسة الداخلية .

سياسة الأسرة العمورية مع المسلمين :

كانت بداية العلاقة بين البيزنطيين والعباسيين متمثلة فيما عرف بثورة توماس الصقلبى والذى كان أحد رفاق ميخائيل الثانى قبل توليه الحكم. وأنضم إلى مؤيدى الأيقونات، فى نفس الوقت الذى حصل فيه على تأييد الخليفة العباس المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨هـ) وذلك للعمل معاً ضد الامبراطور البيزنطى. بل وصل الأمر إلى أن تم تتويجه امبراطوراً فى أنطاكية بعد موافقة الخليفة المأمون. وعلى الرغم من ذلك فقد صمتت المصادر العربية عن ذكر تفاصيل هذه الحادثة الهامةوالتى أوردتها فقط المصادر البيزنطية. وساعد المأمون الثائر البيزنطى بالمال وكذلك بالقوات لكى تساعده، فى الوقت الذى أنضم إليه جباة الضرائب فى آسيا الصغرى بما كان معهم من أموال، بالإضافة إلى تأييد بعض السفن البيزنطية. وتوجهت هذه القوات لحصار العاصمة البيزنطية براً وبحراً وذلك فى عام ٨٢١م واستمرت محاولاته لاقتحامها ولكن ميخائيل وابنه ثيوفيل صمدا أمام هذه الهجمات مما أدى إلى فشله وذلك لعدة عوامل ـ من بينها استنجاد ميخائيل بالبلغار الذين قدموا المساعدة لحليفهم. كما تخلى مؤيدوه عنه بعد تحالفه مع المسلمين، وتمرد قواته بعد طول الحصار.، ثم كانت حصانة ومناعة العاصمة سبباً رئيسياً فى صمودها أمام هجمات الأعداء حتى ولو كانوا من أهلها. وأخيراً تم القبض عليه وتسليمه إلى الامبراطور الذى أنهى حياته بعد تعذيبه .

نتائج ثورة توماس الصقلبى :

فتح كريت :

من أبرز نتائج هذه الثورة نجاح جماعة من الأندلسيين عرفوا بالربضيين نسبة إلى سكان ربض قرطبة ثاروا فى عام ٨١٨م / ٢٠٢ هـ فى عهد الحكم بن هشام والذى عرف بالربضى نتيجة لهذه الثورات التى اندلعت فى الأندلس. ولكنه تتبع الثوار فقاموا بالفرار حيث أبحر قسم منهم إلى الأسكندرية واستولوا عليها. يقول أبو المحاسن «وكان قد نزل بالاسكندرية طائفة من المغاربة من الأندلس في المراكب وعليهم رجل كنيتة أبوحفص»[١] وعمل الخليفة المأمون على طردهم من الأسكندرية فأرسل قائده عبدالله بن طاهر وحاصرهم لمدة عشرة أيام وأرغمهم على مغادرة الأسكندرية متوجهين إلى كريت أو «إقريطش» كما تعرف فى المصادر العربية. ونجح الأندلسيون فى دخولها وذلك بسبب كراهية سكانها للبيزنطيين. وتولى قيادتها أبو حفص عمر بن شعيب ونجح فى تأسيس عاصمة له عرفت باسم الخندق Candia-Chandax. وفشل الامبراطور البيزنطى فى استردادها وظلت فى ظل السيادة الإسلامية حتى عام ٩٦٠ - ٩٦١م[٢] .

فتح صقلية :

تعتبر هذه الغزوة واحدة من أهم الغزوات التى تمت فى عهد الأسرة العمورية. فقد حاول المسلمون مرات عديدة فتح هذه الجزيرة ولكنهم لم ينجحوا فى ذلك. ومع استمرار خطر الهجمات البيزنطية على الساحل

---

(١) النجوم الزاهرة، جـ٢ ، ص ١٩٢ .

(٢) السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس. ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

التونسى عمل الآغالبة على ضرورة فتحها لتأمين حدودهم، وبالاضافة إلى أهميتها من الناحية الاقتصادية. الى جانب عامل الجهاد المحرك الرئيسى لهذه الغزوات والدليل على ذلك أختيار أسد بن الفرات وكان فقيها قائداً لهذه الحملة وخرج معه العديد من القادة بالاضافة إلى الجند من العرب والبربر والأندلسيين وغيرهم .

ونجح أسد بن الفرات فى استغلال الأوضاع السيئة التى كانت تمر بها الجزيرة وأقلع الأسطول الأغلبى متجهاً إلى الجزيرة واستطاع المسلمون فتح العديد من حصونها وحاصروا سيركيوزا دون أن يتمكنوا من فتحها نتيجة لانتشار الوباء مما أدى إلى وفاة القائد أسد بن الفرات. ثم استمرت فتوحات الأغالبة وواصلت الامدادات قدومها إلى صقلية سواء من الأندلس أو الشمال الأفريقى. وظل الحال على هذا النحو مدة ما يقرب من خمسين عاماً مما يدل على ما بذله المسلمون فى سبيل فتح هذه الجزيرة الهامة. وجاء فتحها نصراً هاماً لانها تمثل مفتاح حوض البحر المتوسط وأصبح للمسلمين قاعدة بحرية هامة تمكنوا من الوصول إلى ايطاليا ـ والتدخل فى شئونها فى الفترة التالية(١) .

عاد الصدام مرة أخرى بين العباسيين والبيزنطيين فى عهد ثيوفيل بعد أن أعاد تنظيم الوحدات على الحدود، كما حاول الاستفادة من الثورة الداخلية التى قامت ضد الخليفة المأمون والتى تزعمها بابك الخرمى. وهى من الحركات المذهبية التى ترجع إلى عام ١٩٢هـ زمن هارون الرشيد واستغلت الصراعات الداخلية التى أعقبت وفاته زمن الأمين والمأمون. وعمل بابك الخرمى على محاربة جيش الخلافة حيث أرسل المأمون عدة جيوش

(١) السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى، ص ٢٩٩ وما بعدها، جمال الدين سرور: ساسة الفاطميين الخارجية، ص ٢٣١ .

إلى أذربيجان ولكنها لم تنجح فى القضاء عليه حتى نهاية عهد المأمون فى عام ٢١٨هـ / ٨٣٣م .

وعمل ثيوفيل على استغلال هؤلاء الثوار الذين نزح منهم حوالى خمسة عشر ألف قام الامبراطور بتوزيعهم على ثغور بيزنطة. ثم قام باستخدامهم فى الهجوم على منطقة الحدود. وعمل العباسيون على الرد وخرج الخليفة المأمون بنفسه متوجهاً إلى طرسوس وذلك فى ٨٣٠م. واستطاع فتح عدة حصون فى هذه المناطق مثل قرة وهاجم حصوناً أخرى. واستمرت أيضا خروج صوائف أخرى لرد هجوم ثيوفيل على طرسوس والمصيصية فى عام ٨٣١م. وبدأت محاولات التوصل لصلح بين الطرفين. غير أن موقف ثيوفيل من قتل الأهالى فى طرسوس والمصيصية جعل المأمون يرفض هذا العرض السلمى وقرر الخروج إلى مواجهة الروم حيث سقطت هرقلة وفتح العديد من الحصون الأخرى. ثم عاد إلى دمشق بعد أن استمرت الصائفة اربعة أشهر .

عاد المأمون لحصار حصن لؤلؤة وهو من اكبر الحصون البيزنطية والذى يتحكم فى درب قيليقيا واستمرت الصائفة حوالى مائة يوم وسقطت القلعة وحاول ثيوفيل طلب الصلح ولكن المأمون رفض ذلك الأمر حيث واصل حملاته عاد بعدها إلى دمشق بعد أن أصيب بالمرض مات على أثره فى رجب ٢١٨ هـ[١] .

تولى الخلافة المعتصم بالله العباسى (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ) خلفاً للمأمون. وبدأ عنصر الترك يظهر فى عصره وسيطروا على الوظائف الكبرى وبنى المعتصم سامراء مما أدى إلى بداية عصر جديد فى تاريخ الدولة العباسية.

---

(١) يذكر المسعودى فى مروج الذهب أن الشروط التى عرضها يثوفيل كانت رد نفقات الحملة للمأمون، واخراج الأسرى المسلمين بغير مقابل، وتعمير البلدان التى خربها الروم. واستخار =/=

واستطاع الترك مساعدة الخليفة المعتصم فى القضاء على واحدة من أخطر الثورات وهى ثورة بابك الخرمى والتى كان قائدها قد اتصل ببيزنطة طالباً من ثيوفيل مساعدته بعد أن يعتنق المسيحية هو وأتباعه ويدخلوا فى خدمة بيزنطة. ولكن الأفشين قائد المعتصم تمكن بعد حملات عديدة من وقف خطر بابك وأستطاع أن يسير خلفه من تمكن من القبض عليه وذلك فى عام ٢٢٣هـ. ويصف المسعودى خبر القبض عليه بقوله:

«وأطلقت الطيور إلى المعتصم، وكتب إليه بالفتح، فلما وصل إليه ذلك ضج الناس بالتكبير، وعمهم الفرح، وأظهروا السرور،وكتبت الكتب إلى الأمصار بالفتح، وكان قد أفنى عساكر السلطان». ثم يصف الموكب الذى تم فيه احضار بابك وأخوه إلى الخليفة المعتصم فى سامراء حتى وصل إلى المعتصم فسأله أنت بابك فلم يرد إلى أن نهره الأفشين للرد على الخليفة ـ وقال نعم أنا بابك ـ فسجد الخليفة شكراً لله وأمر بقطع يديه ورجليه (١)

حاول ثيوفيل استغلال الثورة السابقة فأغار على زبطرة وأحدث بها مذبحة هائلة «وقتل الصغير والكبير وسبى وأغار على بلاد ملطية. وهنا استغاث الناس بالمعتصم. وعلى الفور خرج المعتصم غازياً بعد أن ارتدى «عمامة الغزاة» وانضمت إليه اعداد كبيرة من المجاهدين. وقيل أيضا أن أمرأة من الأسرى نادت وهى فى يد الروم وامعتصماه فرد عليها النداء. وتبالغ المصادر فى ذكر هذه الغزوة حتى أن من شارك فيها بلغ خمسمائة الف. وتقدمت قوات المعتصم حتى وصلت إلى عمورية ـ مسقط رأس هذه الأسرة البيزنطية ـ لتخريبها وشارك معه فى الحملة أيضا قائده المشهور الأفشين

=/= الله عز وجل ثم خرج ورفض العرض بالصلح. ثم واصل حملته ضد الروم. راجع: مروج الذهب، جـ٤ ، ص ٤٢ ـ ٤٤

(١) مروج الذهب، جـ ٤، ص ٥٦ - ٥٨

وتجمعت القوات العباسية لمهاجمة المدينة المذكورة. وعلم ثيوفيل بذلك فخرج لمواجهة المعتصم وقواته ـ وحصن المدينة وزودها بما تحتاج إليه من مؤن وامدادات .

ولم يدرك ثيوفيل الخطة التى أتفق عليها المعتصم بتقسيم جيشه إلى ثلاثة أقسام وحاول أن يباغت المعتصم عند نهر هاليس الذى يصب فى البحر الأسود. وفشل فى خطته بعد وصول بقية القوات العباسية حيث حدث اللقاء الحاسم بينهم فى شعبان ٢٢٣هـ / يوليو ٨٣٨م. وأنتهت المعركة بهزيمة ساحقة للقوات البيزنطية بعدها واصلت قوات المعتصم تقدمها إلى جوف آسيا الصغرى. وهنا لجأ الامبراطور البيزنطى لمحاولة عقد صلح وتقدم بعدة عروض ثم رفضها وواصلت القوات العباسية إجتياحها للمنطقة الممتدة من أنقرة إلى عمورية التى تم حصارها لمدة عدة أيام «أسر البطريق الكبير منها وهو باطس، وقتل منها ثلاثين ألفا وأقام عليها أربعة أيام يهدم ويحرق»[١] .

ترتب على هذه الغزوة التى قام بها المعتصم تفكيره فى غزو القسطنطينية براً وبحراً ولكن الأنباء التى وصلته بشأن أتصال العباس بن المأمون بالامبراطور البيزنطى جعلته يعدل من ذلك ويعود إلى بلاده .

ويلخص ابوالمحاسن أخبار هذه الغزوة بقوله :

«وفيها أخرب المعتصم مدينة أنقرة وغيرها من بلاد الروم، وأنكى فى بلاد الروم وأحاطهم خوفا وذلاً وصغاراً، وأفتتح عمورية بالسيف، وشتت جمعهم وخرب ديارهم. وكان ملكهم ثيوفيل بن ميخائيل بن جرجس قد

---

(١) المسعودى: مروج الذهب، جـ٤، ص ٥٩ ـ ٦٠ .

نزل زبطرة فى مائة ألف وأغار على ملطية وأباد المسلمين، حتى أخذ المعتصم بثأرهم وأخرب ديار الكفر»[1] .

علاقة ثيوفيل بمسلمى الأندلس :

حاول الإمبراطور البيزنطى ثيوفيل الاتصال بالأمير الأندلسى عبدالرحمن الثانى وذلك لكى يتم عقد تحالف بينهما لاعادة ملك الأمويين فى الشام والذى نجح العباسيون فى الاستيلاء عليه. وفى المقابل يعيد له الأمير الأندلسى جزيرة كريت التى فقدها ثيوفيل. وبالفعل عادت السفارة البيزنطية ومعها سفارة إسلامية على رأسها الشاعر الغزال. وأنتهت هذه السفارة بالفشل ولم يستطع ثيوفيل أن يقيم هذا التحالف ضد العباسيين[2]. وسرعان ما أنتهت حياة المعتصم وثيوفيل فى نفس العام تقريباً ٢٢٧هـ / ٨٤٢م حيث تبدأ فترة جديدة فى الصراع بين الجانبين حتى نهاية الأسرة العمورية.

وفى عهد ميخائيل الثالث أو السكير تولت أمه ثيودورا الوصاية عليه (٨٢٩ ـ ٨٤٢) قبل أن ينفرد بالعرش (٨٤٢ ـ ٨٦٧م). وعرفت هذه المرأة فى المصادر العربية باسماء عديدة مثل «تذورة وتدورة وبدورة». وفى خلال فترة و صايتها استمرت العلاقات الدبلوماسية والعسكرية ما بين بيزنطة والمسلمين وقوى خارجية أخرى.

وفيما يتعلق بالعلاقات مع مسلمى الغرب نجد أن المسلمين وصلوا إلى

---

(١) النجوم الزاهرة، جـ٢ ، ص ٢٣٨ ـ وبلغ من أثر هذه الغزوة قال عنها ابن العبرى «وقد دهش العرب اكثر من الروم بتلك الملحمة وما جرته تلك الثغرة من الخراب والدمار. وكانوا يقولون، قد كُتب فى أساطير الروم ان دولتهم ينقضى أمرها عندما تجتاح عمورية» أنظر: تاريخ الزمان ـ نقلة إلى العربية الأب أسحق أرملة، بيروت ١٩٨٦، ص ٣٣ .

(٢) ليفى بروفنسال: تبادل السفارات بين قرطبة وبيزنطة فى القرن التاسع الميلادى ـ منشور فى كتاب الإسلام فى المغرب والأندلس، ترجمة د. السيد عبدالعزيز سالم، والاستاذ محمد صلاح الدين، الاسكندرية ١٩٩٠ ، ص ٩١ - ١١٨

مسينا Messina الواقعة فى صقلية. وتم ذلك فى عام ٢٢٨هـ بعد أن نجح المسلمون فى القيام بحيلة تم ضم المدينة بعدها. وعلى الرغم من هذه الهدنة التى تم توقيعها إلا أن ثيودورا لم تلتزم بها وأرسلت حملة عام ٨٩٥م ولكنها فشلت فى تحقيق هدفها. ولذا رد المسلمون بهجمات ضد أملاك بيزنطية فى العامين التاليين. ثم حاولت بيزنطة ارسل مجموعة من السفن فى عام ٨٤٧م إلى صقلية ولكنها فشلت فى تحقيق هدفها وغرقت منها سبع سفن. واستمر والى صقلية فى جهاده للبيزنطيين حتى نهاية حكم ثيودورا .

الحملة على دمياط ٢٣٨هـ / ٨٥٣م :

حاول البيزنطيون استعادة جزيرة كريت التى كانت قد فتحت على يد الأندلسيين أو البحريين كما سبقت الإشارة إلى ذلك وتم إعداد حملة بحرية ارسلت إلى الجزيرة التى لقيت مقاومة شديدة من المسلمين وفشلت فى استردادها. ومن ناحية أخرى فان وجود المسلمين فى كريت جاء بمثابة تهديد مباشر لتجارة بيزنطة وبالتالى عملت ثيودورا على مهاجمة مصر لتخريب مقر صناعة السفن بها والتى كانت تزود مسلمى كريت بما تحتاج إليه من مؤن وامدادات. بالاضافة إلى أن كريت كانت تزود مصر بانواع من التجارة والأخشاب .

واختلفت المصادر حول عدد السفن البيزنطية ما بين ثلثمائة سفينة وأقلها خمسة وثمانين. وقد وصل الأسطول البيزنطى فى يوم عيد الأضحى حيث كان عنبسة بن اسحاق والى مصر لم يمر على ولايته سوى عدة أشهر. وكان قد أرسل إلى الجند الذين بدمياط للاحتفال بالعيد وبولديه. ولم يقتصر الأمر على دمياط فحسب، بل إلى تنيس أيضا وكذلك من بثغر

الاسكندرية. وهكذا كان الخطأ الاستراتيجى الذى وقع فيه هذا الوالى دون أن يدرك خطورة ظهور الأسطول البيزنطى فجأة .

وعمل البيزنطيون على استغلال خلو المدينة من جندها وهاجموا سكانها بشدة وأخذوا فى أعمال القتل والسلب والنهب وسقطت الكثير من النساء أسيرات سواء أكن مسلمات أو من المسيحيات واليهوديات. كما استولوا على السلاح وأنواع المؤن الأخرى وأحرقوا مسجد المدينة. ولم ينقذ المدينة سوى أن الأهالى قاموا بكسر سجن المدينة وكان به أحد القادة سجيناً فأخرجوه حيث قاد الأهالى لمقاومة الهجوم ونجحوا بالفعل فى ردهم. ويبدوا أن هدف الحملة كان للسلب والنهب فقط وليس لاحتلال المدينة. ثم تابعت الحملة مهاجمة مدينة أخرى هى تنيس واعملوا السلب والنهب والتخريب أيضا بها، وعلى الرغم من ذلك فان الحملة قد انتهت دون تحقيق نتيجة حاسمة سوى أعمال القتل والتخريب التى قامت بها .

وعندما أنفرد ميخائيل الثالث بالحكم عاد الصدام الحدودى بينهما تعرض فيه لهزيمة كاد يفقد حياته على أثرها. كما أن والى ملطية استمر فى التصدى للهجمات البيزنطية ولكن قتل بعد ذلك على يد الامبراطور البيزنطى. وتمكن ميخائيل الثالث من تحقيق بعض الانتصارات فى عام ٨٦٤م عند أعالى الفرات. وساعده على تحقيق ذلك ما كانت تمر به الخلافة العباسية من أحوال سيئة، إلا أنه لم يستطع إستعادة جزيرتى كريت وصقلية كما كان يأمل فى ذلك .

سياسة الأسرة العمورية تجاه الروس والخزر والبلغار

سبق أن أشرنا إلى العلاقة بين البلغار والبيزنطيين ومراحل العداء التى مرت بينهما. ثم بدأوا فى التحول نحو الأرتباط بعلاقات سلمية مع بيزنطة. فنجد الخان بوريس (٨٥٢ ـ ٨٨٩) يعتنق المسيحية فى عام ٨٦٥م. وأخذت بيزنطة ترسل المبشرين وتم تعميد الخان البلغارى تحت أسم ميخائيل الثالث تشبهاً بالامبراطور البيزنطى. كذلك حرص فوتيوس Photius بطريرك القسطنطينية على تشجيعه لمذهب بيزنطة مع إدخال اللغة البلغارية فى طقوس الصلاة .

واستمرت أعمال التبشير بين هذه العناصر البلغارية وكذلك السلاڤية ـ وحرصت بيزنطة على تسهيل هذه النواحى الدينية وذلك بتشجيعها استخدام اللغة القومية حتى تقبل هذه الشعوب على الدخول فى المسيحية. ولكن روما عارضت ذلك .مما أدى إلى وجود العراقيل أمام جهود المبشرين البيزنطيين. ولكن سرعان ما ساعدت الظروف فوتيوس بوصول جماعة من الرقيق السلاڤ فكلفهم بتأسيس معهد لاهوتى للمبشرين السلاڤ. وعملت بيزنطة على تأسيس كنيسة بلغارية مستقلة ناطقة باللغة القومية .

استمر خان البلغار الجديد سمعان والذى أطلق على نفسه لقب قيصر Tsar(Casar) يهتم بنهضة مملكته البلغارية. وكان قد تلقى تعليمه بالقسطنطينية وحرص على نقل الحضارة اليونانية إلى لغته، وكذلك عمل على تقليد مبانى القسطنطينية فى عظمتها .

اما عن العلاقة مع الروس والذين كانوا على صلة قديمة ببيزنطة فقد عملوا على استغلال إنشغال ميخائيل الثالث بمهاجمة البيالصة Paulicians والعباسيين فقاموا بإعداد حملة لمهاجمة القسطنطينية. وأدت إلى نشر الذعر

بين الأهالى وتخريب أماكن كثيرة بها. وقد وردت المادة التاريخية المتعلقة باحداث هذه الحملة فى سياق ما ذكره البطريق فوتيوس فى خطبة له ووصف لنا ما حدث. وهذه الإشارة تدل على أهمية المواعظ الدينية فى تلك الفترة وما يمكن أن نستفيد منها من مادة تاريخية .

وعلى الرغم من هذه الغارة الروسية إلا أن العلاقة بين بيزنطة والروس لم تنقطع. وكانت تصل سفن صغيرة من ثوفجورود وكييف إلى القسطنطينية بهدف التجارة حيناًوالإغارة حينا آخراً. وأدى ذلك إلى حصول الروس على بعض الحقوق التجارية فى العاصمة البيزنطية. وسرعان ما أنتشرت المسيحية بين الروس ثم بدأ النفوذ البيزنطى ينتشر بسرعة كبيرة خلال القرن التالى .

تركت هذه الحملة الروسية على القسطنطينية أثرها على عودة العلاقات بين بيزنطة والخزر. فقد وصلت سفارة منهم إلى بيزنطة تطلب من ميخائيل الثالث أن يرسل معهم من يقوم بشرح المسيحية لهم. وارسل فوتيوس أحد تلاميذه والذى استطاع أن يتعلم لغتهم ووصل إلى بحر قزوين حيث قابل ملكهم ولكن لم يحرز نجاحاً وعاد إلى القسطنطينية[١] .

---

(١) للمزيد عن جهود بيزنطة فى هذا المجال راجع السيد الباز العرينى: الدولة البيزنطية حتى سنة ١٠٨١م ، القاهرة ١٩٦١، ص ٢٦٥ وما بعدها .

السياسة الدينية لاباطرة الأسرة العمورية

يذكر ريتشارد ساليفان أن ايرين تركت وراءها تركة مثقلة نتيجة لسياستها الداخلية والخارجية، يضاف إلى ذلك ما حدث بالنسبة لمشكلة الأيقونات. فعندما تولى ليو الخامس العرش فى عام ٨١٣ وكان أصله من الأناضول، بالاضافة إلى تأثير رجال الدين المناهضين للايقونات أصدر مرسوما فى عام ٨١٥ ألغى فيه الصور والأيقونات. ثم واصل ميخائيل الثانى (٨٢٠ ـ ٨٢٩م) وثيوفيل (٨٢٩ ـ ٨٤٢) هذه السياسة اللاأيقونية. ولم تواجه هؤلاء الأباطرة نفس المقاومة السابقة من جانب مؤيدى عبادة الصور والأيقونات، بل كانت أقل عنفا من سابقتها. ولجأ الأهالى إلى سياسة المحافظة على هذه الصور والأيقونات التى يحبونها. كما ظهر عامل جديد ترك أثره على هذه الحركة الدينية هو الدور الذى لقبه مجموعة من الرهبان المتعلمين تحت قيادة ثيودور من دير ستوديون. ونجحوا فى توسيع الهوة بين الكنيسة والدولة وبذر الشكك حول صلاحية الأباطرة فى السيطرة على الكنيسة. يضاف إلى ذلك استخدام الجدل اللاهوتى، بالاضافة إلى المؤامرات داخل البلاط. مما أدى فى النهاية إلى عدم نجاح الأباطرة فى فرض سياستهم الدينية .

أدركت ثيودورا الوصية على أبنها ميخائيل الثالث أثر الصراع اللاأيقونى على العرش البيزنطى وعدم مقدرة الأباطرة على فرض هذه الناحية الدينية على رعاياهم فعادت تدريجياً إلى إعادة الصور والأيقونات من جديد. كما اعتدلت فى سياستها تجاه اللا أيقونيين مما أدى إلى تقبلهم الأمر بسهولة. ولكن رهبان دير ستوديون حاولوا المعارضة إلا أنها قابلتهم بالشدة. وبذلك بدأت الأمور مهيئة أمام العصر الذهبى للدولة البيزنطية وهو عصر الأسرة المقدونية .

الحضارة البيزنطية فى العصر اللاأيقونى :

على الرغم من الصراع الذى دار حول الأيقونات وما تركه من تأثير فى فترات الصراع السابقة، إلا أن الامبراطورية عملت على الاحتفاظ بكيانها السياسى والاقتصادى الأساسى .

ومن أبرز ملامح السلطة الامبراطورية فى تلك الفترة ادعاء الامبراطور السلطة المطلقة وأنه ظل الله على الأرض ولم يتساهل الأباطرة فى هذا الأمر. وفى نفس الوقت كانوا حريصين على رعاياهم وتوفير العدل بينهم. فقد أصبح ثيوفيل بطلا فى أعين السكان لجهوده فى نشر العدالة حتى أنه كان ينزل بنفسه إلى شوارع العاصمة مستفسراً عن أسعار المأكل والملبس وينزل العقوبة بالمخالفين. كما كان يقابل أصحاب المصالح الذين يعرضون عليه مطالبهم. ولا شك أن ذلك وفر نوعاً من الرقابة على الموظفين فخرصوا على اداء عملهم بصورة فعالة. كما أهتم ليو الثالث الايسورى بمراجعة قوانين جستنيان وتزويد المحاكم بها بهدف وجود دليل تستفيد منه فى عملها. وصدر هذا القانون المعروف بالأيكلوجا Ecloga .

حرص أباطرة العصر اللاأيقونى على استخدام النظام العسكرى الذى اعتمد على الجنود المرتزقة للدفاع عن الحدود ـ وكان غالبية الجند من الفلاحين الأحرار الذين حصلوا على أراضى نظير الخدمة العسكرية.كما أن نظام الثيمات شهد تطوراً فى هذه المرحلة للاستفادة منه. يضاف إلى ذلك جهود الجهاز الدبلوماسى البيزنطى فى اتصالاته مع القوى المختلفة التى أحاطت ببيزنطة سواء المسلمين أو السلاف أو البلغار أو الغرب الأوروبى مما أدى أن تكتسب بيزنطة حلفاء أو تقضى على الأعداء .

اما عن علاقة الكنيسة بالدولة فى الصراع اللا أيقونى، فعلى الرغم من

محاولات بعض الرهبان التحرر من السلطة الامبراطورية، إلا أن البطريرك فى القسطنطينية رأس الكنيسة البيزنطية كان يعتبر نفسه ممثلاً للامبراطور الذى أختاره. كما عمل الأساقفة فى خدمة رئيسهم البطريرك ووفقا لارشادته. واستمر العمل بينهم وحدة واحدة. وهكذا فقد استمرت العلاقة متناسقة بين الدولة والكنيسة فى بيزنطة. اما عن علاقة روما وبيزنطة فقد أصبح من المتعذر الأتفاق بينهما دومعفع مرور الوقت اقتنع كل منهما بكيان خاص مستقل عن الآخر .

أما من الناحية الاقتصادية فقد عمل أباطرة بيزنطة على تحسين أحوال طبقة الفلاحين المستقلة وذلك لحمايتها من تعسف أفراد الطبقة الارستقراطية من ملاك الأرض. كما عملت الدولة على تشجيع التجار والصناع المهرة. وعلى الرغم من سيطرة المسلمين على المراكز الاستراتيجية الهامة فى حوض البحر المتوسط، فقد ظلت القسطنطينية أحد المراكز التجارية العالمية.واستمرت الأسواق فى بيزنطة مليئة بالمنتجات وازدحام الناس[١] .

(١) ريتشارد ساليفان: ورثة الأمبراطورية الرومانية، ترجمة وتعليق د. جوزيف نسيم، الاسكندرية ١٩٨٥، ص ١٤٨ ـ ١٥٣ .

الموضوع الثالث عشر

الأسرة المقدونية

(٨٦٧-١٠٥٧)

أباطرة الأسرة المقدونية
(٨٦٧ ـ ١٠٥٧م)

- باسيل الأول (٨٦٧ ـ ٨٨٦) .
- ليو السادس العاقل أو الحكيم (٨٨٧ ـ ٩١٢) .
- الكسندر (٩١٢ ـ ٩١٣) .
- قسطنطين السابع (٩١٣ ـ ٩٥٩) .
  رومانوس الأول (٩١٩ ـ ٩٤٤) .
- رومانوس الثاني (٩٥٩ ـ ٩٦٣) .
- نقفور فوقاس (٩٦٣ ـ ٩٦٩) .
- حنا الأول زيمسكس (٩٦٩ ـ ٩٧٦) .
- باسيل الثاني (٩٧٦ ـ ١٠٢٥) .
- قسطنطين الثامن (١٠٢٥ ـ ١٠٢٨) .
- زوي : (١٠٢٨ ـ ١٠٥٠) .
  رومانوس الثالث (١٠٢٨ ـ ١٠٣٤) .
  ميخائيل الرابع (١٠٣٤ ـ ١٠٤١) .
  ميخائيل الخامس (١٠٤١ ـ ١٠٤٢) .
  قسطنطين التاسع (١٠٤٢ ـ ١٠٠٤) .
- ثيودورا (١٠٥٤ ـ ١٠٥٦) .
- ميخائيل السادس (١٠٥٦ ـ ١٠٥٧) .

مقدمة :

نجحت الدولة البيزنطية فى استعادة مجدها خلال عصر هذه الأسرة المقدونية والذى يعد من أطول الفترات فى التاريخ البيزنطى بالنسبة لحكم أسرة واحدة. فقد عانت بيزنطة من عوامل الضعف خارجياً وداخلياً نتيجة للمشاكل المريرة التى مرت بها. وعمل أباطرة هذه الأسرة على معالجة أوجه القصور المختلفة، ورفع شأن بلادهم والاهتمام بشتى جوانب الحياة من اقتصادية وفنية وإدارية مما أدى إلى نجاحهم فى تحقيق أهدافهم السياسية والعسكرية ونقل بيزنطة من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم فى علاقاتها مع مختلف القوى المحيطة بها. ولاشك أن ظروف القوى الأخرى ساعدتها على تحقيق ذلك. فقد تفاقمت الثورات فى الدولة العباسية وأخذت مناطق كثيرة تنسلخ عنها مما أدى إلى ضعفها ولم يعد للخليفة العباسى سوى النفوذ الدينى فقط فى تلك الفترة على الولايات التى أستقلت بينما أقتصر نفوذه الفعلى على بغداد وما حولها .

اعتلاء بازيل عرش الأسرة المقدونية :

استغل باسيل ما وصل إليه ميخائيل الثالث (السكير) من حالة سيئة فقام بتدبير مؤامرة نجح من خلالها فى قتل صديقه أثناء غيابه عن وعيه بسبب الخمر التى كان لا يفارقها. وأعلن نفسه امبراطوراً وبدأ أسرة جديدة عرفت بالأسرة المقدونية حيث نسبت إلى مقدونيا مسقط رأس مؤسس الأسرة[1]. وواجه باسيل ظروفا غاية فى الصعوبة عند بداية حكمه وذلك بسبب الانشقاق الدينى بين روما وبيزنطة من ناحية، ومحاولات فوتيوس فرض سيطرته على الأمور الدينية والروحية من ناحية أخرى .

(١) عن الآراء المختلفة حول أصله راجع: عمر كمال توفيق: الدولة البيزنطية، الاسكندرية ١٩٧٧، ص ١٣٤ .

عمل باسيل الأول وليو السادس على اعادة تقوية البنيان الداخلى لبيزنطة وعلى الرغم من اختلاف شخصيتهما إلا أنهما حرصا على اعادة بناء النظام السياسي القوى ولذا نجد نشاطا تشريعياً هائلاً يتمثل فى مجموعة القوانين التى عرفت بالبازيليكا Basilica والتى صدرت باللغة اليونانية بعد أن أدخلت عليها العديد من التعديلات .

السياسة الخارجية فى عهد الأسرة المقدونية

أولاً: العلاقة مع المسلمين فى الشرق :

عصر باسيل الأول (٨٦٧ ـ ٨٨٦)

مثلت منطقة الثغور بين بيزنطة والعباسيين أهمية خاصة فى تاريخ الصراع بينهما. وانقسمت هذه الثغور إلى ما عرف بالثغور الجزرية والتى كانت تحمى بلاد الجزيرة، والشامية والتى كانت حماية لبلاد الشام. يضاف إلى ذلك ما عرف بالعواصم التى كانت تقوم أيضا بدور أساسى فى حماية الحدود العباسية[١] . وبدأ باسيل الأول يهتم بتدعيم تحصيناته فى هذه المناطق قبل الدخول فى اشتباكات عسكرية مع العباسيين. وسرعان ما استغل انشغال الخليفة المعتمد بالله العباسى فى مشاكلة الداخلية فتقدم فى ٨٧٣م/٢٥٩ هـ نحو زبطرة وسميساط حتى وصل إلى ملطية لحصارها ولكنه قوبل بمقاومة عنيفة أدت إلى فشلة أمامها فعاد إلى بلاده. ومرة أخرى توجه لمهاجمة بعض الحصون العباسية وقرر المعتمد الأعتماد على والى مصر آنذاك أحمد بن طولون لحماية منطقة قليقيا. حيث كان يطمع فى ضم الشام ونجح فى ذلك بالفعل مستغلاً وفاة واليها. ووصل إلى أنطاكية وطرسوس فى

(١) على سبيل المثال كانت ملطية وزبطرة والحدث ومرعش من الثغور الجزرية، والمصيصة وأذنة وطرسوس من الثغور الشامية. راجع: فتحى عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية بين الأحتكاك الحربى والاتصال الحضارى، القاهرة ١٩٦٦ .

عام ٢٦٥هـ/ ٧٨٩م. وبالفعل كان لوجود ابن طولون أثره حيث أرسل إليه باسيل الأول عدداً من الأسرى المسلمين، ورد عليه بإرسال هدايا كثيرة .

عادت المصادمات بين الجانبين تتجدد فى السنوات التالية بين الجانبين البيزنطى والعباسى. ومن حين إلى آخر يحرز كل جانب انتصاراً على الآخر ويحصل على الأسرى. وتعرضت مديْنة ملطية للهجوم فى عام ٢٦٨هـ/ ٨٨١م، ولكن وجود الطولونيين فى بلاد الشام ساعد على وقف الهجمات وطلب باسيل الهدنة مع احمد بن طولون. ولذا فقد حاول الإمبراطور البيزنطى استغلال وجود أرمينيه لكى تكون عنصر ضغط على الطولونيين والعباسيين فاعترف بملكها أشواط الأول وهو ما سبقته إليه الخلافة العباسية قبل ذلك بعام واحد .

أما عصر ليو السادس (٨٨٦ ـ ٩١٢م) فقد استمرت العلاقات بين بيزنطة والطولونيين فى بلاد الشام. ولم يحاول الإمبراطور البيزنطى استغلال وفاة احمد بن طولون وتولى خمارويه (٢٧٠ ـ ٢٨٢هـ) والذى واجهته مصاعب عديدة فى بداية حكمه وأهمها الصراع على بلاد الشام مع الموفق العباسى والذى أنتهى لصالح خمارويه . ولذا فقد عمل على استئناف سياسة الجهاد ضد البيزنطيين فى شمال بلاد الشام. وتمكنت قواته من إحراز الانتصارات على البيزنطيين فيما بين ٢٧٨ الى ٢٨١ هـ حتى اضطر ليو السادس إلى طلب الصلح وحدث تبادل مشهور للأسرى بينهما فى شعبان ٢٨٣هـ/ ٨٩٥م .

عاود الطولونيون هجومهم على المدن البيزنطية وتمكنوا من أحراز انتصارات عديدة سواء فى البر أو البحر ولكن الدولة الطولونية سرعان ما آلت إلى الضعف بعد مقتل خمارويه والصراع الذى دار حول السلطة فى مصر

فى أعقاب ذلك. وسرعان ما نجح العباسيون فى فرض سيطرتهم عليها واعادتها إلى حظيرة الدولة. وعمل ليو السادس على استغلال هذه الظروف فاغار فى عام ٩٠٠م/ ٢٨٧هـ على طرسوس وأسر أميرها وحمله معه إلى القسطنطينية، ورد العباسيون على هذه الهجمات فى العام التالى .

أما فى عام ٩٠٣م/ ٢٩١هـ فقد خرج ليو على رأس مائة ألف جندى للإغارة على الثغور الشامية ووصلت هجماتهم إلى الحدث، وإلى مرعش فى العام التالى وقورس من أعمال حلب واتخذت هذه الحملات طابعاً دينياً. فقد أحرق البيزنطيون مسجدها. وعادت سياسة تبادل الأسرى بين الجانبين، فقد حدث تبادل جديد فى عام ٢٩٢هـ، وآخر فى عام ٢٩٥هـ عند نهر اللامس ـ والذى كان كثيراً ما تتكرر عنده عملية تبادل الأسرى. وبلغ جملة الأسرى حوالى ثلاثة آلاف أسير مسلم. وعلى الرغم من ذلك فقد استمرت الاشتباكات بين الجانبين حتى نهاية عصر ليو السادس .

واذا أردنا أن نلخص أحداث هذه الفترة الهامة من بداية الأسرة المقدونية نجد أنها تحولت لشن سياسة الهجوم ضد الدولة العباسية فى مناطق الثغور. ولكن نجد أن العباسيين نجحوا في استغلال طموح الطولونيين للسيطرة على بلاد الشام وجعلوهم يواجهون البيزنطيين. ولكن فى فترات الضعف التى مرت بها الدولة الطولونية تمكن البيزنطيون من تحقيق بعض الانتصارات على الدولة العباسية، وتكررت فى هذه الفترة عمليات تبادل الأسرى بين الجانبين وهو ما أوردته المصادر البيزنطية والإسلامية .

بيزنطة والغرب الإسلامى فى عهد باسيل وقسطنطين السادس (٨٦٧ ـ ٩١٢م)

أشرنا من قبل كيف نجح المسلمون فى فرض سيطرتهم على أهم المراكز البحرية فى غرب البحر المتوسط وهى جزيرة صقلية وما ترتب على ذلك من نتائج هامة. كما أن نجاح الاندلسيين فى ضم كريت ترك أثره على الدولة البيزنطية سواء من الناحية العسكرية أو الناحية الإقتصادية. ولذلك حرص الامبراطور باسيل على الأهتمام بالأسطول البيزنطى من ناحية تقويته وتنظيمه واستكمل بذلك ما بدأ زمن الأسرة العمورية خاصة زمن ميخائيل الثالث العمورى. وهو ما سيترك أثره فى المرحلة التالية من الصراع ضد القوى البحرية فى حوض البحر المتوسط .

عاود الأسطول البيزنطى نشاطه ضد مسلمى صقلية الذين هددوا الجنوب الأيطالى ـ وخرج أسطول بيزنطى مكون من مائة سفينة لفك الحصار عن راجوزة الواقعة على الساحل الولماشى. وعندما علم المسلمون بذلك سارعوا بترك حصارها مما أدى إلى عودة النفوذ البيزنطى إلى هذه الجهات. ومن جهة أخرى حاول باسيل ايجاد تحالف مع لويس الثانى الكارولنجى بهدف توحيد الإمبراطورتين وطرد المسلمين من صقلية وجنوب ايطاليا. وبالفعل نجح باسيل فى إعادة الوجود البيزنطى إلى بارى فى عام ٨٧٦م. غير أن الخطر الإسلامى ظل يهدد هذه المنطقة من جنوب ايطاليا وساحل دالماشيا حتى وصلت الهجمات الإسلامية إلى البندقية نفسها وميناء توماتشو الواقع على مصب نهر البو. وعندما لم يجد البابا يوحنا الثامن نصيراً له خرج بنفسه ومعه قواته لوقف هذا الخطر فى الوقت الذى احجم فيه البيزنطيون عن تقديم العون له. وتم التوصل لاتفاق دفع فيه البابا خمسة وعشرين ألف قطعة ذهبية تدفع كل عام مقابل وقف الهجمات على أملاكه البابوية .

وعلى الرغم من ذلك فلم يوقف المسلمون هجماتهم على صقلية واستمرار فتحها. وبالفعل نجحوا فى عام ٨٧٨م من ضم سرقوصه أو سيراكيوز Syracuse. والتى كان لسقوطها تأثير كبير نظراً لما تتمتع به من أهمية اقتصادية. ولذا فقد عمل باسيل على الانتقام فأعد أسطولاً مكوناً من قائد وأربعين سفينة بقيادة قائده نقفور فوقاس فى عام ٨٨٠م ووصل إلى سواحل صقلية وجنوب ايطاليا حيث تمكن من إنزال الهزيمة بالمسلمين واستعادته لتارنت، بالإضافة إلى أعمال السلب والنهب التى تعرضت لها السفن التجارية. كما كان لنجاح باسيل فى استعادة جزيرة قبرص أثرها على فرض بيزنطة لسيادتها التجارية على منطقة حوض البحر المتوسط بعد غياب طويل منذ فقدانها لكريت وصقلية .

لم يهنأ باسيل طويلاً بهذه الانتصارات التى حققها فى حروبه ضد العرب فى جبهة الغرب. فسرعان ما خرج أسطول من جزيرة كريت بالتعاون مع طرسوس حيث شن هجوماً على الجزر البيزنطية فى منطقة بحر الأرخبيل وذلك فى عام ٨٨١م. وظل هذا النشاط البحرى العدائى بينهما فى الفترة التالية وتعرضت الجزر البيزنطية غربى البلوبونيز لهجوم إسلامى ترك تأثيره عليها. ولكن البيزنطيون نجحوا فى إنزال الهزيمة بالأسطول الإسلامى، كما شنوا هجمات على السفن التجارية وغنموا منها العديد من المؤن فحملت إلى القسطنطينية .

وقبل وفاته حاول باسيل الأول استعادة جزيرة صقلية عندما أرسل حملة بقيادة نقفور فوقاس فى عام ٨٨٥م. ووصلت إليها وحاصرتها وكادت تنجح فى إستعادة كالبريا ولكن أنباء وفاة باسيل جعلته يتكتم ذلك الخبر الى أن نجح فى الحصول على شروط لصالحه من المسلمين ثم انسحب عائداً الى القسطنطينية .

اما فى عهد قسطنطين السادس فنجد أن سياسته فى الغرب مع القوى الإسلامية المختلفة لم تحرز نجاحاً كما حدث فى عهد سلفة باسيل الأول. ويرجع ذلك إلى تأثير الخطر البلغارى الذى شغله عن هذه الجبهة. كما أن الهجمات الإسلامية أشتدت ضد باقى المناطق التى لم تسقط بعد فى صقلية وضد الجنوب الايطالى والجزر الأخرى الموجودة فى هذه المنطقة الهامة. وبالفعل حدث هجموم إسلامى بحرى ضد اسطول بيزنطى عام ٨٨٨م انتهى بتدمير الأخير. وبعد ذلك بعدة سنوات فشلت بيزنطة فى الأحتفاظ بأملاكها فى صقلية وجنوب ايطاليا واضطرت لعقد هدنة مع المسلمين فى عام ٨٩٥م. كذلك استمر الأغالبة فى شن هجماتهم ضد ريو Reggio، ونجحو أيضا فى فرض سيادتهم على ما تبقى من أملاك بيزنطية فى صقلية وذلك فى عام ٩٠٢م. وربما كان ابراهيم بن الأغلب يطمع فى مواصلة غزوه وجهاده ضد البيزنطيين للوصول إلى القسطنطينية نفسها لولا أن منيته وافته فعاد الأسطول الأغلبى إلى بلاده .

وفى بلاد الشام عاد الأسطول الاسلامى إلى مواصلة نشاطه مرة أخرى ضد البيزنطيين ونجحت حملة بحرية مشتركة من مينائى طرسوس وطرابلس فى الاستيلاء على جزيرة لمنوس Lemnos فى عام ٩٠٤م. ومن أبرز من أسهم بنشاط بحرى أيضا ضد البيزنطيين ليو المعروف بالطرابلسى. و كان مسيحياً ودخل فى الإسلام ثم أقام فى طرابلس الواقعة على ساحل الشام فنسب إليها وعرف بليو الطرابلسى. واستطاع أن يقود حملة واصلت تقدمها نحو الدردنيل، ثم انضمت إليه اساطيل بحرية من صور وصيدا وكريت واستعدت لمهاجمة القسطنطينية نفسها وذلك فى عام ٩٠٤م. وسارع قسطنطين باعداد الأسطول البيزنطى لوقف هذه الحملة. وأدرك ليو صعوبة اقتحام القسطنطينية فحول اهتمامه نحو سالونيك حيث نجح فى نهبها بعد

أن أمضى بها نحو عشرة أيام. وترتب على هذه الغارة عدة نتائج من بينها سقوط سالونيك فى قبضة البلغار الذين أدركوا ضعفها بعد هذه الهجمة عليها. واضطر قسطنطين السادس لعقد أتفاق مع سيميون حاكم البلغار اعترف فيه بتنازله عنها مقابل اعتراف بيزنطة بامتلاكه لأراضى جنوب مقدونيا .

على أية حال استمر الصراع البحرى قائماً بين بيزنطة والقوى البحريه الإسلامية الموجودة فى شرقى البحر المتوسط سواء فى كريت أو على الساحل الشامى فى طرابلس وصور. وتعاقبت الحملات البحرية بين الجانبين فى الفترة من ٩٠٦ إلى ٩١١م. ورد ليو الطرابلس بمهاجمة الأسطول البيزنطى أثناء عودته وكان معه دميان أمير صور وقائد الأسطول مما أجهض المحاولات البيزنطية .

وهكذا فان المحاولات البحرية التى قام بها البيزنطيون فى عهد قسطنطين السادس لم تسفر إلا عن نتائج محدودة تمثلت فى الحصول على بعض الغنائم أو إلحاق التدمير ببعض قطع الأسطول الإسلامى.وكان للنشاط البحرى سواء فى غرب البحرالمتوسط أو شرق دورهام فى الصراع بين الجانبين. وقد أهتم الأباطرة البيزنطيون منذ أواخر عصر الأسرة العمورية وبداية الأسرة المقدونية بالأسطول من عدة جوانب سواء بادخال التعديلات فى نظامه ووجود اسطول امبراطورى. ويعد قسطنطين السادس أول من اتخذ شانية (سفينة) خاصة به وأخرى تتبعه. وكانت من الاتساع بحيث يصحب معه النبلاء. واتسعت السفينتان بحيث أبحرا إلى مناطق عديدة. كما عين قائد البحر الأعلى لرئاسة كل بحارة السفن الامبراطورية وعهد إليه بمسئوليات عديدة ومنحه سلطات أخرى[(١)]

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذا التنظيم البحرى أنظر إدارة الامبراطورية البيزنطية للإمبراطور قسطنطين السابع بورفيروجنيتوس ـ عرض وتحليل وتعليق د محمود سعيد عمران، بيروت ١٩٨٠، ص ١٩٧ ـ ٢٠٤

عصر قسطنطين السابع وورومانوس ليكابينوس
(٩١٣ ـ ٩٥٩م)

يمثل عصر قسطنطين السابع وورومانوس ليكابينوس أهمية خاصة فى عصر الأسرة المقدونية. فعلى الرغم من الصراع الذى دار حول العرش فى هذه الفترة، إلا أن كلا منهما حرص على إيجاد العديد من الاصلاحات فى الامبراطورية البيزنطية. كما تمتع قسطنطين السابع بحاسة الادارة فوضع مؤلفه عن ادارة الامبراطورية إلى جانب مؤلفات أخرى عن المراسم De Cerimoniis والثيمات De Thematibus[١]. وتدل مؤلفاته على سعة إطلاع فى مختلف الموضوعات الاجتماعية والدينية والدبلوماسية، كما أحتوى على نصائح وخبرات الامبراطور. اما رومانوس ليكابينوس فقد كان مغتصباً للعرش وأدرك كذلك أنه ليس من الطبقة العليا فقام بتزيوج ابنته من قسطنطين السابع. ثم أصبح رومانوس شريكا فى الحكم نتيجة لذلك وأحد أفراد الأسرة الحاكمة. وظل هو المسيطر طوال ثلاثين عاما حيث انصرف زوج ابنته إلى لهوه وتأليف الكتب. ولم تفلح محاولات رومانوس فى الوصول إلى العرش وتم نفيه عام ٩٤٥م، ومات بعدها بثلاثة أعوام حيث أنتهت بذلك صفحة من تاريخ هذه الأسرة[٢] .

---

(١) مقدمة كتاب إدارة الامبراطورية، ص ٣٩ ـ ٤٠ .

(٢) عن أحداث هذه الفترة المضطربة انظر: ايناس نور الدين الشوره : العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والمسلمين فى عهد الإمبراطور البيزنطى قسطنطين السابع بورفير وجنيتوس وإرهاصات الحروب الصليبية، (٩١٢ ـ ٩٥٩م / ٢٩٩ ـ ٣٤٨هـ) ـ رسالة ماجستير لم تنشر بعد ـ الإسكندرية ٢٠٠٠م .

العلاقات الخارجية

العلاقة مع المسلمين :

تعددت القوى الإسلامية التى عاصرت هذه الفترة من عصر الأسرة المقدونية. فقد ظلت كريت تحت سيطرة البحريين الذين افتتحوها من قبل، كما أن صقلية خضعت بأكملها للآغالبة وواصل المسلمون هجومهم على جنوب ايطاليا، بل أن روما نفسها أصبحت عرضة للتهديد من جانب أمير القيروان. اما فى بلاد الشام فقد كان الصدام مباشراً بين بيزنطة والحمدانيين خاصة فى عهد سيف الدولة الحمدانى. اما فى مصر فقد ظهرت دولة جديدة هى الدولة الأخشيدية والتى دخلت أيضا فى دائرة الصراع مع البيزنطيين. هذا بالاضافة إلى حوض البحر المتوسط الذى شهد صراعاً مستمراً بين الأساطيل الاسلامية والبيزنطية لمحاولة فرض سيادتها عليه وعلى تجارته ونظراً لتشابك هذه الأحداث فاننا سوف نحاول أن نقسمها إلى جبهات منفردة حتى يسهل على القارئ متابعتها .

اتسمت هذه الفترة باضطراب شديد بعد موت ليو السادس فى مايو ٩١٢م، وتوليه أخيه الكسندر الحكم لمدة عام واحد (٩١٢ ـ ٩١٣م) .وحاول الامبراطور فرض سيطرته بابعاد زوى Zoe أم قسطنطين السابع، كما جرد العديدين من مناصبهم. وهكذا كان لابد من وجود مجلس وصاية برئاسة البطريرك نيقولاس ميستكيوس لمواجهة خطر البلغار. وحدثت ثورة أعادت زوى إلى العرش البيزنطى وتولى القيادة ليو فاقاس على القوات البرية ورومانوس ليكابينوس على الأسطول.وفى خلال هذه الفترة حلت كارثة ببيزنطة عند انخيالوس Anehialus فى عام ٩١٧ ـ ٩١٨م وذلك على يد البلغار .

أما عن علاقة بيزنطة بالمسلمين فى غرب البحر المتوسط فى هذه الفترة ـ فقد تمثلت فى نجاح المسلمين فى مهاجمة ريميو وضمها واضطرت زوى إلى دفع ضريبة تقدر بعشرين ألف قطعة ذهبية للخليفة الفاطمى. كذلك يشير المؤرخ ليو النحوى إلى أن زوى عقدت هدنة أخرى فى حوالى عام ٩١٧م / ٣٠٤ هـ مع المسلمين فى بلاد الشام وذلك لكى تتمكن من التفرغ لمواجهة البلغار[١]. ولكن هذه الوصية على العرش البيزنطى لم تستطع مواجهة عواطفها ورغبت فى الزواج بالقائد ليو فوقاس الطامع فى العرش، إلا أن هذا الأمر لم ينجح وتمكن رومانوس ليكابينوس من إخماد تلك الفتنة التى كادت تطيح بالإمبراطورية البيزنطية .

تولى رومانوس الوصاية على قسطنطين السابع فى الفترة من ٩١٩ إلى ٩٤٤م. ويذكر صاحب صلة ثيوفانو أنه نجح فى استعادة الرها وعاد إلى بيزنطة وهو يحمل الأيقونة حيث دخل بها إلى القسطنطينية فى موكب رهيب. وسرعان ما سيطر على مجريات الأمور وأصبح مشاركا فى الحكم. وكان شخصية قديرة سياسياً تمكن من فرض أوامره خلال هذه المرحلة بما أضافة من اصلاحات قربته من الرعية .

ومما ذكره ابن العبرى عن العلاقة مع الخليفة العباسى المقتدر ان الملك قسطنطين وجه فى عام ٩١٧م سفيرين إلى بغداد وعادا بطلب مبادلة الأسرى ولكن ملك الروم رفض طلبهم. كذلك حدث فى عام ٩٢٧م / ٣١٥ هـ أن زحفت جيوش الروم إلى سميساط ونصبوا خيمة الملك فى مسجدها الكبير وقرعوا فيه النواقيس وسبوا وانقلبوا عائدين ـ فطاردهم العرب

(١) يذكر ابن العبرى أنه فى عام ٩١٦م زحف جيش رومى إلى طرسوس وجيش ثان إلى مرعش وأستبأسروا من العرب خمسين الفا فشمل الحزن جميع البلاد العربية. ولا شك أن ذلك مبالغة كبيرة بسبب انشغال بيزنطة بالخطر البلغارى. انظر: تاريخ الزمان، ص٥١ .

وردوا بعض الغنائم وقبضوا على قريب ملك الروم وذهبوا به مأسوراً إلى بغداد. وهذه الأحداث تدل على الصبغة الصليبية التى بدأت تظهر فى تلك الحروب وطابع التعصب الذى اتسمت به خاصة تجاه المقدسات الإسلامية .

ومن ناحية أخرى شهدت أرمينية صراعاً بين البيزنطيين والمسلمين حيث تولى قيادة الجيوش البيزنطية القائد يوحنا كرركوزا. واستمر الصراع ما بين عامى ٩٢٧م ، ٩٣١ أحرز خلالها البيزنطيون عدة انتصارات حتى تمكنوا من الاستيلاء على أرزن الروم، وخروج المسلمين منها .

العلاقة مع الحمدانيين فى بلاد الشام :

يرجع أصل الحمدانيين إلى تغلب بن وائل حيث ينتهى نسبهم إلى معد بن عدنان. ويقول عنها ابن ظافر أنها ـ أى الدولة الحمدانية من أرفع الدول عماداً، وأثبتها اوتاداً وبيت أربابها من أنبة بيوت العرب ذكراً وأعلاها قدراً. [١] واستطاع الحمدانيون تأسيس دولة لهم متخذين من الموصل قاعدة لهم واخذت تتوسع فى بلاد الشام. وظهر من بين حاكمها على وجه الخصوص سيف الدولة الحمدانى والذى نجح فى وقف خطر البيزنطيين فى الوقت الذى كانت تعانى فيه الدولة العباسية من الضعف .

وبدأ سيف الدولة نشاطه عندما أرسل قواته فى عام ٣٢٦هـ/ ٩٣٨م حتى وصل إلى حصن زياد ونجحت فى ضم حصن آخر ثم رد القوات البيزنطية التى قدمت لانقاذ المنطقة وبذلك نجح سيف الدولة فى أول مواجهة له مع البيزنطيين .

وحاول رومانوس مخاطبة الخليفة العباسى الراضى، فوجه اليه سفيراً يحمل رسالة بالرومية وذلك فى عام ٣٢٦هـ/ ٩٣٧م بدأها «من رومانوس

(١) أخبار الدول المنقطعة، جـ١، ص ٤١ وما بعدها .

وقسطنطين واسطفانس ملوك الروم العظام إلى فخامة سلطان المسلمين المعظم سلام ...)[١] وكانت تحمل معها هدايا وتهدف إلى عقد الصلح. ورد الخليفة العباسى موافقا على هذا العرض وطلب الصلح. وتم تبادل الأسرى بين الجانبين حيث بلغ عدد الأسرى المسلمين ستة آلاف وثلثمائة أسير[٢].

وهكذا استطاع سيف الدولة الحمدانى أن يفرض سيطرته على الأحداث حتى أنه وصل إلى مناطق لم يصل إليها أحد من قبله من المسلمين على حد قول ابن ظافر ـ ثم عادت الاشتباكات بين الجانبين بعد فترة توقف بسبب الاحداث الداخلية لدى كل منهما. ووصلت القوات البيزنطية إلى مدينة الرها حيث شهدت هذه الحملة جانبا دينيا هاماً تمثل فى حصول البيزنطيين على ما يسمى بمنديل السيد المسيح عليه السلام مقابل فك الحصار واطلاق سراح عدد من الأسرى المسلمين. ووافق الخليفة العباسى على هذا الطلب وتم إرساله على الرغم من معارضة أهالى الرها[٣] . بهذه الأحداث فى عام ٩٤٤م تنتهى مرحلة هامة من الصراع بين الجانبين حيث عمل سيف الدولة على ضم حلب ونجح فى ذلك، بينما مات يوحنا كوركواز وبدأ عصر انفراد قسطنطين السابع بالحكم .

الصراع فى عصر قسطنطين السابع ٩٤٤ ـ ٩٥٩م :

عاد الصدام يتجدد مرة أخرى بين الجانبين. وتشير المصادر إلى فداء للأسرى تم بينهما فى عام ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م. وكان قسطنطين قد بادر بذلك لإنقاذ جنوده من الأسر. وقام سيف الدولة بشن العديد من الهجمات

---

(١) ابن العبرى: تاريخ الزمان، ص ٥٦ .

(٢) ابو المحاسن: النجوم، جـ٣، ص ٢٦٣ ؛ المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ١٩٢ .

(٣) يذكر ابن العبرى أن الخليفة المتقى استشار الفقهاء فى هذا الأمر فوافقوه نظراً لما فى ذلك من مصلحة المسلمين. انظر: تاريخ الزمان، ص ٥٧ .

فى المرحلة التالية ضد شمال بلاد الشام مثل الحدث وبروزيه ومرعش وطرسوس. وعمل البيزنطيون على استغلال إنشغال الحمدانيين بمشاكلهم الداخلية. ولكن بعد أن فرغ من هذه المشاكل خرج سيف الدولة بقواته ونجح فى الثأر من البيزنطيين فى ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م . فتح خلالها العديد من الحصون. وتابع تقدمه حتى أقترب من القسطنطينية ولكنه وقع فى خطأ استراتيجى أثناء عودته عندما دخل أحد الممرات التى يمكن بسهولة حصاره فيها فنجا سيف الدولة بصعوبة بالغة حتى أنها عرفت فى المصادر العربية بغزوة المصيبة لما حل به .

استمرت أعمال القتال بين الجانبين ما بين أخذ ورد. وبذل الجانبان جهوداً ضخمة من أجل إحراز الانتصار على الجانب الآخر. ومن أبرزها ما حدث عند مرعش فى عام ٣٤٢هـ/ ٩٥٣ . وكان رد فعل قسطنطين عنيفا عندما أمر بذبح العديد من الأسرى من اقارب سيف الدولة رداً على قتل أحد القادة البيزنطيين الذى كان أسيراً لدى سيف الدولة. ولذلك رفض سيف الدولة عقد هدنة مع قسطنطين عندما أرسل إليه طالباً ذلك .

انتهت هذه المرحلة الهامة من الصراع بطلب البيزنطيين الهدنة فى عام ٩٥٥م. ولكنها سرعان ما نقضت وعاد الصدام فى العام التالى. وفقدت بيزنطة قوات كبيرة خلال هذا العام. ثم بدأت فى استعادة توازنها خاصة بعد أن انتهت الحملات البيزنطية فى كريت وبدأ الصدام يتجه إلى مرحلة جديدة لدفع الحمدانيين عن آسيا الصغرى ووقف تقدمهم المستمر نحو بيزنطة .

بدأت المرحلة الأخيرة فى الصراع بين سيف الدولة الحمدانى والبيزنطيين عندما بدأت المؤامرات الداخلية تحاك ضد هذا القائد من جانب

بعض غلمانه الذين اتصلوا ببيزنطة فى ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م. ولذا بدأ الضعف يدب فى جسد هذه الدولة والتى كانت تمثل حاجزاً قوياً أمام هجمات البيزنطيين. وعادت القوات البيزنطية تجتاح منطقة الجزيرة عند أعالى الشام. ثم استولت على حصن سميساط ورعبان فى العام التالى. وحلت الهزيمة بالحمدانيين وبدأت مرحلة التدهور تصيبهم حتى سقطت حلب فى ذى القعدة ٣٥١ هـ/ ديسمبر ٩٦٢م. ويعدد ابن ظافر أسباب سقوطها نتيجة لمرض سيف الدولة وتفرق المسلمين عنه، وانشغاله بمحاربة أخيه. وهكذا أنتهت مرحلة هامة من الصراع بين الجانبين سجل فيها البيزنطيون انتصاراً على المسلمين حتى وفاة سيف الدولة الحمدانى فى صفر ٣٥٧هـ/ يناير ٩٦٧م .

العلاقة مع الدولة الأخشيدية فى مصر

نجح محمد بن طغج الأخشيد فى تأسيس دولة مستقلة فى مصر عن الخلافة العباسية. ثم مد نفوذه إلى بلاد الشام حيث اصطدم مع الحمدانيين وتم الأتفاق بينهما على أقتسام الشام ودفع الأخشيد مبلغاً سنويا لسيف الدولة بالاضافة إلى المصاهرة التى تمت بينهما وتم ذلك فى عام ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م .

حرص رومانوس على الاتصال بالأخشيديين عارضاً عليهم ايجاد علاقات سلمية متجاهلاً بذلك وجود الخليفة العباسى. كما شملت الرسالة على عرض بتبادل الأسرى بينهما. وقد أورد المؤرخ القلقشندى نص هذه الرسالة دون أن يحدد تاريخها. ولم يمنع ذلك قيام الأخشيد بارسال أمير الثغور نصر الثملى على رأس قوة إسلامية لمهاجمة البيزنطيين. كما أنه تفاوض فى عملية الفداء التى تمت عام ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م وبلغ عدد

الأسرى ما يقرب من الفين واربعمائة وثمانية أسيراً. أما فى عهد أبو المسك كافور فقد استمرت الدولة الأخشيدية على نفس سياسة الملاينة مع البيزنطيين خاصة وأنها تعرضت لكثير من المشاكل مثل غارات الفاطميين والقرامطة .

وفى عام ٩٥٤م تعرض ميناء الفرما لهجوم بيزنطى ورد الأهالى بمهاجمة الروم المقيمين بمصر وكان أغلبهم من التجار. كذلك يشير المؤرخ يحيى الأنطاكى إلى غارة استعد كافور للخروج بها فى عام ٣٤٩هـ/ ٩٥٩ ـ ٩٦٠م ولكن لم يكتب لها النجاح بسبب غرق المركب المعد لذلك. وبعد وفاة كافور الأخشيدى (ت ٣٥٧هـ) «طرق الروم دمياط لعشر خلون من رجب سنة سبع وخمسين وثلثمائة فى بضع وعشرين مركبا فقتلوا وأسروا مائة وخمسين من المسلمين.» .

العلاقة مع العباسيين:

أتسمت هذه المرحلة فى العلاقات بين بيزنطة والخلافة العباسية بأنها اتخذت اشكال عديدة وان كان قد غلب عليها الطابع السلمى. ويرجع ذلك إلى أن الدولة الحمدانية هى التى قامت بعبء الصدام العسكرى. ومن ناحية أخرى فان البيزنطيين كانوا يرغبون فى الحصول على الآثار الدينية لما اتسمت به حروبهم من طابع دينى. واتسمت المراسلات بينهما بحرص البيزنطيين على أظهار طابع الفخامة والأبهة حتى أن الرسالة التى وصلت إلى الخليفة العباسى كانت مزينة بالذهب والفضة. كما أن هذه المرحلة شهدت عدداً من فداء الأسرى بين الجانبين. وحرص العباسيون أيضا على أظهار ثراءهم عند وصول سفارة بيزنطية كما حدث لتلك السفارة التى ارسلها قسطنطين السابع ومراسم الأستقبال التى تمت لها اظهاراً لعظمة الخلافة العباسية .

العلاقة مع مسلمى الغرب :

مع الفاطميين فى المغرب:

حلت الدولة الفاطمية فى المغرب محل الأغالبة فى السيطرة على جزيرة صقلية. وبدأ الفاطميون جهادهم ضد البيزنطيين من هذه القاعدة البحرية الهامة. وتمكنوا حتى عام ٩٢٥م من فرض الجزية على حاكم قلورية. كما هاجموا تارنت Taranto فى عام ٩٢٩م وبذلك وصل التهديد الفاطمى إلى جنوب ايطاليا حيث وافقت معظم مدنها على دفع جزية للفاطميين .

وعلى الرغم من تنازل الفاطميين عن نصف الجزية السنوية التى كانت بيزنطة تدفعها لهم، فقد عادت غارات الأسطول الفاطمى ضد الممتلكات البيزنطية فى جزر سردينيا وكورسيكا وتعرضت عدد كبير من السفن البيزنطية للحريق. وأتخذ الفاطميون من جزيرة سردينيا مركزاً لهم فى مهاجمة السفن البيزنطية مما شكل تهديداً كبيراً للوجود البيزنطى فى هذه الجهات .

ورداً على ذلك عملت بيزنطة على محاولة التدخل فى صقلية مستغلة ثورة فى صقلية وصلت على أثرها مساعدات بيزنطية للثائرين. وأدى ذلك لوقف نشاط الأسطول الفاطمى مؤقتاً.وبعد القضاء على هذه الثورة عدا الأسطول الفاطمى لمواصلة هجماته ضد الأملاك البيزنطية مما دعا قسطنطين السابع لمحاولة انقاذ هذه الأراضى وذلك فى عام ٩٥١م. وعاود البيزنطيون دفع الجزية للفاطميين مرة أخرى والتى كانوا قد توقفوا عن دفعها مما يدل على فرض السيادة الفاطمية فى هذا الصراع. كما حاول قسطنطين اللجوء إلى سياسة أخرى تمثلت فى محاولة الأتصال بالأمويين فى الأندلس وهم الذين كانوا يمثلون العدو الرئيسى للفاطميين. ولا شك أن السياسة البحرية

التى أتبعها الامبراطور قسطنطين السابع كان لها أثرها فى السنوات التالية والمتمثلة فى استرداد جزيرة كريت مرة أخرى فى عام ٩٦١م، ثم على قبرص بعدها بأربع سنوات وهو ما يمثل تفوق السيادة البحرية البيزنطية .

العلاقة مع البلغار :

أدى تدعيم قوة المملكة البلغارية واستقرار الأوضاع بها إلى قيام تنافس دول منطقة البلقان مع الدولة البيزنطية. وسبقت الإشارة إلى دور القيصر البلغارى سيمون (٨٩٣ ـ ٩٢٧) فى الفترة السابقة ومدى ولعه بالحضارة البيزنطية والتى نشأ بين أحضانها. وكانت بداية الصراع بين الجانبين ترجع إلى أسباب اقتصادية حيث سيطر التجار البيزنطيون على التجارة البلغارية ونقل ليو السادس مخازن بضائعهم من القسطنطينية إلى سالونيك فأعلن البلغار الحرب فى الوقت الذى كانت فيه بيزنطة مشغولة بحروبها ضد المسلمين. ولكن ليو السادس لجأ إلى المجريين لشغل البلغار ونجح فى ذلك. وكان ذلك بداية لظهور هذه العناصر التى عرفت بالمجريين Magvars أو الآفار Avars وفى المصادر البيزنطية بالأتراك. وبنفس الأسلوب نجح خان البلغار فى استخدام عناصر البجناك أو البتشنك Patzinaks فى محاربة حلفاء بيزنطة من المجريين ونجحوا فى هزيمتهم. وهكذا تمكن سيمون من التفرغ لمواجهة بيزنطة وتوجه لحربها حتى تم التوصل لصلح بينهما .

غير أن العداء عاد مرة أخرى وذلك بعد أن تعرضت سالونيك للحصار من جانب العرب، فأدرك خان البلغار ضعف بيزنطة فى الدفاع عن سالونيك ورغب فى ضمها مما جعل ليو السادس يعرض عليه أراضى بيزنطية أخرى بدلاً منها فوافق على ذلك. وهكذا نجح سيمون فى توحيد هذه المناطق تحت سيطرته وصبغها بالبلغارية واستمرت العلاقات سلمية بين الجانبين حتى نهاية عهد ليو السادس .

على أى حال تجدد الصدام بين البلغار وبيزنطة أثناء فترة الصراع على العرش البيزنطى بين الطامعين فى الوصاية على قسطنطين السابع. وبرز دور البطريق نيقولا مستيفوس فى أثناء هذه الفترة وتم عقد صلح انسحب سيمون على أثره فى عام ٩١٣. ولكن عاد الصدام مرة أخرى واجتاح تراقية ووصلت إلى كورنثة عام ٩١٦م ومرة أخرى يظهر دور البطريق حيث استعطف سيمون ولكن لم ينجح فدارت معركة أنخيلوس Anchialus وذلك فى ٢٠ أغسطس ٩١٧م انهزمت فيها بيزنطة هزيمة شديدة. وبعدها حاولت بيزنطة اللجوء إلى الصرب لشغل البلغار بهم ولكنها فشلت فى ذلك. ثم أنزل هزيمة ثانية ببيزنطة فى عام ٩١٨ .

وعقب هذا النصر أعلن سيمون نفسه ملكاً قيصراً على البلغار وامبراطوراً للرومان كما اتخذ من برسلاف عاصمة له. ولذا طمع فى الاستيلاء على القسطنطينية عام ٩٢٤ ولكن المحاولة فشلت وتم التوصل إلى شروط الصلح بينهما فى ظل عدم وجود أسطول قوى، وكذلك فشل محاولته الأتصال بالمسلمين فى شمال أفريقية. كما استخدم الامبراطور الصرب مرة أخرى ورقة ضغط مما أدى الى الصح الذى اكتفى سيمون فيه بالحصول على جزية سنوية. الى أن مات فى عام ٩٢٧م .

جاء بطرس خلفا لوالده سيمون لكى يتولى حكم البلغار. ولكنه لم يكن مثل والده بل لجأ إلى حياة اللهو والإنغماس فى الملذات. وتم الاعتراف به قيصراً على البلغار، كما أعترف بالبطريركية التى قامت فى بلغاريا. كما تزوج من حفيدة الامبراطور البيزنطى واستمرت هذه العلاقة السلمية بين الجانبين طوال أربعين عاماً. وثمة عوامل أخرى أدت إلى الهدوء فى العلاقات البيزنطية ـ البلغارية من بينها تدهور السلطة المركزية

بهـا. كـمـا ظهـر النظام الاقطاعى البلغـارى. وثـمـة عـامل آخـر قـوض هذه المملكة البلغارية وهو الصراع الديني الذى شهدته بين طائفة البوجوميلية وبين البلغارية المسيحية. وكان ذلك الصراع الدينى تعبيراً عن صراعاً طبقياً آخراً وهو الصراع بين الفقراء والأغنياء(١) .

(١) تناول الدكتور محمود سعيد عمران أحداث هذا الصراع البيزنطى ـ البلغارى وبصفة خاصة دور البطريق نيقولا مستيقوس فى مقاله :نيقولا مستيقوس وعلاقة الإمبراطورية البيزنطية بالقوى الإسلامية من خلال مراسلاته، بيروت ١٩٨٠ .

عصر القادة العسكريين
(٩٥٩ ـ ٩٧٦ م)
رومانوس الثاني ـ نقفور فوقاس ـ حنازيمسكس

تمثل هذه الفترة أهمية خاصة فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية بصفة عامة وتاريخ الأسرة المقدونية بصفة خاصة. فقد تولى دفة الأمور فى بيزنطة ثلاثة من الأباطرة يمثلون عصر القادة العسكريين وحققوا من الانتصارات ما لم تتحقق من قبل. فقد استعادت بيزنطة جزيرتى كريت وقبرص مما أعاد لها السيطرة على البحر المتوسط مرة أخرى. أما فى مجال الصراع البرى فقد واصلت بيزنطة حملاتها ضد بلاد الشام ووصلت إلى دمشق، وتعرضت بغداد نفسها للتهديد. واصطبغت هذه الفترة بصبغة صليبية حتى أعتبرها البعض بانها مقدمات للحروب الصليبية. ولكنها تختلف عنها فى التفاصيل[1]. وساعد هؤلاء القادة الظروف التى مرت بها الخلافة العباسية والتى وقعت تحت سيطرة الفرس، بخلاف ما انسلخ عنها من دويلات كثيرة.

السياسة تجاه المسلمين :

تولى رومانوس الثانى (٩٥٩ ـ ٩٦٣م) الحكم خلفا لوالده قسطنطين السابع ولم يكن بالشخصية التى تستطيع إدارة أمور الدولة فى هذه الفترة، وظهر على مسرح الاحداث زوجته ثيوفانو التى أدارت دفة الحكم وذلك بالاستعانة بمجموعة من القادة العسكريين. وظلت تسهم بدور هام فى عصر القادة العسكريين بعد أن تزوجت أيضا من نقفور فوقاس وسط دهشة المعاصرين حتى قيل أنه تمكن من قهر كل شيء عدا المرأة[2] .إستطاعت أسرة فوقاس أن تسهم بدور رئيسى فى أحداث هذه الفترة وكان الجد أيضاً

(١) عن الأراء المختلفة بشأن ذلك راجع: عمر كمال توفيق: مقدمات العدوان الصليبى على الشرق العربى، الإمبراطور يوحنا تزيمسكى وسياستة الشرقية ٩٦٩ ـ ٩٧٦م، الاسكندرية ١٩٦٧، وكذلك : الإمبراطور نقفور فوقاس واسترجاع الأراضى المقدسة، الاسكندرية ١٩٥٩

(٢) عمر كمال توفيق: مقدمات العدوان الصليبى، ص ٢٧

والذى يحمل اسم نقفور فوقاس قد اسهم بدور رئيسى فى أحداث الصراع البيزنطى العربى وكذلك فى الغرب الأوروبى. وبالفعل استعد القائد الجديد نقفور فوقاس من أجل الإستيلاء مرة أخرى على جزيرة كريت وذلك فى صيف ٩٦٠م. وبالفعل تم إعداد أسطول بحرى ضخم شاركت فيه عناصر روسية ومن مختلف الجنسيات الأخرى بالإضافة إلى المرتزقة. وحرص نقفور أيضاً على عدم وصول نجدات إلى الجزيرة من مصر. ونزلت القوات البيزنطيطة والتى عملت على سد الطرق المؤدية إلى العاصمة كانديا أو الخندق. ولاقت القوات البيزنطية مقاومة فى البداية من جانب الأهالى غير أن سكان الضواحى من البيزنطيين السابقين قدموا المساعدة للقوات البيزنطية. فى ذلك الوقت كانت مساعدة فاطمية من شمال افريقية قد وصلت ولكن بعد معركة فاصلة أنتهت بهزيمة القوات الإسلامية نجح نقفور فى اقتحام عاصمة الجزيرة والاستيلاء عليها وذلك بعد أن احدثوا بها مذبحة رهيبة بين سكانها. ولا شك أن نجاح بيزنطة فى استعادة كريت كان بداية لصفحة جديدة فى عودة السيادة البحرية البيزنطية على هذه الجهات من ناحية ولوقف الهجمات الاسلامية على بيزنطة فى هذه الجبهة من ناحية أخرى. كما رفع أسم نقفور فوقاس عالياً فى بيزنطة حتى أطلق عليه لقب الظافر Dalinixos .

الصدام بين البيزنطيين والحمدانيين :

اختلفت المصادر حول بداية الصدام فى عهد رومانوس. فقد ذكر ابن العبرى أن رومانوس وجه فى عام ٩٦١م (٣٥٠هـ) قواته وكان معها نقفور الدمستق إلى بلاد العرب فسار إلى آمد وقتلوا مائة من المسلمين وقبضوا على ثلاثين آخرين وقاموا باحراق الغلال ثم عادوا. ورد عليهم سيف الدولة حيث خرج إلى خرشنة وأخذ غنائم كثيرة. وفى أثناء عودته حاصره الروم فى المضايق ولم يتمكن من النجاة إلا بعدد قليل من رجاله وضاع السبى والغنائم التى كان قد أخذها[١] .

(١) ابن العبرى: تاريخ الزمان، ص ٦٠. ٦١ .

اما ابن ظافر فيذكر أن نجا غلام سيف الدولة هو الذى قاد هذه الحملة وأنه تمكن من مواجهة الروم عند الدرب وعاد بعد أن هاجم قليقيا إلى حلب[1] .

وفى ظل هذه الظروف التى تعانى منها بلاد الشام قام ابن الزيات بقطع الدعوة للحمدانيين عن طرسوس وأعمال الثغور وأقامها للخليفة العباسى المطيع لله. واستمرت أعمال الصدام بين الجانبين حيث تعرضت قافلة عربية كبيرة أثناء خروجها من انطاكية إلى طرسوس فقام كمناء الروم بالهجوم عليها وأخذوا منها أسرى بخلاف الغنائم الأخرى. ثم أعد نقفور لحملته الضخمة التى بلغت حوالى مائة وستين الفا ووصل إلى عين زربة فطلب أهلها الأمان. وخان نقفور عهده واستباح المدينة فقتل الآلاف وأخذ منها أربعين الف درع وخرب اشجارها. وأمر بخروج من تبقى حتى المساء ومن بقى بعده يقتل فاندفع الناس وقتلوا بعضهم أثناء ذلك. ثم قام بتقويض المسجد ودك بقية دور المدينة. وبعد أن هاجم مجموعة أخرى من النساء والرجال وقتلهم. عاد نقفور إلى قيسارية.وكان الهدف من هذه الحملة ترويع الحمدانيين ومحاولة وقف هجماتهم. واتضح الطابع الصليبى فى هذه الحملة لما قام به نقفور فى مسجد المدينة وهدمه. ولم تفلح المحاولة التى قام بها قائد طرسوس لرد هذا الهجوم وتعرض للهزيمة .

عاد نقفور فى حملة جديدة وكانت وجهته هذه المرة نحو حلب عاصمة الحمدانيين وحاول استغلال الأحوال التى وصل إليها سيف الدولة من كبر سنة ومرضه وتفرق الناس عنه وما حدث مع ابن الزيات أمير الثغور بالاضافة إلى الصراعات الداخلية. (وقويت الروم واستولى الدمستق (نقفور) بن فقاس لعنه الله على الثغور، وسام أهلها سوء العذاب»[2] ووصلت قوات الروم إلى حلب وحاصرتها حصاراً شديداً وذلك فى ذى القعدة ٣٥١هـ/

(١) ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة، جـ ١، ص ٧٤ ـ ٧٥ .

(٢) ابن ظافر: المصدر السابق، ص٧٧ .

ديسمبر ٩٧٢م. وبعد حصار دام أربعة أيام استولى الروم عليها وغنموا منها غنائم لا تعد ولا تحصى، بالاضافة إلى الأسرى من الروم الذين كانوا بها فاطلقوا سراحهم.

وقاموا أيضا بتخريب المساجد وظلوا بها نحو تسعة أيام. وكان لهذه الوقعة أثرها على ضياع دولة بني حمدان وبعد موت سيف الدولة اشتد استيلاء الروم على البلاد والثغور كما يقول ابن ظافر .

ترتب على هذه الحملة العديد من النتائج من بينها ما حدث عند قلعة حلب وقتل أحد القادة البيزنطيين فانتقم نقفور من الأسرى وقتل منهم الف ومائتين. كذلك حرص على الابقاء على الفلاحين فى المنطقة لانخ كان يخطط للعودة لها مرة أخرى «معتقداً أن البلاد هي للروم ومؤملاً العودة اليها». كذلك حدثت هجرة أرمينية فى المنطقة خوفاً من انتقام المسلمين منهم بعد ذلك[1]. ومن ناحية أخرى رفعت من مكانة نقفور فى القسطنطينية كلها حتى أصبح أكثر شهرة من الا مبراطور نفسه .

اما فى عصر نقفور فوقاس (٩٦٣ ـ ٩٦٩م) فقد شهد فى بدايته صراعاً على السلطة خاصة وأن ثيوفانو كانت لا تزال تطمح فى البقاء فى السلطة خاصة وأنها الوصية على ولديها باسيل وقنسطنطين. ونجحت فى الزواج بنقفور فوقاس بعد أن نادى به أثنان من القادة لكى يكون امبراطوراً. وبالفعل دخل القسطنطينية وأصبح امبراطوراً. وعرف عنه الزهد والتقوى ومال إلى التقشف وكما حكم عليه أحد المعاصرين بأنه نجح فى قهر كل شيء عدا المرأة. واستطاع نقفور تثبيت دعائم حكمه وذلك بالاعتماد على القادة الأكفاء ومن بينهم حنا زيمسكس .

اما عن علاقته بالمسلمين فقد استطاع نقفور أن يحقق انتصارات عديدة

(١) ابن العبرى: تاريخ الزمان، ص ٦٣

ترجع إلى عدة أسباب من بينها حالة المسلمين فى تلك الفترة وخاصة الضعف الذى وصلت إليه الخلافة العباسية وكذلك الصراع الذى كان دائراً فى كثير من الولايات التى انسلخت عنها وما شهدته الدولة الحمدانية من صراع داخلى. وسلك نقفور سياسة تخريب الأراضى الزراعية بهدف الضغط اقتصادياً على هذه المناطق وحرمانها من المؤن مما يجعلها تسقط أمام أى حصار تتعرض له .

وبدأ بالفعل فى حصار فى عام ٩٦٥م وفشل فى فتحها بعد حصار المصيصة لمدة سبعة أيام، ثم لجأ إلى تخريب المناطق حول أذنة وطرسوس. كما رد خمسة الاف كانوا قادمين لنجدتها. وشهدت هذه الحملة أيضا محاولة للتبشير بالمسيحية كما يروى ياقوت الحموى عن استيلاء نقفور على طرسوس. وإلى جانب ذلك حاول نقفور صبغ حروبه بالصبغة الدينية كما يروى المؤرخ ابن العديم من أنه أعتبر فتحه لطرسوس على أنها فتح لبيت المقدس. كذلك يتضح من نص رسالته إلى الخليفة العباسى عن أهداف سياسته ورغبته فى نصر المسيحية وعزمه عن فتح بيت المقدس. كما هدد بالأستيلاء على مكة قبلة المسلمين[1] :

واخرج منها نحو مكة مسرعاً ... اجر جيوشاً كالليالى السواجم
فاملكها دهراً غزيراً مسلماً ... اقيم بها للحق كرسى عالم

ومن أبرز النتائج التى حققها نقفور ما قام به بالأستيلاء على جزيرة قبرص مرة أخرى فى عام ٩٦٥م. وبهذه الخطوة الهامة أستطاع أن يستعيد السيادة البحرية لبيزنطة فى هذه المنطقة. وبذلك استعدت بيزنطة لتنفيذ الخطة

(١) وردت هذه الرسالة لدى المؤرخ ابن كثير فى البداية والنهاية، ونقلها عن كتاب صلة الصلة للفرغانى من مؤرخى القرن الرابع البحرى / العاشر الميلادى. أنظر: عمر كمال توفيق: مقدمات العدوان الصليبى، ص ٩٧٦ ـ ٩٨ .

التى تم الترتيب لها منذ زمن بعيد وهى محاولة الأستيلاء على الأراضى المقدسة .

لا شك أن موت سيف الدولة الحمدانى فى عام ٩٦٧م كان فرصة عظيمة من أجل قيام نقفور فوقاس بتنفيذ مشروعة بمهاجمة بلاد الشام والاستفادة من هذه الظروف التى مرت بها الامارة الحمدانية نتيجة للصراعات الداخلية.وعندما خرج نقفور بقواته حاول أهالى طرسوس التوصل إلى صلح معه ولكنه رفض طلبهم وتوجه إلى هناك حيث بدأ بحصاره للمصيصة وأجرى بها مذبحة عظيمة وأخذ العديد من الأسرى ارسلهم الى بلاد الروم. وكعادته للتشفى من الأماكن الدينية حول مسجد طرسوس اصطبلاً لدوابه، كما أجبر آخرين على التنصر، ثم واصل طريقه إلى آمد وبعدها إلى انطاكية وحاصرها وقام باعمال التخريب حولها .

عاد نقفور مرة أخرى وفى أثناء طريقه استولى على عدد من القلاع والحصون وعمل على إحداث التدمير والتخريب بها وكذلك ضد بعض المساجد فى هذه المدن. وكان من بين هذه المدن أنطاكية وطرابلس حيث أحرق كل ما فى ضواحيها من الأبنية وواصل تقدمه حتى قلعة غزة وعاد إلى حمص وحلب وأقام شهرين يغزو دون أن يعارضه أحد. وهناك ملاحظة هامة فى هذه الحملة هو حرصه على أخذ الأسرى من الشباب ولم يقبض على شيخ أو عجوز. ويذكر ابن العبرى أن سبب عودته هو تفشى الوباء بين جنوده وكان ينوى التوجه نحو بيت المقدس ولكنه لم يتم له ذلك وعاد إلى بلاده .

أما أبرز ما حققه نقفور فقد كان الأستيلاء على أنطاكية والتى خطط لها نقفور بان جعل نصارى حصن لوقا المجاور لانطاكية يذهبون إليها بادعاء

أنهم إنهزموا من الروم ويدخلوا المدينة وعندما يصل بحملته يساعدونه على فتحها. وبالفعل عندما وصل نقفور فى أواخر عام ٩٦٩م وأوائل ٩٧٠م تمكن من دخول أنطاكية بمساعدة هؤلاء النصارى وسقطت هذه المدينة الهامة الواقعة شمال بلادالشام وكان من جملة الغنائم عشرين ألفا من الشبان والشابات أخذهم الروم معهم وفرض على أهل حلب جزية معلومة تؤدى لهم وحملوا معهم رهائن لتنفيذ ذلك[١]. وبذلك أصبح لبيزنطة قدم فى بلاد الشام وظلت أنطاكية والمدن الأخرى التى سقطت فى قبضة البيزنطيين «إلى أن أزال الله ذلك على يد السلطان الأعظم ألب ارسلان...»[٢] .

وهكذا فقد عم الفزع بلاد الشام حتى أن المؤرخ يحيى الأنطاكى كتب واصفاً شعور الناس آنذاك «ولم يشك أحد فى أن نقفور يفتح جميع الشامات وديار ربيعة وديار بكر وتحصل فى يديه». اما فى الغرب الإسلامى فقد أراد نقفور أن يحقق انتصاراً آخراً فى جزيرة صقلية ورفض دفع الجزية التى كانت مقررة من قبل على البيزنطيين. ولذلك فقد فرض المسلمون حصارهم على قلعة طيرمين وتمكنوا من فتحها[٣]. ثم حاصروا رمطة ولذا سارع نقفور بارسال النجدات اليها فى محاولة لانقاذها وذلك فى أواخر ٩٦٣/. ٣٥٢هـ. واهتم نقفور بهذه الحملة اهتماماً خاصاً حيث بلغت حوالى أربعين الف مقاتل بالاضافة إلى عدد ضخم من السفن واعداد مختلفة من الجنسيات الموالية لبيزنطة من روس وأرمن وغيرهم. وسارع الخليفة الفاطمى المعز لدين الله بارسال نجدات للجزيرة. وحدث اللقاء بين

---

(١) تاريخ الزمان، ص ٦٦ ـ ٦٧ .

(٢) ابن ظافر: المصدر السابق، جـ ١ ، ص ٧٨ .

(٣) يذكر ابن ظافر أن فتحها كان فى عام ٣٥١هـ ـ راجع تاريخ الدول المنقطعة، جـ١ ، ص١٧٥ .

الجانبين فوق الجزيرة وفشل نقفور فى تحقيق الانتصار وتعرضت قواته للهزيمة ونتج عن ذلك سقوط رمطة التى ظلت تقاوم فترة طويلة. كما أن المسلمين تابعوا فلول القوات البيزنطية الهاربة وتمكنوا من إنزال الهزيمة بالأسطول البيزنطى وتم فى النهاية عقد صلح بين الجانبين فى عام ٩٦٧م/ ٣٥٦ هـ .

وظهر فى هذه الفترة علاقة بيزنطة بالامبراطورية الرومانية الغربية مرة أخرى. وكان يحكم الامبراطورية فى الغرب أوتو الأول (٩٣٦ ـ ٩٧٣م) والذى بلغت قوته ما لم يبلغه ملك فى أوروبا منذ وفاة شرلمان. وجاء تتويجه امبراطوراً فى عام ٩٦٢م لكى يعيد المواجهة بين بيزنطة والامبراطورية فى الغرب الأوروبى. وحاولى اوتو التوصل إلى اتفاق مع بيزنطة بشأن الأوضاع فى ايطاليا. وعرض ليتوبراند أو كريمونا مشروع زواج بين أوتو وأميرة بيزنطية يكون صداقها أملاك بيزنطة فى جنوب ايطاليا. ولكن تم رفض ذلك المشروع فى الوقت الذى قام أوتو بمهاجمة مدينة بارى البيزنطية مما أثار حنق نقفور ثم ستتجدد فى عهد خلفه(١) .

عصر حنا زيمسكى (٩٦٩ ـ ٩٦٧م) :

عرف يوحنا أوحنا بلقب الشمشيق وشوموشيق والذى يعنى فى اللغة الأرمينية القصير، كما أطلق عليه الدمستق Domsticus أى القائد فى اللغة اللاتينية.وورد فى المصادر العربية بابن الشمشيق وحرف فى المصادر البيزنطية الى زيمسكس Tzimisces. وكان جندياً منذ نشأته وأخذ دوره يلمع فى الأحداث السابقة زمن القادة العسكريين.وساهمت ثيوفانو فى وصوله إلى

(١) قام لتيوبراند بأكثر من زيارة للقسطنطينية منها زمن قسطنطين السابع فى عام٩٤٩، ثم السفارة المشار إليها اعلاه. وترك ذلك ضمن تاريخه عن اوتو الأول وزيارته فى عام ٩٧٨م. هارتمان وباراكلاف: الدولة والامبراطورية،ص ١٤٩ ـ ١٥٠؛
Tout, The Empire and Papacy, PP. 31 ` 32 .

العرش البيزنطى بعد أن دبرت مؤامرة نجحت فيها فى التخلص من زوجها نقفور واعتلاء حنا العرش واعتمد فى ذلك على شخصية جمعت الدهاء والمكر وهو باسيل الذى أصبح اليد اليمنى لحنا(١) .

وحرص حنا على وضع سياسة داخلية تساعده على استقرار الأحوال فى بيزنطة. ولذا لم يثقل كاهل الشعب بالضرائب. كما نجح فى القضاء على الثورة الداخلية التى قامت بها أسرة فوقاس بعد مقتله. ومن ناحية علاقته برجال الدين فلم يرغب حنا فى الصدام معهم وحاول أختيار بطريرك تربطه به صلة صداقة لكى يسهل التعامل بينهما ولكنه اصطدم به بعد الخلاف حول العلاقة مع كنيسة روما. ومن ناحية علاقته بالرهبان فقد أقر لائحة خاصة بالأديرة ووافق على أن يكون الدير هيئة دينية مستقلة تخضع لرئيسة(٢) .

السياسة الخارجية فى عهد حنا :

كانت الظروف مهيئة أمام حنا زيمسكس لتنفيذ حلمه بالنفاذ إلى بلاد الشام والأستيلاء على بيت المقدس خاصة وبعد أن أصبح للبيزنطيين مراكز فى بلاد الشام خاصة فى أنطاكية والاتفاقية التى عقدت مع حلب. كذلك سيطر البيزنطيون على مناطق أرمينية ومنها ملاذكرد أو مانزكرت.بل يذكر المؤرخ ليو الشماس أن الامبراطور كان يهدف إلى الاستيلاء على بغداد نفسها. وتجدر الإشارة إلى أن الفاطميين قد وصلو إلى بلاد الشام وحاولوا استعادة انطاكية فى تلك الحملة التى خرجت بقيادة جعفر ابن فلاح فى عام ٣٦٠هـ/ ٩٧١م. وردت بيزنطة على ذلك الهجوم مما أدى إلى بداية

---

(١) ذكر ابن العبرى روايتين عن سببا تخلص (ثوفانة) من زوجها نقفور فوقاس. راجع تاريخ الزمان، ص ٦٦ ـ ٦٧ .

(٢) راجع عمر كمال توفيق: مقدمات العدوان الصليبى، ص ٢٣ ـ ٤٤ .

الصدام بينهما وكان الفشل من نصيب الفاطميين وانسحبوا إلى دمشق .

وكان الامبراطور البيزنطى قد خرج بحملة فى عام ٩٧٢م وصل بها إلى أقليم الجزيرة. وكانت من الفخامة بحيث بالغت المصادر العربية فى اعداد المشاركين فيها. وتمكن من الأستيلاء على نصيبين ثم إلى ميافارقين والتى لم يتمكن من الأستيلاء عليها نظراً لحصانتها الشديدة. وبعدها قرر حنا العودة إلى القسطنطينية. وترك قائده الدمستق على رأس باقى قواته.وجاء رد فعل من جانب العامة الذين حركهم عامل الجهاد لمواجهة قوات بيزنطة وحدثت الاشتباكات بين الجانبين ترتب عليها مهاجمة العديد من القلاع البيزنطية وسقوط أعداد كبيرة من الأسرى البيزنطيين. وفى يوليو ٩٧٣م/ رمضان ٣٦٢هـ وقعت معركة بين الجانبين أسر فيها الدمستق نفسه. وكان لها أثر نفسى كبير فى رفع معنويات المسلمين بعد الهزائم التى تعرض لها المسلمون. ومن ناحية أخرى جاء رد الفعل من جانب الامبراطور البيزنطى عندما قرر قيادة حملة أخرى والتوجه بها إلى بلاد الشام وذلك فى عام ٩٧٤ .

تقدم حنا بقواته إلى بلاد الشام واكتسح منطقة الجزيرة ومنها الرها وآمد ونصيبين. وكانت هذه الحملة عبارة عن غارة ضخمة وأهتم بتخريب ونهب الأراضى الزراعية المحيطة بالمدن الاسلامية والحصول على الأسرى. ومن ناحية أخرى لا يوجد ما يدل على أن البيزنطيين تركوا حاميات فى المدن التى غزوها أو استولوا عليها. ومع حلول فصل الشتاء قرر حنا الانسحاب والعودة الى القسطنطينية ورغب فى العودة مرة أخرى إلى بلاد الشام ولذا فقد ترك قواته فى المناطق الأمامية فى طرسوس وأنطاكية[١] .

---

(١) أشار ابن العبرى الى تفاصيل حملة حنا وحدد مده الحملة الأولى (٩٧٢م). باثنين وعشرين يوما «يسبى ويغزو ويخرب». كما أشار إلى أسر الدمستق وأرسلوه أسيراً إلى الموصل. ووصف ثورة أهالى بغداد على الخليفة المطيع لموقفه من عدم مواجهة الروم .

وخرج حنا زيمسكس بحملته فى عام ٩٧٥ ويظهر أنه إتصل ببعض القبائل المخالفة له فى بلاد الشام. وتقدم الجيش من أنطاكية الى حمص ورفض سعد الدولة الحمدانى دفع جزية للبيزنطيين. ثم تقدم إلى بعلبك حيث واجهته مقاومة شديدة سقطت بعدها فى مايو ٩٧٥م/ رمضان ٣٧٤هـ. ثم توجه الى دمشق التى كانت تعانى من الصراع على السيادة فيها ما بين الفاطميين وأفتكين التركى. وتم عقد اتفاقية بين أفتكين والبيزنطيين اشترطت طاعة أهل دمشق ودفع مبلغ سنوى بالاضافة إلى شروط أخرى تناولتها المصادر المعاصرة .

وقد ذكر حنا فى خطابه إلى أشوط الثالث الأرمينى أنه تمكن من اخضاع «قيسارية الواقعة على المحيط» ـ كما أخضع بعض المدن الأخرى الواقعة فى شمال فلسطين وقام بتعيين حكام عسكريين على هذه المدن. وقد اختلفت آراء المؤرخين الحديثيين حول وصول الإمبواطور البيزنطى إلى هذه المنطقة ما بين مؤيد ومعارض. والواقع أن المصادر العربية لم تشر إلى وصوله إلى هذه المدن عندما تحدثت عن حملته على بلاد الشام على الرغم من أنها ذكرت باقى المدن التى وردت الاشارة إليها فى خطابهم ويثير صمت المصادر العربية الشكوك حول وصوله الى هذه المدن. فقد ذكرت أنه اتجه من دمشق متخذاً الطريق الساحلى الى الشمال فحاصر صيدا وبيروت وجبيل وطرابلس التى فشل فى الاستيلاء عليها ثم واصل طريقه نحو أنطاكية وعاد بعدها إلى بلاده[١] .

---

(١) Mathieu d' Edesse, Chronique, ed. Dulaurier, Paris, 1958, P. 20' Vasiliev,A History of the Byzantine Empire, Madison, 1973, P. 310 .

يحيى الأنطاكى: صلة كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق،بيروت ١٩٠٩، ص ١٤٥، ١٤٦، حسن عبدالوهاب: قيسارية الشام فى العصر الإسلامى، الاسكندرية ١٩٩٠، ص ٥٨ ـ ٥٩ .

ومما لا شك فيه أن حنا زيمسسكس قد نجح فى اخضاع العديد من المناطق الإسلامية أثناء حملاته، كما دان له عدد كبير من القادة العرب واضطروا لدفع الجزية. وبالغ الامبراطور فى وصف حملاته ضد بلاد الشام. ولكن من نظرة واقعية فانه لم ينجح فى تحقيق الهدف الذى خرج من أجله وهو الاستيلاء على بيت المقدس. وظلت هذه الانجازات فى عهد خلفه باسيل الثانى والذى واجهته عقبة كداء وهى الوجود الفاطمى فى مصر وجنوب الشام .

اما عن العلاقة مع الامبراطورية الرومانية فى الغرب فقد تجددت محاولات التحالف وذلك بعرض زواج ابنة رومانوس الثانى من أوتو الصغير أو الثانى مع ممتلكاتها البيزنطية الايطالية كصداق لزوجها. وتمت الموافقة على هذا الزواج السياسى وتم ذلك فى أوائل عام ٩٧٢م وأظهرت الاحتفالات حقيقة قوة أوتو كامبراطور أمام العالم .

وفى يناير ٩٧٦ مرض حنا فجأة ومات على أثره. وقد أختلفت الروايات حول وفاته فمنها من قال بانه مات مسموماً على يد أحد وزرائه، ومنها من قالت أنه أصيب بالتيفود بعد أن أجهد نفسه كثيراً فى حملته السابقة ويعلق ابن العبرى على حكم هذا الامبراطور بقوله :

«وكان ملكا محنكا بالجندية قوى الجسم شجاعاً مظفراً فى الحروب وقد أبدى الشهامة والعطف لكل أحد وأطلق الأسرى وشاد كنيسة فخمة فى عاصمته. واحتل مدنا وبلاداً شتى. فتأسف عليه الكبير والصغير أشد التأسف»[١] .

---

(١) تاريخ الزمان، ص ٦٨ .

الأسرة المقدونية من عهد باسيل الثانى إلى نهايتها
(٩٧٦ ـ ١٠٥٩م)

تشمل هذه الفترة من عصر الأسرة المقدونية حكم الامبراطور بازيل الثانى ٩٨٦٠ ـ ١٠٢٥) وكذلك عدداً آخراً من الأباطرة حتى نهاية هذه الأسرة. ويختلف عصر بازيل الثانى عن بقية الأسرة حيث يعتبر من أزهى عصورها وذلك لعدة عوامل. ومن بينها نجاحه فى القضاء على خطر البلغار الذى طالما هدد الدولة البيزنطية حتى عرف فى المراجع بلقب سفاح البلغار. كما نجح فى وقف الخطر الفاطمى من تهديده للاملاك البيزنطية وتم عقد معاهدة بين الجانبين وذلك بعد أن خرج بنفسه على رأس حملتين إلى بلاد الشام. كذلك نجح فى ايجاد تقارب بيزنطى أرمينى وذلك ضد القوى الإسلامية فى بلاد الشام. اما فى ايطاليا فلم ينجح فى تحقيق انتصارات بها خاصة مع ظهور قوة النورمان .

أما الفترة من ١٠٢٥ إلى ١٠٥٧م فقد كانت من فترات الضعف التى مرت بها الدولة البيزنطية وذلك بسبب الصراعات الداخلية حول العرش وضعف شخصيات الأباطرة الذين انغسموا فى اللهو والعبث. كما ظهر دور النساء حيث سيطرت زوى على الحكم وظل الأمر على هذا النحو حتى نهاية الأسرة المقدونية .

بازيل الثانى (٩٧٦ ـ ١٠٢٥م) :

ترك رومانوس الثانى أثنين من الابناء هما بازيل وقسطنطين. ونجح الأول فى ادارة دفة الحكم خاصة وأن أخاه قسطنطين كان يميل إلى اللهو والعبث ولم يعبأبالمنصب. واختلفت شخصية بازيل عن أخيه فقد كان

صاحب ارادة قوية وشارك في العديد من الحملات حيث رغب فى تقليد من سبقه مثل نقفور وحنا. وجمع بازيل بين الناحية الدينية والعسكرية حتى يقال أنه كان يرتدى ملابس راهب أسفل ملابسه العسكرية. واجهت بازيل ثورة بارداس سكليروس والذى كان قائداً له مكانته زمن حنا زيمسكس حتى أنه كان ينادى بالامبراطور من جانب جنوده فى عام ٩٧٦م. وتمكن من التغلب على كافة القوات التى ارسلت ضده. ولم ينقذ الأمر سوى القائد بارداس فوقاس حيث دخل فى معركة حاسمة ضد الثائر سكليروس ونجح فى هزيمته فى ٢٤ مايو ٩٧٩. وهكذا تغلب بازيل على أول مواجهة له ضد ثورة داخلية كان من الممكن أن تطيح بعرشه. ولم تنتهى هذه المؤامرات حيث واجه مشاكل داخلية أخرى فى عام ٩٨٥ و ٩٨٧ وكذلك فى أراضى البلغار .

بازيل والبلغار :

أشرنا من قبل إلى العلاقة بين بيزنطة والبلغار وكيف تم اخضاع هذه الامبراطورية الناشئة لسلطة بيزنطة. لكن العناصر الوطنية البلغارية لم تقبل هذه الهزيمة وظهر صمويل (٩٧٦ ـ ١٠١٤م) لكى يعيد تجميع البلغار مرة أخرى وبناء دولته. وبالفعل نجح فى استعادة مناطق على نهر الدانوب وفى مقدونيا وتساليا، وكان لابد من تحرك بازيل الثانى حيث عرف بسفاح البلغار. وفى عام م١٩٨٦ غزا سارديكا من بوابة تراجان ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل واستغل صمويل ذلك لمد حدوده إلى البحر الأسود وإلى البحر الادرياتيكى .

عاد بازيل مرة أخرى لمواجهة خطر البلغار وقرر العمل على القضاء عليهم نهائياً. وغزا بازيل مقدونيا فى عام ٩٩١م. ولكنه انشغل فى السنوات

التالية بحملاته ضد بلاد الشام مما أعطى الفرصة للبلغار لالتقاط أنفاسهم. وعاد بازيل فى عام ١٠٠١م لمهاجمة البلقان حيث دخل ساردِيكا ومقدونيا وعاد الحكم البيزنطى إلى تساليا مرة أخرى .

وفى عام ١٠٠٤م ظهر بازيل فى مقدونيا وتمكن من وضع صمويل بين شقى الرحى وذلك عندما أستولى على سكوبلج وفورنيا. وقرر بازيل بعدها العودة إلى بلاده لالتقاط الأنفاس مؤقتاً. وكانت المعركة الحاسمة بينهما عند ممر كيمبالونجو Kimbalongon (يونيو ١٠١٤) وبلغ عدد الأسرى أربعة عشر ألفاً قام بسمل أعينهم حيث قيد كل مائة ومعهم أسير بعين واحدة يقودهم وعندما رأى القيصر البلغارى هذا المنظر لجنوده سقط مغشياً عليه ثم مات فى ٦ أكتوبر ١٠١٤م .

وبعد اربع سنوات نجح الامبراطور البيزنطى فى القضاء تماماً على الدولة البلغارية وذلك فى عام ١٠١٨م وأطلق عليه لقب سفاح البلغار Bulgaroctonus وعادت شبه جزيرة البلقان تخضع لبيزنطة مرة أخرى. وعلى عكس ما فعله فى ميدان القتال فقد كان بازيل رحيماً بالبلغار وذلك بتخفيض الضريبة من أن تدفع ذهباً يتم دفعها نقداً. كذلك فرض على رئيس الأساقفة البلغارى الخضوع له مباشرة بدلاً من بطريق القسطنطينية. كما قسم الأراضى البلغارية إلى ثيمات ومنها ثيم بلغاريا. واختتم بازيل حملته برحلة إلى اليونان وافتخر بانه نجح فى اعادة الإمبراطورية لدرجة من القوة لم تعرفها منذ عدة قرون .

سياسته تجاه المسلمين :

تغيرت أحوال بلاد الشام عندما تولى باسيل الثانى الحكم. فقد توفى الخليفة الفاطمى المعز لدين الله الفاطمى فى عام ٣٧٥هـ/ ٩٧٦م وخلفه

ابنه العزيز (٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ/ ٩٧٦ ـ ٩٩٦م) والذى ازدهرت أحوال مصر فى عصره، كما عمل على مد نفوذه شمالاً فى بلاد الشام مما كان له أثره على الصدام مع بازيل الثانى. أما الحمدانيون فقد استقرت امارتهم فى عهد سعد الدولة والذى رغب فى عدم دفع الجزية التى فرضت عليه بموجب المعاهدة السابقة. ولذا خرجت جيوش باسيل مرة أخرى إلى بلاد الشام وذلك لفرض هذه الجزية مرة أخرى على الحمدانيين، وكذلك رد الحاميات الفاطمية عن مهاجمة القلاع البيزنطيين. وبعد مصادمات بين الجانبين تم عقد صلح مع العزيز بالله وذلك لكى يتفرغ باسيل فى هذه المرحلة لمواجهة البلغار.

اختلفت الأوضاع فى بلاد الشام فى المرحلة التالية. فقد عمل الفاطميون على نشر مذهبهم الشيعى فى هذه المنطقة، بالاضافة إلى فرض سيطرتهم العسكرية. ووجد الحمدانيون أنفسهم مضطرين للجوء إلى طلب المساعدة من بيزنطة بعد أن حاصر الفاطميون حلب ثلاث مرات. ونظراً لعدم قدرة باسيل على القدوم فقد أرسل إلى حاكم أنطاكية طالباً منه تقديم العون للحمدانيين. وبالفعل حدثت معركة بين الجانبين نتج عنها إلحاق الهزيمة بالبيزنطيين عند نهر العاصى عام ٩٩٤م. اما فيما يتعلق بنشاط الأسطول البيزنطى فقد اصطدم مع الأسطول الفاطمى فى عام ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م حيث انتهى إلى أسر سبعين من رجال البحر البيزنطيين كما نجح الأسطول الفاطمى فى صد السفن البيزنطية التى حاولت مهاجمة الاسكندرية. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تابعتها وعادت السفن الفاطمية فى جمادى الأولى٣٨٤هـ / يونيو ٩٩٤م وهى تحمل مائة أسير بيزنطى وكان لذلك أثره فى مصر حيث أقيمت الاحتفالات لهذا النصر. وسارع

الحمدانيون بطلب النجدة من الامبراطور البيزنطى حيث خوفوه من سقوط حلب وبالتالى أنطاكية وبعدها القسطنطينية. وقرر باسيل الخروج بنفسه إلى بلاد الشام .

وفى عام ٣٨٥هـ/٩٩٥م خرج باسيل على رأس قواته الى شمال الشام وأجبر الفاطميين على سحب قواتهم وسقطت شيزر وحمص فى قبضته. كما توجه الى طرابلس محاولاً الأستيلاء عليها لكنه فشل وعاد إلى أنطاكية ومنها إلى بلاده.واستعد العزيز بالله للخروج للجهاد ولكنه توفى فى عام ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م. وحكم بعده الحاكم بأمر الله الفاطمى (٣٨٦ ـ ٤١١هـ/ ٩٩٦ ـ ١٠٢٠م) والذى اختلفت الآراء حول شخصيته ما بين مؤيد ومعارض لما قام به[١]. وعاد باسيل لمهاجمة بلاد الشام مرة أخرى فى عام ٩٩٩م واستولى على شيزر، ثم أخذ يقوم باعمال التخريب والتدمير فى المناطق التى مر بها حتى وصل إلى طرابلس ولم ينجح فى الاستيلاء عليها ايضا فى هذه المرة. ثم عاد إلى بلاده واستمرت الاشتباكات البحرية ايضا. ففى عام ٣٨٦هـ/٩٩٦ ذكر المقريزى فى اتعاظ الحنفا أن غزاة البحر الفاطميين تمكنوا من أسر ٢٢٠ أسيراً بيزنطيا أحضروهم إلى شوارع القاهرة وطافوا بهم .

كما شاركت سفن من صور وصيدا وطرابلس فى التصدى للأسطول البيزنطى عام ٣٨٧هـ/٩٩٧م. اما فى الحملة التى قادها الامبراطور البيزنطى فى عام ٩٩٩م/ ٣٨٩هـ فلم تنجح سفن الأسطول البيزنطى فى حصارها لطرابلس من جهة البحر مما أدى إلى فشل الحملة كما سبق القول . وبعد ذلك بعامين تم عقد هدنة لمدة عشر سنوات تبدأ فى عام ١٠٠١م.

---

(١) عن مختلف الآراء راجع كتاب د. عبدالمنعم ماجد: الحاكم المفترى عليه .

واستمرت هذه الهدنة حيث لم تحدث صدامات بين الجانبين حتى وفاة باسيل الثانى .

ويلخص ميخائيل السريانى فترة حكم باسيل الثانى بقوله :

« تولى الحكم باسيل وقسطنطين ابنا الملك رومنوس، اللذان تربطهما أواصر المحبة الصادقة. وحيث أن باسيل كان أشد بأساً، ترك أخاه قسطنطين فى العاصمة وخرج لقتال المسلمين، واستمر حكمة لمدة ٥٥ سنة. واشتهر بانتصاراته واخضاعة عدة بلدان، وأمضى حياته فى القتال فى أرمينيا الكبرى والمناطق الغربية»[١] .

وفى ايطاليا البيزنطية نجح بازيل فى احداث تغيير لنظام الحكم فيها وذلك أثناء إنشغال الامبراطورية الرومانية العربية بهجمات العرب عليها وذلك فى أواخر القرن العاشر. غير أن ظهور خطر النورمان والذى يرجع أصلهم إلى البلاد الإسكندناڤية ثم ارتحلوا إلى فرنسا حيث اقاموا بها، وعرفوا طريقهم إلى ايطاليا حيث دخلوا ميدان الصراع الإيطالى واستخدمهم النبلاء المتصارعين. وكان لروحهم العالية ودقة نظامهم أثره فى كسب المعركة لصالح النبيل الذى ينضمون إليه. وأقاموا فى مستنقعات كامبانيا وأخذت رقعة أملاكهم فى الاتساع مع مرور الوقت وكان أول زعيم لهم هو الدوق رانيولف Rainulf .

وهكذا فقد شكل النورمان عنصراً جديداً من عناصر السياسة الإيطالية. وعلى الرغم من أنهم لم يشكلوا خطراً على بيزنطة فى بداية الأمر، لكن ذلك الأمر لم يستمر طويلاً حيث سيحدث الصدام بينهم فيما بعد. وكان الامبراطور بازيل يرغب فى تحقيق النصر فى هذه الجبهة لكن ذلك لم يتحقق عندما توفى فى عام ١٠٢٥ وذلك بعد فترة حافلة ولم يأت بعده حاكم بمثل كفائته ومقدرته

---

(١) ميخائيل السريانى: تاريخ ميخائيل ٠السريانى الكبير بطريرك أنطاكية، جـ٣، ص٩٩

نهاية الأسرة المقدونية
(١٠٢٥ ـ ١٠٥٩م)
قسطنطين الثامن (١٠٢٥ ـ ١٠٢٨)

الأحوال الداخلية :

من الملاحظات الهامة فى التاريخ البيزنطى أنه عقب فترة حكم امبراطور قوى يأتى آخر ضعيف لا يترك أثراً. ولذلك نجد فى أعقاب حكم بازيل الثانى يأتى قسطنطين الثامن والذى حكم لمدة ثلاث سنوات وكان مشاركاً مع أخيه بالأسم فقط منذ عام ٩٧٦م. ولم يكن يهمه إلا الانغماس فى المسرات والملذات وعاش منزوياً احاط به قلة من الخصيان. كذلك مال إلى حضور مآدب الطعام والشراب والاستمتاع بحفلات الموسيقى والمسرح حيث بدد فيها الموارد المالية التى جمعها باسيل الثانى. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أننا نجده يشغل وظائف الدولة بالمستهترين ممن يشاركونه حياة المجون. وكان لذلك أثره على أحوال بيزنطة فى هذه الفترة .

وعلى أثر وفاة قسطنطين الثامن لم يكن لديه أولاد ذكور بل ترك ثلاث بنات. ولم تسمح ظروف الكبرى بتولى الحكم لمرضها، وبالتالى أصبح العرش من حق زوى وثيودورا وقدر لهما أن يلعبا دوراً هاماً فى الفترة التالية.ومن الحالات الفريدة التى تولى فيها الحكم أثنتان فى وقت واحد[١]. وقبل وفاة قسطنطين الثامن حرص على اختيار زوج لابنته ووقع الأختيار على رومانوس (الثالث) وكان من أسرة ارستقراطية وأعتلى العرش فى عام ١٠٢٨م إلى ١٠٣٤م. ومن الناحية العملية لم يكن له صفات الحاكم ولكنه حاول أن يقلد الحكام السابقين له. واشترك مع زوجته فى ادارة

---

(١) ستيفن رانسيمان: الحضارة البيزنطية، ص٧٤ .

الأمبراطورية. وكانت زوى قد وصلت إلى سن الخمسين على الرغم من جمالها الذى أشتهرت به والذى يتضح فى صورة لها رسمت بالفسيفساء فى كنيسة أياصوفيا[1]. ويبدو أن العلاقة لم تكن على ما يرام بين زوى وزوجها والذى لقى حتفه وتشير أصابع الأتهام إليها فى هذه المؤامرة. وبالفعل تزوجت زوى من عشيقها ميخائيل البفلاجونى Paphlagonian حيث اعتلى العرش ١٠٣٤ ـ ١٠٤١م) باسم ميخائيل الرابع .

ولم يكن ميخائيل هذا من أصل ارستقراطى وانما من طبقة فقيرة حتى أن أبن الأثير أدرك ذلك مشيراً أنه ليس من بيت الملك. وكان لأخيه الفضل فيما وصل إليه. فقد كان خصياً ويرغب فى أن ينتزع العرش الامبراطورى والذى كانت تحول القوانين البيزنطية دونه. ولكن ميخائيل الرابع كان مصاباً ايضا بداء الصرع ولذا فقد آل الأمر إلى أخيه حنا لادارة أمور البلاد نيابة عن أخيه. وعلى الرغم من أن زوى لها الفضل فى وصول ميخائيل الرابع للحكم، إلا أنه أهملها وقيدت تحركاتها تحت وصاية حنا الذى تحكم فى الأمور. ووافق ميخائيل وزوى على تبنى ابن اخت ميخائيل حيث آل إليه الحكم باسم ميخائيل الخامس المعروف بالجلفاط ـ وهو الذى يقوم بسد شقوق السفينة .

ولم يحفظ ميخائيل الخامس ما قدمه له خاله فقام بالقبض عليه ،كذلك على زوى الامبراطورة حيث تخوف منها وعمل على ابعادها عن ميدان السياسة بعد توجيه الإتهام لها بمحاولة سم الامبراطور. وبالفعل تم نفيها إلى جزيرة فى بحر مرمرة وذلك فى عام ١٠٤٢م. ولكن لم يهنأ طويلاً بذلك فقد اندلعت ثورة عارمة ضده وتم القبض عليه وسملت

---

(١) سبقت الاشارة إلى مشروع زواج زوى من اوتو الثالث والذى لم يتم لوفاة خطيبها وهو فى سن الشباب

عيناه[1]. وقامت الجماهير باعداة ثيودورا للمطالبة بها امبراطورة بعد أن كانت قد ترهبت. وتم بالفعل مشاركة الأختين فى الحكم ولكن لم تستقم الأمور بينهما ولذا كان لابد من البحث عن رجل لكى يحل هذه المشكلة. ورفضت ثيودورا الزواج، اما زوى فقد قبلت للمرة الثالثة أن تتزوج من قسطنطين التاسع مونومافوس Monomachus وهو أحد اعضاء السناتو البارزين حيث تم تتويجه امبراطوراً ودلك فى يونيو ١٠٤٢م .

وعلى الرغم من أن الآمال تعلقت بالامبراطور الجديد، إلا أنها سرعان ما تهاوت. فقد كان سكيراً محباً للترف ومظاهر الفخامة. وعادت سيطرة النساء على العرش البيزنطى ولكن هذه المرة من جانب المحظيات وعشيقات الامبراطور واللاتى سيطرن على أمور العرش. وتدهورت أمور البلاد فى ظل هذه الأمور السيئة وفشلت بعض الأسر الاقطاعية فى آسيا الصغرى فى انهاء هذا الوضع .

لم يستمر هذا الوضع طويلاً فقد ماتت عشيقة الامبراطور فى عام ١٠٤٤م ثم اتجهت زوى إلى صنع الروائح العطرية بالقصر حتى وفاتها ١٠٥٠م، بينما انزوت ثيودورا وترهبت. إلى أن أصاب المرض قسطنطين التاسع ومات فى عام ١٠٥٥م. وأصبح العرش من حق ثيودورا التى كانت فى السبعين من عمرها.ورفضت الزواج حتى وفاتها فى اغسطس ١٠٥٧م. وبذلك ينتهى البيت المقدونى لكى ينتقل الحكم فى بيزنطة إلى أسرة جديدة. وعلى الرغم من أن حزب البلاط تمكن من أن يحصل منها على الاعتراف بالوصاية لميخائيل ستراثيوتيكوس الذى اعتلى العرش باسم ميخائيل السادس، إلا أن هذه المؤامرة لم تنجح وتم خلعه ودخول اسحق كومنين العاصمة وتأسست أسرة دوكاس .

(١) ذكر ابن العبرى لقبه (قلفاط)وظل خمسة أشهر يعانده حتى قبض عليه وفقئت عيناه كلتاهما. راجع تاريخ الزمان، ٨٤ .

السياسة الدينية :

القطيعة الدينية الكبرى ١٠٥٤ .

تولى كرسى البابوية البابا ليو التاسع والذى قامت سياسته نحو عالمية الكنيسة. وفى القسطنطينية كان كريولاريوس يتولى منصب البطريرك البيزنطى والذى أنتهز هذه الفرصة وأعلن أن البابوية أصبحت أداة فى يد النورمان وأنها كانت تعمل على إزالة النفوذ البيزنطى عن الجنوب الايطالى. ولذا فقد أعلن استقلال الكنيسة البيزنطية وارسل خطابا فى عام ١٠٥٣ أعلن فيه أن تبعية كنيسة روما هو كفر ومخالفة للتعاليم المسيحية .

ورد ليو على هذا مستنداً على ما عرف باسم هبة قسطنطين والتى اعطت له السلطتين الدينيــة والدنيــوية مــعــاً وأرسل ثلاثة مندوبين إلى القسطنطينية لمناقشة هذا الوضع .ووصلوا إلى كنيسة القديسة صوفيا واعلنوا حرمانهم للبطريرك البيزنطى الذى رد على ذلك بعقد مجمع فى عام ١٠٥٤م انهى فيه العلاقة مع روما وهو ما عرف بالقطيعة الدينية الكبرى والذى كان له نتائج بعيدة المدى وتركت أثرها على الحياة السياسية سواء فى بيزنطة أو الغرب الأوروبى .

السياسة الخارجية فى نهاية عصر الأسرة المقدونية :

من أبرز الأحداث الداخلية فى عهد قسطنطين الثامن ما حدث من عقد اتفاق بينه وبين الخليفة الفاطمى الظاهر. حيث وصل رسول من جانب الفاطميين وتم التوصل لاتفاق يتم فيه الدعوة للخليفة الفاطمى من فوق منابر المساجد الموجودة فى بيزنطة وتجديد المسجد الموجود بالعاصمة البيزنطية فى مقابل موافقة الخليفة الفاطمى على أن تقوم بيزنطة باصلاح

كنيسة القيامة التى خربها الحاكم بأمر الله الفاطمى، كما أجاز لمن أجبر فى عهده على الدخول فى الإسلام الارتداد عنه اذا رغب فى ذلك[1] .

اما عن سياسة بيزنطة فى عصر رومانوس الثالث فقد حدث أن جيوش الروم زحفت من انطاكية الى حلب فى عام ١٠٣٠م وتمكن العرب من هزيمتهم وقتل الكثيرين منهم وغنموا اسلحة وخيول عديدة. ووصلت هذه الأخبار إلى الامبراطور البيزنطى فحشد قواته وتوجه إلى أنطاكية وسار منها إلى حلب. وكان قسم من الجيش قد سبق فانهزموا وأخبروا الامبراطور بان قوات كثيفة من المصريين والمعديين قادمة - فتخوف الروم وانهزموا عائدين إلى أنطاكية وتمكنوا من الحصول على غنائم عديدة محملة بالنقود والأقمشة وغيرها. حتى قيل أنه لم يبق مع الامبراطور خيمة أو كأس يشرب بها ماء .

وفى عصر ميخائيل الرابع نجح الروم فى الاستيلاء على الرها وذلك عندما أرسل ابن حطير وهو أمير عربى كان يملك برجاً فى المدينة وباعه برجه واربع قرى بعشرين الف دينار. وقدم الروم وأخذوه وتوجهوا إلى مسجد العرب فخربوه. ورد ناصر الدولة الحمدانى على ذلك وهاجموا الرها وخربوا الكنيسة الكبرى بها رداً على تخريب الروم للمسجد. ثم انسحبوا بعد نزول الثلج. وعندما عاتب ناصر الدولة الامبراطور رد عليه بانه اشتراها من صاحبها. واستخف الروم بالعرب وارسل عشرة آلاف لحراسة الرها وبناء ما تهدم وقاموا بغزو بعض البلدان المحيطة بها حتى اضطر العرب لدفع الجزية .

عاود العرب هجومهم على بعض الأماكن التابعة للروم. فقام ابن وثاب النميرى صاحب حران ومعه جمع غفير من الأكراد والمعديين وتوجه إلى

(١) ذكر ابوالمحاسن أنها هدمت فى عام ٣٩٨هـ. ١٠٠٧ - ١٠٠٨م، بالاضافة إلى كثير من الكنائس فى مصر والشام. ثم عاد وأصلح ذلك. وراجع ايضا ما ذكره ابن العبرى فى تاريخ الزمان، ص ٧٦ - ٧٧ .

بلدة تابعة للروم وقتل فيها اعداد كبيرة. ثم توجه إلى الرها وحاصرها ومنع المؤونة عنها فاستسلمت الرها بعد أن فتك العرب بمائتين وخمسين رجلاً ـ ولكن البرج صمد أمام الحصار فعاد العرب عنها بعد أن انقلبوا راجعين وأخذوا آلاف من الأسرى[1] .

وفى عهد ميخائيل الرابع تم عقد معاهدة مع الخليفة الفاطمى المستنصر بالله وذلك فى عام ١٠٣٧م/ ٤٢٩هـ حيث وافق الخليفة على اتمام اصلاح كنيسة القيامة وإطلاق سراح خمسة آلاف أسير مسلم، كما أخلى الأمبراطور سبيل الأسرى وأرسل المعماريين إلى بيت المقدس وأنفق كثيراً من الأموال فى تجديد هذه الكنيسة. ويذكر ابن العبرى أن الملك وجه رجلاً خبيراً ومعه كمية وافرة من الذهب والفضة فرممها كما كانت من قبل[2].

وتشير المصادر أيضا إلى أن الأمير ابن وثّاب عجز عن مواجهة الروم والأتراك معا. فعقد الصلح مع الروم وتخلى لهم عن الرها فاستعمروها وازدادوا فيها وذلك بعد عام ١٠٣٧م. كذلك تجدد الصدام مرة أخرى عندما زحف الروم إلى الشام فخرج الأمير انوشتكين عند حماة لملاقاتهم وذلك فى عام ١٠٤٠م .

وتذكر المصادر أن اتصالات سلمية كانت تجرى بين البيزنطيين والمسلمين. ومن بينها ما أرسلة قسطنطين التاسع ومعه شريكتيه زوى وثيودورا من هدايا إلى الخليفة الفاطمى وذلك فى عام ٤٣٧هـ عبارة عن ثلاثين قنطاراً من الذهب وخمسين بغلاً عليها مائة صندوق مصفحة بالذهب وفيها آنية الذهب والفضة» . .

(١) ابن العبرى: تاريخ الزمان، ص ٨٤ ـ ٨٥ ـ ٨٦ .
(٢) ذكر ابن العبرى أن عدد الأسرى الذين أطلق سراحهم كان خمسين ألفاً وهو لا شك رقم مبالغ فيه .

كما جرى اتصال بين طغرل بك السلجوقى والإمبراطور قسطنطين التاسع وذلك عندما أرسل إليه أحد البطاركة الروم وكان أسيراً دون أن يطلب مقابلة مال أو تعويض. ورد الامبراطور البيزنطى على ذلك بأن جدد مسجد العرب الكبير فى عاصمته وعلق فيه القناديل وأقام له مصلين عرباً عين لكل منهم معاشاً. ثم أرسل إلى السلطان السلجوقى هدية عبارة عن أقمشة وخمسمائة حصان وحيوانات مختلفة .

واستمرت هذه العلاقات ايضا مع الخليفة العباسى القائم حيث أرسل قسطنطين رسالة اليه كتبت بالرومية وتخللت سطورها ترجمة بالعربية. كما رقمت بحروف ذهبية على قطعة ارجوانية ـ وكانت الرسالة مفتتحة بالآتى :

«قسطنطين الملك المؤمن المعظم القدير بالمسيح الله اغوسطس مونانوس الوحيد فى دولة الروم. إلى الصديق الودود الكريم ابى جعفر إمام المسلمين وأمير المؤمنين) . إلى غير ذلك من عبارات الولاء»(١) .

وفى أثناء تلك الفترة كان على البيزنطيين الأختيار بين تحالفهم مع الفاطميين أو السلاجقة. وكان الخليفة المستنصر قد أرسل يطلب القمح من بيزنطة على أثر المجاعة التى مرت بمصر عام ٤٤٦ هـ/ ١٠٥٤م ولكن ثيودورا وضعت شروطا مقابل ذلك رفضها المستنصر. كما حدثت إشتباكات بين الجانبين فى شمال الشام انتهت بهزيمة الفاطميين وانسحابهم .

اما عن السفارة التى ارسلها الخليفة المستنصر إلى ثيودورا وذلك فى عام ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م فقد فشلت فى التحالف بين الجانبين وذلك لان البيزنطيين فضلوا التحالف مع السلاجقة كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

---

(١) ابن العبرى: تاريخ الزمان، ص ٩٧ ـ ٩٨ . ويذكر أن ثيودورا ارسلت سفيراً إلى بغداد لكى تجدد الصلح ودفعت جزية تطوعت بها .

ولذلك فقد جاء رد الفعل عنيفا من جانب الخليفة المستنصر عندما أخذ نفائس كنيسة القيامة وأخرج بطركها واغلق الكنائس بمصر وزاد الجزية على النصارى مما أدى للتوتر بين الجانبين .

الموضوع الرابع عشر

أسرة دوقاس

(١٠٥٩ـ١٠٨١م)

أباطرة الأسرة
(٨٦٧ ـ ١٠٥٧م)

ـ اسحق كومنين	(١٠٥٧ ـ ١٠٥٩) .
ـ قسطنطين العشار دوقاس	(١٠٥٩ ـ ١٠٦٧) .
ـ ميخائيل السابع	حوالي (١٠٦٠ ـ ١٠٦٧) .
يودكيا وصيته	(١٠٦٧ ـ ١٠٦٨) .
ـ رومانوس الرابع (ديوجنيس)	(١٠٦٨ ـ ١٠٧١) .
ـ ميخائيل السابع	(١٠٧١ ـ ١٠٧٨) .
ـ نيقفور الثالث	(١٠٧٨ ـ ١٠٨١) .

مقدمة :

حكم أربعة من الأباطرة خلال أسرة دوقاس، بالاضافة إلى فترة وصاية تولت خلالها يودكيا لمدة عام. وثمة ملاحظة هامة فى تاريخ هذه الأسرة وهى أن الطبقة النبيلة الاقطاعية ظهرت قوتها وعمل الأباطرة على الوقوف ضدها نظراً لما تركته من أثر على تاريخ بيزنطة. وكذلك فان طبقة رجال الدين البيزنطيين وقفت ضد الأباطرة أثناء فترة الضعف. أما أهم معالم السياسة الخارجية فقد تمثلت فى ظهور خطرين تركا أثراً هاماً على مجريات الأحداث وهما الخطر النورمانى فى صقلية وجنوب ايطاليا وتهديده للعاصمة البيزنطية نفسها، وكذلك الخطر السلجوقى الذى أنزل هزيمة ساحقة بالبيزنطيين فى موقعة مانزكرت .

الأحوال الداخلية :

عانت الدولة البيزنطية فى أواخر الأسرة المقدونية من متاعب عديدة تمثلت فى أن السلطة الامبراطورية كانت بيد مجموعة من المغامرين وعشيقات الإمبراطور مما أدى إلى ابعاد البيوت الكبرى عن السلطة. كما أن الجيش أصابه الضعف والاضمحلال ولم يحقق انتصارات واضحة كما كانت فى العصر الذهبى للامبراطورية البيزنطية. وبموت الامبراطورة ثيودورا قد خلفها على العرش ميخائيل السادس وكان يمثل زعامة البلاط الامبراطورى،بينما كان اسحاق كومنين زعيماً للبيوت الإقطاعية وقواد الجيش. واستطاع اسحاق الوصول إلى العرش وذلك فى عام ١٠٥٧م .

عمل الامبراطور الجديد على تطبيق ما تعلمه فى معسكرات الجيش وهو النظام الذى يتسم بالدقة وخاصة فى النواحى المالية. وأدى ذلك إلى

غضب الكثير من الفئات التى صودرت أموالها وخاصة فى البيوتات الإقطاعية. ومن هنا كان بداية الخلاف بين الجانبين .

تزعم حركة المعارضة البطريرك البيزنطى كليولاريوس ومن خلفه طبقة رجال الدين. فقد تمتع الرهبان بامتيازات ضخمة نتيجة حصولهم على امتيازات كبيرة من الأراضى الممنوحة لهم مما أدى إلى أن يصبحوا مركز قوة يحسب لها ألف حساب. ووقفوا إلى جانب البطريرك وساعدوه. بالاضافة إلى معارضة البابا ليو التاسع لسياسة الفصل بين الكنيستين وكان البطريرك قد ساهم فى وصول الامبراطور إلى العرش البيزنطى ورد له الامبراطور الجميل بان تنازل له عن حق تعيين رجال الدين فى كنيسة أياصوفيا. وفى هذا تنازل من جانب الإمبراطور عن ركن أساسى فى السياسة البيزنطية منذ تأسيس القسطنطينية. كذلك حصل البطريرك على منحة جديدة تمثلت فى تنازل الامبراطور له عن الأملاك والعقارات الموقوفة على كنيسة أيا صوفيا مما أدى إلى إستقلال البطريرك بالشئون الدينية عن الأمبراطور .

لم تقف أطماع البطريرك البيزنطى عند هذا الحد بل بدأ يطمع فى النفوذ السياسى سواء سراً أو علناً. ومن هنا أصطدم مع الامبراطور على الرغم مما قدمه له من قبل. وطلب الإمبراطور منه التنازل عن منصبه ولكنه رفض فوجه له اتهاماً بارتكاب بعض المعاصى أثناء اعتكافه. ولكنه مات قبل المحاكمة. ولكى يحصل الإمبراطور على اتقاء الغضب الشعبى ذهب امام قبر البطريرك طالبا منه العفو على ما اقترفه فى حقه

حدث الصدام بين الإمبراطور وكبار العسكريين خاصة بعد سياسة التقشف التى لجأ اليها الامبراطور. كما ألغى منحاً سابقة وصادر ممتلكات الأديرة مما أدى الى اصطدامه مع هذه الفئات. وأصاب أسحق المرض فى عام

١٠٥٩م وقرر التنحى عن العرش ولم يوصى به لاخيه حتى يجنبه هذه المتاعب، بل أوصى به لأحد اصدقائه وهو قسطنطين دوقاس وهو أحد أفراد الأرستقراطية المدنية بالعاصمة بخلاف سيطرة العسكريين السابقة. ويظهر دور أحد المؤرخين المشهورين فى هذه الفترة وهو المؤرخ بسيللوس الذى تولى تأديب أبنه واسداء النصح له[١] .

وكان انتماء الامبراطور قسطنطين العاشر دوقاس إلى الحزب المدنى أثره على الجوانب العسكرية. فلم يهتم بالجيش مما أدى إلى ضعف الامبراطورية وأقتنع بشراء السلم بدلاً من الحرب. كذلك كان لازدياد النفقات فى الامبراطورية أثره عليها، كما هددتها الأخطار من جميع الجوانب، ثم آلت البلاد إلى يودكيا لكى تتولى الوصاية فترة من الوقت عانت فيها الامبراطورية معاناة شديدة. وكان لابد من الاستعانة بحكومة عسكرية تعيد للبلاد هيبتها وهذا ما جعل الامبراطورة تقدم على الزواج من رومانوس الرابع ديوجنيس. وواجه فى بداية حكمه مؤامرات داخلية ومتاعب خارجية ووقع فى النهاية فى أسر السلاجقة ووقع صلحاً مهيناً وذلك فى موقعة ملاذكرد أو منزكرت. وآل الحكم إلى ميخائيل السابع وكان تلميذاً للمؤرخ بسيللوس والذى ظهرت بصماته واضحة فى هذه الفترة. وتولى السلطة بعد ذلك عدد من الأباطرة الضعاف مما أدى فى النهاية إلى ضرورة ظهور شخصية قوية تتولى دفة الحكم وهو الكسيوس كومنين فى عام ١٠٨١ لكى يؤسس أسرة جديدة هى الأسرة الكومنينية والتى ستلعب دوراً هاماً فى المرحلة التالية من تاريخ بيزنطة .

---

(١) ترك بسيللوس تسجيلاً لهذه الأحداث فى حوليته فى الفترة من عام ٩٧٦ إلى ١٠٧٧م. وأشاد به كل من استروجورسكى وفازيليف ـ وظهرت له ترجمة انجليزية فى عام ١٩٥٣ انظر:
Psellus, m., Chronographie, Paris 1928 .
وكذلك: اسمت غنيم: معركة منزيكرت فى ضوء وثائق بسيللوس، مجلة كلية الآداب الاسكندرية ١٩٨١ .

السياسة الخارجية :

هدد النورمان منطقة الجنوب الإيطالى وذلك بعد أن تمكنوا من احتلال جزيرة صقلية وغزوا ابوليا وتضاعفت اعدادهم حتى بلغت ستين الفا وبدأوا الصدام مع الامبراطورية البيزنطية. وعرف النورمان بالخداع والانتقام والجشع والانتقام وكانوا متعطشين للثروة والسلطان. تمتعوا بالعديد من المتع من صيد وقنص وثياب مترفة وفى الشدائد تحملوا قسوة المناخ ومشاق الحياة العسكرية ـ وكان ذلك من خلال وصف مؤرخ معاصر .

وبرز دور روبرت جويسكارد الذى اختلفت آراء المؤرخين حول أصله اذا كان من الفلاحين أو الطبقة الوسطى من النبلاء المحليين. وكان أبوه تانكرد من الشخصيات البارزة وصار له من الابناء اثنى عشر ولداً. وبرز منهم روبرت بصفة خاصة حيث أتصف بصفات الجندى ورجل الدولة والشخصية التى تركت أثرها حتى أن ظهوره كان يفزع أعدائه. ولم يقف طموحه عند حد معين. واستطاع أن يلقب نفسه بلقب «دوق ابوليا وكالابريا وصقلية». واستطاع روبرت أن يجمع النورمان تحت قيادته ويتغلب على كافة المؤامرات التى واجهته. كما ساعدته الظروف فى تلك الفترة بسبب تراجع قوة البيزنطيين واللومبارديين والعرب. وكان فتح صقلية من ابرز انجازات روبرت والتى ظلت فترة طويلة تحت السيادة الاسلامية. ولم تقف طموحاته عند هذا الحد عندما قرر مهاجمة الامبراطورية البيزنطية وذلك بعد أن لحق العار بابنته التى طردت من بيزنطة ولجأ أحد الشخصيات الى النورمان لاعادته إلى العرش البيزنطى.وكانت حركة سياسية بارعة من روبرت جيسكارد لاضفاء طابع شرعى على تدخله فى بيزنطة. وبالفعل نجح النورمان فى الأستيلاء على بارى عام ١٠٧١ . بعد حصارها لمدة ثلاث سنوات وتم طرد البيزنطيين

نهائيا من ايطاليا. ولكنه لم يتمكن روبرت من تحقيق آماله الواسعة حيث مات فى عام ١٠٨٥م(١) .

العلاقة مع الأتراك السلاجقة وموقعة مانزكورت ١٠٧١م :

يذكر ابن العبرى أنه فى عام ١٠٣٦م برز قوم من الهونيين أو الغز ومعهم أفراد سلجوقيون من هرقانة بارض الخزر شمالاً. ويعتمد على مار ميخائيل المعروف بميخائيل السريانى فى معرفة أصلهم. كذلك أطلع ابن العبرى على كتاب فارس عنوانه «ملك نامه» حيث تحدث عن والد سلجوق ويعرف تمور ياليغ أى صاحب القوس الحديدية ـــ وبعد وفاته ظهر سلجوق والذى تربى فى بلاط خان الخزر ثم ارتحل مع ابناء قبيلته إلى ايران. وتوجه إلى صاحب مدينة زندة بخوارزم وكان مسلماً يسألة أن يرسل إليه من يعلمهم الإسلام ودخلوا فى الدين الجديد ـ وأصبح له أربعة من الأبناء الذكور من بينهم ميخائيل الذى رزق بطغرل بك وجغرى بك. وبدأ زحفهم على بعض بلاد أرمينية وخراسان واستطاعوا فتح العديد من هذه المدن. وأخذوا فى الإتصال بخليفة بغداد وجرت بينهم مراسلات كثيرة وكان لها تأثير كبير عليهم حيث تباهوا بها .

أما عن علاقتهم ببيزنطة فقد بدأت عندما عمل السلاجقة على ضم الممتلكات البيزنطية فى أرمينية وذلك لاعلاء كلمة التوحيد واظهار مكانتهم فى العالم الإسلامى لوقف الخطر البيزنطى فى الوقت الذى كانت فيه الخلافتين العباسية والفاطمية عاجزة عن ذلك. ويذكر ابن العبرى أنه فى عام ١٠٥٤م اصبحت بلاد فارس جميعها خاضعة للسلاجقة فى عهد

---

(١) للمزيد عن نشأة النورمان راجع: جيبون: اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها، جـ٣، ص٩٨ وما بعدها. وكذلك: سعيد عاشور: اوروبا العصور الوسطى، ص ٣٢٦ ـ ٣٣٢ .

طغرل بك، ثم بدأ فى الزحف إلى منازكرد (ملاذكرد) وضيق عليها زمنا طويلاً ولم يتمكن منها فغزا البلد وسار إلى ارضروم وهى للروم وغزاها»[1].

معركة مانزكرد ١٠٧١م :

تولى رومانوس الرابع ديوجنيس حكم بيزنطة فى ١٠٦٨ وعمل على وقف خطر السلاجقة فزحف فى العام التالى ضد بعض المناطق مثل منبج والتى تعرضت للتخريب. كما رد غارة للسلاجقة على ملطية فى عام ١٠٦٩م. ولكن رومانس لم يستطع الصمود أمام ازدياد خطر السلاجقة الذين وصلوا إلى قونين وخوناى. أما فى أرمينية فقد وصل السلاجقة الذين كانوا بقيادة ألب ارسلان إلى خلاط ومنزكريت (مانزكرد) .

وفى عام ١٠٧١ خرج رومانوس بقواته لمهاجمة السلاجقة وذلك على رأس جيش ضخم بالغت المصادر العربية فى ذكر عدده ما بين مائة الف وثلثمائة ألف. وبلغ من وثوقه بنفسه أنه وزع الأملاك التى سيفتحها قبل خروجه على أتباعه عدا بغداد. وضمت القوات البيزنطية العديد من الفرق بالإضافة إلى المرتزقة. وعلم السلطان السلجوقى ألب أرسلان بخروج هذه القوات وكان قد نجح فى ضم حلب وقرر الخروج لمواجهة الامبراطور البيزنطى بعد أن أوصى بالملك لابنه ملكشاه. وحدث اللقاء بينهما عند مانزكرد وذلك فى ٥ ذى القعدة ٤٦٣م/ ١٧ أغسطس ١٠٧١م. وكان السلطان قد طلب عقد هدنه قبل اللقاء بيوم واحد وذلك ادراكاً منه لضخامة حجم القوات البيزنطية المشتركة فى المعركة. ورفض الامبراطور هذا الطلب معتمداً على قوته وأرسل رده فى رسالة أوردتها المصادر العربية مثل ابن الجوزى فى المنتظم وابن العديم فى زبدة الحلب وغيرهما .

(١) ابن العبرى: تاريخ الزمان، ص ٨٦، ٩٨ .

وأختار السلطان السلجوقى ساعة من الساعات التى يستجاب فيها الدعاء وهى بعد صلاة الجمعة. وبدأت بالفعل الأمور تسير فى صالح السلاجقة. فقد انسحب الغز وهم من عناصر المرتزقة التى كانت مشتركة مع الامبراطور البيزنطى مما جعله يشكك فى باقى عناصر المرتزقة. وبالفعل استغل السلاجقة هذا الاضطراب فى صفوف البيزنطيين وقرروا الهجوم فى موعده. وأشاع قائد الفرق البيزنطية اندرونيكوس دوقاس هزيمة الجيش البيزنطى مما أشاع الفوضى وأخذ الجند يحاولون الفرار من ميدان القتال. حتى سقط الإمبراطور نفسه أسيراً فى أيدى السلاجقة. وغنم المسلمون غنائم لا حصر لها سواء من آلات القتال أو الأموال. كما تم عقد اتفاقية كان على الامبراطور أن يدفع فداءً ضخماً من المال عن نفسه، بخلاف الجزية التى يجب عليهم دفعها سنوياً، وإطلاق سراح الأسرى المسلمين وغيرها من الشروط حيث بلغت مودتها خمسين عاماً .

وترتب على هذه المعركة العديد من النتائج من بينها :

أولاً: نشوب حرب أهلية بين مؤيدى رومانوس الرابع والذى أُعلن عن وفاته قبل وصوله إلى القسطنطينية، وانتقال الحكم إلى ميخائيل السابع. كما أنقسم الجيش البيزنطى على نفسه وبدأت حرب أهلية انتهت بوفاة رومانوس الرابع فى عام ١٠٧٢م(١) .

ثانياً: ترتب على عزل رومانوس أن السلاجقة أعتبروا الأتفاقية السابقة لاغية وعملوا على مهاجمة الأملاك البيزنطية حتى عام ١٠٨١ عندما أعتلى عرش بيزنطة الامبراطور الكسيوس كومنين. ووصل السلاجقة إلى العديد من الأماكن فى آسيا الصغرى ولم يكن سوى مضيق البسفور

(١) عن تفاصيل ذلك راجع: فايز نجيب إسكندر: موقعة ملاذكرد وصداها فى القسطنطينية، الاسكندرية ـ ١٩٨٨ .

الذى يمنعهم من القسطنطينية. وبذلك نجح الروم فى تأسيس سلطنة لهم متخذين من قونية عاصمة لهم .

ثالثاً: أجمع المؤرخون الحديثون على ما تركته هذه المعركة من اثار على بيزنطة فهى بمثابة «الموت العاصف» كما يقول فازيليف. أما المؤرخ الألمانى جلزر Gelzer فلم يكن منصفاً عندما أتهم الأتراك بانهم نصبوا خيامهم البدوية على حطام مجد الامبراطورية القديم، وسجدت مهد الحضارة للبرابرة المسلمين، واكتملت البربرية». وتناسى هذا المؤرخ ما أظهره السلطان السلجوقى ألب ارسلان وهو يودع الامبراطور البيزنطى الأسير حيث عامله بكل الأحترام .

رابعاً: لجوء الامبراطور ميخائيل السابع طالبا المساعدة من البابوية والتى كان على رأسها آنذاك البابا جريجورى السابع. ووعد بأنه سوف يعمل على اعادة توحيد الكنيستين واللتان انفصلتا منذ القطيعة الدينية الكبرى عام ١٠٥٤م[١] .

---

(١) للمزيد عن هذه المعركة راجع: أسمت غنيم: معركة منزيكرت فى ضوء وثائق بسيللوس. مجلة كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية ١٩٨١ .

الموضوع الخامس عشر
الأسرة الكومنينية
(١٠٨١ـ١١٨٥م)

أباطرة الأسرة الكومنينية

- الكسيوس الأول (١٠٨١ـ١١١٨)

٢ـ حنا الثاني (١١١٨ـ١١٤٣)

٣ـ مانويل كومنين (١١٤٣ـ١١٨٠)

٤ـ الكسيوس الثاني (١١٨٠ـ١١٨٣)

فترة وصاية ماريا الأنطاكية

٥ـ اندرونيق الأول (١١٨٣ـ١١٨٥)

الأسرة الكومنينية

مقدمة :

حكم فى عصر هذه الأسرة التى أمتدت اكثر من مائة عام خمسة من الأباطرة. واتسمت هذه الفترة بتغلب السياسة الخارجية حيث واجهت بيزنطة خطر النورمان فى الجبهة الغربية وخطر السلاجقة من جهة آسيا الصغرى. وعبثاً حاول الأباطرة وقف هذين الخطرين لكنهم لم ينجحوا فى ذلك وتعرضت بيزنطة لهزيمة أخرى تماثل هزيمة منزكريت أو ملاذكرد وذلك فى ميروكيفالون. غير أن عنصراً جديداً بدأ يلعب دوراً فى أحداث هذا العصر ونقصد به تقدم اللاتين الغربيين أو الصليبيين لنجدة بيزنطة لوقف الخطر السلجوقى. ولكن بدأت تظهر مشكلة بينهما عرفت بمشكلة أنطاكية والتى أخذت تزداد حتى أنتهت باستيلاء اللاتين على القسطنطينية فى عام ١٢٠٤م .

السياسة الداخلية فى عصر الأسرة الكومنينية :

استمر الصراع بين السلطتين المدنية والعسكرية الإقطاعية وكادت الدولة أن تنهار. وبعد سلسلة من الفتن والمؤامرات الداخلية تمكن الكسيوس من الوصول إلى العرش بعد أن أدى خدمات جليلة للدولة أثناء أزماتها العديدة. وكان الكسيوس على دراية تامة بكل هذه الجوانب داخليا وخارجياً. ولذلك بدأ سلسلة من الاصلاحات سواء فى الجهاز الكنسى أو العسكرى .

وفى عهد يوحنا الثانى (١١١٨ ـ ١١٤٣) جنى ثمار ما وضعه الكسيوس قبله من أساس قوى. ومن الناحية الشخصية فانه يعتبر من أفضل الشخصيات التى تولت المنصب الامبراطورى خلال تاريخ بيزنطة الطويل

وعرف عنه سمو أخلاقه واعترف به الجميع سواء الأصداقاء أو الأعداء على حد سواء حتى عُرف بأنه يوحنا الطيب. وتمكن من التغلب على المؤامرات التى واجهته خاصة من جانب أخته آنا كومنينا وزوجها. ولم يشتد فى معاملتهم معاملة سيئة عندما اكتشف تلك المؤامرة.كما اهتم يوحنا اهتماما خاصاً بالجيش وتدريبه وتزويده بالسلاح .

وولى مانويل كومنين العرش (١١٤٣ ـ ١١٨٠م) وكان أصغر أبناء يوحنا. وفى عصره ظهر بصورة واضحة تغلغل اللاتين فى بيزنطة بعد أن قدمت اجناس عديدة سواء من الأنجليز أو النورمان أو الايطاليين وأسند إليهم العديد من الوظائف الهامة فى الدولة. وسمح لهم اقامة فنادق خاصة بهم. ولذا فقد بدأت تظهر مشكلة خطيرة كادت أن تكون كارثة على بيزنطة نفسها. كما بدأت تظهر الكراهية بين اللاتين والبيزنطيين والتى أدت فى النهاية لتحويل الحملة الصليبية الرابعة ومهاجمة القسطنطينة والإستيلاء عليها .

وشهد عصر الكسيوس الثانى كومنين (١١٨٠ – ١١٨٣) فترة وصاية من جانب ماريا الأنطاكية. وأصبحت هى صاحبة النفوذ الفعلى فى البلاد. وكانت سليلة ذلك البيت النورمانى الذى أسس أمارة أنطاكية فى بلاد الشام واقترن بها مانويل لحل هذه المشكلة التى نشبت حول تلك المدينة منذ سقوطها فى عام ١٠٩٨م. وعاشت ماريا حياة الترف وحولت البلاط إلى معرض للأزياء وانصرف رجال البلاط عن شئون الدولة ومحاولة إرضاء الإمبراطورة. وأخذت ماريا تسئ إلى نفسها بسلوكياتها، كما نظر إليها معاصريها أنها أجنبية فى الوقت الذى كانت فيه البلاد بحاجة ماسة إلى من يدير شئونها ويعالج هذا الفساد. واندلعت المؤامرات فى البلاط بين حزب

الامبراطورة والمناوئين لها مما هيأ الجو لظهور اندرونيق الأول كومنين (١١٧٣ _ ١١٨٥م) . وكان قد بذل محاولة سابقة للوصول إلى العرش زمن مانويل ولكن تم القبض عليه ونفيه إلى أحد الثغور على البحر الأسود. ومع حركة التمرد ضد الامبراطورة ماريا التف حول اندرونيق المعارضون ونجح فى الوصول إلى العرش وكذلك أعلن نفسه شريكا للامبراطور الصغير الكسيوس الثانى وقام بذبح العناصر الأجنبية اللاتينية والتخلص من الامبراطورة بالقتل، كما تخلص من الامبراطور الصغير.ونسى اندرونيق أن البيوت الاقطاعية هى التى أوصلته إلى الحكم وأصدر مجموعة من القوانين لتثبيت نفسه فى المنصب الامبراطورى فتحولت عنه وساد التذمر مما أدى فى النهاية إلى ذهابه ضحية لثورة أودت بحياته والبيت الكومنينى واعتلاء أسرة جديدة للعرش البيزنطى .

السياسة الخارجية فى عصر الأسرة الكومنينية :

واجه الأباطرة البيزنطيون العديد من المشاكل الخارجية خلال عصر هذه الأسرة. فقد كان عليهم مواجهة الخطر النورمانى والوقوف أمام أطماع روبرت جويسكارد. كما أن خطر السلاجقة استمر وحاول البيزنطيون إتباع سياسة التفرقة بين الأمراء السلجوقيين ولكنهم لم ينجحوا. ثم حدثت معركة حاسمة أخرى بينهما أنتهت لصالح السلاجقة. ومن ناحية أخرى كان لموقعة ملاذكرد أثرها على محاولة إعادة التعاون بين بيزنطة والبابوية فى عهد جريجورى السابع. لكن هذا المشروع لم يتم وتجدد مرة أخرى فى عهد أربان الثانى والذى تولى الدعوة للحروب الصليبية. وبالتالى فقد دخلت بيزنطة فى علاقات مع اللاتين أو الصليبيين والتى أنتهت باستيلاء اللاتين على القسطنطينية فى عام ١٢٠٤م . أما عن العلاقة بين بيزنطة والمسلمين سواء

الدولة الفاطمية أو الأيوبية من بعدها فقد تراوحت ما بين العداء والسلم وهو ما سوف نشير إليه ضمن العلاقة بين بيزنطة والصليبيين .

العلاقة مع النورمان :

عمل الكسيوس على مواجهة المشاكل التى تعانى منها البلاد خاصة بعد فترة الضعف التى وصل اليها الجيش نتيجة للمؤامرات والصراعات السابقة فى عهد أسرة دوقاس. ولذلك فقد طمع روبرت فى القسطنطينية نفسها بسبب هذه الظروف من ناحية، وبسبب شخصيتة الطموحة من ناحية أخرى. ولذا فقد أعد اسطولاً توجه به إلى ديراكيوم على ساحل دلماشيا ثم التوجه إلى سالونيك ومنها إلى القسطنطينية. وأدرك الكسيوس عدم استطاعته الخوض فى صدام مباشر ضد روبرت فلجأ إلى البنادقة والذين كانت لهم أطماع تجارية فى بيزنطة وعرض عليهم امتيازات تجارية فى بيزنطة فوافق البنادقة على الصدام مع النورمان والذين كان البنادقة أيضا يخشون من منافستهم فى هذه المنطقة التجارية الهامة. غير أن القوات البرية النورمانية نجحت فى حصار ديراكيوم والاستيلاء عليها. وكان من الممكن أن يواصل روبرت انتصاراته غير أن مشاكل داخلية عانت منها ايطاليا أجبرته على العودة لإنقاذ ابنه بوهمند من الهزيمة وذلك لصغر سنة آنذاك(١) .

وبعد ذلك عاود روبرت المحاولة مرة ثانية ولكن الظروف فى هذه المرة لم تكن كسابقتها. فقد استعد الكسيوس واعاد تنظيم قواته، كما أن المرض انتشر بين النورمان ومات روبرت عام ١٠٨٥ ، لكى يترك لورثته من بعده مملكة قامت فى صقلية بصفة خاصة وأسهم بدور رئيسى فى أحداث الصراع الصليبى خلال الفترة التالية .

(١) تولى بوهمند قيادة جيش النورمان فى الحملة الصليبية الأولى، ونجح فى تأسيس أمارة أنطاكية فى عام ١٠٩٨م وكانت سبباً فى النزاع بين بيزنطة والصليبيين أستمر فترة طويلة

بيزنطة والصليبيون :

العلاقة بين اللاتين والبيزنطيين قبيل قيام الحملة الصليبية الأولى :

واجهت المسيحية صعوبات جمة فى بداية ظهورها من جانب الرومان الذين أذاقوا المسيحيين أشد أنواع العذاب. وظل الأمر على هذا النحو حتى تم الاعتراف بالمسيحية كاحدى الديانات الرسمية وذلك بموجب مرسوم ميلان عام ٣١٣م. وظهرت كنيسة روما لكى تسهم بدور رئيسى فى تاريخ الغرب الأوروبى وعمل الباباوات على أن يكون لهم السيطرة والانفصال عن الكنيسة الشرقية مما أدى إلى الصراع بينهما وبداية الخلاف المذهبى بين الكنيستين الشرقية والغربية .

وعمل البابوات على اتباع سياسة متشددة تجاه الكنيسة الشرقية وعلى سبيل المثال عمل البابا مارتين الأول (٦٤٩ ـ ٦٥٥م) على الوقوف ضد الكنيسة الشرقية واتجاهاتها السياسية والمذهبية. اما فى عام ٦٨٠ فقد احرزت بابوية روما انتصاراً باهراً على القسطنطينية ضد أباطرة أسرة هرقل. كما أن البابا جويجورى الثانى (٧١٥ ـ ٧٣١م) قام بحملته على الأيقونات وذلك فى عهد الامبراطور ليو الثالث الأيسورى سنة ٧٢٥م. وأدى الصراع حول الأيقونات إلى انقسام صريح بين روما وبيزنطة مما أدى إلى ضعف سلطة بيزنطة فى الغرب بعامة وايطاليا بخاصة حيث أصبح ممثل الامبراطور فى روما ظل لا حول له ولا قوة .

وفى عام ٨٠٠م تم اعادة تتويج شرلمان امبراطوراً على الغرب الأوروبى وذلك بمساعدة البابا ليو الثالث وكان ذلك ايذاناً بانقطاع ما تبقى من علاقة بين روما والقسطنطينية. وهكذا فقد وجد اثنان من الأباطرة احداهما فى القسطنطينية والثانى فى روما مما أدى إلى وجود امبراطورتين اتخذت كل

منهما اتجاها مغايراً عن الأخرى .

ومع مرور الوقت اخذت ابعاد الانفصال تزداد للعديد من العوامل ومن بينها ظهور حركة الأصلاح الكلونى فى الغرب فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلادى، ثم حدثت القطيعة الدينية الكبرى فى عام ١٠٥٤م وذلك فى عهد البابا ليو التاسع. وعلى الرغم من المحاولات المستمرة فى القرون التالية لايجاد صلة بين الكنيستين الشرقية والغربية فانها لم تحرز نجاحاً، وأصرت كل منهما على أن تكون لها الأسبقية على الأخرى، وبالإضافة إلى الخلافات المذهبية، فإن هناك عوامل أخرى ساعدت على استمرار التحاسد والتباغض بين الجانبين ومن بينهما الصراع صدارة عاصمة العالم المسيحى أو ما بين روما والقسطنطينية. وبتأسيس القسطنطينية واهتمام الأباطرة بالإقامة بها وتحصينها وجعلها عاصمة عالمية كان له أثره على روما العاصمة القديمة للامبراطورية الرومانية والتى ظلت تفاخر بان تأسيسها يعود إلى اعتبارات دينية، مما أدى إلى أن ينظر الرومان بعين الحسد والغيرة إلى القسطنطينية. وانعكست تلك النظرة عندما وصلت اليها جموع الصليبيين فى الحملة الصليبية الأولى كما سنرى فيما بعد .

وإلى جانب ما سبق كان لاختلاف اللغة بين شقى العالم الرومانى أثره. فقد اتجهت الدولة البيزنطية طريقاً شرقياً أصبحت فيه اللغة اليونانية هى اللغة السائدة فى القسطنطينية. وتضاءل استخدام اللغة اللاتينية فى هذا القسم، بالاضافة الى سرعة زوال العنصر الرومانى فى القسم الشرقى. أما فى الجزء الغربى فقد ظلت اللاتينية هى اللغة الأساسية بينما قلت اعداد المتحدثين باللغة اليونانية. وعبرت المؤرخة آنا كومنينا عن ذلك عندما أشارت إلى أن اسماء اولئك الصليبين كانت غريبة على أسماعهم ولم يكن من السهل

النطق بها. بل أن الامبراطور كان يعتمد على المترجمين بينه وبين القادة الصليبيين مما يدل على عدم معرفته باللغة اللاتينية .

وازداد شك بيزنطة تجاه اولئك اللاتين لسابق معرفتها بهم. فقد كانوا يعملون كجند مرتزقة وهى تعلم جيداً مدى جشعهم وأطماعهم وأن الداقع الرئيسى الذى يحركهم هو حبهم للمال، بالإضافة إلى المامهم بمواطن القوة والضعف فى بيزنطة .

وتعبر آنا كومنينا عن شعور البيزنطيين تجاه اللاتين الذين وصلوا إلى بيزنطة أن والدها قد تملكه الرعب عند قدومهم وذلك لتقلبهم وخصالهم الغريبةة وحبهم الدائم للمال، بالاضافة إلى نكثهم بالعهود(١) . ولذا فقد استعد لمواجهة كافة الاحتمالات حتى اذا اضطره الأمر للدخول فى مواجهة معهم .

وتوجه المؤرخة البيزنطية اصابع الأتهام نحو دوافع اللاتين فى الاستيلاء على العاصمة،وتوجه ذلك إلى بوهمند ومن على شاكلته وذلك بأن يستغلوا توجههم نحو الأراضى المقدسة. وبعد عبور الحملة الشعبية إلى آسيا الصغرى تؤكدآنا كومنينا على مدى حب هؤلاء القوم إلى المال والذى كان له رنين غريب فى آذانهم. فهم قوم محبون للمال. ثم تعاود اتهامها لبوهمند النورمانى بانه كان يطمع فى الامبراطورية الرومانية ويريد الاستيلاء عليها . وذلك بسبب النصر السابق الذى أحرزه عليه الامبراطور عند لاريسا. وكانت الآمال تداعبهم فى الاستيلاء على القسطنطينية وأستقر رأيه على أن هدف رحلته هو بيت المقدس بينما كان يسعى هو ومجموعة القادة الذين معه الى

(1) Anna Comnena, The Alexiad, trans. by. Sewter, Penguin Boods, London 1979 .

خلع الامبراطور والاستيلاء على العاصمة (القسطنطينية).

نخلص مما سبق إلى أن العلاقة بين اللاتين والبيزنطيين قبيل قيام الحملة الصليبية الأولى قد ساءت كثيراً للعوامل والأسباب السابقة. ولكن المصلحة التي جمعت بينهما أدت مؤقتا إلى تناسى هذا العداء في سبيل تحقيق مصلحتهما المشتركة. غير أن ظهور ما عرف بمشكلة أنطاكية أدى إلى عودة العداء وظهوره مرة أخرى كما سنتابع على مدى الصفحات التالية.

اختلفت آراء المؤرخين الحديثين حول الدافع والمسئول عن قيام هذه الحروب الصليبية في أواخر القرن الحادي عشر الميلادى. ويرى هاجنمير Hagenmeyer وروهرشت Rohricht أن الامبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين هو المسئول الأول عن قيامها. فقد نُسب إليه خطاب وجهه إلى روبرت أمير الأراضي الواطئة وذلك في عام ١٠٨٨م يطلب فيه ايفاد النجدات إليه لدفع خطر الأتراك السلاجقة.غير أن شالندون Chalandon وشارل ديل Charl Diehl ينفيان صحة هذا الخطاب وذلك استناداً على الحقائق التالية:

١ــ عدم وجود الأصل اليوناني للخطاب .

٢ــ عدم اتفاق أسلوبه مع عادات وتقاليد الخطابات اليونانية .

٣ــ اعتادت بيزنطة طلب النجدة من الغرب الأوروبي، كما أن عدداً لا يستهان به من الغربيين كان يعمل جنداً مرتزقة لدى البيزنطيين .

٤ــ عدم معرفة الامبراطور الكسيوس بوصول هذه القوات، وكما تقول ابنته المؤرخة آنا كومنينا أنه فوجئ بوصولها .

٥ـ عدم ذكر المصادر المعاصرة لهذا الخطاب، وانما ورد ذكره فى المصادر المتأخرة زمنيا .

ويرى المؤرخ شارل ديل أن تاريخ هذا الخطاب يرجع إلى عام ١٠٩٨-١٠٩٩م أى بعد قيام الحملة الصليبية الأولى بنحو عامين وذلك بهدف إثارة حماس الغرب الأوروبى لنجدة الصليبيين أثناء حصار كربوغا لأنطاكية .

على أى حال فقد أستهل الكسيوس خطابه بتوجيه التحية إلى روبرت أمير الأراضى الواطئة ورجاله من العلمانيين والدينيين. ثم وضح خطر البجناكية والأتراك وما قاموا به من مذابح ضد البيزنطيين وانهم استولوا على الأراضى المقدسة بين القدس وبيزنطة،وكثير من الجزر حتى أنه لم يعد سوى الاستيلاء على القسطنطينية نفسها .

ويطالبه بأن يمد يد العون والمساعدة له، وأن يقوم بالقتال دفاعاً عن القسطنطنية قبل سقوطها فى يد الأتراك، لأنه يفضل أن تكون فى أيدى الغرب، وذلك لأن بها أعظم آثار المسيحية الصليب والسوط والرداء وتاج الشوك وملابس المسيح (عليه السلام) وقطعة من الصليب ورأس يوحنا المعمدان فضلاً عن بقايا أجساد كثير من القديسين ..). اما اذا كان الدافع مادياً فان المدينة مملؤة بالذهب والفضة والملابس الحريرية ـ داعياً الغربيين إلى هذه الغنائم بدلاً من أن تقع فى قبضة البنجاكية والأتراك. ويختتم الخطاب بدعوتهم للقدوم للحصول على ما هو أعظم من مملكته، وهو ما يسمى بقبر المسيح، وبالتالى الحصول على الثواب والأجر عند الرب(١) .

---

(١) عن ترجمة لهذا الخطاب انظر: جوزيف نسيم يوسف: العرب والروم واللاتين فى الحملة الصليبية الأولى، الملحق الأول ص ٣٠٧ ـ ٣٠٩ .

على أية حال فقد أختلفت الآراء حول مدى صحة هذا الخطاب المشار إليه أعلاه، غير أنه من الثابت وجود علاقة بين الامبراطور البيزنطى الكسيوس وروبرت الأول. فقد مر أثناء عودته من رحلته التى زار فيها الأراضى المقدسة بالقسطنطينية وأستقبله الامبراطور البيزنطى وطلب منه أن يرسل اليه فرقة من الجند المرتزقة، وتعهد روبرت بذلك حيث ارسل إليه فرقة عسكرية ومعها مائة وخمسين حصاناً هدية إليه وذلك فى عام ١٠٨٨م. وربما تكون هذه الأحداث هى نواة ذلك الخطاب السابق والتى صيغت بطريقة ما بهدف إثارة حماس الغربيين للمشاركة فى الحملة الصليبية أو دعمها فى المرحلة التالية حيث كادت أن تفشل أمام أسوار آنطاكية فى عام ١٠٩٨م(١) .

الكسيوس كومنين وموقفه من الحملة الصليبية الأولى :

على أثر خطبة البابا أربان الثانى فى ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥ خرجت جموع من الصليبيين فيما عرف بالحملة الشعبية أو حملة العامة والتى أنخرط فيها العديد من فئات المجتمع الصليبى. وتقدمت عبر أوروبا حيث اقترفت العديد من الأعمال ما بين نهب وسلب وقتل حتى وصلت إلى حدود الامبراطورية البيزنطية فى يوليو ١٠٩٦م وذلك عند أسوار القسطنطينية وأرسل لهم الامبراطور المؤن والامدادات وتخوف من قيامهم بمحاولة اقتحام عاصمته وذلك لجشعهم وما اقترفوه من جرائم أثناء تقدمهم. وعندما وصل بطرس الناسك أرسل إليه الكسيوس لمقابلته وقدم له الهدايا ونصحه بعبور البسفور والألتزام بالطريق الساحلى وانتظار وصول بقية القوات الصليبية. وبالرغم من ذلك فقد قاموا باعمال السلب والنهب فغضب الامبراطور وأمرهم بالعبور

(١) راجع أيضا مقال الدكتور رأفت عبدالحميد: بيزنطة وخيانة القضية الصليبية فى كتاب قضايا من تاريخ الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث التاريخية، ١٩٩٨ .

إلى آسيا الصغرى. وفى آسيا الصغرى لقت هذه القوات هزيمة مروعة على أيدى السلاجقة، وسارع الامبراطور بارسال سفن لانقاذ من تبقى من هذه الحملة وعادت بهم إلى القسطنطنية انتظاراً لوصول بقية القوات النظامية من الحملة. وقد ترتب على ذلك بدء العداء بين اللاتين والبيزنطيين حيث القوا بمسئولية فشل الحملة على عاتق الامبراطور(١) .

اما حملة الأمراء أو الحملة النظامية فقد تحركت على هيئة مجموعات بحسب تقسيماتها اللغوية أو الجنسية. وكان على رأس هذه المجموعات جودفرى دى بويوان وأخيه بلدوين، وريموند سانت چيل، وبوهمند النورمانى، وريموند كونت تولوز وروبرت النورمانى. ووصلت هذه الجموع إلى القسطنطينية حيث قابل الكسيوس معظم هؤلاء القادة وكان أولهم جودفرى الذى أقسم يمين الطاعة والولاء فى ابريل ١٠٩٧م وتعهد باعادة المناطق التابعة لبيزنطة قبل استيلاء السلاجقة عليها، مقابل ما تقدمه بيزنطة من مساعدات للصليبيين أثناء تقدمهم إلى بلاد الشام عبر آسيا الصغرى. كما وافق على القسم أيضاً بوهمند وروبرت، بينما رفض ذلك باتفاقية آخرون مثل تانكرد. .

على أى حال أسفر ذلك عن عقد ما عرف باتمفاقية القسطنطينية فى عام ١٠٩٧م وهى التى وضعت أسس التعامل بين الجانبين. فقد تعهد الصليبيون باعادة الأملاك البيزنطية السابقة مقابل تقديم المساعدات من مؤن وامدادات لعبور البسفور والأدلاء عبر آسيا الصغرى والقوات. والتزم الصليبيون بشرط هذه الاتفاقية أمام نيقية التى سقطت فى قبضتهم فى يونيو ١٠٩٧ وعادت للسيادة البيزنطية، ثم ضورليوم والتى أعتبرها البعض بمثابة رد على

---

(١) عن أحداث هذه الحملة الشعبية راجع: محمد محمد مرسى الشيخ: حملة بطرس الناسك فى ضوء خطابات آنا كومنينا، مجلة العلوم الاجتماعية ـ جامعة الأمام محمد بن سعود ـ ١٩٧٨؛ حسن عبدالوهاب حسين: دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية فى مصر والشام، الاسكندرية ٢٠٠١، ص ٥ ـ ١٢ .

هزيمة ملاذكرد، وقونيه فى أغسطس ١٠٩٧م. وبعد ذلك توجهت القوات الصليبية إلى الرها حيث استولت عليها فى عام ١٠٩٧م وتأسست بها أول إمارة صليبية على يد بلدوين شقيق جوذفرى. أما بقية الجيش الصليبى فقد توجه إلى أنطاكية وبدء فى حصارها فى اكتوبر ١٠٩٧ واستمر الحصار حتى يونيو ١٠٩٨م. ونجح بوهمند النورمانى فى وضع خطة مكنته من إبعاد المندوب البيزنطى تاتيكيوس قبل سقوط أنطاكية وذلك عندما غادر المعسكر الصليبى فى نهاية فبراير ١٠٩٨[1] ولذلك عندما سقطت أنطاكية رفض بوهمند اعادتها للبيزنطيين بحجة عدم ألتزام بيزنطة بالاتفاق السابق وبالتالى فقد أسس بها ثانى إمارة صليبية فى بلاد الشام مما كان بداية لظهور هذه المشكلة الأنطاكيةخاصة وأن بوهمند رفض تسليمها لمندوب من الامبراطور الكسيوس كان قد أرسله لهذا الغرض. وحمّل كل طرف الآخر المسؤلية فيما يتعلق بانطاكية مما زاد من حدة العداء بينهما.وانتقل الأمر إلى العداء المباشر عندما قام تانكرد ـ خليفة بوهمند ـ فى أنطاكية بشن حملات بغرض التوسع على حساب بيزنطة. فهاجم طرسوس وأذنه الميصيصة.ونجح فى الاستيلاء على اللاذقية حيث سقطت فى قبضته فى ١١٠٣م. وأثار ذلك حنق بيزنطة وغضبها .

تطور مشكلة أنطاكية :

وصلت إلى بيزنطة حشود صليبية جديدة فى عام ١١٠١م. وقام قادة هذه الحملة اللمباردية بقسم يمين الولاء للامبراطور البيزنطى. ولكن جموع القوات قامت باعمال الشغب ومهاجمة كثير من المناطق بما فيها القصر الامبراطورى. وأصر الامبرطور على عبور هذه القوات إلى آسيا

(١) اجمعت المصادر الصليبية على ادانة تاتيكيوس فيما عدا اورديك فيتاليس. كما أن المؤرخة آنا كومنينا أوضحت الدافع من وراء هروبه وهو علمه بنية الصليبيين الأنتقام منه. راجع:
France J., The Departure Of Tatikios From the Crusader Army, B.I.H.R. vol. 44, no. 115. 1971. PP. 137-157 .

الصغرى. كما وصلت مجموعة أخرى قدم لها الامبراطور المساعدات والنصائح التى أعطاها من قبل لقادة الحملة النظامية. غير أنهم رفضوا أن يسلكوا الطريق الساحلى وقرروا التوجه لمحاربة الدانشمندلتحرير بوهمند الذى كان أسيراً لديهم. ووقع هؤلاء فريسة سهلة لقوات المسلمين المتحالفة وأجهزت على الآلاف منهم وفرت أعداد قليلة عادت إلى القسطنطينية حيث أحسن الامبراطور استقبالهم وعوضهم عما فقدوه .

وهكذا فشلت حملة عام ١١٠١م باقسامها الثلاثة وألقى الصليبيون بالتهمة مرة أخرى على بيزنطة وحمّلوا الامبراطورمسئولية فشلها. فقد ادعوا أن هناك اتفاق بينه وبين السلاجقة حيث علموا بموعد وصولهم وقاموا بالاجهاز عليهم. ولا شك أن ذلك يخالف حقيقة ما أوردته المصادر بما قدمه الكسيوس لهم من مساعدات ونصائح ولكنهم لم يلتزموا بها. وهذا ما أقر به الأسقف ماناسيس عندما عاد إلى أوروبا .

استمر بوهمند فى اثارة مشاعر الغرب الأوروبى ضد الامبراطور البيزنطى وذلك باتهامه بالمسئولية عن فشل حملة ١١٠١ ،وكذلك اتهمه بانه وثنى والبيزنطيين بالخيانة مما أثار مشاعر الغربيين وحاول الدعوة لحملة صليبية توجه إلى بيزنطة.وجاءت موافقة البابا باسكال الثانى لكى تزيد من حدة العداء بينهما. لكن الامبراطور لم يقف مكتوف الأيدى أمام هذا الأمر فارسل إل البندقية للانضمام إليه، كما راسل قلبح ارسلان لمساعدته ـ وأصدر أوامره إلى قادة اسطوله لمراقبة أى تحركات بحرية من بيزنطة. وبالفعل حدث الصدام بينهما عن دورازو (ديراكيوم) مما أعاد إلى الأذهان ما حدث فى عام ١٠٨١ ولكن الظروف اختلفت هذه المرة. وفشل بوهمند فى تحقيق حلمه فقبل شروطا تمس بكرامته وكبريائه. ووقع على معاهدة ديفول حيث

اعترف هو ونجله من بعده بالتبعية للامبراطور البيزنطى، وأقسم يمين الولاء، كما تعهد بعدم حمل السلاح مرة أخرى، وعدم مهاجمة بيزنطة وأن يقاتل معها مهما كانت الظروف وأن يكتفى بالأراضى المنصوص عليها فى الاتفاقية وإعادة الأراضى التابعة لبيزنطة من قبل بخلاف مواقع أخرى على اساحل. أما أنطاكية محور الخلاف فقد تسلمها كاقطاع من الامبراطور البيزنطى، وأن يصبح البطريرك بها أرثوذكسياً وليس كاثوليكيا يختاره الكسيوس. وتم التوقيع على المعاهدة فى عام ١١٠٨م[1]. وعلى الرغم من توقيع هذه المعاهدة فانها ظلت حبراً على ورق، ولكنها ناحية أخرى حطمت آمال بوهمند حتى رحل عائداً إلى ابوليا ومات بها فى عام ١١١١م .

عاد الصدام بين بيزنطة وأمراء أنطاكية وخاصة تانكرد الذى استولى على اللاذقية ورفض الخضوع للإمبراطور وعدم الألتزام بشروط المعاهدة السابقة. ولم تكن ظروف الكسيوس تسمح بالقيام بحملة جديدة ضد بيزنطة فعمل على التحالف مع قوى صليبية أخرى ضد تانكرد. ولكن لم يفلح فى ذلك. وانتهت هذه المرحلة بموت تانكرد فى عام ١١١٢م لكى تنتقل العلاقات بينهما إلى مرحلة جديدة .

على أى حال فاننا لن نتتبع تفاصيل العلاقة بين بيزنطة وبقية القوى الصليبية خاصة مع استيلاء الصليبيين على طرابلس وما اسهمت به بيزنطة فى ذلك، وأيضا الاستيلاء على العديد من المدن الساحلية والتى ساهم فيها الأسطول البيزنطى بدور هام مثل طرطوسة وجبيل وجبلة وبيروت وصيدا وصور. وظل الأمر على هذا النحو حتى موت الكسيوس الأول فى عام ١١١٨م .

(1) Michael Angold, The Byzantine Empire, London, 1984.p. 124.

أما حنا كومنين (١١١٨ ـ ١١٤٣م) فقد استمر على نهج سياسة أبيه الخارجية والمتمثلة فى توسيع الحدود البيزنطية إلى الأراضى السابقة التابعة لبيزنطة. واستمرت مشكلة أنطاكية فى عهده ـ وعمل على ايجاد تحالف سياسى عن طريق الزواج ولكنه لم يتم. كما عمل على التدخل فى شئون أنطاكية عندما لجأت إليه الأميرة أليس ومحاولة اقامة تحالف سياسى عن طريق الزواج. ولكن نبلاء أنطاكية رفضوا التبعية لبيزنطة ولجاءوا إلى ملك بيت المقدس والذى تدخل فى هذا الصراع ورشح ريموند دى بواتييه والذى نجح فى دخول أنطاكية وبذلك ضاعت على الإمبراطور البيزنطى فرصة ذهبية لاستعادة أنطاكية .

تطورت الأمور بينه وبين حما وأمارة أنطاكية فقرر الخروج بحملة فى عام ١١٢٧م/٥٣٢هـ ووصل إلى مدن قليقية والمصيصة وعين زربة فقام بضمها، ثم توجه إلى أنطاكية لحصارها. ووصل أمامها فى اغسطس ١١٣٧م/ محرم ٥٣٢هـ. وأشتد الحصار الذى عبر عنه مؤرخ معاصر باسفه لتحارب أصحاب ديانة واحدة. وبعد التوسط بينهما تم التوصل إلى اتفاق والتعاون معا للقيام بحملة مشتركة ضد المسلمين فى شمال بلاد الشام. ودون الدخول فى تفاصيل هذه الحملة نجد أن العديد من الأسباب أوردتها المصادر المختلفة حول أسباب فشلها. وكان من بينها خيانة الفرنج واتهامات بالرشوة للامبراطور البيزنطى نفسه[١] ولا شك أن ما قام به حنا

---

(١) Kinnamos, Deeds of John and Manuel Comnenus, trans. By Charles M. Brand, New York, PP. 22 - 23" O City Byzantium Annales Of Niketas Choniates, trans. By H. J. Magulias, Detroit, 1984, P. 18 .

وكذلك : حسن عبدالوهاب: مقالات وبحوث فى التاريخ الاجتماعى للحروب الصليبية، الاسكندرية ١٩٩٧، ١١١ ـ ١١٢ .

كومنين من محاولات لاستعادة أنطاكية تركت أثرها على أزدياد تدهور العلاقات بين بيزنطة واللاتين. كما أن أمراء أنطاكية رفضوا الاعتراف بالتبعية لبيزنطة وظلت أسمية فقط. وتنفس الصليبيون الصعداء عندما مات حنا كومنين فى ١١٤٣م/ ٥٣٧هـ وخلفه ابنه مانويل لكى يتابع سياسة والده تجاه أنطاكية.

اما أبرز الأحداث فى عصر مانويل (١١٤٣ ـ ١١٨٠م) فهى سقوط امارة الرها فى قبضة عماد الدين زنكى عام ١١٤٤م ولجوء أمير أنطاكية إلى الامبراطور البيزنطى لان توقع أن تكون الخطوة التالية لعماد الدين هى مهاجمة أنطاكية. وتعرض ريموند بواتيه للمذلة حتى سمح له الامبراطور بمقابلته وأقسم له يمين الولاء ووافق على الشروط الأخرى التى طلبها منه. وفى اثناء ذلك الوقت كانت الدعوة لقيام حملة صليبية جديدة من أجل إنقاذ الرها والأستيلاء عليها مرة أخرى. واتخذت هذه الحملة الطريق البرى وكان على رأسها كل من لويس السابع الفرنسى وكونراد الثالث الألمانى .

ومنذ البداية كانت العلاقة العدائية واضحة نحو بيزنطة. فقد نصح بعض قادة الحملة الفرنسية ملكهم لويس بأن يحاصر الأقاليم الغنية المحيطة بالقسطنطينية ويستولى على مدنها وقلاعها. كما نصحوه بالاتصال بروجر الثانى ملك صقلية لمهاجمة بعض المناطق البيزنطية. وأنضم اليهم رجال الدين فى ضرورة الاستيلاء على القسطنطينية وتوحيد العالم المسيحى للوقوف ضد المسلمين. وهكذا فقد أصبحت بيزنطة والأتراك عدواً واحداً للصليبيين كما يقول أودو أوف ديل .

وعلى الرغم من هذا الشعور المعادى إلا أن الامبراطور البيزنطى أحسن استقبال الصليبيين ولكنه لم يغفل عن تحصين نفسه أمام أية احتمالات قد

تقوم بها القوات الصليبية وذلك مثل منع اعمال النهب والسلب وتجديد واصلاح أسوار القسطنطينية وتسليح قواته وتوزيعها مع اعداد قوات لمرافقة الجيوش الصليبية عند قدومها وذلك لنقلها إلى الشاطئ الآسيوى بعيداً عن عاصمته .

اما القسم الألمانى بقيادة كونراد الثالث فقد أرسل إليه الامبراطور البيزنطى سفارة قبل وصوله الى القسطنطينية وذلك للتعرف على نواياه والتأكد من عدم تعرضه للأراضى البيزنطية بالأذى.وبعد حصوله على تأكيدات بذلك وعدت السفارة العاهل الألمانى بحسن الضيافة. واستعد مانويل لتقديم ما يلزم للقسم الألمانى من مؤن وامدادات كما عاملهم سكان المدن معاملة طيبة. ولكن سرعان ما بدأ الصدام بين الجانبين لما اقترفه الألمان من أعمال السلب والنهب. فرد الامبراطور البيزنطى على ذلك بارسال فرقة من قواته لردع الألمان. ولذا فقد حاول مانويل أن يعدل من خط سير هذا القسم وذلك لكيلا يصل إلى القسطنطينية وانما يبحر بعيداً عنها. ولم يلتق كونراد ومانويل وجهاً لوجه وأنما تبادلا الرسائل التى أوضحت مدى العداء بينهما وصل الأمر إلى أتهام كل منهما الآخر بقصور الفهم والأستهزاء[١] .

على أى حال، عبرت القوات الالمانية الى آسيا الصغرى ومعها الامدادات والأدلاء البيزنطية الذين نصحوا كونراد بالتزام الطريق الساحلى بعيداً عن السلاجقة. ولكنه لم يستمع لنصيحتهم وقرر اجتياز وسط آسيا الصغرى مما أوقعه فى كارثة عند ضوروليوم فى ١١٤٧م/ ٥٤٢هـ. ومرة أخرى يلقى المؤرخون الغربيون باللائحة على بيزنطة ويحملونها فشل الحملة الثانية[٢] .

---

(١) عن ترجمة لجانب من هذه الرسائل أنظر: رأفت عبدالحميد: المرجع السابق، ص ١١٠ ـ ١١٢ .
(٢) عن هذه الآراء راجع حسن عبدالوهاب: دراسات فى التاريخ الاجتماعى، ص ١١٤ ـ ١١٥ .

وصل لويس السابع ومعه قواته الفرنسية إلى الأراضى البيزنطية واتسمت علاقته مع الملك الفرنسى بالحرص وذلك لرغبته فى انجاح الحملة وحاجته لمساعدة بيزنطة. وتقابل العاهلان حيث أبدى مانويل اهتمامه بالملك الفرنسى وقدم له الهدايا له ومن معه من القادة. ثم توجه إلى آسيا الصغرى والتزم بالنصائح التى قدمت له. وتمكن من تجنب خطر السلاجقة حتى عبر بقواته وتوجه إلى بلاد الشام. ودون الدخول فى بقية تفاصيل احداث الحملة فى بلاد الشام فانها لم تحقق الهدف الذى خرجت من أجله وهو الأستيلاء على الرها مرة ثانية، بل أتجهت لحصار دمشق ـ وكانت الحليف الوحيد للصليبيين فى بلاد الشام فى تلك الفترة مما يعد أغرب قرار تم اتخاذه. ولم تحقق سوى استيلاء الصليبيين على بانياس[1] .

استمر توتر العلاقات بين مانويل ورينالد دى شاتيون أمير أنطاكية والذى استمرت هجماته ضد الأملاك البيزنطية وخاصة جزيرة قبرص. ولذا خرج مانويل بحملة فى ١١٥٨م/ ٥٥٣هـ بهدف تأديب أمير أنطاكية. وسيطر الامبراطور على قليقية وسارع رينالد باعلان ندمه وتوبته على ما اقدم عليه وطلب الصفح من مانويل. ثم دخل إلى أنطاكية فى ابريل ١١٥٩م/ ٥٥٤هـ وكان ذلك دليلاً على انتصار بيزنطة فى صراعها ضد الصليبيين فيما يتعلق بمشكلة أنطاكية. وعدل الأمبراطور البيزنطى عن فكرة القيام بحملة ضد نور الدين محمود وعقد معه معاهدة مما أدى إلى عودة العداء ضد بيزنطة. وقد أدرك مانويل حاجته لهذه المعاهدة حتى يبقى على تهديد نور الدين للصليبيين ويجعلهم بحاجة إليه.وعلى الرغم من ذلك فقد ظلت

---

(١) عن أسباب فشل الحملة الثانية راجع حسن عبدالوهاب: المرجع السابق، ص١١٥ـ ١١٧ .

بلاد الشام تحت تأثير سيادة بيزنطة لمدة عشرين عاماً قادمة .

وانتقل الصراع بين الصليبيين ونور الدين محمود إلى جبهة جديدة هى مصر. فقد كانت الخلافة الفاطمية تعانى من الضعف الشديد. واحتدم الصراع بين الوزراء للسيطرة عليها. ولجأ كل من شاور وضرغام للبحث عن حليف لهما فى ذلك الصراع. وسارع عمورى ملك بيت المقدس بالتدخل فى الوقت الذى أرسل فيه نور الدين محمود قائده أسد الدين شيركوه ومعه صلاح الدين الأيوبى. وبدأ صراع استمر فترة طويلة بينهما. وتدخل مانويل فى هذا الصراع عندما أتفق مع عمورى على إرسال حملة بيزنطية صليبية مشتركة ضد مصر وذلك فى ١١٦٩م/ ٥٦٤ ـ ٥٦٥هـ. ووصلت هذه الحملة بعد تأخر طويل. ونزلت على ساحل مصر وتعددت العوامل التى أدت إلى فشل هذه الحملة. وتعرض الأسطول البيزنطى للهزيمة بسبب جهل قادته بالأحوال الجغرافية لمصر واستغل المصريون هذا العنصر وتمكنوا من احراق ست سفن بيزنطية، كما أتت الرياح على اعداد كبيرة فغرقت اعداد كبيرة منه. ولم ينج سوى عدد قليل عادت إلى البسفور فى أوائل العام التالى. ومرة أخرى يلقى المؤرخون الغربيون بتهمة الفشل على البيزنطيين لأنهم لم يرسوا الأموال الكافية لدعم الجيش. اما المؤرخين البيزنطيين فيلقوا بالمسئولية على الملك الصليبى عمورى بل أنهم يتهمونه بتلقى الرشوة من أجل إفشال الحملة. ولا شك أن العامل الهام الذى أدى إلى فشل تلك الحملة هو تشكك كل جانب تجاه الآخر كما يقول ميخائيل السريانى أن بعض الأشخاص حذروا ملك القدس من أن البيزنطيين كانوا يعملون للأستيلاء على مصر لحسابهم الخاص[١] .

(١) Nikitas, OP. Cit., P. 94: Kinnamos, Op. Cit, P. 209
وكذلك حسن عبدالوهاب: دراسات فى التاريخ الاجتماعى، ص ١٢٠ ـ ١٢٣، ٣٠٦، ٣٠٧ .

وعلى الرغم من الزيارة التى قام بها عمورى ملك بيت المقدس إلى القسطنطينية فى ١١٧١م حيث استقبله مانويل استقبالاً حافلا وتم عقد معاهدة بينهما بهدف مساعدته ضد نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى فى مقابل تبعية لمانويل، إلا أن الأتفاق لم يتم تنفيذه بسبب انشغال مانويل بمشاكل أخرى. وعندما بلغت الامبراطور البيزنطى أمر اتفاق عمورى مع وليم الثانى ملك صقلية فى عام ١١٧٤م للقيام بحملة مشتركة ضد مصر، فقد قام مانويل بالاتصال بصلاح الدين وابلاغة بأمر هذه الحملة وذلك لكراهيته لنورمان صقلية تلك الكراهية التى كانت موجودة منذ زمن روبرت جوسكارد وحملاته ضد بيزنطة. وهكذا فقد فضل مانويل مصلحة بلاده على المصلحة الصليبية مما زاد فى حدة الكراهية بين الجانبين.ومع حلول عام ١١٨٠م حيث كانت نهاية حياة مانويل انتهت فترة الحماية البيزنطية على الامارات الصليبية فى بلاد الشام. وانتقلت إلى مرحلة جديدة وبلغ من أثر زوال هذه السيادة أن أمير أنطاكية بوهمند الثالث هجر زوجته اليونانية .

اما الفترة التالية فقد شهدت وصاية ماريا الأنطاكية على ابنها الكسيوس الثاني (١١٨٠ ـ ١١٨٣م). وشهدت البلاد تغلغل العنصر اللاتينى فى بيزنطة فانتشروا باعداد كبيرة واحتكروا تجارة البلاد. وكان لأصل ماريا أيضا أثر فى استمرار هذا النفوذ الغربى. ولكن اندرونيق كومنين عم الامبراطور لم يوافق على ذلك وتمكن من القيام بتمرد نجح فى الوصول إلى العاصمة وقام بمذبحة مروعة بين اللاتين لم ينج منها حتى النساء والأطفال مما أدى إلى أن يصل العداء ضد بيزنطة إلى ذروته. وتحرك الغرب الأوروبى خاصة فردريك بربروسا وابنه هنرى السادس الذى تزوج من كونستانس وريثة صقلية مما أدى فى النهاية إلى تأصل فكرة الحملة الصليبية الرابعة فيما بعد. وجاء

اعتلاء اندرونيق كومنين للعرش البيزنطى لكى يزيد من حدة العداء بين الجانبين، ويجعل بيزنطة تتحالف مع الدولة الأيوبية فى الفترة التالية. وهو ما أثمر عنه عقد معاهدة عام ١١٨١م/ ٥٧٧هـ بين البيزنطيين والأيوبين ـ والتى هيأت أيضا لصلاح الدين فرصة التفرغ لمواجهة الصليبيين فى بلاد الشام والعمل على القضاء على وجودهم بها. وتم عقد معاهدة فى عام ١١٨٥م/ ٥٨١هـ تمت الموافقة فيها على اقرار جهود صلاح الدين ضد الصليبيين فى بلاد الشام، كما وعد بمساعدته فى استعادة المدن الساحلية وأن يكون لصلاح الدين هذه المدن عدا عسقلان، وذلك مقابل اعادة المدن البيزنطية السابقة والواقعة فى آسيا الصغرى وكانت فى قبضة السلاجقة .

وتجدر الإشارة إلى أن ذلك تم قبل عامين من وقعة حطين الكبرى فى ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ تلك الوقعة التى تمكن فيها صلاح الدين من أن ينزل ضربة قاصمة بالصليبيين فى هذه المعركة. كما نتج عنها استعادة بيت المقدس ومعظم المدن الساحلية عدا أنطاكية وطرابلس وصور. وقد انتهت بذلك الأسرة الكومنينية حيث ستظهر أسرة انجليوس (١١٨٥ ـ ١٢٠٤م) وهى التى سنتناول خلالها احداث العلاقة بين الصليبيين والبيزنطيين خلال الحملة الصليبية الثالثة والتى كان أيضا فشلها سبباً فى قيام الحملة الصليبية الرابعة والتى وجهت نحو بيزنطة واستولت عليها فى عام ١٢٠٤م بعد أن كانت وجهتها مصر .

العلاقة بين السلاجقة والبيزنطيين:

أشرنا إلى علاقة السلاجقة بالبيزنطيين فى المرحلة السابقة والانتصار الذى حققه السلطان السلجوقى ألب أرسلان (١٠٦٣ ـ ١٠٧٢م/ ٤٥٥ ـ ٤٦٤هـ) على رومانوس الرابع ديوجنيوس فى ملاذكرد ١٠٧١م/ ٤٦٤هـ.

وقد قررت هذه المعركة مصير آسيا الصغرى، وكيف تأثرت بيزنطة بهذه الهزيمة. وإضافة إلى النتائج السابقة، تجدر الإشارة إلى نتيجة أخرى هامة وهى أن بيزنطة فقدت معينا طالما أمدها بالرجال واعتمدت عليه سواء فى قواتها أو اقتصادها. وبالاضافة إلى ذلك فقد نشأت دويلات تركمانية فى آسيا الصغرى سوف يكون لها دورها فى احداث الفترة التالية .

تولى حكم السلاجقة فى الفترة من عام ١٠٧٢ إلى ١٠٩٢م/ ٤٦٤ ـ ٤٨٥ هـالسلطان ملكشاه والذى كان لوزيره نظام الملك دور بارز فى احداث هذه الدولة السلجوقية بما كان له من خبرة عريقة فى كافة جوانب الادارة. ولكن هذه الدولة الفتية أصيبت بداء خطير لا علاج له وهو الصراع المذهبى والذى أودى فى النهاية بحياة نظام الملك حيث لقى حتفه على يد طائفة الحشيشية أو الاسماعيلية. كما أن وفاة ملكشاه أدى إلى مرحلة من الانقسام فى هذه الدولة السلجوقية. فقدظهر بركيا روق وأخوه محمود واستطاع الأول أن يحسم الصراع لصالحه. كما نجح تتش فى أن يتخذ من حلب مستقراً له. ثم حكم ابنه رضوان من بعده. اما دمشق فقد خضعت لدقاق مما كان له أثره على أحوال بلاد الشام عند قدوم الحملة الصليبية الأولى[١].

اما فى آسيا الصغرى فقد تولى سليمان بن قطلمش أمور السلاجقة ونجح فى توسيع حدوده حتى وصلت إلى نيقية متخذاً منها عاصمة لدولته المعروفة بسلاجقة الروم. وهذا ما دفع بيزنطة للجوء إلى البابا جريجورى السابع طالبا منه المساعدة وهو المشروع الذى لم يتم. وأخذ السلاجقة يلعبون

---

(١) البندارى: تاريخ دولة ال سلجوق، ط. ثانية، بيروت ١٩٧٨، وكذلك: حسن أمين: تاريخ العراق فى العصر السلجوقى، بغداد ١٩٦٥، حافظ أحدم حمدى: المشرق الإسلامى قبيل الغزو المغولى، القاهرة ١٩٥٠، محمد مؤنس عوض: الحروب الصليبية ـ العلاقات بين الشرق والغرب، دار عين، ١٩٩٩ ـ ٢٠٠٠ .

دوراً هاماً بين البيزنطيين والثورات التى قامت ضدهم كما حدث فى تمرد رسل Rousscl فى بنطس Pontus، وكذلك حركة نقفور بوتانيس Nicephorus Botaneiates. وهكذا استطاع السلاجقة مد نفوذهم إلى أماكن جديدة وذلك على حساب البيزنطيين. اما فى عهد الكسيوس الأول فقد عمل على عدم الدخول فى مواجهة مع السلاجقة وذلك بعقد صلح معهم أقر بحصولهم على أراضى فى أماكن مختلفة فى مقابل أن يقدم السلاجقة سبعة آلاف مقاتل من السلاجقة وذلك لمعاونة الكسيوس فى صراع ضد النورمان. ولكن ثمة خطر بات يهدد السلاجقة وهو إنقسامهم إلى إمارات مستقلة وهو ما حاول البيزنطيون استغلاله فى المرحلة التالية. وبالفعل قام قلج ارسلان بقتل زاخاس وهو ما مكن الكسيوس من عقد معاهدة مع قلج ارسلان كانت فى صالح بيزنطة اكثر مها فى صالح السلاجقة.والقوة الأخرى التى ظهرت فى آسيا الصغرى هى آل الدانشمند التى سيطرت على قبدوقيا. وعندما هدد الخطر الصليبى ـ البيزنطى هذه المنطقة عمل السلاجقة والدانشمند على توحيد قوتهما معاً لمواجهة ذلك التهديد وهو ما سبقت الإشارة إليه أثناء عبور الجيوش الغربية لآسيا الصغرى ونجاحها فى الاستيلاء على قونية ونيقية والمدن الواقعة على الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى مثل أدنة وطرسوس وهرقلية وغيرها. كما تمكن السلاجقة من إنزال الهزيمة بالحملة التى عرفت بحملة عام ١١٠١م والتى نجح فيها السلاجقة بتعويض ما أصابهم على أيدى الحملة الصليبية الأولى .

وعلى الرغم من استعادة الكسيوس بالسلاجقة ضد بوهمند الأول أمير أنطاكية فى عام ١١٠٧م والذى فشل فى ذلك، فقد عاد الإمبراطور البيزنطى إلى مهاجمة السلاجقة واستولى على السواحل الجنوبية لاسيا

الصغرى. واستمرت العلاقات السلجوقية البيزنطية تتراوح ما بين العداء والصلح حتى نهاية حكم الكسيوس الأول في الوقت الذى حدث فيه انقسام في الدولة السلجوقية بخروج مسعود على أخيه واعلان نفسه سلطاناً .

وفي عهد حنا كومنين استمرت محاولات بيزنطة لتوسيع حدودها على حساب السلاجقة والوصول بها إلى بلاد الشام. وبدأ حنا بالصدام مع السلاجقة لتحقيق هذا الهدف . وشن عدداً من الحملات ضدهم منها ما تم في عام ١١٢٣م/ ٥١٧هـ كما تدخل في الصراع الدائر بين السلاجقة لضربهم ببعضهم البعض. ثم قام بشن حملات أخرى ضدهم في الفترة ما بين ١١٣٠ و ١١٣٥م .

كذلك هاجم آل الدانشمند في اوائل عام ١١٣٣م واستولى على مدينة قسطموني التى كانت مركزاً لخروج حملاتهم من بيزنطة. كذلك سبقت الإشارة إلى حملة عام ١١٣٧/ ١١٣٨م والتى خرج حنا على رأسها لتأديب حاكم أنطاكية وقبل وصوله نجح في السيطرة على منطقة قليقيا بما فيها من العديد من المدن والتى كان الأرمن قد استولوا عليها .

وفي عهد مانويل كومنين انقسمت امارة آل الدانشمند إلى ثلاث مناطق حيث عمل السلاجقة على استغلال ذلك لصالحهم. وأستغل مانويل تلك الانقسامات ليحقق هدفه لتقليص نفوذ السلاجقة في آسيا الصغرى وقام في عام ١١٤٥ بحملة تأديبية لكنه سرعان ما عاد مما شجعهم على مهاجمة بيزنطة. فأنتشروا في مناطق متعددة من آسيا الصغرى وحدث لقاء آخر في عام ١١٤٦م عند فيلوميلون انتهى بانسحاب السلاجقة إلى قونية مما جعل مانويل يتقدم لحصارها وبعد مناوشات لجأ مانويل إلى حيلة بارعة عندما أعلن عن أسر السلطان مسعود فقامت قواته بالانسحاب إلى

قونية.وعبثا حاول مانويل اقتحامها ولكنه فشل فى الوقت الذى وصلت فيه أنباء الحملة الصليبية الثانية فقرر الانسحاب عائداً إلى بلاده. وقد تعرضت القوات البيزنطية لهجمات من جانب السلاجقة أثناء عودتها ونجحت فى الحاق هزيمة شديدة بها. وتم عقد صلح بين الجانبين فى صيف ١١٤٦م وذلك لمدة خمسة عشر عاماً بالاضافة إلى شروط أخرى .

أما عن الفترة من ١١٦٢ ـ ١١٧٤م فقد شهدت تأرجحاً فى العلاقة بين مانويل وقلج ارسلان. وعمل الأخير على كسب الوقت لصالحه وتثبيت أملاكه فى آسيا الصغرى. وكانت محاولة تحالف قلج ونور الدين محمود فى بلاد الشام قد اقلقت مانويل ودفعته للاتصال بالسلاجقة لعدم قيام مثل هذا التحالف. ثم جاءت وفاة نور الدين محمود فى عام ١١٧٤ لتنهى مؤقتاً هذا القلق .

غير أنه سرعان ما عادت الأمور إلى العداء مرة أخرى وبدأ كل جانب الاستعداد للدخول فى مواجهة. واستعد مانويل للقتال فى الوقت الذى كان فيه قلج ارسلان غير مستعد ولذا لجأ إلى الدبلوماسية. ولكن مانويل بدأ يلجأ إلى استخدام القوة وتوجه إلى ضورليوم للاستيلاء عليها. وعمل أيضاً على زيادة تحصينات الحدود البيزنطية فى آسيا الصغرى، كما قام بطرد السلاجقة الرحل. وفى النهاية رفض طلب السلطان السلجوقى بتجديد معاهدة عام ١١٦٢ مما يعنى الحرب بينهما .

وأخذ مانويل يعد العدة لهذه المعركة وذلك بتخزين المؤن، كما أحضر عناصر عديدة انضمت إلى قواته ونشر مانويل انباء استعداداته بشن حملة صليبية ضد السلاجقة. وخرجت مجموعة من السفن البيزنطية للقيام بمهاجمة المسلمين ولكنها لم تنفذ هذا الأمر بل قامت به سفن من صقلية.

معركة ميروكيفالون ١١٧٦م/ ٥٧١هـ :

استعد الجانبان البيزنطى والسلجوقي وذلك بتنظيم قواتهما وجلب ما تحتاجه من الرجال والسلاح وعمل السلاجقة على اللجوء إلى الحيل لمواجهة القوات البيزنطية. فحاولوا نشر الشك بين البيزنطيين والدانشمند وهو ما صدقه البيزنطيون. كما اشاع السلاجقة خبر موت مانويل مما أدى إلى أنتشار الهلع والفزع وانسحبوا فى حالة من الفوضى وأخذ السلاجقة فى تعقب القوات البيزنطية وأخذوا في إعمال القتل والأسر فى هذه القوات .

وصلت اخبار هزيمة هذا القسم إلى مانويل الذى كان معه الجيش الرئيسى، مما أدى إلى انزعاج مانويل وحاول التوجه إلى قونية وسلك طريقا يمر عبر أحد الممرات تقع ميروكيفالون عند نهايته. وكان هذا الخطأ الذى وقع فيه مانويل حيث أن قواته كانت كثيرة وتحمل معداتها فى هذا الممر الضيق، إلى جانب انتشار المرض بين هذه القوات مما زاد الطين بلة. وكان قلج ارسلان قد علم بتحركات القوات البيزنطية فقام السلاجقة بحرق المحاصيل التى كانت فى طريق البيزنطيين لحرمانهم من المؤن، كذلك تم تسميم الآبار واعمال المناوشات مما دفع البيزنطيون لدخول الممر. فى الوقت الذى أتخذ فيه السلاجقة قواتهم على قمم الجبال وأخذت فى ضرب مقدمة الجيش البيزنطى لوقف سيره، ثم اخذوا فى ضرب الجيش الرئيسى وانزلوا به أفدح الخسائر. هكذا فقد حضرت القوات البيزنطية قبورها بأنفسها عندما دخلت هذا الممر الجبلى. وبصعوبة بالغة أفلت مانويل من الموت. وظل السلاجقة يتابعون الفارين من البيزنطيين منزلين بهم أفدح الخسائر. وعبثا حاول البيزنطيون تجميع قوتهم ولكنهم فشلوا. وانتهت احداث هذه المعركة بعقد صلح بين الجانبين. اقسم عليه الطرفان لاحترامه .

نتائج المعركة :

أولاً: تعتبر من المعارك الحاسمة فى تاريخ الصراع السلجوقى ـ البيزنطى حتى أن كثيراً من المؤرخين اعتبروها ملاذكرد الثانية .

ثانيا: وضعت حداً للصراع بين الجانبين، وخاصة محاولات مانويل طرد السلاجقة نهائياً من آسيا الصغرى .

ثالثاً: غيرت اهتمام بيزنطة بدلاً من التوجه إلى آسيا الصغرى، بان قام بالعمل على دعم التحالف مع الصليبيين فى بلاد الشام .

رابعاً: تجددت أعمال القتال بين الجانبين على شكل مناوشات بين الجانبين وتمكن مانويل من تحقيق انتصار جزئى فى آخر معاركه ضد السلاجقة(١) .

وفى النهاية إذا أردنا أن نقّيم عصر هذه الأسرة الكومنينية فمما لا شك فيه أنها نجحت فى الاستمرار لمدة تزيد على قرن من الزمان على الرغم من العواصف التى أحاطت بها خاصة من جانب السلاجقة الذين أنزلوا بها هزيمتين تركت أثرهما عليها.كما أن النورمان عملوا جاهدين على محاربتها ومحاولة الأستيلاء على القسطنطينية. غير أن الخطر الحقيقى جاء من جانب اللاتين وهم الذين لجأت إليهم بيزنطة طالبة المساعدة منهم ضد خطر السلاجقة ولكنهم سرعان ما ألقوا بمسئولية فشلهم فى العديد من المناسبات على كاهل الاباطرة البيزنطيين وسرعان ما تفاقم هذا الشعور العدائى بعد تلك المذبحة التى تعرض لها اللاتين فى القسطنطينية فى أواخر

---

(١) عن تفاصيل هذه الأحداث راجع مؤلفى الدكتور محمود سعيد عمران: معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، بيروت ١٩٨١ ؛ السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور مانويل الأول، الاسكندرية ١٩٨٥ .

عصر هذه الأسرة. وأيضاً فشل الحملة الصليبية الثالثة فى عصر الأسرة التالية لكى يهيأ المجال أمام تحويل الحملة الصليبية الرابعة ضد القسطنطينية والأستيلاء عليها وإقامة امبراطورية لاتينية بها. وتجدر الإشارة إلى أن العلاقات الخارجية فى عصر هذه الأسرة يصعب فصلها عن بعضها البعض لتداخل الاحداث واختلاف التحالفات بين القوى من حين إلى آخر وهو ما حاولنا الإشارة إليه فى الصفحات السابقة .

الموضوع السادس عشر
عصر أسرة انجليوس
(١١٨٥-١٢٠٤م)

أباطرة الأسرة

- إسحق الثاني انجليوس	(١١٨٥ - ١١٩٥)
- الكسيوس الثالث	(١١٩٥ - ١٢٠٣)
- الكسيوس الرابع	(١٢٠٣ - ١٢٠٤)
- اسحق الثاني	(١٢٠٣ - ١٢٠٤)
- الكسيوس الخامس	(١٢٠٤)

أسرة انجيلوس
(١١٨٥ ـ ١٢٠٤م)

مقدمة :

حكمت هذه الأسرة حوالى تسعة عشر عاماً مرت خلالها الدولة البيزنطية بكثير من الأحداث الداخلية والخلرجية التى تركت تأثيرها عليها. وامتد حكم اسحاق الثانى انجليوس لمدة عشر سنوات (١١٨٥ ـ ١١٩٥م) وكانت مليئة بالصراعات والأحداث الخارجية. ومن بينها قيام أحد أفراد أسرة كومنين بالأستقلال بجزيرة قبرص وظل الأمر على هذا النحو حتى قدوم ريتشارد قلب الأسد بقواته المشاركة فى الحملة الصليبية الثالثة فتمكن من احتلالها عام ١١٩١م. وبذلك خرجت هذه الجزيرة نهائياً عن السيادة البيزنطية. ومن ناحية أخرى شهدت منطقة البلقان خروج العديد من المناطق عن بيزنطة مثل بلغاريا وصربيا. أما أهم الأحداث فقد كانت الحملة الصليبية الثالثة والتى حدث فيها تحالف بين بيزنطة وصلاح الدين الأيوبى ضد هذه القوى الصليبية خاصة الألمان بقيادة فردريك بربروسا الذى اتخذ الطريق البرى للوصول إلى بلاد الشام. ونتيجة للسياسة التخريبية التى أتبعها العاهل الألمانى فى طريقة ضد الأراضى البيزنطية فقد اصطدم مع الامبراطور البيزنطى مما زاد من حدة الكرهية بينهما أكثر من ذى قبل، بل أن فردوريك اقترح تحويل الحملة لمحاربة البيزنطيين بدلاً من الاستيلاء مرة أخرى على بيت المقدس. وفى جبهة أخرى وهى علاقة الدولة البيزنطية بالمدن الايطالية مثل جنوه وبيزا والبندقية تأرجحت هذه العلاقة حسب المصالح السياسية للطرفين. وكذلك تركت المصالح الاقتصادية تأثيرها بصفة خاصة على هذه العلاقة. وفى النهاية فإن هذه المدن لم تقنع بما حصلت عليه من امتيازات

تجارية فى بيزنطة وسيكون لها دورها فى تحويل الحملة الصليبية الرابعة ضد القسطنطنية والاستيلاء عليها وإقامة امبراطورية لاتينية بها من عام ١٢٠٤ حتى ١٢٦١م .

ويعبر رانسيمان عن فترة حكم هذه الأسرة بقوله :

«وكان حكم آل انجيلوس وهم اسحق الثانى (١١٨٥ ـ ١١٩٥)، وأخوه الكسيوس الثالث الذى خلعه وخلفه (١١٩٥ ـ ١٢٠٣) قصة محزنة من الضعف و الخور ومن انتشار مزيد من الفوضى والفقر فى الامبراطورية ومن منح الايطاليين مزيداً من الامتيازات. وحصلت بلغاريا على استقلالها، وأعلنت قبرص العصيان»[١].

السياسة الخارجية فى عصر أسرة انجيلوس :

نتج عن سقوط بيت المقدس فى قبضة صلاح الدين الأيوبى فى عام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ دوى هائل فى الغرب الأوروبى. وتمت الدعوة لقيام حملة صليبية عرفت بالثالثة وكان على رأسها ثلاثة من اكبر ملوك أوروبا آنذاك هم فردريك بربروسا وريتشارد قلب الأسد وفيليب أوغسطس. وسلك فردريك امبراطور المانيا الطريق البرى للتوجه إلى بلاد الشام وقبل خروجه ارسل يطلب من الامبراطور البيزنطى اسحاق الثانى تقديم التسهيلات نه عند عبوره. وأدى تشكك الامبراطور اسحاق تجاه نوايا فردريك صديق النورمان إلى أن يضع اسحاق شروطا لذلك وافق عليها فردريك. ولكن ثمة عوامل أثارت الريبة لدى الامبراطور البيزنطى مثل زواج ابن فردريك هنرى السادس من وريثة صقلية النورمانية وكذلك الإتصالات التى تمت مع البلغار

---

(١) الحضارة البيزنطية، ص ٥٥ .

والصرب وهم جميعاً أعداء بيزنطة. فأثار ذلك كله جواً من الريبة والشك[1].

وفى مايو ١١٨٩م خرج فردريك بقواته ومر بهنغاريا ثم دخل أراضى بيزنطة حيث ارسل أسحاق قواته لابلاغه بما يفعله الألمان. وحدثت اعتداءات من جانب قوات الحملة على مناطق بيزنطية وقاموا بتخريبها. وارسل اسحاق خطابا شديد اللهجة إلى الامبراطور الألمانى مما أدى إلى رفضه لتلك اللهجة فى الوقت الذى راسل فيه صلاح الدين يخبره بخط سير هذه القوات الالمانية. واستمرت العلاقة فى التوتر خاصة بعد استيلاء الألمان على ادرنة ونهبها، كما تحالف فردريك مع الصرب والبلغار وكذلك الأرمن ضد بيزنطة. ولم تقف الأمور عند هذا الحد بل أرسل إلى البابا يطلب منه إعداد حملة صليبية ضد بيزنطة، وراسل أيضا المدن الايطالية من أجل إرسال اساطيلها للاستيلاء على القسطنطينية[2]. وهنا رأى الامبراطور اسحاق أنه من الأسلم له اللجوء إلى الأتفاق وتم عقد معاهدة بينهما فى نوفمبر ١١٨٩م. وكانت معظم شروطها فى صالح الأمبراطور الألمانى مثل حصوله على المؤن والامدادات وكذلك تعويضات عن خسائره وأطلاق سراح الأسرى الألمان وتقديم اسحاق رهائن من أفراد أسرته[3].

---

(١) عن تنظيم فردريك بربروسا لهذه الحملة أنظر:

F. Munz, Frederick Barbarossa, A Study in Medieval History, (London, 1969), Pp. 486 - 87 .

(٢) ibid, P. 489 .

(٣) عن نصوص هذه المعاهدة انظر:

F. Dogler, (ed.) Regesten der Kaiserurkunden des ostromischen Reichs von 565 - 1453, Corpus der griech ischen urkunden des Mittelalters und der neuen Ziet, Mûnchen und Berlin, 1924 - 1960, no. 1601 .

وفى أواخر مارس ١١٩٠ عبر الألمان إلى اسيا الصغرى حيث واجهتهم مشاكل من جانب سلاجقة الروم حيث نجح السلطان السلجوقى قطب الدين ملكشاه بن قلج ارسلان من استعادة قونية ثم حدثت معركة بينه وبين فردريك أنتهت بهزيمة السلاجقة وتم عقد معاهدة بينهما واصل بعدها فردريك طريقه عبر آسيا الصغرى. وأحدث تقدمها ردود فعل عنيفة فى الدولة الأيوبية. وكان صلاح الدين قد أرسل جانباً من قواته لمراقبة تحركات هذه الحملة بالاضافة إلى ما كان يصله من أخبار عن طريق الامبراطور البيزنطى. كما تم تخريب بعض المدن الشمالية فى بلاد الشام حتى لا تستفيد منها القوات الألمانية إذا دخلت إليها[1]. غير أن القدر تدخل لكى يضع حداً لهذه الحملة وذلك عندما غرق الامبراطور المانى أثناء عبوره نهر سالف أو الفاتر Calycadmus وذلك فى ١٠ يونيو ١١٩٠م، ونتج عن ذلك تشتت الحملة من بعدها حيث عادت أغلب القوات إلى بلادها. بينما توجه عدد قليل تحت قيادة ابنه فردريك السوابى حيث وصلت إلى عكا فى اكتوبر ١١٩٠م .

اما فيما يتعلق بعلاقة اسحاق بالملك الانجليزى ريتشارد قلب الأسد فقد تمثلت فى إستيلاء ريتشارد على جزيرة قبرص التى كانت تحت حكم اسحق دوقاس كومنين. ووصلت القوات الأنجليزية اليها فى مايو ١١٩١م واستطاعت ضم الجزيرة بعد عدة معارك بينهما. وتعرضت الجزيرة للسلب والنهب من جانب قوات ريتشارد. ثم قام ببيعها للداوية والذين باعوها بدورهم لجاى لوزينان. وحدث تحالف بينه وبين صلاح الدين خوفا من قيام

(١) ذكر ابن العديم : فأسقط فى أيدى المسلمين، وأستولى الياس عليهم، وتعلقت آمالهم أنه ربما مانعه فى طريقه من الأرج ومن قلج أرسلان، فلم يتفق من ذلك بل سار وقطع البلاد». زبدة الحلب، جـ ٣، ص ٨٦٠. وعن الآراء حول تخريب المدن أنظر: حسن عبدالوهاب: قيسارية الشام فى العصر الأسلامى ـ الإسكندرية ١٩٩٠ .

اسحاق الثانى بالاستيلاء على المدينة. ثم لجأ خليفته عمورى إلى الامبراطور هنرى السادس لحمايته أيضا من بيزنطة وأصبح تابعاً له. وترك ذلك أثره على سياسته فيما بعد حيث ورث سياسة النورمان والتى كانت تهدف للسيطرة على شرقى البحر المتوسط[١].

وعلى الرغم من هذه الحشود الضخمة التى خرجت فى الحملة الصليبية الثالثة، إلا أنها فشلت فى تحقيق الهدف الذى خرجت من أجله وهو الاستيلاء على بيت المقدس مرة ثانية. وتمخض عنها عقد صلح الرملة الذى أعاد للصليبيين مملكة ساحلية اتخذت من عكا عاصمة لها. أما عن أثر ذلك على بيزنطة فقد زاد العداء نحوها وأخذ المؤرخون يكيلون التهم للامبراطور البيزنطى بانه المسئول عن فشلها نتيجة لتحالفه مع صلاح الدين الأيوبى ونقله أسرار الحملة إليه أولاً بأول. ويقول الدكتور رأفت عبدالحميد أن الغرب الأوروبى خرج بنتيجة مؤداها أنه إذا أريد للفكر الصليبى النجاح فلا بد من القضاء على بيزنطة»[٢].

العلاقة مع الأيوبيين :

استمرت الاتصالات بين البيزنطيين والأيوبيين فى عهد أسرة انجيلوس. ووصلت سفارة إلى القسطنطينية فى ١١٨٥م/ ٥٨١هـ وتم عقد اتفاق بينهما للتعاون معا ضد اللاتين. وعندما نجح صلاح الدين فى استرداد القدس عام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ سمح للنصارى بالبقاء فى المدينة ويقصد بهم «المسيحيون الشرقيون». كما أعاد الكنائس للمسيحيين الشرقيين والتى كان اللاتين قد حولوها إلى مذهبهم الكاثوليكى. وكان لذلك أثره على التقارب مع البيزنطيين

١) Setton, (ed.), A History of the Crusades, vol. II., Pp. 117 - 120.

٢) قضايا من تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٢١

وتبودلت السفارات بين الجانبين فى أعقاب انتصارات صلاح الدين على اللاتين فى الأراضى المقدسة. وكان من أبرزها تلك السفارة التى وصلت فى عام ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م حيث رغب صلاح الدين فى إقامة شعائر الصلاة فى المسجد الموجود بالقسطنطينية. وعند حضورهم كان عدد كبير من التجار شهدوا ذلك الأمر وكانت السفارة قد حملت معها الفرش الخاصة بالمسجد ومنبراً. واستولى الجنوية على هذا المنبر وأحضروه دليلاً على خيانة الامبراطور البيزنطى.

واستمرت الاتصالات بين اسحاق الثانى وصلاح الدين أثناء تقدم حملة فردريك بربروسا. فلم ينقل إليه أخبار تقدم الحملة فحسب، بل انه أرسل يخبره بالقبض على سفراء الامبراطور الألمانى وايداعهم السجن. ثم أرسل صلاح الدين مجموعة من المسلمين لإقامة شعائر الصلاة فى المسجد الموجود بالقسطنطينية وأعلن بالدعاء من فوق منبره للخليفة العباسى الناصر لدين الله. وظلت المراسلات بينهما حتى انتهت هذه الحملة بوفاة فردريك عند نهر سالف كما سبقت الاشارة[١].

وفى أعقاب صلح الرملة الذى أنهى أحداث الحملة الصليبية الثالثة وصلت سفارة بيزنطية تطلب قطعة من الصليب المقدس الذى أخذه صلاح الدين عند استرداده للقدس، وكذلك القيام بحملة بحرية مشتركة لاستعادة قبرص من آل لوزينان. وأرسل صلاح الدين الهدية إلى الامبراطور البيزنطى حتى وفاة صلاح الدين فى عام ١١٩٣م، ثم لحق به الامبراطور بعد عامين.

---

(١) أوردت المصادر العربية تفاصيل هذه الاتصالات ونصوص الرسائل المتبادلة بينهما. على سبيل المثال راجع: ابن شداد: النوادر السلطانية؛ ابو شامة: الروضتين فى أخبار الدولتين، العماد الأصفهانى: الفتح القسى فى الفتح القدسى، ابن واصل: مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، ومن المقالات المتخصصة:

M Brand, Byzantium and Saladin. 1185 -1192, Opponents of the Third Crusade. in Spec[u]lum 1962. Pp. 167 - 181

وفى الفترة التالية وحتى سقوط القسطنطينية عام ١٢٠٤م نجد أن العلاقات مع الأيوبيين اختلفت بعض الشيء. فقد سارت الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين على نهج أتباع سياسة سلمية خاصة وأنها مرت بفترة عصيبة بسبب الصراع الذى دار حول الأملاك الأيوبية بين ابناء صلاح الدين وأخوته والذى أنتهى فى نهاية الأمر بنجاح العادل الأيوبى فى توحيد صفوفها. ومرة أخرى عادت الاتصالات ولكن العادل لم يتجه نحو الاشتراك فى مغامرات عسكرية مفضلاً سياسة المسالمة وكذلك استمرار علاقته الطيبة مع البيزنطيين. وشهدت أيضاً تبادل الهدايا والاهتمام بالمقدسات الدينية لدى الطرفين مثل المسجد الموجود بالقسطنطينية وذلك فى مقابل اهتمام الأيوبيين بالنصارى الموجودين فى بلادهم. كما وصلت هدايا من مصر إلى بيزنطة من توابل وبخور ونحو ذلك ولكنها تعرضت للنهب أثناء توجهها لبيزنطة. واستمر الحال على هذا النحو حتى قدمت الحملة الصليبية الرابعة إلى القسطنطينية والاستيلاء عليها بدلاً من التوجه نحو مصر .

الحملة الصليبية الرابعة والإستيلاء على القسطنطينية وتأسيس إمبراطورية اللاتين (١٢٠٤ ـ ١٢٦١م)

مقدمة :

يرجع العداء بين بيزنطة والغرب الأوروبى إلى أسباب عديدة. غير أن هذا العداء أخذ فى الأزدياد منذ عدم التزام بوهمند النورمانى بتنفيذ اتفاقية القسطنطينية التى وقعت بين الكسيوس الأول وقادة الحملة الأولى، ثم أخذ الغرب الأوروبى يلصق التهم ببيزنطة على أنها المسئولة عن الهزائم التى لحقت بالحملات المختلفة ومنها حملة عام ١١٠١م، والحملة الصليبية الثانية والحملة الصليبية الثالثة. وكان للتنافس التجارى بين المدن التجارية الايطالية وبيزنطة أثره على زيادة هذا العداء وحاولت الأولى التخلص من منافسة بيزنطة لها. وقبل الدخول فى تفاصيل هذه الحملة الرابعة نتوقف قليلاً لمعرفة أهداف المشاركين فيها .

فالبنادقة حصلوا على امتيازات عديدة من الامبراطور اسحاق الثانى وذلك فى اتفاقية عام ١١٨٧م، كما رد لهم الأموال التى سلبت منهم من قبل، وأخيراً حصل على موافقتها على عدم مساعدة اعداء بيزنطة خاصة من النورمان والألمان. بل كان عليها أن تقدم العون لبيزنطة فى حالة تعرضها لأى عدوان ويكون الأسطول البندقى تحت القيادة البيزنطية. وفى عام ١١٨٩م منح اسحاق امتياز آخر للبنادقة وذلك عندما تعرضت للخطر من جانب الامبراطور الألمانى فردريك بربروسا. وحصلت على امتيازات جديدة فى القسطنطينية ودفع تعويضات لها .

أما علاقته بجنوه فقد حاولت أيضا الحصول على امتيازات وتعويضات

من بيزنطة. واستمرت المفاوضات بينهما إلى أن أصدر أسحاق مرسوماً فى عام ١١٩٢م منحها بعض الامتيازات فى القسطنطينية، بالاضافة إلى عدم زيادة الضرائب على التجار الجنوية. وكذلك حصلت بيزا على نفس الامتيازات السابقة .

اما الامبراطور الكسيوس الثالث انجليوس فقد شهد عصره تحولاً عندما رفض البنادقة الانضمام إليه تماماً والانصراف عن الملك الصقلى والإمبراطور الألمانى - ومقابل ذلك قام بمنح امتيازات للجنوية والبيازنة مما جعل الأسطول البندقى يتحرك لتهديد بيزنطة والقسطنطينية نفسها وذلك فى عام ١١٨٦م. وبعد مفاوضات بين الجانبين تم عقد معاهدة جديدة فى عام ١١٩٨م. على الرغم من ذلك فقد اشتد العداء بين البنادقة والبيازنة نتيجة تفضيل الامبراطور للبيازنة ولكنه عاد فانقلب عليهم بعد اشتراكهم فى المؤامرة التى أدت إلى تهريب الامبراطور السابق اسحاق انجليوس إلى الغرب. وهنا حاولت جنوه الاستفادة من هذه الأوضاع الجديدة ومحاولة الحصول على امتيازات لها. وبالفعل منح الامبراطور لجنوده امتيازات جديدة مثل توسيع الحى التجارى والحصول على رصيف بحرى جديد(١) .

وهكذا فقد كانت الظروف مهيأة أمام البنادقة لتحويل الحملة القادمة ضد بيزنطة .

الدعوة للحملة :

تولى البابا انوسنت الثالث أمور الكنيسة الغربية (١١٩٨ - ١٢١٦م). وتتفق آراء المؤرخين على أنه يعد من أبرز البابوات الذين عملوا على رفع

---

(١) عن هذه الأحداث راجع كتاب د. حاتم الطحاوى: بيزنطة والمدن الإيطالية - العلاقات التجارية (١٠٨١ - ١٢٠٤م) وهو من المراجع المتخصصة فى هذا الجانب .

مكانة الكنيسة والتغلب على كافة العقبات التى تقف في سبيل تحقيق هذا الهدف. وتميزت شخصيته بالعديد من المزايا نتيجة لتلقيه العلم فى جامعتى باريس وبولونيا، وكذلك بلاغته وفصاحته فكان حجة فى هذه الجوانب ويشهد على ذلك الكم الهائل من الرسائل التى تركها(١).

وشكلت الحملة الصليبية جزءاً من سياسة البابا أنوسنت الثالث التى كانت تهدف إلى سيادة البابوية على العالم المسيحى بأكمله. ولذلك فقد دعا إلى قيام حملة صليبية ضد «الكفار» «وانقاذ تراث الرب». وعمل البابا على إستغلال هذه النغمة الربانية لتحقيق إطماعه السياسية. وأخذ فى إرسال الرسائل البليغة إلى كافة انحاء الغرب الأوروبى. كما بدء فى الإعداد للحملة من ناحية التمويل وخط السير وغير ذلك من الامتيازات مثل الغفران للمشاركين والإعفاء من الضرائب. كما فرض ضريبة صليبية خاصة على رجال الدين فى عام ١١٩٩ .

وفى الوقت نفسه عمل البابا على ايجاد مصالحة سياسية بين القوى المتنازعة فى أوروبا مثل التنافس بين فرنسا وانجلترا، وبين البندقية وبيزا وجنوة، وكذلك الصراع الدائر فى المانيا حول العرش. كما راسل البابا امبراطور القسطنطينية الكسيوس الثالث للاشتراك فى هذه الحملة وحاول عرض مسألة أتحاد الكنيستين مرة أخرى. وعلى الرغم من الوسائل الدبلوماسية والأستشهاد بآيات من الأنجيل فى رسالته للإمبراطور البيزنطى، إلا أنه رفض هذه الاتهامات، ووجه اتهامات للبابا مما أثار غضبه. وكان ذلك بداية تحول الحملة عن هدفها الأساسى وهو مهاجمة مصر ثم التوجه إلى القدس، إلى التفكير فى مهاجم القسطنطينية نفسها .

(١) عن هذه الخطابات أنظر:
Die Register Innozenz III, ed. Hageneder - Haidacher, Koln 1964 .

الاستعداد لخروج الحملة :

سارع فولك من مدينة نوى الفرنسية للمشاركة فى الحملة متخذاً خطى بطرس الناسك فى الحملة الصليبية الأولى وطاف بانحاء مختلفة من فرنسا مدعياً قدرته على شفاء المرضى والمقعدين. ونجح فولك فى اجتذاب اعداد كبيرة من الفلاحين. كما استجاب لنداء البابا عدد كبير من الفرسان وأتباعهم.اما الملوك فلم يستجب أحد منهم لدعوة البابا. ومر الموعد الذى حدده البابا للخروج وهو مارس ١١٩٩ ـ ثم بدء الاستعداد الفعلى فى أواخر عام ١١٩٩ . وأورد مؤرخا الحملة وهما فيلهاردوين وروبرت كلارى أسماء المشاركين فى الحملة والذين استجابوا لنداء البابا. ولم يكن الدافع الدينى هو المحرك الرئيسى لهؤلاء الفرسان بل كانت الأطماع المادية والتقاليد العائلية كما فى عائلات دى بلوا ودى شامبانيا وغيرهما. وعبر روبرت كلارى عن دافع مشاركة هؤلاء الفرسان بقوله أنهم راحوا إلى بيزنطة «لكى يستولوا على الأرض» .

البندقية والحملة الصليبية الرابعة :

بعد أن أجتمع الفرسان قرروا أختيار ستة من الأعيان لكى يذهبوا إلى البندقية للتفاوض معها بشأن نقل الحملة على سفنها. وفى ابريل ١٢٠١ تم الاتفاق على ذلك ووفقاً لشروط محددة. وعملت البندقية على استغلال هذه الظروف لصالحها وذلك بالتخلص من منافستيها الرئيستين وهما بيزا وجنوه والسيطرة على تجارة البحر المتوسط والبحر الأسود. وربما كانت هذه الأفكار موجودة قبل خروج الحملة. ويرى زابورروف أن أهم سبب لتحول الحملة لمهاجمة القسطنطينية يكمن فى السياسة التوسعية للبندقية فى البحر المتوسط والتى أوجدتها التناقضات الاقتصادية فى هذه المنطقة. وينقل عن مؤرخ آخر

قوله أن دوق البندقية كان هو المتآمر الأول فى تلك المؤامرة التى شرعت القوى الأوروبية فى تنفيذها منذ بدء الحملة [(١)].

اما توجيه الحملة نحو مصر وبعد ذلك نحو القدس فقد كان الهدف الذى بدأت به مرحلة الأعداد وذلك بالتوجه نحو الأسكندرية. وأصبحت المقولة السائدة هى اذا أردت القضاء على الأفعى فعليك برأسها ويقصدون من ذلك مصر. غير أن البندقية لم تكن راغبة فى ذلك حيث أن مصالحها التجارية قامت مع مصر. بل أن المؤرخ أرنول يقول أن السلطان المصرى (الأيوبى) أشترى من البندقية واجب توجيه الصليبيين فى اتجاه آخر. وعبثاً حاول البابا اصدار قرار الحرمان ضد البنادقة لتجارتهم مع مصر ومنعهم من ذلك ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل .

استطاع دوق البندقية أن يعقد معاهدة مع رسل الصليبيين ونظراً لخبرته فى هذا النوع من المعاهدات تمكن من خداع الصليبيين دون أن يدركوا هذا الأمر. وربما استشف البابا شيئاً من ذلك واشترط أن الصليبيين الذاهبين لحرب الكفار لن يرفعوا السلاح ضد المسيحيين ولا شك أنه يقصد البيزنطيين .

وعلى الرغم من هذا الشرط إلا أن ثمة عوامل أدت إلى تعديل مسار الحملة ومن بينها عدم حصول البابا انوسنت على وعد من الامبراطور البيزنطى بشأن اتحاد الكنيستين، كذلك تم تهريب الامبراطور السابق وذلك على متن سفنية بيزوية ووصل إلى روما حيث قابل البابا طالباً منه المساعدة فى العودة إلى عرشه. وهكذا فقد توفر للبابا فرصة العمر وذلك للتدخل فى الشئون البيزنطية. كما ورد فى رسالة فيليب من سوابيا إلى البابا تعهد فيها

(١) الصليبيون فى الشرق، موسكو ١٩٨٦ ، ص ٢١٧ وما بعدها.

الإمبراطور الهارب بوضع الكنيسة الارثوذكسية تحت قيادة الكنيسة الكاثوليكية. وهكذا فقد بدأت النوايا تتضح شيئاً فشيئاً. فاطماع البنادقة أخذت تتضح منذ الاتفاق المعقود مع الصليبيين، ورعاية البابا للإمبراطور الهارب، ثم كانت القوى الاقطاعية التى رغبت فى الانقضاض على بيزنطة ونهبها .

خط سير الحملة :

خرجت الحملة متوجهة إلى جزيرة ليدو الواقعة على نحو اربعة كيلومترات من البندقية. ويتهم أحد المؤرخين البنادقة بانهم لم يقدموا المؤن الكافية وأنتشر المرض ومات الكثيرون من الصليبيين. ومن تبقى منهم أخذ ينخرط فى أعمال المقامرة وغيرها. وهكذا فقد أفلس هؤلاء الصليبيون وعجزوا عن سداد ما طلبه البنادقة. وسارع البعض بالعودة بينما أبحر آخرون على سفن أخرى. ولم يتجمع سوى أقل من نصف العدد المتفق عليه فى المعاهدة السابقة. وأخذ البنادقة فى التهديد بعدم إرسال المؤن أو السفن لان الصليبيين لم يتمكنوا من سداد المبالغ المطلوبة منهم. وعندما وصل بونيفاس دى مونتفرات عرض عليه البنادقة الاستيلاء على زارا التابعة للمجر مقابل تسديد الدين المطلوب منهم. وكانت هذه المدينة منافسة شديدة للبندقية منذ زمن بعيد. واختلف رد الفعل تجاه لجلب البنادقة. فقد عارضه البعض على أعتبار أن زارا مدنية مسيحية فكيف يقتل مسيحى مسيحى آخر مثله. ولكن البارونات وجدوا أن البديل عن مهاجمة زارا هو التفرق والعودة فقط، وهو ما لم يكن مقبولاً لديهم فتمت الموافقة على هذا الأقتراح .

وعلى الرغم من معارضة البابا لهذا المشروع وإرسالة التهديد بفرض قرار الحرمان، إلا أن مندوبه فى الحملة أباح السير بالحملة إلى نهايتها أيا كان

الثمن. ودلت المؤشرات أن البابا كان يهدف إلى ضم القسطنطينية بالاضافة إلى القدس. وبالفعل وصلت قوات الحملة إلى زارا واستطاعت حصارها فى نوفمبر ١٢٠٢ وبعد مقاومة شديدة من السكان سقطت المدينة وأحدث الصليبيون بها التخريب والدمار والقتل. وبالرغم من ذلك فإن البابا لم يصدر ضدهم أى قرار بالحرمان ونصحهم بألا يزيدوا فى الخطايا .

أمضى الصليبيون الشتاء فى زارا ثم اجتمعوا فى أوائل عام ١٢٠٣م وقدم إليهم مبعوث من الامبراطور المخلوع لكى يعيدوه إلى عرشه. ووافق الجميع على ذلك تحت زعم «لاجل بعث العدالة» أى أعادة الامبراطور المخلوع. ووقع الكسيوس على الشروط حيث وعد باخضاع الكنيسة البيزنطية للكنيسة الرومانية وأن يشترك شخصياً فى الحملة الصليبية. وغير ذلك من الشروط. وتمت الموافقه على هذا الاتفاق من جانب بونيفاس ومجموعة أخرى. بينهما عارضة مجموعه من عامة الناس فضلوا العودة إلى الغرب دون المشاركة فى مهاجمة القسطنطينية .

ومرة أخرى يتبادر إلى الذهن التساؤل السابق عن موقف البابا من تحويل خط سير الحملة إلى القسطنطينية. والاجابة تشير إلى أنه أتبع سياسة مزدوجة فبينما تشير خطاباته إلى تحريمه لذلك الأمر من خلال رسائله، إلا أنه ترك منفذاً يسمح بذلك. وذلك عندما ذكر «إلا اذا شرعوا ـ أى المسيحيين ـ فى إقامة العوائق أمام حملتكم، أو إذا ظهر سبب ما آخر عادل أو ضرورى ترون أنه بموجبه يمكنكم التصرف بشكل آخر». وكانت هذه هى الثغرة التى أتاحت للحملة مهاجمة القسطنطينية. وفى مصدر آخر يذكر مؤلفه أن البابا كان يكره القسطنطينية منذ زمن بعيد وكان يرغب فى أن يستولى عليها الشعب الكاثوليكى بدون إراقة الدماء» .

توجهت الحملة بعد ذلك إلى كورفوحيث وصل الامبراطور السابق، ووقع على المعاهدة كما قدم رشاو إلى البارونات وذلك على هيئة كمبيالات. وكان ذلك ما حرك قلوب البارونات وأسال لعابهم. وتم التوصل إلى حل مع المعارضين لتوجيه الحملة نحو القسطنطينية وذلك بأن وافقوا على البقاء حتى تنتهى مدة المعاهدة المعقودة مع القسطنطينية وذلك فى ٢٩ سبتمبر ١٢٠٣م. ثم غادر الصليبيون كورفو وتوجهوا إلى القسطنطينية .

الحملة تهاجم القسطنطينية :

كانت أحوال بيزنطة آنذاك فى غاية السوء بسبب الضرائب الباهظة المفروضة على السكان، والنزاعات السابقة وكثرة الأمتيازات التى حصل عليها التجار الايطاليين بها. وبالتالى فان الجيش والأسطول البيزنطى لم يكن قادراً على مواجهة هذه الحشود. يضاف إلى ذلك الصراع بين الفئات المختلفة مثل كبار الموظفين وكبار ملاك الأراضى. ولذلك فإن من الصعب على بيزنطة أن تواجه هذه الحشود الصليبية .

ويعبر فلهاردوين عن دهشته عندما رأى المدينة «لم يكن بوسعم أن يتصوروا أنه يمكن أن توجد فى مكان ما من الدنيا مدينة بمثل هذا الغنى». وعندما وصلت القوات حاول الكسيوس الثالث أن يبعدها بالوسائل الدبلوماسية ولكنه فشل لأن المحاصرين خيروه بين ترك العرش أو تحمل العواقب. واستطاعت سفن اللاتين اختراق السلسلة وهاجمت السفن البيزنطية القليلة ونزلت القوات الصليبية عند جالاطا وأحتلال البرج الواقع هناك. وتعرضت المدينة للهجوم براً وبحراً وذلك لمدة عشرة أيام حيث تساقطت الأبراج. وعبثاً حاول الكسيوس رد هذه الهجمات ولكن فشل فى ذلك واستسلمت المدينة فى ١٧ يوليو ١٢٠٣م. وأعيد اسحاق الثانى

انجيلوس وكان سجينا وسملت عيناه ـ إلى العرش ولكن لم يكن باستطاعته الوفاء بالألتزامات التى تعهد بها أبنه. وحضر الكسيوس إلى العاصمة وأصبح شريكا لوالده وحمل أسم الكسيوس الرابع. وفرض الصليبيون اتاوات على الأهالى لجمع المبالغ المطلوبة. كما امتدت أعمال السلب والنهب إلى الكنائس والمنازل وغيرها، بالاضافة إلى الحريق الذى أتى على نصف المدينة. وعندما رفض الإمبراطور وابنه الألتزام بدفع الأموال المطلوبة، بل تزعما حركة مقاومة فشلت. ولذا عمل الأعيان على تنصيب امبراطور جديد. وتم اختيار الكسيوس دوكا ـ حيث حمل أسم الكسيوس الخامس، بينما أختار العامة شخصاً آخر لتولى الحكم ولكن قبض عليه وتم خنقه فى السجن. وفشلت محاولاته لإقامة قوات للدفاع عن المدينة .

وقبل اقتحام المدينة قام القادة بوضع اتفاقية لتقسيم التركة البيزنطية وذلك فى مارس ١٢٠٤م. وحرص البنادقة على الخروج بنصيب الأسد لأنفسهم ولم يتركوا سوى الربع لباقى الصليبيين. كما نظمت مسألة أختيار امبراطور جديد ومن يقوم بذلك الأمر. وتم اعداد آلات الحصار حيث جرت فى ٩ ابريل ١٢٠٤ أول محاولة لاقتحامها ولم يكن الأمر سهلاً. وبعد عدة محاولات تم اقتحام المدينة واشعلت النيران فيها. وعند اقتحام المدينة فضل العامة عدم المقاومة وسقطت المدينة بعد ثلاثة أيام من الحصار. ومرة أخرى نجد البابا أنوسنت الثالث يبارك هذا الاقتحام ويمنح الغفران للمشاركين معتبراً أن ذلك «عمل مشروع ويرضى الرب» وقام الصليبيون باعمال السرقة والنهب. ولم يتوقف الأمر عند ذلك بل قاموا بالأعمال المخلة فى المدينة وظلوا على هذا الأمر ثلاثة أيام. ويعبر أحد المؤرخين عن حجم الكارثة بقوله «لا أعرف من أين أبدأ وأين أنتهى فى وصف كل ما أقترفه هؤلاء الناس الكفار» ! .

امبراطورية اللاتين فى القسطنطينية :
(١٢٠٤ - ١٢٦١)

فى البداية انحصرت دولة اللاتين فى العاصمة القسطنطينية، ثم أخذت فى التوسع فى أراضى شبه جزيرة البلقان واستولوا على تراقيا ومقدونيا والبلوبونيز وجزر بحر ايجه وغيرها، وقاموا بتوزيعها على أنفسهم وحملوا القاب كونتات على هذه المناطق أيضا. غير أن هذه الامبراطورية اللاتينية لم يكن الأمر سهلاً امامها فقامت بؤر للمقاومة، ودخلت بلغاريا فى هذا الصراع ونجحت فى توجيه ضربة للامبراطور اللاتينى بلدوين الأول. وفى عام ١٢٦١م نجح الامبراطور ميخائيل الثالث باليو لوجوس فى الأستيلاء على العاصمة وتم طرد الصليبيين منها وعادت السيادة البيزنطية مرة أخرى واستمرت حتى عام ١٤٥٣م حينما فتحها السلطان العثمانى محمد الفاتح[١] .

(١) زابوروف: المرجع السابق، ص ٢٢٠ ومابعدها، أسمت غنيم: الحملة الصليبية الرابعة ومسئولية انحرافها ضد القسطنطية، القاهرة، ١٩٨٢ - وراجع أيضاً قائمة المراجع عن (بيرنطة والصليبيون)، هويدا أحمد بنيرة: بيزنطة والصليبيون حتى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى - رسالة دكتوراه لم تنشر بعد - الاسكندرية ٢٠٠٠م.

قائمة مقترحة بأهم المراجع
فى التاريخ البيزنطى

الأحوال العامة لبيزنطة :

- R. Browning, The Byzantine Empire, London, 1980.
- Cambgridge Medieval History .

وتوجد بها قائمة مهمة عن المراجع البيزنطية .

- H. W. Haussing, A History of Byzantine Civilization, London 1971 .
- A Kazhdan & G. Constable, People and Power in Byzanti um. Washington, D. C. 1982 .
- D Obolensky, The Byzantine Commonwealth. London 1971 .

وتوجد به قائمة هامة

- G. Ostrogorsky, History of the Byzantine State. Oxford 1968 .

وبه قائمة مساعدة

- A. A. Vasilieve, History of the Byzantine Empire. Madisom 1952.

وتوجد به قائمة عن المراجع القديمة .

- N. H. Baynes & L. B. Moss, Byzantium, an introduction to the East Roman Civiliztion, Oxford, 1964 .
- B. J. B. Bury, A History of the Eastern Roman Empire, From The Fall of Irene to the Accesion of Basils II, 802 - 567 A. D. London 1912 .
- Ch. Diehl, History of The Byzantine Empire, trans. by B. Geogre, New York, 1954 .
- R. Jenkins, Byzantium the Imperial Centuries 610 - 1071, A. D. London, 1966 .
- T. T. Rice, Byzantium, London, 1969 .

ثانيا: مراجع فى موضوعات متخصصة

السياسة الخارجية لبيزنطة فى القرن الحادى عشر الميلادى:

مع الروس :

- D. Obolensky, Byzantium, Kiev and Moscow. A study in ecclesiastical relations, D. O. P. 11 (1957) Pp. 21 - 78 reprinted in Obolensky, Byzantinm and the Slavs. London 1971 .

- A Poppe, La derniére expeition russe contre constantirople, Byzantinoslavica, 32 (1971) .
- J. Shepard, Why did the Russians Attack Byzantium in 1043? Byzantinisch - neugriechischen Jahrbucher, 22 (1979) Pp. 147 - 212 .

مع السلاجقة :

- C. Cahen, Pre - Ottomn Turkey, London 1968 .
- C. Cahen, Turcobyzantina et Oriens Christianus . London 1974 .

موقعة مانزكرت وفقدان بيزنطة لانطاليا :

- W. C. Brice, The Turkish colonisation of Anatolia B. J. R. L., 48 (1955) Pp. 15 - 44 .
- A. Friendly, The Dreadful Day. The Battle of Mantzidert, 1071, London 1981 .

جنوبى ايطاليا والغربى الأوروبى

- H. Bloch, "Monte Cassino, Byzantium and the west in the earlier Middle Ages' D. O. P. 3 (1946)Pp. 165 - 224 .
- A. Guillou, "Production And Profits in the Byzantine Province of Italy (10 th - 11 th Centuries): an expanding Society" D. O. P. 28 (1974), Pp. 89 - 109 .
- R. Mayne, East and West in 1054, C. H. J., 11 (193 - 55) Pp. 133 - 48 .
- D. M. Nicol, Byzantium and the Papacy in the eleven th century, J. E. H., 13 (1962) Pp. 1 - 20 .

مع المسلمين :

- E. W. Brooks, The Campaigne Of 716 - 616 from Arabic Sources, in J H. S. vol. xix, London 1899 .
  - the Byzantine and the Arabs in the Early Abasids, E. H. R. xv. 1900 .
  - The Relations Between the Empire and Egypt from the New Sources, B. Z. vol. xvil, 1913 .
  - The Struggle with the Saracens 717 - 867, in C. M. H. vol. Iv .

- F. W. Buckler, F. W., Harun Al-rashid and Charles the Great, Cambridge 1931 .
- M. Canard, Les cxpeditions des Arabes contre Constantinqle, in J. A. ccv111, London 1926 .
- Histoire de la Dynastie des Hamdanides de Jezira et de Syrie, Paris 1951 .
- Byzantine and the Muslim World to the Middle of the 11 century, in C. M. H. vol. Iv .
- V. Christides, Arbic Influnce on the Akritic cyck, in. B. vol. il. 1979 .
  - The Raids of the Moslems of Crete in the Aegean Sea Piracy and Conquest. in B. vol. li, 1981 .
D. J. Constantelos, The Moslem Conquests of the near East as revealed in the Greek Sources of the Seventh and eigth centuries. in B. vol. xl1, 1972 .
- Aly Mohamed Fahmy, Muslim Naval Organisation in the Eastern Mediterranean, From the seventh to the tenth century A. D. Cairo 1980 .
- W. B. Kubiak, The Byzantine Attack on Damietta in 853 and the Egyptian Navy in the 9 Th Century, in Byzantion, vol. X1, 1970, Pp. 45 - 66 .
- S. Runciman, Charlemagne and Palestine, in: E. H. R. vol. L, 1953, Pp. 505 - 519 .
- L. A. Tritle, Tatzates' Flight and Byzantine - Arab peace treaty of 782, in: Byzantion,m t. zlvll, 1977, Pp. 279 - 300 .

بيزنطة والصليبيون :

- P. Charanis, "Byzantium, the West and the origin of the first Crusade' Byzantion, 19 (1949) Pp. 16 - 36 .
- J. M. Hussey, "Byzantiun and the Crusades, 1081 - 1204" in D. M. Setton (ed.). Philadelphia, 1962, Pp. 123 - 51 .
-E Joranson, "the Problem of the spurious letter of Emperor Alexius to the Count of Flanders, A. H. R., 53 (1949 -- 50). Pp. 811 - 32 .
- R. J. Lilie, Byzanz und dil Kreuzfahrerstauten .

وتوجد به قائمة مهمة للغاية . Munchen 1981 .

- J. G. Rowe, "Paschal II, Boahemnud of Antioch and the Byzantine Empire, B. J. R. L., 49 (1966 - 67) Pp. 165 - 2-2 .

بيزنطة وهنغاريا :

- R. Browing," A new Source on Byzantine - Hungarian relations in the 12th century, Balkan Studies, 2 (19610, Pp. 174 - 214 .
- G. Moravcsid, 'Hungary and Byzantium in the Middle Ages' in C. M. H., vol. Iv, Pp. 567 - 92 .
- G. Moravcsid, Byzantium and the magyars. Amsterdam 1970 .
- A. B. Urbansky, Byzantium and the Danube frontier. New Yord, 1968 .

بيزنطة والبنادقة :

- H. Brown, ' The Venetians and the Venetian Quarter in Constantinople to the Close of the twelf th century, J. H. S., 40, (1920), Pp. 68 - 88 .
- R. Cessi, 'Venice to the eve of the Fourth Crusade, C. M. H. Iv, Pp. 250 - 74 .
- M. E. Martin, 'The chrysobull of Alexius I Comnenus to the Venetians and the early Venetian Quarter in Constantinople, Byzantionslavica, 39 (1978) p. 19 - 23 .
- O. Tūma, 'The Dating of Alexius's Chrysobull to the Venetians: 1082, 1084, or 1092?' Byzantionslvica, 42 91981) Pp. 171 - 85 .

الأقاليم البيزنطية

اليونان

- M. A. Frantz, The Middle Ages in the Athenian Agora. Princton, 1961 .
- K. M. Setton, Athens in the Middle Ages. London, 1975 .

البلقان

- J. V. Fine, The Early Medieval Balkans. Ann Arbor, 1983 .
- J. Ferluga, Byzantium on the BalKans. Amesterdom 1976 .

قبرص :

- H. Ahrweiler, "L'administration Militaire de la Créte byzantine, Byzantion, 31, (1961) Pp. 217 - 82 .

انهيار الإمبراطورية البيزنطية (١١٨٠ - ١٢٠٤)

- C.M. Brand, "The Byzantines and Saladin. 1185 - 1192: Opponentes of the third Crusade. Speculum, 37 (1962), Pp. 167 - 81 .
- Byzantium confronts the West 1180 - 1204. Cambridge 1968 .
- J. Folda, "The fourth Crusade, 1201 - 1203, Some reconsiderations'. Byzantinoslavica, 26 (1965), Pp. 273 - 90 .
- J. Herrin, "The Collapse of the Byzantine Empire in thhe twelfth century: a study of medieval economy' University of Birmingham Historicl Journal, 12 (1970) Pp. 188 - 203 .
- D. E. Queller, The Fourth Crusade. Leicester, 1978 .

قائمة مقترحة للمراجع العربية :

اقتصر الباحث على الإشارة إلى المراجع المتعلقة بالتاريخ البيزنطي :

١ ـ ابراهيم احمد العدوى (دكتور) : الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية – القاهرة ١٩٥١ .

٢ ـ احمد عبدالكريم سليمان (دكتور) : المسلمون البيزنطيون فى شرقى البحر المتوسط فيما بين القرنين الثالث والسادس الهجرى. القاهرة ١٩٨٢ .

٣ ـ اسمت غنيم (دكتورة) : الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية ـ الاسكندرية ١٩٨٣ ـ الحملة الصليبية الرابعة .

٤ ـ السيد الباز العرينى (دكتور) : الدولة البيزنطية ٣٢٣ – ١٠٨١م – القاهرة ١٩٦٥ .

– الإسلام والمسيحية وصراع القوى بينهما فى العصور الوسطى – الإسكندرية ١٩٨٦ .

ـ حسنين محمد ربيع (دكتور) : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية – القاهرة ١٩٨٢ .

ـ زبيدة عطا (دكتورة) : الترك فى العصور الوسطى – القاهرة بدون تاريخ .

– عفاف السيد صبره (دكتورة) : الامبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية زمن شرلمان– القاهرة ١٩٨٢ .

ـ علية عبدالسميع الجنزورى (دكتورة) : الثغور البرية الإسلامية على حدود الدولة البيزنطية فى العصور الوسطى – القاهرة ١٩٨١ .

– المرأة فى الحضارة البيزنطية – القاهرة ١٩٨١ .

ـ عمر كمال توفيق (دكتور) : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية – الإسكندرية ١٩٦٧ .

ـ مقدمات العدوان الصليبى .

ـ فتحى عثمان (دكتور) : الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والاتصال الحضارى، القاهرة ١٩٦٦ .

ـ محمد محمد مرسى الشيخ (دكتور):
- تاريخ الامبراطورية البيزنطية - الإسكندرية - ١٩٩٥ .
- الخزر وعلاقتهم بالامبراطورية البيزنطية - السعودية ١٩٨٠ .
- وديع فتحى عبدالله (دكتور: العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامى- الإسكندرية ١٩٩٠ .
ـ محمود سعيد عمران (دكتور): معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية - الإسكندرية١٩٩٩ .
- السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية
- وسام عبدالعزيز فرج (دكتور) : دراسات فى تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية الإسكندرية ١٩٨٢.
- العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادى - الإسكندرية ١٩٨١ .
- دراسات فى التاريخ الاجتماعى والأقتصادى فى العصور الوسطى الإسكندرية١٩٨٥ .

القسم الثاني

موضوعات في التاريخ الحضاري للدولة البيزنطية

الموضوع السابع عشر

أحوال برقة وطرابلس في اوائل العصور الوسطي

وحتي منتصف القرن الخامس الميلادي

(*) د. ابراهيم خميس ابراهيم، أستاذ تاريخ العصور الوسطى

قبل أن نشرع فى الحديث عن أحوال كل من برقة وطرابلس منذ أواخر القرن الثالث حتى منتصف القرن الخامس الميلادى، يجب التنويه الى ما ذكرته المصادر عنهما خلال هذه الفترة وإلى ما اشار إليه المؤرخون عن هذه المنطقة. إذ تشير المصادر إلى أن المنطقة الشمالية من القارة الافريقية الممتدة من غربى مصر حتى ساحل المحيط الاطلنطى كانت تعرف باسم ليبيا[١] أو افريقية الشمالية[٢]، تذكر بعض المصادر أن ليبيا كانت تنقسم إلى منطقتين هما: ليبيا الشرقية وتضم منطقة برقة، وليبيا الغربية وتمتد من طرابلس حتى ساحل المحيط[٣].

ولا نجد تفسيراً لهذا التقسيم سوى انه تقسيماً ادارياً فحسب لم يجر إلا فى

---

(١) -Theophanes, Chronographia, cf. P.G.M.
Tom. CV111, Paris, 1863, P. 30,
- Cantacuzenus, Chronicom, cf. C.SH.B., Bonn, 1882, P. 18.
- Excerpta Edixippo, Historiorum Reliquiae, cf.
C.S.H.B., Bonn, 829, P. 15.

(٢) -Procopius of Caesarea, The Anecdota or
Secrst History, Tr. H.B.Deving, London, 1969, P. 11,
- Zosimus, Commentarus Historicus cf. C.H.S.B,
Bonn 1837,P. 17.
- Merobaudes et Corippus, Panegurici Reliquiae, cf C.S.H.B.,
Bonn, 1845, P. 8.
- Michael Clycos, Annalium, cf.C.S.H.B., Bonn, 1836, P. 126,
- Georgius Cederenus, Historiarum Compendium, cf.P.G.H.
Tomcxx1, Paris, 1864, P. 66.

(٣) - Theophanes, op. Cit., P. 430,
- Excerpta Edixippo, Ibid,
- Georgius Monchus Hamartolus, Chroicon, cf. P.G.M.
Tom. Cx, Paris, 1863, P. 803.

منتصف القرن الخامس الميلادى تقريباً، اذ ظلت كل من برقة وطرابلس مرتبطتان ادارياً منذ عام ٢٨٤م حتى عام ٤٤٢[١].

ولم تكن النظم الادارية وحدها هى التى تربط كل من برقة وطرابلس، وانما جمعتهما وحدة الطبيعة[٢]، ووحدة العادات والتقاليد للعنصر البشرى الذى عاش فيهما[٣]. اذ كانت القبائل المورية تقطن المنطقة الصحراوية الشاسعة التى تقع بها كل من برقة وطرابلس[٤]، هذا بالاضافة إلى أن الأحوال الدينية والاقتصادية والعسكرية فى كل منهما تكاد تكون متشابهة[٥]. لكل هذه الاسباب رأينا دراسة احوال كل من برقة وطرابلس منذ أواخر القرن الثالث حتى منتصف القرن الخامس الميلادى. على اساس أنهما يمثلان وحدة واحدة لم تكن بينها أية حواجز وأنهما يعتبران امتداداً طبيعياً لحدود مصر من جهة الغرب[٦].

وعند الاشارة إلى النظام الادارى فى برقة وطرابلس فى عهد الامبراطور دقالديانوس Diocletian (٢٨٤ - ٣٠٥م) نجد أنهما كانتا يشكلان معا مقاطعة واحدة من صمانى مقطاعات[٧] تتكون منهم ولاية أفريقيا[٨]، وكانت تعرف باسم مقاطعة طرابلس، وتضم عدة مناطق

---

(١) انظر ما يلى عن النظام الادارى فى كل من برقة وطرابلس.

(٢) سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى، الاسكندرية (د.ت)، ص ١٤ - ١٨.

(٣) شارل اندرى جوليا: تاريخ افريقيا الشمالية، تعريب محمد مزلى، والبشير بن سلامة، تونس ١٩٦٩م، ص١٢.

(٤) - Zosimos, Op. Cit., P. 66.

(٥) انظر ما يلى عن هذه النظم فى كل من برقة وطرابلس.

(٦) حسنين محمد ربيع: دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة ١٩٨٣م، ص ٧٨.

(٧) - Theophanes, Op. Cit., P. 306.

(٨) المقطاعات هى تريبوليتانا Tripolitana (طرابلس)، وموريتانيا ستيفنسيس Mouretania Sitifinsis. وموريتانيا سيزار نسيس Mouretania Caesaiensis، ونوميديا Numidia، وموريتانيا تنجيتانا Mouretania Tingitana، وبيزا سنا Byzacena، وزيوجيتانا Zeugitana. (زعوان) أنظر:

- Bury, J., History of the Later Roman Empire, 2 Vol., New York, 1985, Vol. I, P. 255.

Tractusهى لوبيه، ومراقيه، واويا، ولبده، وصبره، كما انقسمت هذه المناطق بدورها إلى عدة وحدات Regiones هى سرت، والبطنان، والجبل الاخضر، وبرقة الحمراء، وكانت كل وحدة تنقسمإالى عدد من القرى(١).

وكان على رأس هذه المقاطعة موظف ادارى يعرف باسم رئيس الابروشية(٢) وله وله نائب وديوان للادارات المختلفة(٣) المالية والقضائية والمحفوظات والانشاء.

كما كان يترأس عدداً كبيراً من الموظفين المدنيين، وكنت مهمة هذا الجهاز الادارى تقدير الضرائب وجمعها، وممارسة اعمال القضاء، وارسال الضرائب الى حاكم ولاية افريقية فى قرطاج تمهيداً لارسالها للامبراطور(٤).

وكانت مدينة طرابلس هى عاصمة هذه المقاطعة ومقر الحاكم الادارى وجهازه من الموظفين، وكان لهذه العاصمة مجلس بلدى - Ordo Decurionum تمثل الطبقة الارستقراطية فى طرابلس معظم اعضائه، وكان يرأسه اثنان من الموظفين الاداريين يتم انتخابهما كل عام بواسطة أعضاء المجلس(٥).

أما عن المناطق، فكان على رأس كل منطقة موظف ادارى يساعده مجلس للشورى يتكون أيضاً من الطبقة الارستقراطية التى تعيش داخل هذه المنطقة وكان مسئولاً عن المحافظة على النظام فى منطقته ، وتقدير الضرائب وجمعها واعمال القضاء(٦).

وكان على رأس كل وحدة من الوحدات الادارية موظف أقل مرتبة من

---

(١) سعد زغلول : المرجع السابق، ص ٦ - ٩ شارل اندى: المرجع السابق، ص.

(٢) - Zasimus, Op. Cit., P. 17.

(٣) - Theophanes, Ibid.

(٤) - Zosimos, Op. Cit., PP. 71 - 95 - 98.

(٥) - Theophanes, Op. Cit., P. 308.

(٦) - Zosimos, Op. Cit., P. 95.

حاكم المنطقة، ويساعده مجلس يتكون من شيوخ هذه الوحدة[١].

وطبقاً لسياسة الاصلاح التى وضعها الامبراطور دقلديانوس، والتى كان من أهم معالمها فصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية[٢] لم يقم هؤلاء الموظفون بنشاط حربى طوال عهد الامبراطور دقلديانوس رغم التهديدات التى تعرضت لها المقاطعة نتيجة لغارات القبائل البدوية. إذ تشير بعض المصادر البيزنطية إلى ان هذه القبائل شنت الغارات على المناطق الزراعية فى العام الخامس عشر من عهد الامبراطور دقلديانوس، وأحدثوا كثيراً من الاضطرابات مما أزعج نظيره مكسيميان Maximian، الذى نجح فى القضاء على تمرد هذه القبائل. ورغبة من مكسيميان فى إجبار هذه القبائل على الاخلاد للسكينة، أتفق مع شيوخها على الصلح[٣]، ولكن بمجرد رحيل الامبراطور والجيش عادت هذه القبائل إلى شن الغارات واحداث الشغب، ولذلك اطلقت عليهم بعض المصادر اسم Pacati أى ناقضى السلام[٤].

على أية حال استمر هذا النظام الادارى فى مقاطعة طرابلس منذ عهد الامبراطور دقلديانوس حتى عهد الامبراطور ثيودسيوس الثانى Theodosius II (٤٠٨ - ٤٥٠)[٥]، وفى الوقت نفسه استمرت غارات البدو على المناطق

---

(١) - Zosimos, Op. Cit., P. 79.
- Theophanes, Op. Cit., P. 306.

(٢) - Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State, Oxford, 1956, P. 31.

(٣) لم تشر المصادر إلى شروط هذا الصلح.

(٤) - Meroboudes, Op. Cit., P. 225.
- Theophanes, Op. Cit., P. 306.

(٥) - Zosimos, Op. Cit., P. 98.
- Theophanes, Op. Cit., P. 308.

الزراعية خلال هذه الفترة[1] مما جعل حاكم مقاطعة طرابلس يجمع بين السلطنين المدينة والعسكرية[2].

ولم يكن جمع السلطتين فى يد الحاكم هو التغير الوحيد الذى طرأ على هذه المقاطعة، وانما أدت المعاهدة التى عقدها. فالنتينيان الثالث Valentinian III امبراطور القسم الغربى من الامبراطورية الرومانية (٤٢٥ - ٤٥٥م) مع الوندال عام ٤٤٢م[3] إلى نتائج مؤثرة على التقسيم الادارى فى كل من برقة وطرابلس. إذ انسلخت برقة عن مقاطعة طرابلس واصبحت تمثل مقاطعة قائمة بذاتها ضمن ولاية مصر[4]، بينما تطلع الوندال إلى السيطرة على طرابلس حتى نجحوا فى عام ٤٥٥م فى الاستيلاء عليها[5].

أما عن النظام الحربى، فقد كانت كل من برقة وطرابلس مركزاً للفرق العسكرية المعروفة بجيش الاطراف أو الحدود Limitanei الذى يقوم افراده بزراعة الارض التى بحوزتهم كنوع من الاقطاع العسكرى، وترتبط احقيتهم فى ملكية هذه الارض بأداء الخدمة العسكرية، ويسمح لأبنائهم أن يرثوا هذا الاقطاع بشرط ادائهم للخدمة الحربية. وقد تمتع افراد هذا الجيش بالاعفاء

---

(١) - Meobaues, Ibid.

(٢) - Babour, N., A Survey of North Africia, New York, 1959, PP. 10-11.

(٣) المزيد من التفاصيل عن هذه المعاهدة:

محمود سعيد عمران: مملكة الوندال فى شمال افريقيا، الاسكندرية ١٩٨٥، ص ٣٣ - ٣٦، وايضاً:

- Gibbon, E., The history of the Decline and Fall of Roman empire, 7 Vols, London, 1925, Vol. III, PP. 481 - 484,

- Lot, F., The end of the Ancient world and the Beginning of the Middle age, London, 1931, PP. 207 - 210.

(٤) محمد محمد مرسى الشيخ: تاريخ مصر البيزنطية، الاسكندرية ١٩٩٤، ص ٤٩.

(٥) محمود سعيد عمران: المرجع السابق، ص ٣٩.

من دفع الضرائب والالتزامات البلدية عندما يبلغ احدهم سن الاربعين ويتم إعفاؤه من الخدمة[1].

وكانت مهمة جيش الاطراف حراسة الحدود، والمناطق الحصينة التى شيدت بالقرب من المناطق الزراعية لحمايتها من غارات البدو[2]، وكان يتولى قيادة هذا الجيش فى مقاطعة طرابلس أحد القادة العسكرين الذى يعينه دوق ولاية افريقيا[3].

وإلى جانب جيش الأطراف فى مقاطعة طرابلس كانت هناك فرق عسكرية أخرى منها الفرق المحالفة من قبائل المورين[4]. إذ لجأت الامبراطورية البيزنطية إلى ما يعرف بنظام المحالفة او المعاهدة، ويعنى التحالف مع الشعوب التى تعيش على أطراف حدود الامبراطورية، حيث ارتبط هؤلاء بمعاهدة تحالف مع الامبراطورية تعهدوا فيها بحماية انفسهم وحماية حدود الامبراطورية فى مقابل اعفائهم من الضرائب او الاتاوات، وتطور الأمر إلى أن أصبح هؤلاء يحصلون على أموال من الامبراطورية مقابل أداء هذه الخدمات[5].

ومن الفرق العسكرية التى وجدت ايضاً فى مقاطعة طرابلس فئة من الجند المرتزقة الذين كانوا بمثابة حرس خاص لكبار الموظفين أو بعض ملاك الاراضى الزراعية، ولم تكن هناك صلات تربطهم بالجيش أصلاً حتى قام الاقطاعيون وسادة هؤلاء الجند بعرض خدماتهم على الدولة مقابل حصولهم على بعض الاموال[6].

---

(١) - Zosimos, Op. Cit., P. 98.
- Theophanes, Op. Cit., P. 225.

(٢) - Meroboudes. Op. Cit., P. 225.

(٣) - Zosimos, Op. Cit., P. 98.

(٤) - Joannes Zonaras, Annalium, cf. P.G.M., Tom. Cxxxiv, Paris, 1864, P. 62

(٥) محمد محمد مرسى الشيخ: المرجع السابق، ص ٧١.

(٦) - Zosimos, Ibid.

وعن الاحوال الدينية فى كل من برقة وطرابلس، نجد أن انتشار المسيحية فى هذه المنطقة كان بطيئاً ومحدوداً(١) ولعل هذا الامر يرجع إلى ابتعاد برقة وطرابلس عن مراكز نشر المسيحية فى مصر وقرطاج، وقلة عدد رجال الدين الذين توجهوا إلى المراكز العمرانية فى المنطقة للتبشير بالمسيحية، وصعوبة ملاحقة القبائل البدوية فى هذه الصحراء الشاسعة، هذا بالإضافة إلى اضطهاد الرومان لاتباع المسيحية فى المرحلة الأولى قبل عهد الامبراطور قنسطنطين.

ومهما يكن من أمر فقد بدأت المسيحية تشق طريقها إلى هذه المنطقة فى أواسط القرن الثالث الميلادى نتيجة لجهود أحد القديسين ويدعى القديس سيبيريان St Cyprien. إذ نجح فى إقناع بعض الافراد باعتناق المسيحية خاصة عدداً من الجند فى جيش الاطراف. بيد أن هؤلاء المسيحين بدأوا يتعرضون للاضطهاد من السلطات الرومانية الحاكمة وبلغ هذا الاضطهاد ذروته فى عهد الامبراطور دقلديانوس مما دفع الكثيرين منهم إلى الارتداد عن دينهم(٢).

وبعد أن اعترف الامبراطور قنسطنطين Constantine (٣٠٥ - ٣٣٧م) بالمسيحية كاحدى الديانات الرسمية فى الامبراطورية(٣)، عادت المسيحية إلى الانتشار فى برقة وطرابلس. اذ شيدت بعض الكنائس فى المدن الرئيسية التابعة لهذه المقاطعة، وظهرت فى هذا المجتمع طبقة جديدة من رجال الدين سواء كانوا من الاساقفة أو القساوسة أو الشماسة، وبدأت المدارس الدينية الملحقة بهذه الكنائس فى تعليم الصغار كى يصبحوا مؤهلين لتقلد الوظائف الدينية(٤).

---

(١) - Merobaudes, Op. Cit., P. 42.

(٢) - Theophanes, Op, Cit., P. 313.

(٣) - Vasiliev. A. A., History of the Byzantine Empire, 2 Vols, Univer. of wisconsin Press, 1961 - 1961, Vol. I, P. 52.

(٤) - Theophanes, Op. Cit., P.. 310

وعلى الرغم من انتشار المسيحية انتشاراً حثيثاً خلال القرنين الرابع والخامس الميلادين إلا أن رجال الدين في برقة وطرابلس واجهوا كثيراً من الصعوبات بسبب الخلافات التي بدأت تلوح في الأفق، ومنها كيفية معاملة الافراد المرتدين عن الدين زمن الاضطهاد، بالإضافة إلى الاختلافات المذهبية[١].

أما عن الاحوال الاقتصادية، فقد كانت حرفتي الزراعة والرعي تمثلان عماد النشاط الاقتصادي في كل من برقة وطرابلس. إذ انتشرت الزراعة في السهول الساحلية المطلة على البحر المتوسط، وفي الواحات ولا سيما واحة برقة.

واعتمدت الزراعة في هذه المناطق على مياه الآبار والامطار التي يتم تخزينها في خزانات تبنى تحت مستوى سطح الأرض لتتجمع بها هذه المياه، ثم يتم رفعها بواسطة أنابيب لري الاراضي الزراعية[٢].

وكانت الأراضي الزراعية في بداية الأمر ملكاً للدولة أو الامبراطورية ثم حدثت تطورات هامة على ملكية هذه الاراضي في اواخر القرن الثالث الميلادي. إذ شاع حق ملكية الاراضي للافراد منذ عهد الامبراطور دقلديانوس، وتقرر تأجير أو بيع هذه الاراضي بشرط أن يقبل المشتري أن يتحمل مسئولية تسديد ما عليها من التزامات وضرائب[٣].

وكانت أهم المحاصيل التي تزرع في هذه المناطق هي الحبوب من القمح والشعير، واشجار الزيتون، وبساتين الكرم والتين إلى جانب النخيل[٤].

---

(١) عن هذه الاختلافات انظر: شارل اندري: المرجع السابق، ص ٢٨٨ - ٢٩٠، سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق، ص ٦٦.

(٢) - Michael Clycas, Op. Cit., P. 126.
- Zosimos, Op. Cit., P. 21.

(٣) محمد محمد مرسي الشيخ: المرجع السابق، ص ٥٥.

(٤) - Michoel Clycas, Op. Cit., P. 126.

وكانت هذه المحاصيل تمثل اساس النشاط الاقتصادى فى هذه المناطق[١] . اذ كان انتاج الزيتون والكروم والتين والنخيل يفيض عن حاجة السكان، ومن ثم قامت عليها صناعات مختلفة منها تجفيف التين والكروم والتمر، وصناعة النبيذ، وزيت الزيتون.

وإلى جانب هذه الصناعات، عرف سكان برقة وطرابلس بعض الصناعات البدائية الاخرى. لاسيما صناعة الأوانى الفخارية، وصناعة المنسوجات[٢] .

أما عن الرعى، فقد عاش البدو الرعاة حياة التنقل بين أراضى العشب والمراعى الممتدة فى هذه الصحراء لرعى الاغنام والماعز، والأبل والخيول للأستفادة من لحومها وألبانها ووبرها، والمتاجرة فيها. وقامت على هذه الحرفة ايضا بعض الصناعات منها صناعة منتجات الألبان، وغزل الصوف لصنع الملابس، وايضاً صناعة الخيام من جلود الماعز[٣] .

وبالنسبة للتجارة، فقد كان التين، والزيتون وزيته أهم السلع التجارية لهذه المناطق[٤]، ولم تزدهر التجارة فى برقة بسبب قلة المنتجات التجارية من جهة، ومن جهة أخرى أدت غارات البدو المتكررة على المدن الرئيسية إلى تعثر التجارة بها.

أما عن الضرائب فلقد تدخل اعضاء المجالس البلدية فى توزيع قيمة الضرائب على الوحدات، وجبايتها تنفيذاً لاوامر الامبراطور كل عام. إذ لم يكن مقدار الضريبة المطلوبة ثابتاً، وانما يجرى تقديره كل عام بمقتضى امر امبراطورى بناء على التقارير التى يرفعها مندوبون عينوا لهذه المهمة[٥] .

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق، ص ٤٨ .

(٢) - Michael Clycas, Op. Cit., P. 42.
- Zosimos, Op. Cit., PP. 77 - 91.

(٣) - Joannes Zonaras, Op. Cit., P. 246.

(٤) - Zosimos, Op. Cit., P. 91.

(٥) محمد محمد مرسى الشيخ، المرجع السابق، ص ٦١ .

وكان تقدير الضرائب على الاراضى الزراعية يختلف من منطقة إلى اخرى حسب خصوبة تربتها وكيفية ريها، ومساحتها، وجرى جباية ضريبة الارض عينا، أما الضريبة التى فرضت على الابل، والحمير، والماعز، والخيول، فكان يتم تقديرها حسب اعدادها، وتدفع نقداً[١].

أما عن الاحوال الاجتماعية، فقد انقسم سكان المناطق فى برقة وطرابلس إلى فئتين رئيسيتين هما البدو والحضر، ولم تكن الفوارق الطبقية واضحة بين سكان البادية، بينما ظهرت بوضوح فى مجتمع الحضر الذى استقر بالقرب من المناطق الزراعية، لا سيما بين الطبقة الارستقراطية التى امتلكت الاراضى الزراعية، وطبقة الزراع الذين كانوا يعملون فى هذه الأراضى. إذ عاشت الطبقة الاولى حياة ناعمة داخل المنازل الفخمة والقصور، بينما عانت طبقة الزراع من قسوة المعيشة، وعاشوا داخل بيوت متواضعة[٢]، وإن كانت حياتهم أفضل بكثير من البدو الرحل الذين نظروا بعين الحسد إلى مجتمع الحضر، وظلوا يشنون الغارات المتتالية على المناطق الزراعية.

ونختتم حديثنا عن هذه المنطقة بالاشارة إلى النشاط العمرانى فى برقة وطرابلس. إذ شيدت المنشأت المعمارية كالحمامات والمسارح والملاعب فى كثير من المدن الرئيسية التابعة لمقاطعة طرابلس، وبنيت المنشأت الدينية كالمعابد والكنائس والمدارس فى هذ المناطق، هذا بالاضافة إلى المنشأت العسكرية كالقلاع والحصون عند اطراف الحدود، وبالقرب من المناطق الزراعية لحمايتها من غارات البدو، كما تم تعبيد الطرق لسهولة انتقال الفرق العسكرية الى مناطق الخطر الذى يهدد المنطقة[٣].

هذا عرض لأهم الأحوال فى كل برقة وطرابلس منذ أواخر القرن الثالث حتى منتصف القرن الخامس الميلادى.

---

(١) - Zosimos, Op. Cit., PP. 71 - 294.

(٢) - Theophanes, Op. Cit., P. 308.

(٣) - Geargius Cedrenus, P. 954.

قائمة بأسماء المصادر والمراجع

أولاً: بيان المختصرات التي وردت في الحواشي:

- C.S.H.B.: Corpus, Scriptorum Historiae Byzantinae.
- P.G.M. : Patrologia Greaece Ed Migne.

ثانياً: المصادر الاجنبية:

- Cantacuzenus, Chronicom, cf. C.S.H.B., Bonn, 18852.
- Excerpta Edixippo, Historiarum Reliquiae cf. C.S.H.B., Bonn,1829.
- Georgius Cederenus, Historiqruum Cpmpendium, cf. P.G.M. Tom. CXXX1, Paris, 1846.
- Georgius Monchus Hamartolus, Chroicon, cf. P. G.M., Tom. Cx, Paris 1863.
- Joanes Zonaras, Annalium, cf. P.G.M., Tom. Cxxxiv, Paris, 1864.
- Michael Clycos, Annalium, cf. C.S.H.B., Bonn, 1836.
- Procopius of Caesarea, The Anecdota or Secret. History, Tr. H.B. Dewing, London, 1969.
- Theophanes, Chronographia, cf. P.G.M., Tom. CV11, Paris, 1863.
- Zosimos, Commentorus Historicus, cf. C.S.H.B., Bonn, 1837.

ثالثاً: المراجع الاجنبية:

- Babour, N., A Survey of North Africia, New York, 1959.

- Bury, J., History of he Later Roman Empire, 2 Vols, New York, 1985.
- Gibbon, E., The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, 7 Vols, London, 1925.
- Lot, F., The end of the Ancient World and the Beginning of the Middl Ages, London, 1931.
- Ostrogorsky, G., History of the Byzantine state, Oxford, 1956.
- Vasilive, A. A., History of the Byzantine Empire, 2 Vols, Univer. of Wisconsin Press, 1961 - 1962.

رابعاً: المراجع العربية والمعربة:

- حسنين محمد ربيع (دكتور):
«دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية». القاهرة ١٩٨٣م.
- سعد زغلول عبد الحميد (دكتور):
«تاريخ المغرب العربى»، الاسكندرية (د.ت).
- شارل اندرى جوليان:
«تاريخ افريقيا الشمالية»، تعريب محمد مزالى - البشير ابن سلامة، تونس ١٩٦٩م.
- محمد محمد مرسى الشيخ (دكتور):
«تاريخ مصر البيزنطية»، الاسكندرية ١٩٩٤م.
- محمود سعيد عمران (دكتور):
«مملكة الوندال فى شمال افريقيا»، الاسكندرية ١٩٨٥م.

الموضوع الثامن عشر

معاهدات السلام بين المسلمين والبيزنطين في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي(*)

(*) د. إبراهيم خميس إبراهيم، استاذ تاريخ العصور الوسطى.

تتمثل فى مبادئ الدين الإسلامى كل معانى المودة والسلام، ويحوى سجل المسلمين على امتداد تاريخهم الطويل مجموعة متعددة من نماذج المهادنة التى تحقن الدماء، وتمد رواق الامان، وتغمد سيوف الحرب، وتكف السهام الراشقة وتعقل الرماح الخطارة، وذلك انقياداً لأمر المولى عز وجل للرسول عليه الصلاة والسلام بالمطاوعة على الصلح، والاجابة الى السلم الآية: ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾(١).

ويمكن ان ننتخب من السجل الاسلامى ما يدل على هذا دلالة واضحة فى هذا البحث المعنون «معاهدات السلام بين المسلمين والبيزنطيين فى النصف الثانى من القرن السابع الميلادى/ الثلث الثانى من القرن الأول الهجرى». ولا ادعى أن هذا الموضوع الذى انتقيته من صفحات التاريخ الإسلامى بالغ الاهمية لأن موضوع العلاقات السياسية بين الدولة الاموية والدولة البيزنطية من أكثر الموضوعات التى تصدى لها المؤرخون القدامى والحديثون بالكتابة. بيد أن المهادنات بين الفريقين فى القرن الاول والهجرى/ القرن السابع الميلادى تعتبر من أكثر الموضوعات الشائكة التى اختلفت حول تاريخها وترتيب أحداثها المصادر التاريخية.

وإذا قصرنا النظر على دائرة أضيق وانتقلنا من التعميم إلى التخصيص وجدنا ان كتابات المؤرخين القدامى قد اختلفت حول المعاهدات التى عقدها معاوية بن أبى سفيان بصفة خاصة مع البيزنطيين.

وإذا نظرنا بعين الاعتبار إلى المصادر العربية، نلحظ أن الروايات التى اشارت إلى تلك المعاهدات يمكن أن تنقسم الى ثلاث مجموعات رئيسية:

---

(١) سورة الانفال، آية ٦١.

الأولى: تتضمن ما اورده كل من ابن قتيبه[١] والطبرى[٢] والدينورى[٣] إذ يشيرون إلى أن «قيصر الروم» زحف بجنده لمقاتله المسلمين أثناء فترة النزاع بين على بن أبى طالب ومعاوية، وأن عمرو بن العاص قدم النصيحة لمعاوية بضرورة موادعة قيصر الروم فى تلك الفترة باعطائه المال والحلل، وإطلاق سراح الاسرى. وبذلك لم تحدد تلك الرواية التاريخ الدقيق لتلك المعاهدة، وأنما اكتفت بالاشارة الى انها كانت اثناء فترة النزاع بين على ابى طالب ومعاوية.

أما المؤرخ ابن كثير فكان أكثر تحديداً، وأشار إلى أن «ملك الروم» قد طمع فى معاوية بعد ان كان يخشاه. فزحف بجيش كبير لمحاربة المسلمين، عندئذ أرسل اليه معاوية كتاباً يتوعده، فبعث يطلب المهادنة، ثم كان من أمر التحكيم وبذلك يحدد ابن كثير تاريخ المهادنة ويجعلها قبل أمر التحكيم[٤] بين على ومعاوية.

أما عن المجموعة الثانية فتضم رواية كل من خليفة بن خياط، واليعقوبى. إذ يشير الأول إلى أن معاوية قد «صالح الروم» فى عام ٤١ هـ/٦٦١م[٥]. أما اليعقوبى فيورد أن معاوية قد بلغه فى عام ٤١هـ/٦٦١م أن «طاغية الروم قد زحف فى جموع كثيرة وخلق عظيم فخاف أن يشغله عما يحتاجإالى تدبيره وإحكامه فوجه إليه فصالحه على مائة ألف دينار[٦].

وبالنسبة للمجموعة الثالثة وتتضمن اشارات عابرة لكل من ابن سلام[٧]،

---

(١) ابن قتيبة: الامامة والسياسة، ٢ج (فى مجلد واحد) مصر ١٩٠٤م جـ١، ص ١٦٠.

(٢) الطبرى: تاريخ الامم والملوك، ١٠ج، بيروت ١٩٧٩م، جـ٦، ص ١٨٦.

(٣) الدينورى: كتاب الاخبار الطوال، بغداد ١٩٥٩م. ص ١٥٧.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ١٤ج فى مجلدات، ط٣، بيروت ١٩٨٠م، جـ٨، ص ١١٩.

(٥) خليفة بن خياط تاريخ بن خياط، تحقيق د. أكرم ضياء العمرى، الرياض ١٩٨٥م. ص ٢٠٥.

(٦) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، ٣ج، النجف ١٣٥٨هـ، جـ٢، ص ١٩٣، ٢١٣.

(٧) ابن سلام: كتاب الاموال، مصر، (د.ت)، ص ١٦٢

والبلاذرى[1]، والشيبانى[2]، وابن الطقطقى[3]، تفيد أن مهادنة تمت بين معاوية وبين الروم.

أما المسعودى والنويرى فقد أشارا فى رواية مختصرة إلى أن معاوية بن أبى سفيان قد هادن كل من الامبراطور البيزنطى قنسطانز الثانى[4] Constans 11 (٦٤١ - ٦٦٨م/ ٢١ - ٤٨هـ)، وابنه الامبراطور قنسطنطين الرابع[5] Constantnes IV (٦٦٨ - ٦٨٥م/ ٤٨ -٦٥هـ)[6].

وأهم ما نلحظه فى الكتابات العربية حول تلك المعاهدات انها جميعاً لم تحدد بنود الصلح التى اتفق عليها الجانبان، وأنها - فيما عدا ما أورده كل من خليفة بن خياط واليعقوبى - لم تحدد التاريخ الدقيق لتلك المهادنات.

أما عن المصادر البيزنطية فتبدأ بروايات ثيوفانيس Theophanes والتى تشير إلى أن معاوية بن ابى سفيان قد عقد ثلاث معاهدات مع البيزنطيين. الأولى: كانت فى العام الخامس من حكم ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان (٢٤ - ٣٥هـ/ ٦٤٤ - ٦٥٦م) وفى اثناء الفترة الممتدة من أول سبتمبر عام ٦٥٠م/ ٢٨ ذى الحجة عام ٢٩هـ وحتى ٣١ أغسطس عام ٦٥١م/٨ المحرم عام ٣١ هـ عندما كان معاوية أميراً على الشام. إذ أرسل الامبراطور قنسطانز الثانى رسولاً يدعى بركوبيوس Prokopios لعرض رغبة الامبراطور فى عقد اتفاقية للسلام بينهما. وتشير الرواية إلى أن المعاهدة قد ابرمت بالفعل فى تلك الفترة وكانت لمدة عامين، وأن معاوية قد

---

(١) البلاذرى: فتوح البلدان، ليدن ١٨٦٦م، ص ١٥٩.

(٢) الشيبانى: شرح كتاب السير الكبير، تحقيق عبد العزيز أحمد، القاهرة ١٩٧٢م. ص ١٧٥٣.

(٣) ابن الطقطقى: الفخرى فى الأداب الساطانية، مصر (د.ت)، ص ٥٩ - ٦٠.

(٤) يطلق عليه السعودى اسم «مورق بن مورق» والنويرى اسم «فوق بن مورق».

(٥) يطلق عليه السعودى اسم «مورق بن مورق» والنويرى اسم «فوق بن مورق».

(٦) المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٤ ج، بيروت ١٩٨٣م، جـ١، ص ٣٢٩، النويرى: نهاية الارب فى فنون الادب، ٢٧ ج، القاهرة، دار الكتب المصرية ١٩٧٥ - ١٩٧٦، جـ١٥ وص ٢٨٠.

احتجز بعض الرهائن البيزنطيين فى دمشق ومن بينهم جريجورى[1] Gregory ابن ثيودور Theodore[2].

ونلحظ فى هذه الرواية أن مبادرة السلام جاءت من جانب الامبراطور البيزنطى، وأنها لم تشر إلى بنود اتفاقية السلام بين الجانبين، وأن هذه الاتفاقية عقدت بين الامبراطور البيزنطى وبين معاوية رغم كونه والياً على الشام، وأن الرواية لم تشر إلى قيام الخليفة عثمان بن عفان بالتوقيع على تلك الاتفاقية.

أما عن المعاهدة الثانية التى يشير اليها المؤرخ ثيوڤانيس فكانت فى العام الثالث بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان[3]، وفيما بين عامى ٦٥٨-٦٥٩م/ ٣٨-٣٩هـ بعد أن أرسل معاوية لعقد اتفاقية للهدنة مع البيزنطيين، وتنص الاتفاقية على قيام المسلمين بدفع الف نوميسماتا Nomismata[4]، وحصاناً، واطلاق سراح اسير بيزنطى كل يوم[5].

وأهم ما يسترعى الانتباه فى تلك المعاهدة أنها عقدت فى الفترة التى نشب خلالها النزاع بين معاوية وعلى بن أبى طالب، وأن الرواية لم تشر إلى تبادل الرهائن بين الجانبين، ولم تحدد مدة المعاهدة بينهما.

وبالنسبة للمعاهدة الثالثة، فقد أورد ثيوفانيس أنها عقدت فى العام التاسع

---

(١) Theophanes, The Chronicale of Theeophanes (A.D. 602 - 813) Tran. By Harry Turtledove, U.S.A., Pensylvania, 1982, P. 44.

(٢) ثيودور هو شقيق الامبراطور قنسطانز الثانى. انظر: Theophanes, Op. Cit., P. 47

(٣) كان مقتله فى يوم الجمعة ١٨ ذى الحجة عام ٣٥هـ/ ١٧ يونيو عام ٦٥٦م. انظر: الطبرى: المصدر السابق، جـ٤. ص ٤١١ - ٤١٢.

(٤) عمله بيزنطية تساوى $\frac{١}{٧٢}$ من الرطل ذهباً - انظر محمود سعيد عمران: ادارة الامبراطورية البيزنطية، بيروت ١٩٨٠م، ص ٨٥، ح ١١.

(٥) Theophanes, Op. Cit., P. 45.

من حكم الامبراطور قنسطنطين الرابع فيما بين عامى ٦٧٧ - ٦٧٨م/ ٥٧ - ٥٨هـ، وفيها تعهد معاوية بدفع اتاوة سنوية للبيزنطيين عبارة عن ثلاثة الاف نوميسماتا وخمسين حصاناً أصيلاً، واطلاق سراح خمسين أسيراً من الاسرى البيزنطيين، وأن تكون مدة المعاهدة ثلاثين عاماً(١). وتوضح الرواية أسباب انعقاد تلك المهادنة فتشير إلى أن المردة(٢) قد ثاروا فى منطقة جبل لبنان، وانضم اليهم كثير من العبيد والاسرى والاهالى، فزاد عددهم الى الوف كثيرة مما ازعج معاوية ومستشاريه، فأرسلوا سفارة إلى الامبراطور قنسطانز الثانى لطلب عقد المهادنة فى مقابل دفع اتاوة سنوية. ولقد استقبل الامبراطور البيزنطى رسل معاوية بالترحاب والتكريم، وعند عودتهم إلى الشام ارسل فى صحبتهم رسولاً يدعى حنابتزيجودس John Ptzigaudis الذى وصفه ثيوفانيس بإنه «مكث فترة طويلة يعمل فى الجهاز الادارى، ويتصف بالفطنة والحكمة»، وكان الغرض من بعثته الاتفاق مع العرب على شروط السلام. وقد استقبله معاوية فى مدينة دمشق بكل الاعزاز.

وبعد مداولات طويلة بين الجانبين تم الاتفاق على عقد معاهدة السلام بينهما على أن تذيلها صيغة اليمين المعهود لدى الطرفين. وبعد تدوين بنود المعاهدة، توقيع الجانبين على نسختين منها، وبعد اداء اليمين احتفظ كل جانب بنسخة من تلك المعاهدة، وعاد المبعوث الامبراطورى الى موطنه محملاً بكثير من الهدايا النفيسة(٣).

وتتفق رواية المؤرخ موناخوس همرتولوس Monachus Hamartolus مع

---

(١) - Ibid. P. 54.

(٢) هم الجراجمة، واطلق عليهم اسم المردة لكثرة عصيانهم. ولمزيد من التفاصيل عن الجراجمة. انظر البلاذرى. المصدر الاسبق، ص ١٥٩ - ١٦٣، وايضاً: فتحى عثمان: الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى. الاتصال الحضارى، ٢ ج، القاهرة ١٩٦٦م. جـ١، ص ٣٦٢، عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسى للدولة العربية، ٢ ج، القاهرة ١٩٧٩م جـ٢، ص ٣٢ - ٣٣.

(٣) - Theophanes, Op. Cit., PP. 53 - 54.

رواية ثيوفانيس بشأن المعاهدة الاولى التى كانت بين معاوية وبين الامبراطور البيزنطى قنساطز الثانى فى عام ٦٥١م/٣١هـ، ويشير إلى أن الاتفاقية بينهما أنتهت بمهاجمة معاوية لجزيرة رودس عام ٦٥٣م/٣٣هـ[١]، كما تتفق ايضاً رواية كل منهما حول المعاهدة التى كانت بين الجانبين الاسلامى والبيزنطى فى عام ٦٧٨م/٥٨هـ، ويحدد موناخوس تاريخ الهجوم الذى قام به المردة على لبنان بعام ٦٧٧م/٥٧هـ. والاختلاف الوحيد بين الروايتين ينحصر فى أن موناخوس قد أورد ضمن بنود هذه المعاهدة أن العرب تعهدوا بتقديم مائة من الجياد الاصلية كل عام[٢]، بينما يحددها ثيوفانيس بخمسين فقط.

ويتفق ما أورده كل من جوزيف جنزيوس Joseph Genesus ونفقور Nicephorus Patriarchae مع رواية ثيوفانيس بشأن معاهدة عام ٦٧٨م/٥٨هـ، ولكنهما لم يذكرا أنها كانت بسبب المردة[٣].

ويشير من جورج كدرينوس[٤] Georguis Cedrenus وحنا زوناراس[٥] Joannes Zonatas، وليوجراما تيكوس Leo Grammaticus[٦] إلى المعاهدة

---

(١) - Georgius Monachus Hamartolus, Chronicon, Ed. Migne, Patrologia Greaca, Tome, cx, Pris, 1863, 1863, Col. 862.

(٢) - Hamartolus, Op. Cit., Col. 895.

(٣) - Genesus, J., Historia De Rebus Constantinopolitanis, Ed. Migne, Patrologia Greaca, Tome CIX, Paris, 1963, Col. 13.

- Nice phrus patriarchae, Breviarum Historicum, Ed. Migne Patrologia Greaca, Tome C, CoLs., 930, 936.

(٤) - Cedrenus, G., Historiarum Compendium, Ed. Migne, Patrologia Greaca, Tome CXXI - CXXXII, Paris, 1864 - 1894, Tome CXXI, Col. 843.

(٥) - Zonaras, J., Epitome Historriarum, Ed. Pender, M. 3 Vols, Bonne, 1841 - 1892, Vol. P. 321.

(٦) - Leo Grammaticus, Chronogaphia, Corpus Scriptorum Historiae By Zantinae, Bonne, 1892, P. 162.

التى عقدت بين معاوية وبين الامبراطور البيزنطى قنسطنطين الرابع عام ٦٧٨م/٥٨هـ، ولكنهم لم يحددوا بنود تلك المعاهدة.

أما عن المصادر الأرمينية، فيورد المؤرخ سبيبوس Sebeos أن الاتفاقية التى كانت بين العرب وبين البيزنطيين، انتهت فى العام الثانى عشر من حكم الامبراطور قنسطانز الثانى[١] (فى عام ٦٥٣م/٣٣هـ). واذا أخذنا هذه الرواية بعين الاعتبار وجدنا أنها تتفق مع رواية كل من ثيوفانيس، وموناخوس همرتولوس بشأن المعاهدة الاولى عام ٦٥١م/٣١هـ.

وبالنسبة للمصادر السريانية، يشير المؤرخ ميخائيل السريانى Michel le Syrien إلى أن معاوية عقد الهدنة مع الإمبراطور البيزنطى قنسطانز الثانى اثناء النزاع مع على بن ابى طالب، كما عقد معاهدة مع الامبراطور قنسطنطين الرابع عام ٦٧٨م/٥٨هـ[٢]. ومن المؤرخين النصارى الذين دونوا كتابتهم باللغة العربية يشير اجابيوس بن قسطنطين المعروف بالمنبجى Agapius إلى أنه فى العام الثالث من عهد الخليفة عثمان بن عفان وجه ملك الروم قسطوس[٣]، رسلاً الى معاوية يسأله الصلح، وكان الرسول «منويل» ومنه بعض الروم، «فأجابه معاوية إلى ذلك على أن يترك عنده عدة من أهل بيته رهائن[٤]»، ونلحظ ان هذه الرواية تتفق مع ما اورده ثيوفانيس عن المعاهدة التى عقدت بين الإمبراطور البيزنطى وبين معاوية عندما كان الأخير والياً على الشام، وأن الاختلاف بين الروايتين ينحصر فى تاريخ المعاهدة، وأسم الرسول الذى اورده كل منهما.

---

(١) Sebeos, Histoire d'Herclius, Tr. Macler, F., Paris, 1904, P. 137. -

(٢) Michel le Syrien, Chronique, Texet Syriaque et Trad. Fr. Par J.B. Chabot, 4, vals, Paris, 1899, Val 11, P. 450, 469. -

(٣) المقصود الامبراطور قنسطانز الثانى.

(٤) المنبجى: المنتخب من تاريخ المنبجى، انتخبه وحققه أ.د. عمر عبد السلام تدمرى، لبنان ١٩٨٦م. ص ٥٧.

ومن خلال العرض السابق للروايات العربية وغير العربية للمعاهدات التى ابرمها معاوية مع البيزنطيين يتضح أن المؤرخين القدامى قد حددوا أربعة تواريخ لهذه المعاهدات: الأول فى عام ٦٥١م/٣١هـ، والثانى حددها فى فترة النزاع بين على بن أبى طالب ومعاوية، والثالث يشير إلى أنها كانت فى عام ٦٦١م/٤١هـ أو عام ٦٦٢م/٤٢هـ، والرابع يحددها فى عام ٦٧٨م/٥٨هـ.

وعند مقارنة هذه الروايات لاستقصاء الوقائع وربط بعضها ببعض للوصول الى نتيجة محددة نلحظ أن الذين قالوا أن ثمة معاهدة عام ٦٥١م/٣١هـ هم المؤرخون الغربيون، بينما انفرد بعض المؤرخين المسلمين بالقول أنها عقدت عام ٦٦١م/٤١هـ أو عام ٦٦٢م/٤٢هـ، وأن هناك تشابهاً بين الروايات العربية وغير العربية فيما يتعلق بمعاهدتين كانت الأولى منهما فى أثناء الصراع بين على ومعاوية، والثانية فى عام ٦٧٨م/٥٨هـ.

ولما كان تحديد تاريخ هذه المعاهدات على جانب كبير من الأهمية لتوضيح التسلسل التاريخ، وتقويض الأسس التى أدت إلى الاخطاء التاريخية فينبغى استعراض هذه الروايات ومناقشتها.

أن الرواية التى تشير إلى أن ثمة معاهدة عقدت بين المسلمين والبيزنطيين عام ٦٥١م/٣١هـ بمبادرة من جانب البيزنطيين، وهى التى اشارت إليها المصادر غير العربية. يرى الباحث أن هذه المبادرة جاءت نتيجة انتصارات المسلمين المتلاحقة(١) على البيزنطيين(٢). وعلى الرغم من أن تلك المصادر لم تشر إلى بنود هذه المعاهدة، واكتفت بالاشارة الى أمدها، وأنها كانت لمدة عامين، فمن المرجح أن بنود هذه المعاهدة كانت فى صالح المسلمين(٣).

---

(١) عن تلك الانتصارات انظر: فتحى عثمان: المرجع السابق،جـ٢ ص ٢٢ - ٢٩.

(٢) Vasiliev, A.A., History of the Byzantine Empire (324 - 1453), 2 Vols, Madison 1958 - 1961, Vol. 1 P. 212.

(٣) Lot, F., L'art Militaire et les Armee au Moyen Age en Eurpe et dans le Proche Orient, Paris, 1946, P. 61.

أما عن الرواية الثانية، والتى أوردتها المصادر العربية والغير عربية. فعلى الرغم أنها اتفقت على أن المعاهدة ابرمت اثناء فترة النزاع بين على ومعاوية إلا انها اختلفت فى التحديد الدقيق لتاريخها. فيذكر ابن كثير أنها حدثت قبل التحكيم(١). فى الوقت نفسه يشير خليفة بن خياط إلى أن التحكيم بين على ومعاوية حدث فى صفر عام ٣٧ هـ/ يوليو عام ٦٥٧م(٢). وعلى هذا يكون ابن كثير قد أومأ إلى أن هذه الاتفاقية عقدت قبل يوليو عام ٦٥٧م/ صفر عام ٣٧هـ.

غير أن المؤرخ ثيوفانيس وهو من الذين قالوا ايضاً بعقدها خلال فترة النزاع بين على ومعاوية فقد جاء فى عرضه لهذه الاتفاقية بعض الاضطراب فقد أورد هذه الاتفاقية ضمن احداث الفترة الممتدة من أول سبتمبر ٦٥٨م/ ٢٥ ربيع الأول عام ٣٨ هـ - حتى ٣١ أغسطس عام ٦٥٩م/٦ ربيع الثانى عام ٣٩هـ فى الوقت الذى دون فيه تلك المعاهدة بعد اشارته إلى خروج قوات كل من على ومعاوية للقتال ولمحاربة بعضها، فضلاً عن إشارته إلى أن هذه الاتفاقية عقدت فى نفس العام الذى توفى فيه البابا مارتن الأول Martin I (٦٤٩ - ٦٥٦م/ ٢٩ - ٣٦هـ). وهكذا اشار ثيوفانيس مرة إلى عقدها قبل التحكيم بين على ومعاوية ومرة بعد هذا التحكيم.

ولما كانت قوات على بن ابى طالب ومعاوية قد خرجت للقتال فى معركة صفين فى ذى الحجة عام ٣٦هـ/مايو ٦٥٧م(٣)، وكانت وفاة البابا مارتن الأول فى عام ٦٥٦م/٣٦هـ(٤)، بذلك يمكن القول أن هذه المعاهدة قد أبرمت فى عام ٦٥٦م/٣٦هـ.

أما الرواية الثالثة التى ترى ان المعاهدة بين معاوية ابن ابى سفيان

---

(١) ابن كثير: المصدر السابق، جـ ٨، ص ١١٩.

(٢) خليفة بن خياط: المصدر السابق، ص ١٩١.

(٣) ابن الاثير: الكامل فى التاريخ، ٩ج، بيروت ١٩٧٩م، جـ٣، ص ٢٧٥ - ٢٧٦.

(٤) Ostrogorsky, G. History of the Byzantin state, tr. J. Hussey, - Ox ford, 1956. P. 106.

والامبراطور البيزنطى قنسطانز الثانى قد عقدت فى عام ٦٦١م/٤١هـ أو فى عام ٦٦٢م/٤٢هـ، فهذا الرأى يحتاج إلى مناقشة خاصة واننا نعلم جيداً أن الاضطرابات الداخلية التى واجهت معاوية فى بداية عهده كادت أن تنتهى، بعد أن خمدت الفتنة(١)، وبالتالى لم يكن معاوية بحاجة ماسة الى مهادنة بيزنطية وتهدئة الامور معها لاسيما أن المصادر لم تشر إلى قيام الامبراطور البيزنطى بمهاجمة المسلمين فى الشام فى تلك الفترة كما اشار اليعقوبى(٢). وبذلك لم تكن ثمة أسباب قاهرة تجعل معاوية بن ابى سفيان يضطر لدفع مبلغ كبير للبيزنطيين خاصة أن هذا الصلح لم يستمر سوى عاماً واحداً حسبما أكد اصحاب هذه الرواية(٣). كما أن احوال الدولة العربية الاسلامية فى تلك الفترة كانت أكثر استقراراً إذا قورنت بالاوضاع فى الدولة البيزنطية. فقد أورد ثيوفانيس أن الامبراطور البيزنطى قام بنفى البابا مارتن الأول حتى مات فى منفاه، كما قام الامبراطور قنسطانز الثانى ايضاً عام ٦٦٠م/ ٤٠هـ بقتل اخيه ثيودور(٤)، مما عرضه للكراهية من جانب رجال الدين(٥)، والسخط من جانب سكان العاصمة البيزنطية(٦)، هذا فضلاً عن تعرض املاك الدولة البيزنطية فى جنوب ايطاليا للهجمات من قبل اللومبارديين(٧). لكل هذه الاسباب، ترك الامبراطور قنسطانز الثانى العاصمة القسطنطينية، واتجه إلى صقلية عام ٦٦١م/٤١هـ، وظل بها حتى تعرض لمؤامرة انتهت بقتله عام ٦٦٨م/٤٨هـ(٨).

---

(١) عبد المنعم ماجد: المرجع السابق، جـ١، ص ٢٧٢.

(٢) انظر ما سبق ص ٣.

(٣) خليفة بن خياط: المصدر السابق، ص ٢٠٥، اليعقوبى: المصدر السابق، جـ٢، ص ٢١٣.

(٤) - Theophanes, Op. Cit., P. 47.

(٥) - Paul the Deacon, History of the Lombards, Ed. W.D. Foulkf, Phhaldelphia, 1907, P. 235.

(٦) - Ostrogorsky, Op. Cit., P. 109.

(٧) - Paul Deacon, Op. Cit., P. 234.

(٨) - Theophanes, Op. Cit., PP. 50 - 51.

نخلص من العرض السابق أن احوال الدولة البيزنطية كانت قد اضطربت في الداخل وتعرضت املاكها في الغرب الاوربي للتهديد من جانب اللومبارديين الامر الذى جعلها لا تمثل خطراً على الدولة الاسلامية وقتذاك، أو ترغم معاوية على دفع الاتاوه لهم.

وعلى عكس ذلك اشار اليعقوبي إلى أن الامبراطور البيزنطى الذى كان يتلقى الاموال من معاوية قد تغيرت احواله، فأرسل إلى معاوية يطلب الصلح على أن يدفع لمعاوية اضعاف ما كان يتلقاه من المسلمين من قبل. فلم يوافق معاوية على طلبه(١).

ويفسر اليعقوبى اسباب هذا التحول فى موقف البيزنطيين بالاشارة الى أن الامور قد استقامت لمعاوية بعد مرور عام واحد على الصلح، فأصدر معاوية أوامره لامراء الشام بغزو الأراضى البيزنطية، «فقام بسر بن أرطأه بغزو ارض الروم عام ٤٣هـ/٦٥٣م»(٢).

وأكد كل من المنبجى، وثيوفانيس، وابن العبرى هذا الامر فأشاروا فى كتاباتهم إلى أن أهل ارمينيه استغلوا حالة الاضطراب التى تعانى منها الإمبراطورية البيزنطية وقتذاك فرفعوا راية العصيان على البيزنطيين(٣)، وارسل الحاكم الارمينى سابور Saborios رسولاً يدعى سرجيوس Sergios إلى معاوية فى أواخر عام ٦٦٧م/ أواخر عام ٤٦هـ، يطلب منه العون ضد البيزنطيين. فلما علم قنسطنطين(٤) ابن الامبراطور قنسطانز الثانى بذلك، أرسل إلى معاوية يدعى اندرو Andrew يطلب عدم تأييد الارمن فى موقفهم ضد البيزنطيين(٥). فلما استمع معاوية الى طلب الرسول البيزنطى رد عليه

---

(١) اليعقوبى: المصدر السابق، جـ٢، ص ١٩٣.

(٢) اليعقوبى: المصدر السابق، جـ٢، ص ١٩٣.

(٣) المنبجى: المصدر السابق، ص ٥٨.

(٤) هو قنسطنطين الرابع الذى كان يتولى ادارة الحكم فى القسطنطينية نيابة عن ابيه الامبراطور الذى كان وقتذاك فى صقلية.

(٥) - Theophanes, Op. Cit., P. 48 .

قائلاً: «إن اعطيتمونا كل خراج بلادكم نبقى لكم اسم المملكة والا ازحناكم عنها»[١] . فعاد الرسول البيزنطى دون تحقيق الهدف الذى جاء من أجله[٢] .

وتعبتر الرواية التى اوردها كل من المنبجى وثيوفانيس وابن العبرى هى الارجح لأنها تتفق مع أحوال الدولة البيزنطية وقتذاك. وعلى ضوء ما سبق يمكن القول أن رواية كل من خليفة بن خياط واليعقوبى التى تشير إلى أن معاوية قد عقد الصلح مع البيزنطيين عام ٦٥١م/٤١هـ أو عام ٦٥٢م/٤٢هـ، لا تستند إلى دعائم قوية ولا تقدم تبريراً كافياً لقيام معاوية بدفع مائة ألف دينار للبيزنطيين فى مثل تلك الظروف. ولهذا فان هذه الرواية - فى رأينا - مشكوك فى صحتها ولا يمكن قبولها فى ضوء ما قدمناه من دلائل.

أما عن الرواية الرابعة التى تشير إلى عقد معاهدة بين معاوية بن أبى سفيان وبين الامبراطور البيزنطى قنسطنطين الرابع عام ٦٧٨م/٥٨هـ، فالملاحظ أن المصادر غير العربية هى التى اتفقت على هذا التاريخ، بالإضافة إلى اشارة كل من المسعودى والنويرى التى يمكن اعتبارها تتفق مع ما اوردته تلك المصادر رغم انهما لم يحددا تاريخاً لتلك المعاهدة[٣] . ونظراً إلى أنه لم يرد فى المصادر المتاحة تاريخاً مغايراً لما جاء فى المصادر الغربية، فإننا نوافق بحذر على ما جاء فى هذه الرواية.

وفى ضوء ما سبق، نستطيع القول أن معاوية بن ابى سفيان قد أبرم ثلاث معاهدات مع البيزنطيين الأولى فى عام ٦٥١م/ ٣١هـ، والثانية فى عام ٦٥٦م/٣٦هـ، والثالثة فى عام ٦٧٨م/ ٥٨هـ.

أما عن الروايات التى وردت فى المصادر العربية بشأن المعاهدة التى كانت بين الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ/ ٦٨٥ -

---

(١) ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول، بيروت ١٩٥٨م، ص ١٠٩ .

(٢) - Theophanes, Op. Cit., P. 351.

(٣)

٧٠٥م) والامبراطور البيزنطي قنسطنطين الرابع وابنه الامبراطور جستنيان الثـــانـــى Justinian (٦٨٥ - ٦٩٥م/٦٥ - ٧٥هـــ، ٧٠٥ - ٧١١م/ ٨٦ -٩٢ هـ)(١). فيمكن تقسيمها إلى اربع مجموعات:

المجموعة الأولى: تتضمن رواية المؤرخ. إذ أشار إلى أنه فى عام ٦٦هـ/٦٨٥ - ٦٨٦م وفى الليلة التى أتى فيها لعبد الملك خبر مقتل قائده عبيد الله بن زياد بن ابى سفيان، جاءه ايضاً أن الامبراطور البيزنطى جستنيان الثانى(٢)، قد نزل المصيصة(٣) يريد الشام، وعلم فى الوقت نفسه أن مصعب بن الزبير قد خرج من المدينة المنورة إلى فلسطين، وأن عبيد دمشق واوباشها قد خرجوا فى مكابره وأن خيل الاعراب اغارت على حمص وبعلبك والقاع. ولكن عبد الملك واجه تلك المصاعب بالتجلد والثبات، فبعث بأموال وهدايا إلى الامبراطور البيزنطى كى يثنيه عن مهاجمة المسلمين فى السام، كما عقد الهدنة معه(٤).

وأهم ما نلحظه من هذه الرواية أن الامبراطور البيزنطى هاجم المصيصة عام ٦٦هـ/٦٨٦م، وأن الهدنة التى عقدت بين عبد الملك والبيزنطيين كانت بعد مقتل عبيد الله بن زياد. كما نلحظ ان رواية المسعودى لم تشر إلى بنود الصلح مع البيزنطيين ولم تحدد مقدار المال الذى ارسله عبد الملك إلى الامبراطور البيزنطى.

وتتفق رواية اليعقوبى مع رواية المسعودى فى الاشارة إلى مهاجمة الامبراطور البيزنطى للمصيصة، وأن عبد الملك لم يحاربه «لاضطراب البلدان، فصالحه، وحمل اليه اموالاً كثيرة حتى عاد إلى بلاده(٥).

---

(١) ينقسم عهد الامبراطور جستنيان الى فترتين.

(٢) يطلق عليه المسعودى اسم «لاوى بن قلفط».

(٣) المصيصة: ثغر من ثغور الشام، وتقع بالقرب من مدينة انطاكية، وبينهما وبين ساحل البحر اثنا عشر ميلاً. أنظر: الحميرى: الروض المعطار فى خبر الاقطان، بيروت ١٩٧٥م، ص ٥٥٤.

(٤) المسعودى: المصدر الاسبق، جـ٣، ص ١٠٥ - ١٠٦.

(٥) اليعقوبى: المصدر السابق، جـ٣، ص ١٥.

كما تتفق ايضاً رواية السيوطى مع ما اشار اليه المسعودى فى أن عبد الملك واجه - فى الليلة التى قتل فيها عبيد الله بن زياد - خطراً آخر، عندما «إنتقض ملك الروم» ما كان بينه وبين عبد الملك(١).

ورغم أن اليعقوبى والسيوطى لم يحددا تاريخ الهجوم البيزنطى، إلا أن اشارة السيوطى تعتبر على جانب كبير من الأهمية، وتبين ان هناك معاهدة سابقة بين المسلمين والامبراطور البيزنطى، إنتقضها الاخير عندما هاجم المصيصة. وهكذا تمثلت هذه المجموعة فيما رواه كل من المسعودى واليعقوبى والسيوطى الذين اتفقت رواياتهم فيما يختص بالهادنة، وإن اضاف السيوطى أن ثمة هدنة كانت بين الطرفين نقضها الامبراطور فى السنة المذكورة.

أما المجموعة الثانية: فتشير الروايات التى تشير مهاجمة الجراجمة للمناطق القريبة من لبنان. إذ اورد ابن الاثير انه فى عام ٦٩هـ/٦٨٨ - ٦٨٩م خرج «قائد من قواد الضواحى» فى جبل اللكام، وأتبعه خلق كثير من الجراجمة والعبيد غيرهم، واتجهوا إلى لبنان، فلما فرغ عبد الملك من عمرو بن سعيد، «ارسل إلى هذا الخارج» الف دينار تدفع كل جمعة، مما جعل القائد الثائر يركن إلى الهدوء ويكف عن الفساد، ثم اصدر عبد الملك الاوامر لقائده سحيم بن المهاجر لمواجهة هذا القائد الخارج ومن أعانه من الروم، ونجح سحيم فى مهمته، ولجأ إلى الحيلة فقتل الخارج وأعوانه(٢).

ونلحظ من رواية ابن الأثير أن القائد الثائر من قادة منطقة الثغور الاسلامية وانه تلقى العون والتأييد من جانب البيزنطيين، وأن هذا الثائر بدأ يعيث الفساد فى عام ٦٩هـ/٦٨٨ - ٦٨٩م.

وتختلف رواية البلاذرى عما اورده ابن الاثير، إذ يشير إلى أن هذه الاحداث كانت فى عام ٧٠هـ / ٦٨٩ - ٦٩٠، وأن «خيل الروم» هى التى

---

(١) السيوطى: تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين، القاهرة ١٩٧٥م، ص ٣٥١.

(٢) ابن الاثير: المصدر السابق، جـ٤، ص ٣٠٤.

خرجت إلى جبل اللكام «وعليها قائد من قوادهم»، وذلك فى الوقت نفسه الذى كان عبد الملك يستعد فيه للزحف إلى العراق لمواجهة مصعب بن الزبير، وتتفق الاحداث الباقية من رواية البلاذرى مع ما اورده ابن الاثير بشأن موادعة عبد الملك للروم فى جبل لبنان، ومنحهم ألف دينار كل جمعة مما جعلهم لا يعيثون الفساد، كما تتفق الروايتان فى أن سحيم بن المهاجر قد نجح بالحيلة فى القضاء على هذا الخطر(١).

وبالنسبة للمجموعة الثالثة: فتتضمن الروايات التى تشير إلى مهاجمة البيزنطيين للشام. فيروى كل من الطبرى وابن الاثير، وابن كثير إلى أنه حدث فى عام ٧٠هـ / ٦٨٩ - ٦٩٠ أن «ثار الروم واستجاشوا على من بالشام(٢) من المسلمين(٣)، واستضعفوهم لما يرون من الاختلاف بين بنى مروان، وابن الزبير»(٤)، فعقد عبد الملك الصلح مع الامبراطور البيزنطى(٥) وهادنه(٦) على أن يدفع للبيزنطيين فى كل جمعه الف دينار خوفاً منه على المسلمين(٧).

أما البلاذرى فيشير إلى أن الخليفة الاموى عبد الملك بن مروان بعدما صالح الروم الذين هاجموا لبنان عام ٧٠هـ / ٦٨٩ - ٦٩٠م، أرسل كل من حميد بن حريث بن نجد الكلبى، وكريب بن ابراهه بن الصباح الحميرى(٨)

---

(١) البلاذرى: فتوح البلدان، ص ١٦٠، انساب الاشراف، تحقيق د. إحسان عباس، ٥ج، بيروت ١٩٧٩، جـ٥، ص ٢٩٩ - ٣٠٠.

(٢) ابن الاثير: المصدر السابق، جـ٤، ص ٧٠.

(٣) الطبرى: المصدر السابق، جـ٧، ص ١٨١.

(٤) ابن كثير: المصدر السابق، جـ٨، ص ٣١٣.

(٥) الطبرى: المصدر السابق، جـ٧، ص ١٨١.

(٦) ابن كثير: المصدر السابق، جـ٨، ص ٣١٣.

(٧) الطبرى: المصدر السابق، جـ٧، ص ١٨١.

(٨) كان من اشراف مصر، وأحد القادة فى جيش مروان بن الحكم: البلاذرى: انساب الاشراف، جـ٥، ص ١٤٩، الكندى: الولاء وكتاب القضاه، بيروت، ١٩٠٨م، ص ٤١.

كرسولين إلى الامبراطور البيزنطى يحملان الهدايا والالطاف، وكتاب من عبد الملك يسأل فيه الامبراطور المودعه على أن يدفع اتاوه وهو «مال يؤديه»، فقبل الامبراطور البيزنطى الهدايا، ووافق على «مابذل له الخليفة الاموى من الاتاوة، وارسل رهائن من البيزنطيين إلى عبد الملك، فأرسلهم الاخير إلى بعلبك[1].

ونلحظ مما سبق، أن هذه الجزئية من رواية البلاذرى تتفق مع رواية كل من الطبرى وابن الاثير وابن كثير فى أن عبد الملك بن مروان صالح الامبراطور البيزنطى عام ٧٠هـ / ٦٩٠م، وإن لم يحدد مقدار المال الذى ارسله عبد الملك للامبراطور، كما أنه ينفرد عن الروايات السابقة بالاشارة الى ارسال الامبراطور البيزنطى رهائن من الروم إلى عبد الملك ضماناً لعدم نقض المعاهدة من جانبه بعد حصوله على اموال الاتاوه.

أما ابن العماد، فيذكر أن الروم قد ثاروا «وقووا على المسلمين» لإختلاف كلمتهم، فصالح عبد الملك الامبراطور البيزنطى على أن يؤدى له «كل جمعة ألف مثقال من الذهب»، ويشير ابن العماد إلى أن هذا الصلح يعتبر «أول وهن دخل على المسلمين والاسلام»[2]. وبهذه الرواية اختلف ابن العماد مع الروايات السابقة فى مقدار المال الذى كان عبد الملك يرسله الى الامبراطور البيزنطى كل أسبوع.

أما عن قول ابن العماد بأن الصلح كان أول وهن دخل على الاسلام والمسلمين. فنرى أن هذا الكلام لا تمليه الحكمة وفيه تجاوز كبير، ويختلف ايضاً مع ما قال به الفقهاء. إذ يشير ابن الحسن الشيبانى إلى قول الامام ابى حنيفة بأنه «لا بأس بالموادعة بين المسلمين وبين أهل دار الحرب أن لم يكن بالمسلمين قدرة عليهم، ولا بأس من اعطاء المال اليهم حتى لا يظهروا على

---

(١) البلاذرى انساب الاشراف، جـ٥، ص ٢٩٩ – ٣٠٠.

(٢) ابن العماد: شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، ٨ج فى مجلدات، بيروت، دار الافاق الجديدة، (د.ت)، جـ١، ص ٧٧.

نفوس المسلمين»(١). وفى ضوء هذا فان مصالحة عبد الملك للبيزنطيين حسبما اشار مؤرخى تلك المجموعة لا يمثل نوعاً من الوهن ولا يعتبر دليلاً على الدعة وايثار العافية، كما أن عبد الملك ليس أول من صالح البيزنطيين وهادنهم فقد سبق وأن اشرنا فى الصفحات السابقة إلى قيام معاويه بعقد صلح مع البيزنطيين ودفع لهم أموالاً كثيرة.

وبالنسبة للمجموعة الرابعة: وتتضمن الروايات التى تشير الى المفاوضات والمراسلات بين عبد الملك بن مروان، والامبراطور البيزنطى جستنيان الثانى. فيروى محمد بن سعد أن «صاحب الروم» كتب إلى عبد الملك يهدده بأنه قد جمع له جموعاً كثيره، فكتب إليه عبد الملك يقول: «أولا تدرى أن لله فى كل يوم ثلاثمائة وستون لحظة فى كل لحظة ثلاثمائة وستون قضية. فلعله يكفيناك فى قضية من قضاياه»(٢).

أما ابن قتيبه فيشير إلى أنه عندما انشغل عبد الملك بمحاولة مصعب بن الزبير اجتمع «وجوه الروم» وأشاروا على الامبراطور بغزو الاراضى الاسلامية بعد أن واتتهم الفرصة بانشغال المسلمين بعضهم ببعض فنهاهم الامبراطور عن ذلك، وبين لهم أن المسلمين فى وقت الخطر يمكن أن يطرحوا نزاعهم جانباً، ويتحدون لمواجهة الاخطار(٣).

ويذكر ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد رواية تتشابه مع رواية ابن سعد فى أن الامبراطور البيزنطى كتب إلى عبد الملك بن مروان يهدده بأنه سوف يغزوه بمائة الف من الجنود. فكتب إليه عبد الملك رسالة تتفق فى دلالتها(٤) مع اشار إليه ابن اسعد.

كما أورد المسعودى رواية تتفق مع الروايات السابقة بشأن مكاتبة عبد

---

(١) الشيبانى : المصدر الاسبق، ص ١٦٨٩ - ١٩٩٢.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ٨ج، بيروت ١٩٥٧ - ١٩٨٠، جـ٥، ص ١١٠ - ١١١.

(٣) ابن قتيبه: عيون الاخبار. ٢ ج، القاهرة ١٩٢٥م، جـ١، ص ١١٦.

(٤) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ٦ ج + فهرس، بيروت ١٩٥٣ - ٢٩٦٢م، جـ٢، ص٢٠٣.

الملك للامبراطور البيزنطى، ولكنه ينفرد بالاشارة إلى أن الرسل الذين ارسلهم معاوية إلى الامبراطور اليبزنطى، كانوا لا يمكثون فترة طويلة فى العاصمة البيزنطية فيما عدا رسولاً واحداً[١].

تلك كانت أهم الروايات التى تضمنتها المصادر العربية بشأن المعاهدة بين عبد الملك بن مروان والامبراطور البيزنطى، وأهم ما نلحظه من هذه الروايات العربية أنها حددت تاريخ هذه المعاهدة فى الفترة ما بين عامى ٦٦ - ٧٠ هـ / ٦٨٥ - ٦٩٠م.

أما عن المصادر البيزنطية، فيشير المؤرخ ثيوفانيس إلى عقد معاهدة بين عبد الملك والامبراطور البيزنطى قنسطنطين الرابع فى الفترة الممتدة من أول سبتمبر عام ٦٨٥هـ/ ٢٤ المحرم ٦٦ هـ ويقول: «فى الوقت نفسه الذى تفشى فيه الوباء، وعمت المجاعة فى الشام، ووصل فيه الوباء الى عنفوانه وقمة فتكه، قام المردة بمهاجمة لبنان، عندئذ ارسل عبد الملك سفارة إلى الإمبراطور البيزنطى قنسطنطين الرابع يطلب منه تجديد المعاهدة التى سبق ان عقدها مع معاوية[٢] على أن يدفع عبد الملك للبيزنطيين ثلاثمائة وخمس وستين الف نوميسماتا، ويرسل اليهم ثلاثمائة وخمسة وستين حصاناً أصيلاً، ويطلق سراح ثلاثمائة وخمس وستين اسيراً من البيزنطيين[٣].

ويتفق ما أورده كل من ليوجراماتيكوس[٤]، وموناخوس همرتولس من بنود هذه المعاهدة مع رواية ثيوفانيس، على الرغم من أنهما لم يحددا تاريخ هذه المعاهدة. ويشير موناخوس إلى أن أمد هذه المعاهدة كان عشر سنوات، وأن الامبراطور البيزنطى تعهد بإيقاف هجمات المرة على الاراضى الاسلامية[٥].

---

(١) المسعودى: المصدر السابق، جـ٣، ص١٢٣ - ١٢٤.

(٢) انظر ما سبق، ص٤.

(٣) - Theophanes, Op. Cit., P.59.

(٤) - Leo Grammaticus, Op. Cit., P. 162.

(٥) - Hamartolus, OP. Cit., Col. 898.

ويشير جوزيف جنزيوس إلى أن هذه المعاهدة كانت فى السابع من يوليو عام ٦٨٥م / الثامن والعشرين من ذى القعدة عام عام ٦٥ هـ، وأن أمد هذه المعاهدة كان ثلاث سنوات(١).

أما عن المعاهدة الثانية، فيشير ثيوفانيس إلى أنها كانت فى الفترة من أول سبتمبر عام ٦٨٦م/٥ صفر عام ٦٧ هـ وحتى ٣١ أغسطس عام ٦٨٧م/ ١٥ صفر عام ٦٨هـ، عندما ارسل عبد الملك مروان سفارة إلى الامبراطور جستنيان الثانى لعقد اتفاقية سلام بينهما تنحصر بنودها فى أن يقوم الامبراطور البيزنطى بترحيل قوات المرذة من لبنان بعد ايقاف هجماتهم، وفى مقابل ذلك يدفع عبد الملك للبيزنطيين كل يوم الف نوميسماتا ويرسل لهم حصاناً أصيلاً كل يوم، ويطلق سراح أسيراً واحداً منهم كل يوم ايضاً. كما يقوم الجانبان الاسلامى والبيزنطى بأقتسام الضرائب التى تجبى من قبرص وأرمينيه وأيبيريا(٢).

وبعد ان استمع الامبراطور لعرض السفارة الاسلامية، ووافق عليه، أرسل مندوباً يدعى بولس Poul إلى عبد الملك لتدوين بنود معاهدة السلام بينهما وتذيلها بشهادة الشهود. وعاد المندوب الامبراطورى بعد أن استقبل وودع بكثير من الحفاوة والتكريم(٣).

ويتفق المؤرخان كدرينوس وزوناراس مع ما اوردة ثيوفانيس بشأن بنود هذه المعاهدة، ولكنهما يختلفان معه فى تحديد تاريخها، فيشيران إلى أنها

---

(١) - Genesus, Op. Cit., Col. 31.

(٢) ايبيريا: مملكة مسيحية تقع فى منطقة جبال القوقاز بين البحرين الاسود وقزوين.
انظر: وسام عبد العيزى فرج: العلاقات بين الامبراطور البيزنطية والدولة الاموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادى، الاسكندرية ١٩٨١، ص ٤٢، ح(٣).

(٣) - Theophanes, Op. Cit., P. 61.
ويلاحظ حرص عبد الملك على ان يجرى دفع هذه الاتاوة مجزأة وعلى مدى الايام ضماناً لاستمرار سريانها فى المدة المتفق عليها خوف من أن ينقضها الامبراطور اذا حصل على الاتاوة دفعة واحدة وقبل انقضاء امد الهدنة.

كانت فى السنة الأولى من حكم الامبراطور جستنيان[١] اى فى عام ٦٨٥م / ٦٥ - ٦٦ هـ.

أما المؤرخان ليوجراماتيكوس وموناخوس همرتولس فيشيران إلى أن الامبراطور جستنيان الثانى هو الذى ارسل وفداً إلى عبد الملك بن مروان لتأكيد اتفاقية السلام التى عقدت مع أبيه الامبراطور قنسطنطين الرابع[٢].

واكتفى المؤرخ نقفور بالاشارة إلى أن جستنيان الثانى قد نقض فى عام ٦٨٨م / ٦٨ - ٦٩ هـ «المعاهدة التى عقدها والده مع العرب»[٣].

ويتفق المؤرخ جوزيف جنزيوس مع المؤرخ نقفور فى أن هذه المعاهدة كانت فى عام ٦٨٨م/ ٦٨ - ٩٦ هـ، ويشير إلى أن أمدها كان عشر سنوات، ثم يبدى تردده فيما يتعلق بالبنود الخاصة بالمال والجياد والاسرى ويقول كانت: تدفع كل يوم، وقبل كل اسبوع[٤].

وفى ضوء ما سبق يتضح أن هناك شبه اتفاق بين المصادر البيزنطية فى تحديد تاريخ اتفاقية السلام بين عبد الملك بن مروان والامبراطور البيزنطى قنسطنطين الرابع عام ٦٨٥م/ ٦٥ - ٦٦ هـ. بينما أختلفت روايات المصادر البيزنطية فى تحديد تاريخ المعاهدة التى عقدت بين العاهل الاموى (عبد الملك) والعاهل البيزنطى (جستنيان الثانى)، وجعلته ينحصر فى الفترة ما بين عامى ٦٨٥ - ٦٨٨م / ٦٥ - ٩٦ هـ.

أما عن المصادر السريانية فتتفق رواية ميخائيل السريانى مع الروايات البيزنطية التى تحدد المعاهدة الاولى بين عبد الملك والامبراطور قنسطنطين الرابع عام ٦٨٥م / ٦٥ - ٦٦ هـ، ويرى ان امدها كان عشر سنوات كما

---

(١) - Cedrenus, Op. Cit., col. 642; Zonaras, Op. Cit., P. 321.

(٢) - Leo Grammaticus, Op. Cit., P. 163.; Hamartolus, OP. Cit., Col. 898

(٣) - Nicephrus, Op. Cit., Col. 936.

(٤) - Genesius, Op. Cit., Col. 31.

تتفق ايضاً مع تلك الروايات فى تحديد عام ٦٨٧م / ٦٧ - ٦٨ هـ تاريخاً للمعاهدة بين عبد الملك والامبراطور جستنيان الثانى، وتشير إلى أن أمد هذه المعاهدة كان أيضاً عشر سنوات. وتتفق البنود التى اوردها ميخائيل السريانى للمعاهدة الثانية مع ما اورده ثيوفانيس(١).

أما ابن العبرى فينفرد بالاشارة إلى أن الامبراطور « يوسطنيانوس(٢) استجاش على من بالشام من المسلمين «عام ٧٠هـ / ٦٨٩ - ٦٩٠م، فصالحه عبد الملك على أن يؤدى إليه كل جمعه الف دينار، « «وقيل كل يوم الف دينار وفرساً ومملوكاً»(٣).

ومن المصادر اللاتينيه، يشير بولس الشماس Paul the Deacon إلى أن الامبراطور جستنيان الثانى عقد اتفاقية سلام مع المسلمين «تشمل البر والبحر(٤)». ولم يحدد بولس الشماس تاريخ وبنود تلك الاتفاقية.

أما المنبجى، فيشير إشارة عابرة إلى المعاهدة بين عبد الملك والامبراطور قنسطنطين الرابع فى العام الذى تفشى فيه الوباء، ويقول: «وفيه صالح عبد الملك الروم». كما يتفق المنبجى مع ميخائيل السريانى على أن أمد المعاهدة بين عبد الملك وجستنيان الثانى كان عشر سنوات، وعلى الرغم من أنه لم يحدد تاريخاً لتلك المعاهدة، واكتفى بالاشارة إلى أنها كانت فى عهد الامبراطور جستنيان إلا أن البنود التى اوردها لهذه المعاهدة تتفق مع ما اورده ثيوفانيس، ولكنه ينفرد بالاشارة إلى أن هذه البنود الزمت الامبراطور، «ان يخرج الروم فى جبل لبنان ويردهم إلى بلد الروم»، وعلى هذا فان المنبجى يعتبر الجراجمة فى لبنان من الروم. كما أنه يكتفى بالاشارة

---

(١) - Michel le Syrien, Op. Cit., Vol. 11, P. 469.

(٢) المقصود جستنيان الثانى.

(٣) ابن العبرى: المصدر الاسبق، ص ١١٢.

(٤) - Paul the Deacon, Op. Cit., PP. 258 - 259.

إلى اقتسام المسلمين والبيزنطيين جزيرة قبرص(١)، ولم يقرن بهذا الاقتسام كل من أرمينيه وايبيريا حسبما اشارت بعض المصادر البيزنطية.

أما المؤرخ الارمينى جيوفوند Ghevond فيشير إلى أن اقتسام ارمينيه كان من بين بنود المعاهدة بين عبد الملك بن مروان، والامبراطور جستنيان الثانى عام ٦٨٩م / ٦٨ - ٦٩هـ(٢).

وفى ضوء العرض السابق للروايات العربية وغير العربية عن المعاهدات بين المسلمين والبيزنطيين فيما بين عامى ٦٦ - ٧٠ هـ / ٦٨٥ - ٦٩٠م، كما حددتها الروايات غير العربية فى الفترة نفسها. كما نلحظ أن الروايات غير العربية اشارت إلى أن عبد الملك عقد معاهدتين مع البيزنطيين: الأولى عام ٦٨٥م/ ٦٦هـ، والثانية فيما بين عامى ٦٨٥ - ٦٩٠م/ ٦٥ - ٦٦ هـ، بينما تعددت الروايات العربية فى هذا الشأن.

واذا انتقلنا من التعميم الى التخصيص، فى محاولة لمقارنة هذه الروايات بعضها ببعض. نجد أن ثمة تشابه بين الرواية البيزنطية(٣)، ورواية المجموعة الاولى من المؤرخين المسلمين(٤) بشأن المعاهدة الاولى التى عقدت بين الخليفة الاموى عبد الملك بن مروان، والامبراطور البيزنطى قنسطنطين الرابع فى ٦٨٥م / ٦٥ - ٦٦ هـ، على الرغم من أن المصادر البيزنطية قد أغفلت الاشارة إلى أن الامبراطور قنسطنطين الرابع قد هاجم المصيصة. كما يمكن أن نفسر اشارة السيوطى بأن الامبراطور قد انتقض ما كان بينه وبين عبد الملك بالهجوم على المصيصة، بأن المؤرخ السيوطى كان يعنى بهذه الاشارة المعاهدة التى سبق ان عقدها معاوية مع الامبراطور

---

(١) المنبجى: المصدر السابق، ص ٧٨.

(٢) - Ghevond, Histoire des Guerres et des Conquetes des Arabes en Armenie, Tr. G.V. Chahnazarian Paris, 1856, PP. 65 - 97.

(٣) انظر ما سبق ص ١٧ - ١٨.

(٤) انظر ما سبق ص ١٢ - ١٣.

قنسطنطين الرابع عام ٦٧٨م / ٥٨هـ، والتى كان أمدها ثلاثين عاماً، وعلى ذلك كانت المعاهدة سارية فى عهد عبد الملك بن مروان، وإنتقضها الامبراطور قنسطنطين الرابع عندما هاجم المصيصة. فاضطر عبد الملك إلى عقد المعاهدة معه ليتفرغ لمواجهة ابن الزبير.

ويشير ثيوفانيس إلى أن المعاهدة التى عقدت بين عبد الملك والامبراطور قنسطنطين الرابع كانت بمثابة تجديد للمعاهدة التى سبق أن عقدها الاخير مع معاوية وبالبنود نفسها. ولكن إذا امعنا النظر فى بنود المعاهدة التى عقدها عبد الملك - حسبما اوردتها المصادر البيزنطية[١] - نجد أن الاختلاف واضح للغاية بين بنود المعاهدتين[٢]. مما يجعلنا نستنتج أن عبد الملك عقد مع الامبراطور قنسطنطين الرابع معاهدة أخرى، ولها بنود مختلفة عن معاهدة معاوية مع البيزنطيين.

أما عن تاريخ هذه المعاهدة، فتتفق رواية المجموعة الاولى من المصادر العربية على أنه كان بعد مقتل عبيد الله بن زياد[٣]، وكان مقتل ابن زياد حسبما اشار خليفة بن خياط فى عام ٦٦ هـ/ ٦٨٥ - ٦٨٦ هـ[٤]، ويرى ثيوفانيس أنها كانت فيما بين عامى ٦٨٤ - ٦٨٥م[٥]/ ٦٥ - ٦٦ هـ، ويشير جنزيوس الى أنها فى ٧ يوليو عام ٦٨٥ [٦]/ ٢٨ ذى القعدة عام ٦٥هـ، وعلى هذا تكون بداية الفترة التى حددها ثيوفانيس، والتاريخ الذى أورده جنزيوس قبل مقتل ابن زياد، وليس بعده حسبما اشارت المصادر الاسلامية. ويجب أن نلحظ ايضاً أن هذه المعاهدة كانت بين عبد الملك بن مروان والامبراطور قنسطنطين الرابع كما اشارت إلى ذلك الرواية البيزنطية، ومن

---

(١) انظر ما سبق، ص ١٧.

(٢) عن المعاهدة بين معاوية والامبراطور قنسطنطين الرابع انظر ما سبق ص ٤.

(٣) انظر ما سبق، ص ١٧ - ١٨.

(٤) خليفة بن خياط: المصدر السابق، ص ٢٦٣.

(٥) انظر ما سبق، ص ١٧.

(٦) انظر ما سبق، ص ١٧.

المسلم به أن يكون عقد هذه المعاهدة بعد تولى عبد الملك الحكم فى رمضان عام ٦٥هـ. أبريل عام ٦٨٥[١]، وقبل وفاة الامبراطور قنسطنطين الرابع فى سبتمبر عام ٦٨٥م / صفر عام ٦٩هـ[٢]، وعلى هذا يمكن القول أن تاريخ هذه المعاهدة كان فى الفترة بين ابريل وسبتمبر ٦٨٥م/ (رمضان عام ٦٥ - صفر عام ٦٦ هـ) ولما كان هذا التحديد يتفق مع التاريخ الذى اشارت اليه رواية المجموعة الاولى من المصادر العربية. نرى أن الروايتين البيزنطية والعربية قد اتفقتا حول تاريخ هذه المعاهدة. أما عن اسباب هذه المعاهدة وبنودها، والشخصية التى عقد معها عبد الملك هذه الاتفاقية وأمدها، فنلاحظ:

أولاً: فيما يتعلق بأسباب هذه المعاهدة اتفقت المصادر البيزنطية على أن هجوم المردة على لبنان كان من أهم الاسباب التى دفعت عبد الملك الى عقد هذه الهدنة مع الامبراطور قنسطنطين[٣]، بينما تشير رواية المجموعة الأولى[٤] من المصادر العربية إلى أن هجوم الامبراطور على المصيصة كان هو الدافع لعقد المعاهدة. واتفقت رواية المجموعة الثانية من المصادر العربية مع الرواية البيزنطية فى أن هجوم الجراجمة على لبنان هو الذى دفع عبد الملك إلى مصالحتهم.

ثانياً: أوجزت المصادر البيزنطية بنود هذه المعاهدة، إذ تعهد الامبراطور البيزنطى بايقاف هجمات المردة على لبنان، وهى اشارة واضحة إلى أن الامبراطور كان هو المحرض على تلك الهجمات، مقابل أن يدفع عبد الملك ثلاثمائة وخمس وستين الف نوميسماتا، ويرسل ثلاثمائة وخمسة وستين حصاناً أصيلاً، ويطلق سراح ثلاثمائة وخمس وستين اسيراً بيزنطياً كل عام، وهكذا اذا جرى تقسيم ما تعهد بارساله عبد الملك على ايام السنة لكان الناتج الف نوميسماتا، وحصاناً، وأسيراً كل يوم.

---

(١) خليفة بن خياط: المصدر السابق، ص ٢٦١.

(٢) - Hamartolus, Op, Cit., Col. 898.

(٣) انظر ما سبق، ص ١٧.

(٤) انظر ما سبق، ص ١٣.

واذا امعنا النظر فى هذا الناتج، نجد أنه يتفق مع ما جاء فى البنود التى اشارت إليها بعض المصادر البيزنطية عندما تحدثت عن المعاهدة التى عقدها فيما بعد عبد الملك بن مروان مع جستنيان الثانى[١]، وهذا يعنى بعبارة واضحة أن المصادر البيزنطية اشارت إلى البنود نفسها فى المعاهدتين، فأشارت إلى أنها تدفع كل عام فى المعاهدة الاولى، وكل يوم فى المعاهدة الثانية.

وفى الوقت نفسه نجد أن هذا التكرار فى روايات المصادر العربية. فتشير رواية المجموعة الثانية إلى أن عبد الملك صالح الجراجمة فيما بين عامى ٦٩ - ٧٠ هـ / ٦٨٨ - ٦٩٠م على ان يدفع لهم كل جمعة الف دينار[٢]، وفى الوقت نفسه تشير رواية المجموعة الثالثة من المصادر العربية إلى أن عبد الملك صالح الامبراطور البيزنطى عام ٧٠ هـ / ٦٨٩ - ٦٩٠م على أن يدفع للبيزنطيين فى كل جمعه الف دينار[٣].

هذا التكرار هو الذى جعل كل من جنزيوس وابن العبرى يتأرجحان فى الاشارة إلى هذه البنود، فذكرا أنها تدفع «كل يوم أو كل جمعة»[٤].

ولقد حسم المنبجى الاختلاف بين الرواية العربية، والرواية البيزنطية عندما اشار إلى أن بنود المعاهدة التى عقدها عبد الملك مع جستنيان الثانى كانت «تدفع كل يوم عوضاً عن اخراج الروم الذين كانوا فى جبل لبنان»[٥].

ونميل إلى ترجيح رواية المنبجى، لأن اجلاء الجراجمة من المناطق التى عاشوا فيها فترة طويلة[٦]، ونقلهم بكل امتعتهم إلى مناطق اخرى كان

---

(١) انظر ما سبق، ص ١٧ - ١٨.
(٢) انظر ما سبق، ص ١٣.
(٣) انظر ما سبق، ص ١٤.
(٤) المنبجى: المصدر السابق، ص ٧٨.
(٥) البلاذرى: المصدر السابق، ص ١٥٩.
(٦) - Theophanes, Op. Cit., P.62.

يحتاج إلى اموال كثيرة تعهد بدفعها عبد الملك حتى يكسر شوكتهم، ويهدم هذا السور النحاسى، حسبما اشار المؤرخ ثيوفانيس.

وفى ضوء ما سبق نرى أن رواية المجموعة الثانية من المصادر العربية هى اقرب إلى الحقيقة، وهى التى اشارت إلى أن ما تعهد به عبد الملك طبقاً لشروط المعاهدة التى عقدها مع البيزنطيين - عام ٦٥٨م / ٦٦هـ - كانت تدفع كل جمعة.

ونرجح ايضاً أن هذه البنود كانت تنص على أن يدفع الف دينار رومى للبيزنطيين، ويرسل حصاناً اصيلاً لهم، ويطلق سراح اسير واحد من البيزنطيين.

ثالثاً: تتفق رواية المجموعة الأولى من المصادر العربية مع الرواية البيزنطية فى أن عبد الملك قد صالح الامبراطور البيزنطى عام ٦٦ هـ / ٦٨٥هـ. فى الوقت الذى اشارت فيه رواية المجموعة الثانية من المصادر العربية إلى أن الصلح كان مع الروم والجراجمة فى لبنان، ولا يمثل ذلك اختلافاً جوهرياً مع رواية المجموعة الاولى طالما ان الامبراطور هو المحرض الاساسى للروم والجراجمة فى لبنان كما سبق ان اشرنا.

رابعاً: لم تشر المصادر العربية إلى أمد المعاهدة التى عقدها عبد الملك مع الامبراطور قنسطنطين الرابع عام ٦٨٥م / ٦٧٦هـ. بينما أشار المؤرخ جنزيوس إلى ان امدها كان ثلاث سنوات(١)، ويرى المؤرخ ميخائيل السريانى(٢) أنها كانت لمدة عشر سنوات. ولا نرى أن هذا يمثل اختلافاً كبيراً ايضاً، فربما كان أمد المعاهدة عشر سنوات ولكن الامبراطور نقضها بعد مرور ثلاث سنوات من توقيعها.

وهكذا، يمكن القول أن ثمة تشابه بين الرواية البيزنطية وكل من رواية

---

(١) - Genesus, Op. Cit., Col. 31.
(٢) - Michel le Syrien, Op. Cit., Vol. 11, P. 469.

المجموعة الأولى والمجموعة الثانية من المصادر العربية بشأن المعاهدة التى عقدت بين عبد الملك بن مروان والامبراطور البيزنطى قنسطنطين الرابع عام ٦٨٥م/٦٦هـ.

أما عن المعاهدة التى عقدها عبد الملك بن مروان والامبراطور جستنيان الثانى، فقد أختلفت الروايات حول تاريخها، فيشير كل من كدرينوس وزوناراس إلى أنها كانت فى عام ٦٨٥م / ٦٥ - ٦٦، ويذكر ثيوفانيس أنها كانت فيما بين عامى ٦٨٦ - ٦٨٧م / ٦٧ - ٦٨هـ، ويرى ميخائيل السريانى انها عقدت فى عام ٦٨٧م / ٦٨ - ٦٩هـ ويرى جيوفوند أنها فى عام ٦٨٩م /٦٩ - ٧٠ هـ، ويشير كل من البلاذرى، والطبرى، وابن الاتير، وابن العبرى إلى انها جرت فى عام ٧٠هـ / ٦٨٩ - ٦٩٠م، أما ليو جراماتيكوس وموناخوس وبولس الشماس والمنبجى فقد أشاروا الى هذه المعاهدة دون تحديد تاريخ لها.

ويمكن أن نستبعد رأى كل من كدرينوس وزوناراس لأنهما يتفقان مع تاريخ المعاهدة التى سبقت الاشارة إليها بين عبد الملك والامبراطور قنسطنطين الرابع. ونلحظ من رواية ثيوفانيس أن الاتفاق النهائى وبداية تنفيذ المعاهدة كان فى العام التالى لارسال عبد الملك الرسل إلى الامبراطور البيزنطى للتشاور على عقد اتفاقية السلام بينهما(١). ونلحظ ايضا أن هناك تشابه بين الرواية الارمينية لجيوفوند، والسريانية لابن العبرى، والعربية للبلاذرى، والطبرى، وابن الاثير فى تحديد عام ٦٨٩م / ٧٠هـ. وإذا اعتبرنا أن هذا العام يمثل تاريخ الاتفاق النهائى على هذه المعاهدة، فيكون العام السابق - حسبما اشار ثيوفانيس - هو العام الذى بدأ فيه الرسل فى التفاوض بشأن المعاهدة، ونضم بالتالى رأى من جنزيوس ونفور إلى اتفاق هؤلاء المؤرخين.

---

(١) - Theophanes, Op. Cit., PP. 61 - 62.

وعلى هذا يمكن القول ان عبد الملك بن مروان ارسل سفارة إلى الامبراطور البيزنطى جستنيان الثانى للتفاوض على عقد الصلح بينهما فى أواخر عام ٦٨٨م / أوائل عام ٦٩هـ، وأن الجانبين تبادلا إرسال السفراء، واستمرت المفاوضات إلى أن تم توقيع المعاهدة بينهما فى منتصف ٦٨٩م / أوائل عام ٧٠هـ.

أما عن بنود تلك المعاهدة، وحسبما اتفقت المصادر غير العربية، فتنحصر فى أن يدفع عبد الملك للبيزنطيين الف دينار رومى، ويرسل اليهم حصاناً أصيلاً، ويطلق سراح اسير منهم كل يوم، ويقتسم الجانبان الاسلامى والبيزنطى الضرائب التى تجبى من قبرص وارمينيه وايبيريا، على أن يقوم الامبراطور البيزنطى بترحيل الجراجمة من الشام إلى الاراضى البيزنطية، وأن يكون أمد هذه المعاهدة عشر سنوات.

ونستنتج من العرض السابق، أن المسلمين عقدوا مع البيزنطيين خمس معاهدات سلام فى النصف الثانى من القرن السابع الميلادى / الثلث الثانى من القرن الأول الهجرى، عقد معاوية منها ثلاث معاهدات: الأولى مع الامبراطور قنسطانز الثانى عام ٦٥١م / ٣١هـ، وكان معاوية والياً على الشام حينذاك،والثانية مع الامبراطور نفسه فى عام ٦٥٦م/ ٣٦هـ اثناء النزاع على بن ابى طالب، والثالثة مع الامبراطور قنسطنطين الرابع فى عام ٦٧٨م / ٥٨هـ، بعد أن صارت له الخلافة. أما عبد الملك بن مروان فقد عقد معاهدتين مع البيزنطيين الأولى عام ٦٨٥م/ ٦٦ هـ مع الامبراطور قنسطنطين الرابع، والثانية عام ٦٨٩م/ ٧٠هـ مع الامبراطور جستنيان الثانى.

قائمة باسماء المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية والمعربة:

- ابن الاثير (ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢م) عز الدين ابو الحسن على بن ابى الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى.
  ،الكامل فى التاريخ، ٩ ج، بيروت ١٩٧٩م.
- ابن سعد (ت ٢٣٠م / ٨٤٤ - ٨٤٥م) محمد بن سعد بن منيع الزهرى كاتب الواقدى.:
  ، الطبقات الكبرى ، ٨ ج، بيروت ١٩٥٧م.
- ابن سلام (ت ٢٢٤م / ٨٣٨ - ٨٣٩م) ابو عبيد القاسم:
  ، الاموال ، مصر (د. ت).
- ابن الطقطقى (ت ٧٠٩هـ / ١٣١٠ - ١٣١١م) محمد بن على بن طباطبا:
  ، الفخرى فى الأداب السلطانية ، مصر (د. ت).
- ابن العبرى (ت ٦٨٥م/١٢٨٦م) ابو الفرج غريغوريوس بن أهرون الطيب:
  ، تاريخ مختصر الدول ، بيروت (د.ت).
- ابن العماد (ت ١٠٨٩/ ١٦٧٩م) ابو الفلاح عبد الحى بن على بن محمد:
  ، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ٨ ج، بيروت (د.ت).
- ابن عبد ربه (ت ٣٢٧هـ/ ٩٣٨م) ابو عمر احمد بن محمد القرطبى الاندلسى:
  ، العقد الفريد ، ١٦ ج + فهرس، بيروت ١٩٥٣ - ١٩٦٢.
- ابن قتيبة (ت ٢٦٧ هـ/ ٨٨٩م) ابو محمد بن عبد الله بن مسلم
  ، الامامة والسياسة ٢ ج (فى مجلد احد)، مصر ١٩٠٤م.
  ، عيون الاخبار، ٢ ج، القاهرة ١٩٢٥.
- أبن كثير (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م) عماد الدين ابو الفد اسماعيل بن عمر:
  ، البداية والنهاية ، ١٣ ج، بيروت ١٩٧٤م.

- البلاذرى (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م) ابو الحسن احمد بن ريحيى بن جابر البغدادى:
• انساب الاشراف ، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت ١٩٧٩م
• فتوح البلدان ، ليدن ١٨٦٦م.
- الحميرى (ت أواخر القرن التاسع الهجرى/ أواخر القرن الخامس عشر الميلادى) أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم:
• كتاب الروض المعطار فى خبر الاقطار ، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت ١٩٧٥م.
- خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م) ابو عمرو خليفة بن خياط بن ابى هبيره العصفرى:
• تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق د. أكرم ضياء العمرى، الرياضى ١٩٨٥م.
- الدينورى (ت ٢٨٨هـ/ ١٨٩٥م) ابو حنيفة احمد بن دواد:
• كتاب الاخبار الطوال ، بغداد ١٩٥٩م.
- السيوطى (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م) جلال الدين عبد الرحمن بن ابى بكر:
• تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة ١٩٧٥م.
- الشيبانى (ت ٤٩٠هـ/ ١٠٩٦ - ١٠٩٧م) محمد بن الحسن الشيبانى:
• شرح كتاب السير الكبير ، تحقيق عبد العزيز احمد، القاهرة ١٩٧٢م.
- الطبرى (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م) ابو جعفر محمد بن جرير:
• تاريخ الامم والملوك ، ١٠ج، بيروت ١٩٧٩م.
- الكندى (ت ٣٥٠م/ ٩٦١م) ابو عمر محمد بن يوسف المصرى:
• كتاب الولاه وكتاب القضاة ، بيروت ١٩٠٨م.
- المسعودى (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٦م) ابى الحسن على بن الحسين بن على:
• مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ٤ج، بيروت ١٩٨٣م.
- المنبجى (عاش فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى) أغابيوس بن قسطنطين المنبجى:

، المنتخب من تاريخ المنبجي ، انتخبه وحققه أ.د. عمر عبد السلام تذمرى، بيروت ١٩٨٦م.
- النويرى (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م) شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب:
، نهاية الارب فى فنون الآدب ، ٢٧ج، القاهرة ١٩٧٥ – ١٩٧٦م.
- اليعقوبى (ت بعد عام ٢٩٢هـ/ بعد عام ٩٠٤م) أحمد بن ابى يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب لمعروب بابن واضح الكاتب:
، تاريخ اليعقوبى ، ٣ج، النجف ١٣٥٨ هـ.

ثانياً: المصادر الأجنبية:

- Cedronus, G., Historiarum Compendium, Ed. Migne Patrologia Graeca, Tome Cxx1- Cxx11, Paris 1964 - 1894.
- Genesius, J. Historia De Rebus Constantinopolitanis, Ed. Migne Patrologia Graeca, Tome Cx, Paris, 1863.
- Georgius Monachus Hamartolus, Chronicon, Ed. Migne Patrologia Graeca, Tome Cx, Paris, 1863.
- Ghevond, Histoire des Guerres et des Conquetes des Arabes en Armenie, Tr. G.V. Chahnazarian, Paris, 1856.
- Leo Grammaticus, Chronographia, Ed. Gorpus Scriptorum Historiae Byzantinae, Bonn, 1892.
- Michel le Syrien, Chronique, Texet Syriaque et Trad. Fr. Par Chabot, 4 Vols, Paris, 1899.
- Nicephrus Patriarchae, Breviarum Historicum, Ed. Migne Patrologia Grarca, Toms C, Paris, 1860.
- Paul the Deacon, History of the Lombards, Tr. By, W.D. Faulke, Phhaldelphia, 1907.
- Sebeos, Histoire d'Heraclius, Trad. F. par, F. Macler, Paris, 1904.

- Theophanes, The Chronicle of Theophanes, (A.D. 602 - 813) Tr. by, H. Turthedove, U.S.A., Pensylvania, 1982.
- Zoharas, J., Epitome Historriarum, Ed. M. Pender, 3 Vols, Bonne, 1841-1892.

ثالثاً: المراجع العربية:

- فتحى عثمان (دكتور):
« الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والاتصال الحضارى» ٢ ج، القاهرة ١٩٦٦ .
- عبد المنعم ماجد (دكتور):
« التاريخ السياسى للدولة العربية »، ٢ ج، القاهرة ١٩٧٩م.
- محمود سعيد عمران (دكتور):
« ادارة الامبراطورية البيزنطية» بيروت، ١٩٨٠م.
- وسام عبد العزيز فرج (دكتور):
« العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الاموية حتى منتصف القرن السابع الميلادى» الاسكندرية، ١٩٨١م.

رابعاً: المراجع الأجنبية:

- Lot, F. L'art Militaire et les Armees, Paris, 1946.
- Ostrogorsky, G., History of the Byzantin State, Tr., J. Hussey, Oxford, 1956.
- Vasiliev, A.A., History of the Byzantine Empire (324 - 1453), 2 Vols, Madisom, 196.

الموضوع التاسع عشر

دور المرأة في مصر البيزنطية(*)

(*) د. سهير ابراهيم نعينع، استاذ مساعد تاريخ العصور الوسطى.

إحتلت المرأة المصرية مكانة هامة ومميزة فى المجتمع المصرى منذ أقدم العصور، فكانت مصدراً للوحى والالهام، ورمزاً للبر والصدق، وقد ظهر ذلك بوضوح فى التاريخ المصرى القديم حيث جعل المصريون الآلهة ماعت أو «معات» رمزاً للعدالة والحق والبر، وقد سوا هذه القيم فى تلك المعبودة(١). وعندما اعتنق المصريون المسيحية تلك العقيدة الجديدة والدين السماوى الذى عرف طريقه إلى شعب مصر، وتأثرت حياة الناس بما جاء به ذلك الدين السماوى من مثل وقيم، وادخلت مؤثرات كثيرة على الحياة الاجتماعية للشعب المصرى(٢). وظلت المرأة المصرية بعد اعتناقها المسيحية مصدراً للوحى، حيث سمت بأخلاقها وفضائلها حتى صارت نموذجاً يحتذى للوثنيين وقدوة مثلى إجتذبتهم إلى الدين الجديدة وكرست حياتها للخدمة فى خشوع، وعاشت فى طهارة ونقاء وحصلت على احترام الجميع(٣). وقد حفظ لنا التاريخ أمثلة لسير نساء بلغن مكانة روحية سامية وايضاً سير نساء مجهولات كان لهن دور بارز فى زيادة اعداد الداخلين إلى المسيحية والوقوف إلى جانب المحتاجين، وتشجيع الرجال على اظهار الشجاعة والصمود فى وجه الاضطهادات(٤). فهناك قصة السيدة السكندرية الغنية التى قامت برعاية

---

(١) مراد كامل، حضارة مصر فى العصر القبطى، مطبعة دار العالم العربى، القاهرة، بدون تاريخ، ص ١٦٥.

(2) Chad Wick; H, The early church, London 1974, PP. 64 - 65.

محمد محمد الشيخ، تاريخ مصر البيزنطية، الاسكندرية ١٩٩٩م، ص ٢٠٨.

(٣) كرمب وجاكوب، تراث العصور الوسطى، مراجعة محمد بدران ود. زيادة، القاهرة ١٩٦٥م، ح١، ص ٥٠، ٥٧، محمد محمد الشيخ، المرجع السابق، ص ٢٠٩ وحاشية رقم (٥).

(٤) للمزيد من المعلومات عن هؤلاء النساء المجهولات. واجع يوسابيوس القيصرى، تاريخ الكنيسة، تعريب القمص مرقس داود، طبعة ثانية القاهرة ١٩٧٩م، راجع على سبيل المثال صفحات ٢١٢ - ٢١٣، ٢٣٧، ٢٤٠ فهو يأتى بأسماء نساء تعرضن للتعذيب وتحملن الآلام والاستشهاد فى سبيل العقيدة.

-KATZ, S: The Decline of Rome and the Rise of Medival Europe, New York, 1955, P. 65.

اوريجين وإخوته الستة بعد استشهاد والده فى الاضطهادات التى قام بها الامبراطور سبتميوس سفروس فى أواخر القرن الثانى الميلادى وأوائل القرن الثالث حيث كان اورجين لا يزال صبياً، وصودرت أموال ابيه لحساب الخزانة الحكومية واصبح هو وعائلته لا يملكون ضروريات الحياة، وقد هيأ الله له هذه السيدة الفاضلة لمعاونته على اتمام دراسته فاعتنت به وبإخوته وسهرت على تربيتهم، فهيأت بذلك الفرصة لاوريجين ليصبح من أبرز المعلمين الذين انجبتهم الكنيسة المصرية ومن أهم اعلام الفكر المصرى فى ذلك الوقت(١). وكان لاوريجين تلميذات درسن على يديه مثلهم فى ذلك مثل الرجال، ومن أشهر من تتلمذت وتثقفت على يد اورويجين الحسناء بارعة الجمال بوتامينا والتى كانت فى نفس الوقت أمة، أعجب بها مولاها وحاول اغرائها، ولكنها قاومته، فاشتد غيظه وشكاها إلى والى الاسكندرية واتهمها بأنها مسيحية ووعد الوالى بمبلغ مبير من المال إذا تمكن من أغرائها، فكان أن استعمل الوالى مع بوتامينا كل الوسائل والطرق لاغرائها، ولكنها رفضت وظلت ثابتة على عزمها وكانت نهايتها الاستشهاد(٢).

فى الواقع أن هذه القصة إن كانت تدلنا على قوة الايمان والصبر والتمسك بالاخلاق الحميدة إلا أنها فى نفس الوقت تشير إلى حقيقة هامة جداً وهى اتجاه النساء فى تلك الفترة إلى التعليم والتثقيف حتى لو كانت أمة، ويؤكد ذلك أن اورجين بعد توليته رئاسة مدرسة الاسكندرية التبشيرية،

---

(١) يوسابيوس القيصرى، المصدر السابق، ص ٢٨٦ – ٢٩١.

- Vasiliv, A: The Byzantine Empire Madison 1952. Vol I, PP. 58 - 90.

(٢) يوسابيوس القيصرى، المصدر نفسه، ص ٣٩٢، ٣٩٣.

تم إحراق ام بوتامينا ايضاً وتدعى مارسلا، أما الجندى المكلف بحراستها ويدعى باسيليس، فقد كان يمنع عنها اذى الوثنيين من الناس، فوعدته بوتامينا أن تصلى من اجله فى دار السعادة بعد الموت. ويقول يوسابيوس ان بوتامينا ظهرت لهذا الجندى بعد موتها، وقالت له ستكون معى، كما ظهرت ايضاً لعدد من الوثنيين فما كان منهم إلا أن آمنوا بالمسيحية. راجع ايضاً: منسى القمص، تاريخ الكنيسة القبطية، ص ٧٢ – ٧٣.

وشرع فى نسخ الكتاب المقدس بعد تسجيله فى لهجات مختلفة(١)، اختار سبع شابات يجدن الخط والكتابة ولديهن قدراً من الثقافة الدينية لكى يقمن بنسخ الكتاب المقدس فى صيغته النهائية، وهذا يعد أكبر دليل على مشاركة المرأة فى النشاط العلمى والفكرى والدينى فى مصر البيزنطية(٢).

وقد ذخر الانتاج الادبى بالعديد من قصص التى تتناول حياة الشهداء والرهبان والنساك واحتلت المرأة جزءاً لا بأس به من هذه السير التى كان لها أكبر الاثر فى زيادة مكانة المرأة المسيحية فى مصر البيزنطية، فقد ضربت لنا أمثلة كثيرة ومتعددة لحياة الفضيلة والتضحية متمثلة فى سير القديسات والمتنسكات والراهبات، وقد كتبت هذه السير باسلوب ادبى بالغ الأثر وكان من نتائجه إقبال كثيرين على الرهبنة والسير فى طريق الفضيلة التى جسمتها هذه السير مع لون الايحاء فى الكتابة(٣).

ومن أشهر هذه السير التى أكدت على أن الاستشهاد لم يكن وفقاً على الرجال فقط وإنما شاركتهم فيه النساء سيرة القديسة الشهيدة دميانة(٤) الابنة

(1) Danielau; C: Origene le Genie du Christianisme Paris 1948, P. 23, Chadwick, Op. Cit., PP. 100 - 106.

(٢) مراد كامل، المرجع السابق، ص ١٦٨.

(٣) كانت نساء مصر فى كثير من الاحيان من إسباب ثبات الرجال وعدم ارتدادهم عن المسيحية خلال الاضطهادات فكان الرجال يقدمون على الموت والاستشهاد غير عابئيين به بفضل تشجيع المرأة لهم، وكان لهذا أثره فى تحول العديد من الوثنيين الى المسيحية. راجع:

- Cambridge, Medieval History, (8Vol) (Cambridge, 1824, Vol. I P. 85, Thompson, J.W.: The Middle Ages, 2 Vols, London, 1931, Vol. I. P. 32.

- مراد كامل، المرجع السابق، ص ١١٥.

(٤) راجع: الانبا يونس اسقف البرلس، مخطوط عربى مؤرخ سنة (١٤٨٢ش - ١٧٧٦م) محفوظ بكنيسة الشهيد استفانوس بجوار الكتدرائية المرقسية الكبرى بالقاهرة، راجع ايضاً رواية يوحنا النقيوس التى تشير الى اصابة الامبراطور دقلديانوس بالعمى والجنون بعد تنازله عن العرش وقامت على رعايته سيدة مسيحية صالحة عملاً بقول المسيح «احسنوا إلى مبغضيكم».

- Zotemberg, History par Jean Nikiou (Treduction) PP. 418 - 190.

- مترجم من الحبشية الى الفرنسية.

الوحيدة لمرقس والى البرلس الذى كرس حياته هو وأمها لتربيتها وتثقيفها، وعندما بلغت مبلغ الشباب أراد تزويجها، لكنها اعلنت عن رغبتها فى قصر حياتها على العبادة واعتزال الحياة، وطلبت من أبيها ان يبنى لها منزلاً تقيم فيه بمنأى عن العالم لتخلو فيه للعبادة والتنسك.

وبالفعل بنى لها والدها قصراً جهة الزعفرانة لتنفرد فيه للعبادة وصحبها فى عزلتها عدد من العذارى بلغ اربعين عذراء، وقد عاصرت دميانة الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥) الذى بالغ فى التطرف فى قمع المسيحية[١]. وفى احدى نوبات اضطهاده للمسيحيين طلب الامبراطور دقلديانوس من مرقس وغيره من الولاه الذهاب معه إلى المعبد وتقديم القرابين للآلهة الوثنية، فامتثل والد دميانة والى البرلس مع باقى الولاه لأمر الامبراطور وأذعن لرغبته خوفاً على مركزه. وعندما سمعت دميانة بما كان من أمر خوف والدها خرجت من عزلتها وذهبت لمقابلة والدها وأعربت له عن حزنها العميق لما ابداه من خوف وتراجع. فلم يسع مرقص إلا سماع كلمات ابنته وعاد إلى الامبراطور دقلديانوس وأعلن أمامه أنه مسيحى وأنه نادم على امتثاله لامره وتقديم القرابين للآلهة، وعلى الفور أمر الامبراطور بقطع رأسه بالسيف وأرسل جنده إلى قصر الزعفرانة التى تعيش فيه ابنته دميانة وبصحبتها الاربعين عذراء، فقاموا بالتنكيل بهن، وتحملت دميانة

---

(١) سعيد عاشور، اوروبا العصور الوسطى، التاريخ السياسى، الطبعة الثامنة، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٥م، ص ٣٨ وحاشية رقم ٣، ٤.

اطلق على الفترة الاخيرة من حكم الامبراطور دقلدانوس «عصر الشهداء» ويبدو ان هدف دقلديانوس من سياسة الاضهاد هو محاولة اجبار الكنيسة على الخضوع للدولة شأنها شأن بقية الهيئات والمنظمات الاجتماعية فى الدولة الرومانية لأن قيام الكنيسة كهيئة مستقلة أو كدولة داخل الدولة أمر يتعارض مع مبدأ خضوع جميع الرعايا لسيادة الدولة المطلقة. راجع عن عدد القتلى والشهداء فى:

- Guerin, Dictionnaire des Dictionnaires,

- تحت كلمة شهداء (Marlyre) فقد بلغ عدد من قتلهم دقلديانوس من المسيحيين حوالى ثمانمائة.

وصديقاتها كل صنوف العذاب بصبر عظيم أدهش اهل القرية الذين رأوا ثباتهن وشجاعتهن فما كان من الرجال إلا أن أعلنوا مسيحيتهم. عندئذ أمر الضابط الرومانى بقتلهم جميعاً وقتل دميانة والعذارى الاربعين. وهكذا كانت بسالة الناسكة دميانة وشجاعتها سبباً فى اذكاء نار الحمية والايمان فى قلوب هؤلاء جميعاً(١).

وبعد مرور حوالى نصف قرن على هذه الاحداث وبعد انتهاء اضطهاد المسيحيين على عهد الامبراطور قنسطنطين الكبير (٣٠٦ - ٣٣٧) ذهبت أم الامبراطور، الامبراطورة هيلانه لزيارة كنيسة القيامة التى أمر الامبراطور بتشييدها فى بيت المقدس وفى أثناء عودتها مرت بمصر وذهبت لزيارة المكان الذى دفنت فيه الشهيدة دميانة وزميلاتها وأمرت بتشييد كنيسة فوق ذلك المكان واطلقت عليها اسم العذراء دميانة وزميلاتها(٢).

مما لا شك فيه أن سيرة القديسة دميانة إنما تؤكد على دور المرأة المصرية فى تلك الفترة الحرجة من تاريخ مصر قد اتسمت بالشجاعة والوقوف إلى جانب الرجال وبث الحمية والصمود فيهم(٣). وتضيف قصة القديسة كاترين الكثير من الشجاعة والصمود والسمو. ولدت بالاسكندرية فى ختام القرن الثالث الميلادى من أبوين وثنيين، وعندما بلغت من السن ثمان عشر سنة كانت قد تحلت بالجمال الباهر، وقد تلقت علوم الفلسفة والخطابة والشعر والموسيقى والطبيعيات والرياضيات وعلم الفلك والطب فى مدارس

---

(١) مراد كامل، المرجع السابق، ص ١٦٩.

(٢) للمزيد من المعلومات عن القديسة دميانة راجع :

- Sur Sainte Dimiana, voir Bulletin de la Societe de Geographe Tome VIII 1917 - P. 79.

- وراجع ايضاً: مخطوط الانبا يؤنس فى حاشية رقم (١٠).

(٣) لا تزال كنيسة الشهيدة دميانة قائمة فى بلقاس يتجه إليها بالزيارة المسيحيون من مختلف الاماكن وعن هذه الكنيسة وبناءها الذى يشبه فى تصميمه كنيسة القبر المقدس فى القدس. راجع المخطوط السابق.

ذلك العهد، وقد جعل منها جمالها الفتان وثقافتها وارستقراطيتها عروساً يخطب ودها الجميع، ولكنها رفضت الزواج واعتنقت المسيحية ولقبت باسم كاترين ويعنى الطاهرة أو كثيرة الاكاليل. واعترفت بعد ذلك باعتناقها الديانة المسيحية، وأخذت تواصل جهادها فى سبيل تثبيت المؤمنين ضد اضطهادات امبرطور الغرب مكسيميان الذى قدم إلى الاسكندرية فى سنة ٣٠٥م وأصدر أمره باعدام كل مسيحى لا يضحى للأوثان. وقد بلغت بها الشجاعة أن وقفت فى وجه مكسيميان وأخذت تعنفه وتوضح له جهله بتقديم ذبائح لآلهه وثنية لا تستطيع افادته بشئ(١).

أندهش مكسيميان لفرط شجاعتها النادرة وأخذ بجمالها الفتان، أما هى فقد طلبت منه أن يحضر اليها علماء الوثنية لتباحثهم فى أمر ديانتهم، حضر منهم خمسون عالماً ونزلت معهم فى ميدان الجدال وأخذت تبرهن لهم على فساد عبادتهم وواصلت جدالها حتى غلبتهم على امرهم، وصرح بعضهم بتركه لتلك العبادة، ثم أخذت بعد ذلك توضح لها فضل الديانة المسيحية ونقاوة التعاليم الانجيلية، فكان رد فعلهم الايمان بالمسيحية.

وحينما أنتشر خبر هذه الحادثة، خشى الوثنيون انتشار المسيحية بينهم بسبب كاترين، فحرضوا الامبراطور على قتل كاترين والفلاسفة الذين اعتنقوا المسيحية وبالفعل طلب الامبراطور من الفلاسفة الرجوع الى عبادتهم الوثنية وترك المسيحية، لكنهم أبوا جميعاً، فأمر بقتلهم جميعاً. أما بالنسبة لكاترين فقد أمر بسجنها لعلها ترجع عن ديانتها وتقبله زوجاً لها، لكنها أبت

---

(١) يحيط الغموض بتاريخ القديسة كاترين، فلم يذكر اسمها صراحة فى كتب التاريخ الكنسى القبطى وربما يرجع هذا الى اتخاذها اسم كاترين بعد تعميدها حيث ذكر البعض أن اسمها كان زورثياً راجع فى ذلك: دير سيناء المقدس، نشر دير سيناء ١٩٨٦م تزافبرس للطباعة والنشر، ص٣٠، ٣١ وفى كتاب يوسبيوس القيصرى نجده يذكر فتاة دون ذكر اسمها ينطبق عليها اوصاف كاترين التى وقفت فى وجه مسكيميان ورفضت طاعته إلا أنه نهى الامر بنفى هذه الفتاة من مصر. راجع: يوسابيوس، المصدر السابق، ص ٤١٩.

عليه ذلك، وجعل ينفذ اليها الرسل لاقناعها بطاعته، فكانت ترسل معهم كلمات التوبيخ حتى انقلبت محبته لها إلى غيظاً وأمر جنوده بتعذيبها، وتحملت التعذيب بشجاعة كبيرة أدهشت القائمين على تعذيبها. قام القيصر برحلته إلى باقى مدن مصر وعند عودته رأى كاترين ثابتة على ايمانها، فجهز لها دواليب مركبة بسيوف بارزة امعاناً فى تعذيبها، ولكنها لم تستجيب له وفضلت الموت، فأمر بقطع رأسها(١). وعندما انتهى عصر الشهداء نقل الرهبان جسدها إلى سيناء إلى الجبل الذى يحمل اسمها(٢).

(١) حول تاريخ القديسة كاترين راجع: حسن مظهر، تاريخ القديسة كاترين، مقال بمجلة السياحة المصرية - العدد ١١٦ - ١٩٦٦م ص ١٩ - ٢٦.
- Marius Sepet: Vie de Sainte Catherine Paris 1887, FF. Forsyth, G, H., "Island of Faith in the Sinai Widerness", National Gegraphic Magazine, January, 1964, P. 84, FF.,
- جوزيف نسيم يوسف، دراسات فى المخطوطات العربية بريد القديسة كاترينة فى سناء، فصلة من مجلة كلية الآداب، ١٩٦٨، ١٩٦٩، مطبعة جامعة الاسكندرية (من ص ٩٥ - ١٣٩) ص ٩٥ وحاشية رقم (١).

(٢) فى سنة ٣٢٣م أمرت الامبراطورة هيلانة ام الامبراطور قسطنطين الكبير ببناء برجين للرهبان فى نفس المكان المقام عليه اليوم دير سانت كاترين، وذلك لحمايتهم من البدو، فكثيراً ما كان الرهبان يتعرضون لغارات البدو وغزو القبائل او الوحوش المفترسة، حيث وقعت سيناء فى فوضى لم يتمكن البيزنطيون من المحافظة عليها فزادت عمليات السطو والقتل والنهب، فالتمس الرهبان من الامبراطور جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥) بناء حصن يحميهم من بدو الصحراء، فأمر جستنيان ببناء حصن مزدوج الاغراض لتأمين الطريق من العقبة الى مصر ومن ناحية اخرى حماية الرهبان من شر الغزوات وفى الدير وثيقة مؤرخة بعام ٥٣٠ مدون فيها مطلب الرهبان القساوسة راجع:
- Comte Riant, Voyage en Terre Sainte d'un maire de Borde a au XIV eime Siecle Archives de L'orient Chretien, 1884, Tome I.,
- Dussaud, R. La Penetration des Arabes en Syrie, Paris 1955. P. 65,
- Msg.Du chesne: Historie ancienne de L'Eglise, Tome 11, 486 seme edition.

-/-

ومن أمثلة قصص الشجاعة ايضاً التى اتصفت بها نساء الاسكدنرية قصة الشهيدة أو للونيا التى تحدت الوالى البيزنطى ووقفت تلومه على ظلمه وبشاعته أمام جمع كبير من النآس، رغم تهديد الوالى لها بالموت، ولكنها ضربت بتهديده عرض الحائط، وأخذت تبشر بالمسيحية جهراً أمامه دون خوف أو وجل وانجذب إليها الكثيرون. قام الوالى بتعذيبها ومارس معها العنف الذى وصل إلى حد بتر اعضائها وتكسير اسنانها، ولكنها لم ترجع عما هى فيه، وانتهى امرها بأن أمر الوالى بالقائها فى حفرة مضرمة بالنار فتلقت الامر بشجاعة وهدوء والقت بنفسها فى النار واستشهدت(١).

وليس من شك أن هذه الامثلة لقصص البطولات التى سجلها لنا التاريخ الكنسي والتى قامت بها النساء فى تلك الفترة العصيبة، تركت اثرها على الوثنيين من الرجال والنساء، وكان رد الفعل الحقيقى هو زيادة اعداد الداخلين إلى المسيحية كما سبق القول.

وإلى جانب هذه الأمثلة فقد اشتهر عن نساء مصر معرفتهن لبعض الاعشاب وفوائدها الصحية فكن يركبن العقاقير ويصفنها للمرضى، وقد جاءت اليهن هذه المعرفة بفوائد الاعشاب بالتسليم من أمرأة لأخرى لديها الرغبة والمقدرة على تأدية رسالة التطبيب(٢). وقد أمتد اثر نساء مصر فى هذه الناحية إلى خارج الحدود المصرية، فقمن بتقديم خدماتهن الطبية إلى جانب التبشير بالمسيحية، والدليل على ذلك نجده فى قصة القديسة فيرينا، التى ضربت المثل على التواضع وخدمة البشرية، بصرف النظر عن الجنس أو المكان، فقد كانت ضمن الممرضات اللائى صحبن الكتيبة الطبية إلى المنطقة التى تكون اليوم الحدود البلجيكية الفرنسية والسويسرية، حيث امتثلت

-/-

- Procopius, The Holy places Visited by antoninus maetyr. in P.P.S.T. Vol. 11 New York. PP. 146 - 7.

(١) يوسا بيوس القيصرى، المصدر السابق، ص ٢٨٨.

(٢) مراد كامل، المرجع السابق، ص ١٧١.

الكتيبة لاوامر الامبراطور الامبراطور ماكسيميان امبراطور الغرب على عهد الامبراطور رقلديانوس(١).

وعلى الرغم من ذلك فقد أباد الامبراطور ماكسيميان رجال هذه الكتيبة وقام بتسريح الممرضات، وأرتأت القديسة فيرينا والتى ترجع نشأتها الى بلدة كركواز بصعيد مصر(٢)، أن تبقى فى بلدة زورزاخ إحدى مدن مقاطعة ارجو السويسرية، حيث عكفت على تعليم اهالى هذه المنطقة مبادئ النظافة وتبشيرهم بالمسيحية، واشتهرت فيرينا بسموها الذى اثر فى نفوس معاصريها فى تلك المنطقة واعلن عدد كبير منهم الدخول فى المسيحية. وتمثل الصور والتماثيل القديسة فيرينا وهى ممسكة بمشط فى يدها وابريق ماء فى يدها الاخرى(٣). وتعتبر فيرينا أول من علم أهالى هذه المنطقة السويسرية الاغتسال وتمشيط شعورهم، وقد اطلق أسمها على إحد كنائس مدينة سولير Soleure السويسرية ولا تزال هذه الكنيسة قائمة إلى اليوم(٤). وقد استحقت هذه القديسة التى نشأت فى صعيد مصر بما قدمته من خدمات للبشرية أن تكون الحامية لربات البيوت والمحسنة إلى البرصى بعد ان خدمت كممرضة فى الكتيبة الطبية واستمرار خدماتها لاهالى المنطقة بعد ذلك.

---

(١) م.ب تشارلز وورث، الامبراطورية الرومانية، ترجمة رمزى عبده جرجس مراجعة د. محمد صقر خفاجة، سلسلة الالف كتاب، دار الفكر العربى ١٩٦١م. ص ٢٠٥.

(٢) تقع بلدة كركواز فى مركز قوص محافظة قنا بصعيد مصر.

(٣) راجع صورة تمثال القديسة فيرينا فى نهاية هذا البحث وهو تمثال مقام فى حديقة السفارة السويسرية بالقاهرة كما تخيلته فنانه سويسرية.

(٤) بنيت هذه الكنيسة بمناسبة زيارة القديسة فيرينا لقبر القديس اورس والقديس بقطر كما تروى سيرتها، راجع:

- Jaurnal Swisse d'Egypte et du proche Orient Alexandria Septembre 1949. Vol. 37. 13 Avril 1950, Vol. 15.

- وذلك نقلاً عن المعلومات المستقاة من المعجم التاريخى لسويسرا - مادة سولير - وزورزاخ.

وفى مقابل هذا المثل نجد أرض مصر قد أثرت ايضاً فى النساء الاجنبيات الوافدات اليها؛ ولعل قصة الفتاة الرومانية أو جينا أكبر دليل على ذلك، فقد جاءت مع والديها واخوتها إلى الاسكندرية، حيث عمل والدها كقاضى لمدينة الاسكندرية، وتلقت الفتاة تعليمها الفلسفى والأدبى على يد فلاسفة سكندريين مؤمنين بالمسيحية، فاعتنقت المسيحية سراً وأرادت تكريس حياتها للعبادة، فتخفت فى زى رجل لمقابلة بعض النساك لكى تتلمذ على يد أحدهم. وتعرضت لتهمة باطلة من أحدى النساء فالقى القبض عليها ومثلت أمام والدها القاضى، فانفردت به وكشفت له أمرها، فما كان من والدها إلا أن أعلن ايمانه بالمسيحية واعتزل عمله كقاضى، وكرس حياته للعبادة والخدمة فصار اسقفاً، وقد استشهد فى أثناء ممارسته لشعائر الصلاة. وعادت اوجينا ووالدتها واخوتها إلى روما وانتهت حياتها بالاستشهاد ودفنت فى طريق لاتنيا حيث اقيمت كنيسة باسمها فى نفس المكان[١].

وبعد انتهاء الاضطهادات انصرفت النساء فى مصر إلى مزاولة الحياة اليومية والاعمال العادية الخاصة برعاية الاسرة كزوجة وأم، وإلى جانب هذا اتجهت بعض النساء إلى حياة الرهبنة والعبادة والتأمل والعمل اليدوى والخدمة الاجتماعية. وتولت المرأة المصرية وظيفة شماسة فى الكنيسة المصرية، تلك الوظيفة الدينية التى كانت تستلزم على من تنالها أن تتفقد المرضى والمسجونين والغرباء والمعوزين، كما كان عليها زيارة العائلات وتقديم تقريراً عن أعمالها للكاهن؛ فكانت مسئولة عن الحى المنوط بها خدمته ترعى سكانه وتعمل جهدها على تخفيف الامهم وادخال الطمأنينة

---

(١) القاموس، الشهيدة أوجينا، ص ٥٥٦ - ٥٥٧. هناك الكثير من القصص الذى يروى تاريخ نساء صبرن على الاهانة وضربن مثلاً للتواضع والصبر، ونعزلن فى حياة تنسكية خالصة، راجع على سبيل المثال قصة العذراء الكسندرا فى :

- Palladius, Paradise of the Holy Fathers (translation by W. Budge 1907. PP. 95 - 96.

إلى نفوسهم، كما تحرص على مصاحبتهم إلى الكنيسة لينالوا حظهم من الرعاية الروحية(١).

ولعل اعظم مثل بين الشماسات تلك الشماسة التى لم يذكر التاريخ اسمها والتى اختبأ عندها اثناسيوس الرسولى - البابا السكندرى العشرون - هرباً من مطاردة الاريوسيين له، فكرست الشماسة المجهولة نفسها لخدمته، فكانت تعد طعامه وتأتى له بالكتب التى يريدها من المكتبة؛ كما كانت تكتب ما يملى عليها من رسائل؛ وحرصت على كتمان مكان اختفاء البابا السكندرى(٢).

وحينما سجل اثناسيوس سيرة القديس انطون بوصفه أباً للرهبان، لم يفته أن يسجل سيرة القديسة الراهبة سينكليتكى والتى يعدها المؤرخون نداً للقديس انطون كوكب البرية. وبكتابة اثناسيوس سيرة هذه الراهبة إنما يعد اعترافاً منه بفضل الراهبات أسوة بفضل الرهبان(٣).

ولدت سينكليتكى من أبوين شريفين على قدر كبير من الغنى حيث استقر ابواها فى الاسكندرية حتى يكونا على مقربة من مدرستها الشهيرة

---

(1) Bury, J.P., History of the later Roman Empire From the death of Theodosius I to the death of Justinian New York 1958, Vol. I. P. 386.

- مراد كامل، المرجع السابق، ص ١٦٩ - ١٧٠ ، محمد محمد الشيخ، المرجع السابق، ص ٢١١.

(2) Budge. W. Book of Siants of the Ethiopian church (translation. Combridge) 1922. P. 150.

- كانت هذه العذراء التى تحمل لقب شماسة تبلغ من العمر عشرون عاماً وهى سكندرية تعيش فى الاسكندرية ومعنى هذا ان البابا انتاسيوس لم يترك الاسكندرية واختفى عن عيون اعدائه من الاريوسيين فى عاصمته الاسكندرية لدى تلك الشماسة، السيد الباز العرينى، مصر البيزنطية، دار النهضة العربية - القاهرة ١٩٦٢م ص ٥٠ - ٥٥.

(3) d'Orleans, P.ch: les Saints d'Egpyt Jerusalem 1923. I. PP. 26 - 32.

ليسهل على ابناءهم تلقى تعليمهم فيها. فقد كان لهما من الابناء ولدين وبنتين؛ عملاً على تثقيفهم، ولكنهما فجعا بموت ابنهما الاصغر فى صباه ثم لحق به أخوه الاكبر يوم زفافه. وقد ادت هذه الفواجع إلى انطواء سينكليتكى على نفسها وعزوفها عن مباهج الحياة ومفاتنها وقررت تكريس حياتها للعبادة فاعتكفت فى بيتها ووضعت لنفسها نظاماً نسكياً تسير عليه بدقة واخلاص، وإمتلأت نفسها بالسكينة والسلام وظلت مداومة على الصوم والصلاة والتعبد فى بيت أختها وذهبت لتقيم فى مقبرة العائلة حيث عاشت داخلها بضع سنين، ضاعفت خلالها من صلاتها وصومها وتأملاتها. وجاء إليها عدد من الشابات غير قليل أردن التبرك بها ومكثن معها وشاركنها حياة التنسك والتأمل[١].

انتقلت سينكليتكى بعد ذلك إلى مبنى خارج مدينة الاسكندرية وكرست حياتها لخدمة زميلاتها، وكانت هى نفسها قدوة مثلى وصورة حية لما تنادى به من تعاليم فأحبتها زميلاتها وأخلصن لها الولاء واطعنها، وبمرور السنين اخذ عدد الراهبات حولها يتزايد وكان بعضهن يقمن معها فترة من الزمن ثم يرجعن إلى اهلهن لنشر ما تعلمنه من مثل وقيم وتنسك[٢].

إمتد العمر بالناسكة سينكليتكى حتى بلغت الثمانين من العمر وكانت فى أحسن صحة، ولكنها مرضت فجأة وغطت القروح جسمها من قمة رأسها الى أخمص قدميها حتى افقدتها القدرة على النطق؛ وتضاعفت آلامها وصبرت عليها وكان صبرها شبيهاً بصبر ايوب المصرى، كرست الراهبات انفسهن لخدمة ورعاية سينكليتكى والسهر على راحتها حتى فارقت الحياة[٣].

---

(1) Ibid, PP. 28 - 32.
(2) Ibid, P. 32.
(3) Ibid, PP. 32.

- وعن اقوال القديسة سينكليتكى المأثورة راجع:
- Murray, M.A. and Pitcher A Coptic reding book, London 1973. P. 1.

ومن أمثلة النساء المتنسكات اللائى كان لهن دور فى الخدمة العامة الناسكة «بى آمون» التى كانت تكسب ما يسد حاجتها وحاجة أمها عن طريق الغزل والنسج، إلا أنها اكتسبت شهرة كبيرة فى عصرها بفضل الدور الذى قامت به لمنع إحدى المعارك المألوفة فى مصر قديماً بين قريتين بسبب تقسيم مياه الرى(١).

على أية حال فقد لجأ المسئولون عن الكنيسة إلى تشجيع النساء على حياة التبتل العذرى حتى داخل بيوتهن، وراحوا يؤلفون الكتب التى ترشد العذارى إلى كيفية ممارسة هذه الحياة.

ومن أهم هذه الكتب التى وصلتنا «رسالة التبتل العذرى التى كتبت فى القرن الرابع والمنسوبة إلى زعيم كنيسة مصر الأكبر القديس اثناسيوس، ويتضمن الكتاب نصائح مبسطة على العذراء مراعتها فى حياتها الخاصة مثل المواظبة على قراءة الكتاب المقدس فى المنزل وأداد الصلاة فى مواعيدها وارتداء ملابس مميزة حين تذهب الى الكنيسة أو العمل وغيرها من النصائح التى تسترشد بها(٢).

ولم يفت المرأة المصرية فى ذلك الوقت أن تشارك الرجل فى حياة التنسك والرهبنة فى الاماكن النائية، ولم يفتها ان تندرج فى سلك الديرية، فلم تجذب الاديرة الباخومية الرجال فقط، بل جذبت النساء ايضاً. وكانت اولى هؤلاء مريم شقيقة باخوم والتى تشهبت بأخيها الذى أمر ببناد دير لها ولزميلاتها. فالنظام الديرى الذى نبت فى مصر ضم اديرة للرجال وأخرى للنساء. وقد ذخرت الاديرة الخاصة بالنساء بالراهبات اللائى نذرن انفسهن

---

(1) Palladius, Hist. Lausiaca, 11 PP. 22,31, Cf Hardy, E.R.: Christian Egypt Church and People, Now York, 1952, P. 69.

(٢) راجع سيرة البابا اثناسيوس الرسولى فى

-Barbier, P. vie de St. Athanase.

للعبادة وسرن على نفس الانظمة الباخومية مع اعفائهن من خدمة بناد الصوامع(١).

وهكذا اشتركت النساء فى حياة العزلة وكان لديهن الجرأة الكافية للعيش فى اقصى الصحراء فى عزلة تامة، مرحبات بحياة الوحدة رغم ما فيها من مشاق ومخاوف، فاستطعن بذلك اظهار الصبر والتواضع وثابرن وواظبن على الجهاد الذى مارسته فى غبطة وكان موضع الاعجاب والتقدير وأكبر دليل على أن المرأة استطاعت تكريس حياتها للعبادة ولم تكن تقل فى ذلك عن الرجل. وقد خلد التاريخ اسماء نساء كثيرات تخلين عن العيش والتمتع بمباهج الحياة وفضلن الترهبن ودخول الاديرة. من أمثلة هؤلاء القديسة أفروسينى التى كانت ابنة وحيدة لأحد اثرياء الاسكندرية الذى كان متشوقاً للذرية، فوهبه الله هذه الابنة التى اطلق عليها اسم افروسينى ومعناها البهجة.

عاشت الفتاة بين ابويها عيشة مرفهة، وعندما بلغت الثامنة عشر من عمرها؛ اراد والدها تزويجها من شاب غنى، ولكنها رفضت، وأصر والدها على تحديد يوم زفافها هربت اروسينى يوم زفافها ودخلت الدير مرتدية ملابس الرجال، وعاشت ثمانى عشر سنة كراهب؛ وحينما مرضت كشفت امرها لوالدها الذى كان يذهب إلى الدير ليتلقى منها المعونة والارشاد

---

(١) الأنبا باخوم ابو الشراكة، مخطوط عربى (تاريخ) المتحف القبطى. ص ١١٧ - ١١٨،

Bury, op, Cit., Vol. I. P 338.
Com. Med. Hist. Vol. 1 P. 524.

- سعيد عاشور، اوروبا العصور الوسطى، ص ١٦٠.

ولمزيد من المعلومات عن نشأة الرهبنة المسيحية فى مصر، والنظام الديرى لباخوم راجع:

- عزيز سوريال عطية، رسالة مارمينا، العدد الثانى الاسكندرية، ٢٢ مايو ١٩٤٨م. ص ١٦١، سنة ١٩٧٥.

لاحتمال آلامه وتعزيته فى فقد ابنته، وعندما علم بأمر ابنته؛ باع كل ما يملكه ووزعه على الفقراء، ثم التحق بالدير ليقض عشر سنوات فى قلاية ابنته يحيا حياة تنسكية(١).

فى واقع الامر أن هناك اسماء كثيرة لنساء فضلن حياة الانفراد والعزلة والتنسك، واقترنت سيرهن بالمعجزات التى كانت غالباً ما تنسب للقديسين والقديسات بوصفهم من أولياء الله الصالحين. ومن أمثلة قصص المعجزات والذى ربما كان مختلطاً بالاساطير، قصة مارية المصرية التى وجدت غايتها فى التعبد فى عزلة الصحراء، ونعرف من سيرتها أنها كانت على درجة عالية من الجمال ولم تكن على نفس الدرجة من التدين.

وحينما بلغت التاسعة والعشرين من عمرها ألتقت ببعض المسيحيين الذاهبين إلى القدس لزيارتها وزيارة كنيسة القبر المقدس، فشعرت برغبة ملحة فى الذهاب معهم، وفى اثناء الزيارة ارادت الدخول إلى كنيسة القبر المقدس وعندما همت بالدخول وجدت اطرافها تجمدت ووقفت كالتمثال لا تستطيع حراكاً. فتذكرت مارية ماضيها وأخذت تتوسل إلى الله مبتهلة إليه أن ينقذها وسوف تكرس حياتها للعبادة، واستغرقت فى الصلاة والتضرع والخشوع، وفوجئت باطرافها تتحرك وتمكنت من الدخول إلى الكنيسة، ثم واظبت على الصلاة وكانت فى كل مرة تبتهل إلى الله أن يهديها الرحمة والمغفرة.

وتقول الرواية أن مارية استمعت إلى هاتف يأمرها بعبور نهر الاردن حيث ستجد السلام والمغفرة هناك، فقررت أن تمتثل لصوت الهاتف فعبرت النهر إلى الاردن وعاشت هناك سبعاً واربعين سنة هائمة على وجهها، تقتات

---

(1) Butler's. Lives of Saint Jan. 1.

مما تجده من أعشاب الارض حتى عثر عليها احد الرهبان القاطنين فى الصحراء الواقعة على الحدود المصرية الفلسطينية وحكى قصتها الى رهبان ديره، فقاموا بادراجها فى سلك القديسيين[١].

بعد انتشار الحياة الديرية فى مصر[٢] كثرت الاديرة الخاصة بالنساء، فقد حوت منطقة الفيوم وحدها أثنى عشر ديراً للراهبات، وفى أحد هذه الاديرة عاشت الناسكة الأم تاليدا[٣] وتحت رعايتها ستين راهبة، وكانت ابواب الدير مفتوحة دائماً لأى طالب خدمة أو مريض. وكانت الراهبات يقدرنها ويطعنها عن رضى وحب فالمحبة هى قاعدة التعامل بينهن، ولم تغادر واحدة منهن الدير دون موافقتها. وقد جاهدت الأم تاليدا جهاداً روحياً حتى بلغت الثمانين عاماً، انتقلت بعدها إلى العالم الآخر فى هدوء وسلام[٤].

ومن النساء الاجنبيات اللائى اعجبن بالنساك المصريين، سيدة من الشراف تدعى ميلانيا من أصل اسبانى وكريمة قنصل اسبانيا فى البلاط الامبراطورى، اعتنقت المسيحية وكانت مشقة السفر إلى الصحراء المصرية لتنال بركة النساك وكان ذلك زمن الاضطهاد الاريوسى، فكانت تزور

---

(١) ايقومانوس وميخائيل المقارى، الصادق الامين، ح٢، ص ٦٧ - ٧٣ كان الراهب الذى عثر عليها يدعى زوسيم.

- ويوجد مقصورة باسم هذه القديسة فى كاتدرائية نوتردام فى باريس ولها صورة فى متحف الفن فى فيلادلفيا بالولايات المتحدة مسجل على المقصورة والصورة اسم «مارية الناسكة المصرية راجع:

- d'Orleans, Op. Cit.. PP. 451 - 69.

(٢) انتقلت الحياة الديرية من مصر الى ارجاء العالم الذى شهد بريادة مصر فى ذلك المجال.

- Workman, H.B., The Evolution of the monastic Ideal, London, 1957, P. 112, Stephenson, C. Mediaeval History, New York 1943. PP. 27-88. Waddell, H. The Desert Fathers, London, 1936, P. 73-5.

(3) Budg, Op. Cit., I. P 153, Waddell. Op. Cit., PP. 37-5.

(4) Budg. Op. Cit.. I. P 153.

الاساقفة المنفيين والنساك المحبوسين وهى متخفية فى زى احد خدامها، وتحمل اليهم بنفسها كل ما هم فى حاجة إليه[1]. ومنهن ايضاً القديسة الناسكة اناستاسيا التى كانت تنتمى إلى عائلة شريفة غنية من القسطنطينية نذرت نفسها للتعبد ليلاً ونهاراً، ثم جاءت إلى مصر وذهبت إلى دير للراهبات بالقرب من الاسكندرية من ناحية الصحراء الغربية، ولكنها ارتدت زى الرجال واطلقت على نفسها اسم انسطاسيوس الخادم، واعترفت للأنبا بأمرها، فقام بتعيين إحدى المغارات لها فى البرية الداخلية من الاسقيط، على بعد ١٨ ميلاً فى جهة موحشة ومنعزلة ولم يعلم بأمرها أحد؛ وكان يرسل إليها تلميذة كل أسبوع موة واحدة ليمدها بما تحتاج اليه. وظل أمرها خافياً مدة ثمان وعشرين سنة، فارقت بعدها الحياة؛ فقام الانبا دانيال بدفنها وصلى هو وتلميذه عليها وقال عنها: أنها سبقت مراتب القديسين ووصلت إلى درجة رفيعة عالية[2].

ومن بين الشخصيات النسائية اللاتى كرسن حياتهن للبر والقداسة فى مصر. الأم تيؤدورا التى ولدت فى الاسكندرية ونشأت فيها وكانت معاصرة للبابا اثناسيوس الرسولى، وعندما بلغت مبلغ الشباب، أراد ابواها تزويجها ولكنها أعلنت عن رغبتها فى حياة الرهبنة والعبادة، قامت ببيع كل ما تملك من ثياب ومجوهرات وشيدت بثمنها كنيسة غربى الاسكندرية، وبنيت داخل

---

(١) منسى القمص، تاريخ الكنيسة القبطية، القاهرة، ١٩٢٤م، ص ٢٤، سليم سليمان، مختصر تاريخ الأمة القبطية، القاهرة ١٩١٤ص - ١٤٨٠.

- d'Orleans, Op. Cit., PP. 283 - 86.

(٢) كانت ميلانيا تنتمى الى اعرق الاسر فى القسطنطينية وقد جاهدت الشيطان وأمضت ايامها فى خدمة الله ورفضت العالم وشهواته وماتت يوم ٢٦ طوبة ٥٧٦م - راجع بستان الرهبان، ص ١١٠ - ١١٢.

- راجع ايضاً قصة القديسة براكسية التى اتت من القسطنطينية مع والدتها لتحصل أجر الاملاك والبساتين التى تركها لها زوجها، وكانت براكسية تبلغ من العمر ٩ سنوات ونزلت مع ابنتها فى أحد الاديرة، حيث أستأنست براكسية بمن فيه وقررت ان تنذر نفسها للعبادة وسارت سيرة فاضلة وأكثرت من العبادة والتأمل راجع السنكسار، ح٢، ص١٠٦.

الكنيسة غرفة لسكنها الخاص. عاشت تيؤدورا حياتها لا شغل لها سوى العناية بالفقراء والمحتاجين يطلبون معونتها؛ فلم ترد أحداً دون إجابة مطلبه. بعد بضع سنين ذهبت إلى البابا السكندرى تطلب منه ترسيمها راهبة، فسأل عنها وعرف سيرتها وقام بترسيمها راهبة وصلى من أجلها[1]. ويقال أن النعمة الآلهية قد فاضت عليها وملأتها بالحكمة حتى أنها كانت تفهم ما يختلج فى نفوس الناس وتساعدهم على حل مشكلاتهم.

وتم بعد ذلك انتخابها أماً لعدد من الراهبات عشن معها فى دير بمنطقة الاسكندرية وكانت تعلمهن وتسهر على رعايتهن بلا ملل أو كلل. وقد أطال الله فى عمرها حتى أنها عاصرت خمس باباوات للاسكندرية، وجاهدت الأم تيؤدورا متعبدة طوال السنين الطويلة التى عاشتها والتى بلغت المائة عام دون فتور واستحقت أن تكون ضمن رواد الانسانية حيث ظلت سيرتها باقية إلى الآن[2].

لعل ما فات من ذكر سير قديسات ونساء مصريات مان لهن دور بارز فى الحياة الدينية والاجتماعية فى مصر البيزنطية، لا يجعلنا ننسى شخصية لامعة فى تاريخ مدرسة الاسكندرية الفلسفية فى ذلك العصر، ألا وهى الفيلسوفه الجميلة هيباشيا والتى كان والدها استاذاً للرياضيات وكانت هى نفسها استاذة للفلسفة والرياضيات[3]؛ وقد بلغت من الشهرة والمجد أن قصدها طلاب العلم من الوثنيين والمسيحيين على حد سواء، ومن أشهر الشخصيات التى تلقت المعرفة على يد هيباشيا سينسيوس Synesius الذى تعلق بها وأصبح لا يفارقها حتى بعد أن اعتنق المسيحية وصار اسقفاً لكنيسة قورينة

---

(1) Budg, Op. Cit., III. PP. 801 - 802.

(٢) الصادق الأمين، المرجع السابق، ح٢، ص ٧٧ – ٧٨.

(3) Bury, Op. Cit., I. P. 217.

- Vasiliev, Vol. I, PP. 127 - 122.

– السيد الباز العرينى، المرجع السابق، ص ٢٧٧.

فى برقة وعاش السنوات العصيبة فى نهاية القرن الرابع الميلادى وبداية الخامس حين كانت الوثنية مضطهدة بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة، وعلى الرغم من كونه مسيحياً ورجل دين له مكانته، إلا أنه لم يخف اعجابه الشديد بهيباشيا وبمدرسة الفلسفة بالاسكندرية كمركز للعمل والتعليم فى ذلك الوقت وانها كانت لا تزال منافساً قوياً لمدرسة اثينا الفلسفية(١).

ذاع صيت هيباشيا فى الرياضة والفلسفة، واشتهرت بالعلم والاخلاق الفاضلة وهيأت لها مكانتها وطباعها وشهرتها من الاسباب ما جعلها وثيقة الصلة بسادة مدينة الاسكندرية، فصارت تتردد على مجالس الرجال دون حرج او خجل، وأعجبهم فيها، ما اشتهرت به من طهارة وعفة، وعلى الرغم من ذلك فقد اثارت هيباشيا المسيحيين من العامة بوثنيتها وشهرتها التى جذبت اليها الرجال، ولترددها على مجالس الرجال ودأبها فى الظهور فى المجتمعات العامة وزيادة صلتها بحاكم الاسكندرية فهجم عليها العوام بالمدينة اثناء قيادتها لعربتها وانزلوها من العربة وجروها بالحبال الى الكنيسة حيث لقيت حتفها(٢).

إذا تفحصنا ما ورد فى ثنايا هذا البحث من أمثلة لنساء مصريات نجدهم يشتركن فى أمر واحد هام، ألا وهو العطاء بغير حدود لمجتمعهم؛ فقد برهنت اعمالهن على الخير وتقديم العون للجميع فى ذلك الوقت العصيب الذى اضطهدت فيه المسيحية؛ فاظهرن شجاعة كبيرة وثباتاً، ورأينا كيف قامت المرأة المصرية بدورها فى خدمة المجتمع بعد انتهاء الاضطهادات وكيف انها شاركت فى الحياة العلمية والثقافية فى مصر البزنطية. ولعل سير

---

(1) Bury, Op. Cit., I. P. 217- 218.

(2) Parson, I.H., The Alexandrian Library, London, 1952, P. 356, Bury, Op. Cit., 217 - 218.

- السيد الباز العرينى، المرجع السابق، ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ .

القديسات التى جاء ذكرهن على صفحات هذا الفصل تبعث فى النفس مشاعر كثيرة منه الحض على الفضيلة وتنقية النفس للوصول إلى حياة اكثر سمواً يكون قوامها مساعدة الآخرين ونكران الذات. وبالفعل استطاعت المرأة المصرية أن تسلك سلك القديسيين والشهداء واستحقت أن تسجل سيرها وتخلد فى التاريخ لتكون مثلاِ أعلى للفضيلة يحتذى بها[1].

---

(١) لا أستطيع ان امنع نفسى من المقارنة بين النماذج والامثلة على صفحات هذا البحث وبين النقد الذى كتبه كلمنت السكندرى لنساء الاسكندرية والذى كان يعيب عليهن كثرة التزين وصبغ الشعر واستخدام الالوان فوق العيون وطلاء الوجه وتسريح الشعر تسريحات هندسية معقدة وارتداء الملابس القصيرة مقلدين نساء اسبرطة، وارتداء الاحذية التى كان يكتب عليها عبارات الحب، وزيادة استخدام الحلى والاقراط من الذهب وما إلى ذلك من امور كان يعيب عليها فيها وكان ذلك فى النصف الثانى من القرن الثالث الميلادى. فلو كان قدر لهذا الفليسوف المسيحى أن يحيى بعد ذلك فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين لكان بالتأكيد سوف يسجل لنا تطور دور المرأة فى المجتمع المصرى الى الغاية التى كان يتمناها كرجل دين وفليسوف مسيحى.

- راجع آراء كلمنت فى نساء الاسكندرية فى:

Diehl. L'Egypte chrctien, PP 488 - 90.

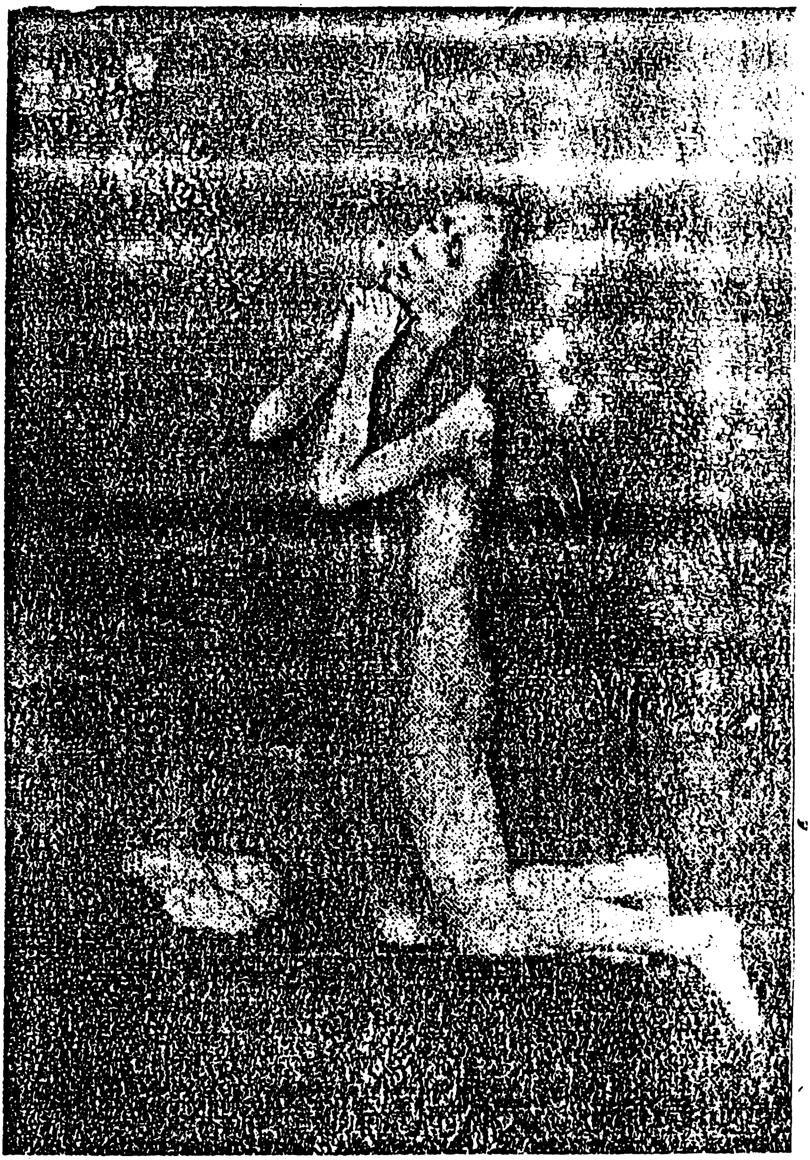
- السيد الباز العرينى، المرجع السابق، ص ٢٦٧ ،وما بعدها.



صورة القديسة كاترين - أيقونة - من القرن الـ ١٦
مثبتة على الحجاب المقدم لصحن الكنيسة الرئيسية بالدير



تمثال للقديسة فيرينا
كما تخيلته فنانة سويسرية
وهو مقام في حديقة السفارة السويسرية بالقاهرة



صورة للناسكة مارية المصرية كما تصورها الفنان الهولندي كوينتين ماسيس
وهي محفوظة الآن بمتحف الفن بفيلادلفيا بولاية بنسلفانيا من الولايات المتحدة

الموضوع العشرون

صقلية بين بيزنطة والمغرب العربي

منذ بداية الفتح العربي للمغرب حتي تمام فتح صقلية(*)

(*) د. سهير ابراهيم نعينع، استاذ مساعد تاريخ العصور الوسطى.

حظيت جر ـرة صقلية بأهميـة تاريخيـة كبيرة[١]، فهى بحكم موقعها المتوسط بين اوروبا وافريقيا غدت محط انظار العالم من الشمال والجنوب، فتتابعت عليها الحضارات اليونانيـة والفينيقيـة والرومانية والبيزنطـية[٢]. فكانت بمثابة المحطة التى تستقر فيها المؤثرات الحضارية من تيارات سياسيـة او تجارية او ثقافية، تنتقل منها الى ما وراءها من البلاد، واجتمعت فيها مختلف الاجناس على مر العصور[٣].

---

(١) صقلية من جزائر البحر المتوسط تقع مقابلة لمدينة تونس (إفريقية) فى المغرب وهى مثلثة الشكل طولها سبعة وسبعون ميلا وعرضها مائة سبعة وخمسون ميلا ومحيطها خمسمائة ميل. راجع: الحميرى (محمد عبد المنعم) الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق د. إحسان عباس، لبنان، الطبعة الثانية ١٩٨٤، ص ٣٦٧؛ ياقوت الحموى (شهاب الدين أبى عبد الله) معجم البلدان، بيروت ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ج ٣ ص ٤١٦؛ أبى الفداء (عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر) تقويم البلدان، باريس ١٨٤٠م ص ١٩٤؛ النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) نهاية الأرب فى فنون الأدب، بدون تاريخ جـ ١ص ٢٣٤ ويذكر البكرى أن اسم المدينة نسبة إلى سيقلو أخو إيطال الذى سميت به ايطاليا، راجع البكرى فى المكتبة الصقلية (المكتبة العربية الصقلية) نصوص فى التاريخ والبلدان والتراجم جمعها وحققها ميخائيل آمارى، طبعة معادة بالأوفست، مكتبة المثنى ببغداد ١٨٥٧م، ص ٢١٠.

(٢) امتلك ثيودريك ملك القوط الشرقيين جزيرة صقلية إلى جانب ايطاليا فأضافت رخاءاً إلى ايطاليا نظرا لما تمتعت به صقلية من وفرة فى الحبوب إلى جانب موقعها التجارى المتميز، وفى سنة ٥٣٥م تمكن بلزاريوس من استرجاع صقلية إلى حظيرة الامبراطورية البيزنطية: راجع:

- Procopius, History of the wors ed Dewing-New-York(1914-1940) III, p.167: Hodgkin, Ftheodoric the Goth, New York 1897, pp. 97-206; Cantor, N.F:Med Hist, (New York 1964) p. 161.

- محمد محمد مرسى الشيخ، تاريخ الامبراطورية البيزنطية، الاسكندرية، طبعة ثانية ١٩٩٧م، ص ٤٨.

(٣) ابن سعيد ٠كتاب الألحان المسلية فى حلى جزيرة صقلية فى الذكرى المئوية لمشيل آمارى ص ٢٩٣فى ابن الخطيب (لسان الدين الوزير الغرناطى) كتاب أعمال الأعلام (القسم

-/-

ولم يكن موضع صقلية الجغرافى بين الشرق والغرب المصدر الوحيد لاهميتها التاريخية فقد جلبت لها ثروتها الطبيعية شهرة واسعة من قديم الزمن، فهى غنية بالحاصلات الزراعية مثل القمح والحبوب الزيتية والكروم والموالح والتين وجميع الفواكهة على اختلاف انواعها، كما تكثر بالجزيرة المعادن مثل الذهب والفضة والنحاس والرصاص والزئبق وهى غنية بعنصر الكبريت(

ادرك المسلمون إيان موجة فتوحاتهم الاولى أهمية موقع الجزيرة، فعقدوا العزم على امتلاكها وضرب ممتلكات الامبراطورية البيزنطية فى تلك الناحية، وهذا ما سوف نتعرض له من أحداث للوقوف على الاستراتيجية التى اتبعها العرب فى ذلك الوقت وعما اذا كان غرضهم من الاغارة على صقلية نوعاً من أنواع التمويه وأن جهودهم الحقيقية قد اتجهت ناحية القسطنطينية نفسها باعتبارها مركز الامبراطورية البيزنطية(٢). وتؤكد المصادر الاسلامية على تعرض جزيرة صقلية لمحاولات كثيرة من جانب

=/= الثالث) المغرب العربى فى العصر الوسيط) تحقيق د. أحمد مختار العبادى، الأستاذ محمد إبراهيم الكتانى الدار البيضاء ١٩٦٤ م ص ٢٦ حاشية رقم (٢)؛ إحسان عباس، العرب فى صقلية، دار المعارف ١٩٥٩ ص ٢٥.

(١) ابن حقول (أبى القاسم بن حوقل النصيبى) صورة الأرض، بيروت بدون تاريخ ص ١١٣-١٢٥؛ الحميرى، المصدر السابق، ص ٣٦٧ ،صقلية فى اللسان القديم بمعلى تين وزيتون، ياقوت، المعجم، ج ٣ ص ٤١٧: النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) نهاية الآرب فى فنون الأدب، (السفر الأول) القاهرة بدون تاريخ ص ٢٣٤؛ القزوينى (زكريا بن محمد بن محمود) آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت بدون تاريخ ص ٢١٥ - ٢٢٦.

(2) Theophanes: The Chronicle of Theophanes, by Harry Turtedove Persvlvria 1982, p. 45.

Wiet (Gaston), Histoire la nation Egyptienne L'Egyple Arab. Paris 937, p. 38.

- ارشيبالد. ر.لويس، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال، ص ٩٦.

المسلمين للاستيلاء عليها منذ وقت مبكر، واستمرار هذه المحاولات حتى تمكنوا من فتحها فى النهاية فى أوائل القرن التاسع الميلادى (الثالث الهجرى) وسوف نتعرض فى هذا البحث الى هذه المحاولات ورد فعل الامبراطورية البيزنطية وأهالى الجزيرة ومحاولات بيزنطة المستمرة لاستردادها.

كانت اولى هذه المحاولات فى سنة ٦٥٢م/ ٣٣هـ وهى الغزوة التى قام بها عبد الله بن قيس الفزارى من قبل معاوية بن حديج والى إفريقيا[١]. واختلفت المصادر الاسلامية فى تحديد تاريخ هذه الغزوة، ولكنها اتفقت على شخصية عبد الله بن قيس الفزارى[٢] الذى تألفت حملته من مائتى سفينة أغارت ورجعت محملة بغنائم عظيمة[٣].

(١) يذكر البلاذرى هذه الغزوة فى خلافة معاوية بن أبى سفيان لم يحدد سنة لهذه الغزوة ويذكر فى نفس الوقت اسم معاوية بن حديج الكندى الذى أرسل عبد الله بن قيس الفزارى إلى صقليه راجع: البلاذرى (أبى الحسن البلاذرى) فتوح البلدان، القاهرة ط (١) ١٣٣٥هـ، ١٩٣٢م، ص ٢٣٧؛ ابن عذارى المراكشى (البيان المغرب فى أخبار المغرب، بيروت جزءان بدون تاريخ، ج١ ص ١٢؛ النويرى، نهاية الأرب ج ٢٤، وأيضا حاشية رقم (٤).

(٢) قارن كل من البلاذرى والنويرى وابن عذارى فى الصفحات السابقة فكل من المصادر الثلاثة تتفق على اسم عبد الله بن قيس الفزارى وأن غزوته كانت أول غزوة ولكنها فى نفس الوقت تختلف فى تحديد تاريخ هذه الواقعة أو تصمت عن تحديد التاريخ مكتفية بأن هذه الواقعة كانت فى خلافة معاوية بن أبى سفيان، فإذا كان هذا صحيحا فإن التاريخ الذى أتى به ابن عذارى ليس صحيحا لأن معاوية لم يكن قد أصبح بعد خليفة إذا كان يقصد فترة ولايته للشام نستطيع فى هذه الحالة الأخذ بهذا التاريخ قارن ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، تحقيق عبد المنعم عامر، القسم التاريخى، طبعة المنيرة، بدون تاريخ ص ٢٦١ . وهو يذكر غزوات معاوية بن حديج فى المغرب فى سنة ٣٤ هـ ولم يأت بذكر صقلية وقارن أيضا مناقشات هذه التواريخ وتناقضاتها فى:

-Cheira M.A., le Lutte entre Arabes et Byzntins la comquête et l'orgnisation des frontiéres aux XVII et VIII siecle, p. 83 et n.2.

(٣) ابن عذارى، المصدر السابق، ج ١، ص ٢؛ النويرى، ج ١٤، ص ٣٥٣؛ يذكر النويرى «فتح وسبى وغنم فكان مما غنم أصناما من ذهب وفضة مكللة بالجواهر فحملها إلى معاوية بن أبى سفيان فأنفذها معاوية إلى الهند لزيادة ثمنها، فأنكر المسلمون ذلك عليه»:

-Amari Storia dei Musulman di sicilia rw ed cantani 933 I. pp. 95 - 96.

وفى سنة ٦٥٤م/ ٣٥هـ[١] استطاع المسلمون مهاجمة جزيرة قبرص وفرض الجزية على اهلها فتسبب ذلك فى وقوع الصدام بين البيزنطيين والمسلمين فى موقعة ذات الصوارى الشهيرة وهى الموقعة التى هزم فيها البيزنطيون شر هزيمة[٢]. وكان لانتزاع المسلمين الشام ومصر وانتصاراتهم البحرية فى هذه الموقعة اثره فى فقدان بيزنطية قدراً كبيراً من مكانتها البحرية[٣].

أما عن إغارات المسلمين على جزيرة صقلية فقد توقفت مدة من الزمن مع توقف العمليات الحربية بين بيزنطة والمسلمين، ويرجع ذلك الى المشاكل الداخلية لكل من الجانبين؛ ففى الجانب الاسلامى شغل معاوية ابن أبى سفيان بنزاعه المعروف مع على ابن ابى طالب حول الخلافة الاسلامية[٤] وفى الجانب البيزنطى سادت الاضطرابات اقليم البلقان وباق اقاليم الدولة فى الغرب[٥]، فخرج اهالى صقلية عن طاعتهم للدولة البيزنطية

---

(١) البلاذرى، المصدر السابق، ص ١٥٣.

-Michael the Syrian Chronicle ed Chabot II P. 441; Lane-Poole; A History of Egypt in Middle Ages. New York (1901), p. 23.

- سعيد عاشور، قبرص والحروب الصليبية، القاهرة، ١٩٥٧، ص ٩

(٢) ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص ٢٥٥، ٢٥٦؛ المنبجى (أغانيوس بن قسطنطين) المنتخب من تاريخ المنبجى، حققه وانتخبه أ.د. عمر عبد السلام التدمرى، طرابلس - لبنان ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ص ٦١، عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام، د. أحمد مختار العبادى، د. السيد عبد العزيز سالم، بيروت ١٩٧٢م ص ٢٨.

(٣) أرشيبالد لويس، المرجع السابق، ص ٩٣

(٤) السيد الباز العرينى، تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة ١٩٦٥م، ص ١٤٢ - ١٤٣، فشر (تاريخ أوربا فى العصور الوسطى) ترجمة زيادة والعرينى والعدوى جزءان ص ٦٥؛ محمد الشيخ، الامبراطورية البيزنطية ص ٩٦-٩٧ وللمزيد من المعلومات عن جهود معاوية فى إصلاح أمور دولته الداخلية وتجهيز قدراته للوقوف فى وجه بيزنطة راجع: ابراهيم العدوى، الأمويون والبيزنطيون (البحر المتوسط بحيرة إسلامية) القاهرة ١٣٧٢-١٩٥٣م ص ٥٦- ٦٤.

(5) Vasiliev A History of the Byzantine Empire "Medison" 2 vols =/=

بسبب عدواتهم لمذهب الطبيعة الواحدة، وتحرك اللمباردين واستولى ملكهم على جنوة ومعظم اقليم ليجوريا البيزنطى عام ٦٤٢م/ ٢٢هـ[١]. ولم يلبث ان اتخذ الامبراطور قنسطانز الثانى (٦٤١ - ٦٦٨م) خطوة جرئية لم تتخذ من قبل هى نقل عاصمته وجانب كبير من اسطوله وحوالى عشرين الفا من رجال جيشه من الآسيويين الى مدينة سرقوسة (سيراكوز) بصقلية[٢]؛ وقد علل المؤرخون المحدثون لهذه الخطوة من جانب الامبراطور البيزنطى بأنها جاءت نتيجة الاضطرابات التى قامت فى الممتلكات الغربية فى ايطاليا وصقلية ورغبته فى القضاء عليها وإعادة الهدوء الى هذ الممتلكات، كما أنه ادرك الدور الذى يمكن ان تقوم به ممتلكاته الغربية فى حماية امبراطوريته من الناحية البحرية[٣]، وفى الحقيقة اننا لا نستطيع الأخذ بهذه التحليلات

-/-

1971-73, vol,I, p. 97 Ostrogrosky, G: Historie de l'Etat Byzantin, traduction Francaise de J. Gouillard Paot Paris 977, pp. 152 - 53.

(١) - رسام فرج، دراسات فى تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية من (٣٢٤ - ١٠٢٥م) ١٩٨٣م ص ١٦٢.

(١) عن الاضطرابات التى شهدتها صقلية من جراء ظلم أباطرة بيزنطة راجع:

- Bur,J.B.A Hisotry of the eastern Roman Empir (London 1972 II P. 226-27 Vassiliev,op.cit, I. 137-42, 334-9, 349-59; Amari, Storia op.cit. Iip. 332.

- وقد نقل لنا المورخ ميشيل قول القديس جريجورى فى معرض كلامه عن أحوال أهل صقليه خلال فترة الحكم البيزنطى فى الفترة التى سبقت الفتح العربى للجزيرة - تحتاج إلى مجلد لتفصيل الجور الذى سمعنا به فى هذا القبيل.

(2) Ostrogorsky; op.cit, Vasiliv: op.cit, I P. 224, p. 135.

(٣) أرشيبالد لويس، المرجع السابق، ص ٩٤ - ٩٦: وراجع أيضا:

- Bur,J.B, The Noval Policy of The Roman Empiree in redlation of the 9 th Century Centenrio della Nacitia di mcihel Amari, Vol II.P21 - 34 (1910).

- فى أحمد مختار العبادى، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، ط، أولى ١٩٦٨، ص ٥، ٦ وحاشية رقم (١) فى ص ٦.

كقضية مسلم بها، ولنا أن نتساءل: لماذا لم يقم اباطرة بيزنطة بهذه الخطوة من قبل لدرء الخطر الذى تعرضت له الممتلكات الغربية فى ايطاليا، وهو الخطر الذى وصل الى حد فقدان هذه الممتلكات، وانما اكتفوا بإرسال القواد لاخضاع هذه الممتلكات او محاولة استعادتها(١)!!؟ اذ يتضح منهـ وجو. مشاكل واضطرابات فى الممتلكات الغربية لم يكن بالشئ الجديد، وانما الجديد هنا هو ظهور قوة المد الاسلامى الذى استطاع فى فترة وجيزة من الزمن الاستيلاء على ممتلكات بيزنطة فى الشام ومصر والمغرب، كما نمت قوة المسلمين البحرية حتى أخذت تتحرش بأكبر قوة بحرية موجودة فى حوض البحر المتوسط فى ذلك الوقت وهى البحرية البيزنطية ثم توالت نجاحات المسلمين فى الإغارة على جزر البحر الابيض المتوسط وانتزاعها من بيزنطة(٢). فهل جاءت هذه الامور مصادفة ام وفق خطة واستراتيجية هدفت الى السيطرة السياسية بصفة عامة والسيطرة الاقتصادية بصفة خاصة؛ لكى تتحقق لهم هذه السيطرة كان لابد لهم من امتلاك مراكز تقع على الطرق التجارية العالمية فى البحر الابيض المتوسط مثل جزيرة صقلية وقبرص وكريت وسردنية. هذا الى جانب ضغطهم على القسطنطينية الحصينة التى تصب فيها الطرق التجارية الآتية من الشرق الاقصى. واذا وضعنا فى اعتبارنا الوضع الذى نجم عن استيلاء العرب على مصر الغنية

---

(١) توجد أمثلة كثيرة فى التاريخ البيزنطى نذكر منها كمثال فى (عهد الامبراطورى جستنيان) عندما استعاد الممتلكات الغربية من يد القوط الشرقيين والوندال فأرسل قواده الذين استطاعوا استرجاع معظم أملاك الامبراطورية الرومانية التى فقدها على يد البرابرة الجرمان. راجع فى ذلك:

Procopuis, Bellovardelicoll C.Folso Bello Gothico; Bury, Roman Empire, II. p. 170-2.

– وسام فرج، المرجع السابق، ص ٦٩ – ٧٥ك محمد الشيخ، الامبراطورية البيزنطية، ص ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨ وصفحات أخرى.

(٢) البلاذرى، فتوح البلادن، ص ٢٣٧ك راجع أيضا: العدوى، المرجع السابق فى صفحات متفرقة: عبد العزيزسالم، تاريخ البحرية ص ٢٣، ٢٤.

بالقمح ومصدر تمويل القسطنطينية به، لادركنا مدى الخسارة التى منيت بها بيزنطة، فكان عليها ايجاد مصادر جديدة للقمح[1]، وكانت صقلية من أهم هذه المصادر وتعد هذه ميزة كبيرة للجزيرة تضاف الى موقعها على الخطوط البحرية التجارية، والتى استغلته بيزنطة فى سياستها الاحتكارية وحربها الاقتصادية التى خاضتها ضد المسلمين والتى أدت فى سنة ٧١٨م/ ١٠٠ هـ الى ثورة حاكم صقلية[2]، وادركنا ايضاً طبيعة الصراع فى ذلك الوقت فقد استخدمت بيزنطة فى حربها مع المسلمين وسائل الحرب البحرية والاقتصادية لإحراز النصر وذلك فى المدة من ٧١٥ - ٧٥٢م/ ٩٧ - ١٣٥هـ[3]، واستطاعت بالفعل استعادة مكانتها البحرية فى النصف الثانى من القرن الثامن حتى اصبحت أكبر قوة بحرية فعالة فى البحر المتوسط وقد احتفظت بسيادتها البحرية التى استعادتها سنة ٧٤٧م/ ١٣٠هـ[4]، ولم يعد لاساطيلها فى بحر ايجة وصقلية أى منافس كما سيطرت على جزائر صقلية

---

(1) Chron Paschale ed Dindor (Bomm 832) I P. 71; op.cit.

- ارشيبالد لويس، المرجع السابق، ص ٦١، ١٢٥.

(2) Theophanes, pp. 90 - 91.

(٣) يمكن تفسير رد الفعل البيزنطى تجاه المد الإسلامى أنه كانت نتيجة تعرضها لضغط عنيف من الجانب الاسلامى منذ منتصف القرن السابع الميلادى وحتى حصار العرب الثانى للقسطنطينية فى سنة ٧١٨م ومنذ ذلك الحين عولت بيزنطة على شن حرب اقتصادية ضد المسلمين مدة تقترب من نصف القرن وربما أدى هذا الحصار الغرض منه فقد تدهورت أحوال الخلافة الأموية ربما لتدهور الأحوال الاقتصادية أو ربما يعد ذلك ضمن العوامل الهامة التى أدت إلى ذلك التدهور.

راجع: Wiet, L'Egypt Arabe, p. 68 - 72; Runciman: Byzantine Civilization London 1933, pp. 166-7.

- راجع: ونسيمان (ستيفن) الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويش، مراجعة زكى على، ص ١٧٨ - ١٧٩.

(٤) حيث انتصرت على القوات الاسلامية عندما حاولت الاستيلاء على جزيرة قبرص وقد انتهت هذه الحملة بكارثة فلم تقم حملة أخرى كبيرة من القواعد الاسلامية ضد قبرص مدة طويلة من الزمن. راجع عاشور، قبرص والحروب الصليبية، ص ١٢ وحاشية رقم ٢٠).

وكريت وقبرص وسردينية وجزر البليار، وتحكمت فى المضايق الهامة الواقعة على طريق التجارة بين الشرق والغرب، وبذلك عرقلت استخدام العرب المنافسين لمياه البحر المتوسط[١]. وأصبح اسطول صقلية يحرس الخطوط الملاحية من ناحية الغرب ويقطع الطريق على مراكب التجار التى يصادفها فى المنطقة[٢].

وفى ضوء هذه الحقائق نستطيع ان ندرك أهمية الخطوة التى اتخذها قنسطانز الثانى وعلينا اذن ان نعطيه حقه فى فهم الاوضاع السياسية والاقتصادية فى ذلك الوقت، فقد تمكن فى مدة عشر سنوات التى اقامها فى صقلية من إعادة تثبيت دعائم الحكم البيزنطى فى الغرب فساد السلام صقلية وسائر الجزر المملوكة للدولة البيزنطية فى الغرب على ان القدر لم يمهله، فتعرض للقتل على يد احد قواده فى صقلية[٣]، الأمر الذى شجع معاوية على ارسال حملة لغزو صقلية فى عام ٦٦٩م/ ٤٩هـ[٤]، مستغلاً اوضاع بيزنطة بعد مقتل قنسطانز وعودة خليفته قنسطنطين الرابع الى القسطنطينية. وفى نفس الوقت اغار معاوية على خلقدونية[٥] وهوجمت جزيرة كريت فى سنة

---

(1) Brooks, E.N. "The Relations between the Empire and Egypt from a New Source", in Byz, Zeit (913) XVII, 383-4.

(٢) ابن الأثير فى المكتبة الصقلية ص ٢١٩،٢٠٠، وعمرها الروم من جميع الجهات وجددوا ماكان بها من الحصون والمعاقل، النويرى، المصدر السابق ج ٢٤ ص ٣٥٤ وقارن خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، نشر أكرم العمرى، فى جزئين بغداد ١٩٦٨ ج ٢ ص ٣٦٩، Cheira , op.cit, pp. 143-4.

(٣) تاريخ المنبجى، المصدر السابق، ص ٣١، Vasiliev, op.cit., p. 224.

(٤) يذكر أمارى هذه الغزوة بهذا التاريخ ولكن ابن عذار ذكرها فى سنة ٣٦ هـ نقلا عن البلاذرى الذى لم يذكر تاريخا لهذه الغزوة ولكنه ذكر اسم معاوية بن حديج من قبل معاوية بن أبى سفيان والذى سبقت الإشارة إلى هذه الاختلافات فى الصفحات السابقة فى معرض كلامنا عن أول غزوة كانت على صقلية. ولكن راجع: Amari Storia. 25-22.

وقارن: البلاذرى المصدر السابق، ص ٢٣٧، ابن عذارى المصدر السابق ج ص ١٢.

(5) Ostrogorsky· op.cit.p. 54; Canard, M., les expédition des

-/-

٦٧٢م/ ٥٢هـ، ثم حوصرت القسطنطينية مدة سبع سنوات من (٦٧٣م - ٦٧٩م) (٥٣ - ٦٠هـ)(١).

وبعد استقرار الامور للمسلمين فى المغرب بصفة نهائية وانتهاء الوجود البيزنطى من شمال إفريقيا(٢) أمر الخليفة عبد الملك بن مروان والى إفريقية حسان بن النعمان الغسانى إنشاء قاعدة بحرية هناك وارسل له من يعاونه فى بناء الاسطول من أقباط مصر ممن يمتهنون مهنة بناء السفن(٣). وبذلك اصبحت مدينة تونس التى تأسست فى سنة ٧٠٣م/ ٨٤هـ قاعدة بحرية بفضل المراكب الحربية التى كانت تصنع بدار صناعتها، وأخذت تعترض الاسطول البيزنطى وتغير على جزر البحر، خاصة على صقلية وسردينية، ثم تمكن المسلمون من الاستيلاء على جزيرة قوصرة(٤) التى تقع قرب الشاطئ الافريقى؛ فسيطروا بذلك على المضيق الفاصل بين الشاطئ وجزيرة صقلية(٥).

وفى عام ٧٠٣م/ ٨٥هـ قام اسطول من مصر بالاغارة على صقلية

=/= Arabes contre constantinople, Journ , Asiatique, 108 (1926), pp. 61-2 (Voiraussi la bibilgrahẹ cilée plus haut pour l'histoire de l'invsion Arabe).

(١) العدوى، المرجع السابق، ص ٦٥ - ٦٦، وتعرضت سفن المسلمين لعاصفة مدمرة أدت إلى تحطيمها، راجع: العريني: المرجع السابق، ص ١٥٠.

- Michael the Syrian Chron II, p. 455.

(٢) ابن عذارى، المصدر السابق، ج١، ص ٣٦، ٣٧؛ النويرى، المصدر السابق، ج٢٤، ص ٣٥، ٣٨، ٣٩، سعد زغلول، تاريخ المغرب العربى من الفتح إلى بداية عصور الاستقلال منشأة المعارف ١٩٧٩م ص ٢٣٨ - ٢٤٧.

(٣) راجع البكرى (أبى عبيد البكرى) المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، بغداد بدون تاريخ، ٣٨ - ٣٩.

(٤) قوصرة جزيرة تلى مدينة مازر من صقلية بينهما مجرى وتقع إلى الشرق من جزيرة مالطة. راجع: الحميرى، المصدر السابق، ص ٤٨٥، ٤٨٦.

(٥) ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم) الإمامة والسياسة، جزءان، القاهرة ١٨٣٢هـ ج ٢، ص ٥٦: البكرى، المصدر السابق ص ٣٨ - ٣٩.

ورجعوا محملين بالغنائم. وفى طريق العودة تعرضت سفنهم لعاصفة شديده مما اضطرهم الى اللجوء للقاعدة البحرية الجديدة فى تونس[١]. واعقبت هده غارة اخرى فى عام ٧٠٤م/ ٨٦هـ حيث ارسل موسى بن نصير اسطولاً من قاعدته الجديدة فى تونس للإغارة على صقلية وسردينية. كما استخدم اسطوله فى الإغارة وتهديد الاسطول البيزنطى فى قواعده بصقلية وسردينية وجزر البليار[٢] ويبدو أن موسى بن نصير كان يعمل على حماية خطوط مواصلاته البحرية ومراقبة الاسطول البيزنطى فى جزيرة سردينيه وصقلية[٣]، أو بمعنى آخر فإن تونس اصبحت القاعدة البحرية الاسلامية التى كانت تشن منها الغارات على صقلية. وفى عام ٧٢٠م/ ١٠٢هـ انتهز المسلمون فرصة عصيان حاكم جزيرة صقلية فى عام ٧١٨م/ ١٠٠هـ واغاروا على الجزيرة[٤].

فى تلك الفترة ساءت احوال صقلية وايطاليا بسبب الاضطرابات التى

---

(١) ابن قتيبة، المصدر السابق، ج ٢ ص ٥٧، ٥٨: المقرى: شهاب الدين أبو العباسى أحمد بن محمد التلمسانى، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، عشرة أجزاء تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد. القاهرة ١٣٠٢هـ ج١ ص ٢٥٩، ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس وتحقيق مختار العبادى، طبعة مدريد ١٩٧١م القسم الخامس بالأندلس ص ٢٩. وقارن ابن عبد الحكم المصدر السابق ص ٢٠٩، ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٧٢ - ٧٣، حيث يذكر أنهم غرقوا.

(٢) ابن عذارى، المرجع السابق، ج١ ص ٢٣، ابن الأثير ج٢ ص ٢٧٣: ارشيبالد لويس، المرجع السابق، ص ١٠٢.

(٣) ابن عذارى، المصدر السابق والصفحة نفسها، ابن الأثير، نفس المصدر والصفحة نفسها سجل لنا خليفة بن خياط الغزوات التى كانت بين سنة ٢هـ - ٢٢ هـ كانت أكثر من ١٥ غزوة بحرية على كل من جزيرتى صقلية وسردينية راجع فيه ج ٢ ص ٣٤٩.

(٤) ابن عذارى ج١ ص ٤٧: النويرى، المصدر السابق ٢٤، ص ٣٥٣، Theophanes, op.cit, pp. 90 - 91.

ولكن قارن التسمية عند كل من ابن عذارى والنويرى نفس الصفحات حيث يسمى النويرى صاحب الغزة محمد ابن ادريس بينما يطلق عليه ابن عذارى محمد بن أوس الانصارى ويقول: «كان غازيا بصقلية، فلم يبق إلا يسيراً حتى قدم بغنائم أصابها». ابن عذارى ج١ ص ٤٧.

تسببت عن معارضة الحركة اللاأيقونية ورفض الاهالى القرارات الدينية التى اصدرها الامبراطور البيزنطى ليو الثالث الايسورى (٧١١ - ٧٤١م)، فاندلعت الثورات فى إيطاليا عندما حاول الموظفون البيزنطيون فرض هذه القرارات الدينية بالقوة، مما أتاح الفرصة للمبارديين لضم اجزاء جديدة من إيطاليا لأملاكهم. وعاقب ليو الثالث البابا بمصادرة الاملاك البابوية فى جنوب إيطاليا وصقلية وأخرج صقلية من نطاق النفوذ البابوى وأمر بمصادرة ما كانت تؤديه الجزيرة من خراج لروما[١].

وقد استغل المسلمون فى المغرب هذا الوضع المتدهور وعاودوا الاغارة على جزيرة صقلية وسردينية، ففى عام ٧٢٧م/ ١٠٩هـ قام بشر بن صفوان الكلبى والى إفريقية بالإغارة على صقلية وعاد محملاً بالغنائم والسبايا[٢]. وقد تميزت هذه الفترة الزمنية بتوالى حملات المغرب على صقلية وسردينية، أو بمعنى آخر شهدت جزيرة صقلية ضغطاً بحرياً متواليا فى الفترة من سنة ٧٢٧ - ٧٤٠م/ ١٠٩هـ - ١٢٢هـ فكانت فى سنة ٧٢٨/ ١١٠هـ حملة[٣] وفى سنة ٧٢٩م/ ١١١ هـ[٤]، وفى سنة ٧٣٠م/ ١١٢هـ[٥]،

---

(١) ج. م. هسى، العالم البيزنطى، ترجمة وتعليق وتقديم دكتور رأفت عبد الحميد، دار المعارف ط ٢، ١٩٨٢، ص ١٣٨: محمد الشيخ، المرجع السابق، ص ١٢٥، ١٢٦.

(٢) الرقيق (ابراهيم بن القاسم) تاريخ افريقية والمغرب، تحقيق المنبجى الكعبى طبعة تونس ١٩٦٧، ص ١٠٢، قارن ابن الخطيب أعمال الأعلام، ص ١٠٨ حيث أورد هذه الغزوة فى حوادث سنة ١٠٩ هـ وأن وفاة بشر كانت بسبب غزوته، ابن عذارى، المصدر السابق، ج١ ص ٤٨ (أوردها فى حوادث سنة ١٠٥هـ: النويرى، المصدر السابق، ج٢٤، ص ٢٥٣).

(٣) تمت هذه الحملة فى ولاية عبيدة بن عبد الرحمن السلمى، الذى سير عثمان ابن أبى عبيدة الفهرى فى المراكب على رأس ٧٠٠ مقاتل لغزو سرقوسة عاصمة صقلية وانتهت الحملة بنجاح يؤكده وقوع قائد البيزنطيين أسيرا. راجع: ابن خياط ص ٣٥٣ - ٣٥٤.

(٤) كانت الحملة بقيادة المستنير بن الحجاب الحرشى وخرج فى ١٨٠ مركب ونزل على سرقوسة وضرب عليها الحصار وأخذ فى جمع الغنائم، فدخل عليه الشتاء وتعرض أسطوله للعواصف الشديدة، فغرقت مراكبه ولم ينج منها إلا سبعة عشر مركبا وجنحت مركب القيادة إلى طرابلس حيث أرسل عبيدة إلى والى طرابلس وأعاد المستنير فحبسه وجلده. راجع: ابن خياط ج ٣٣٥، وابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص ٢١٦.

(٥) كانت الحملة بقيادة ثابت بن خيثم الأردمى. راجع خليفة، المصدر السابق، ج٢، ص ٣٥٧.

وسنة ٧٣٢م/ ١١٤هـ[١]، وسنة ٧٣٣م/ ١١٥هـ[٢]، وفى سنة ٧٣٥م/ ١١٦هـ نجحت حملة بقيادة عثمان أبن ابى عبيدة الفهرى من النزول على ارض جزيرة صقلية ورجعت محملة بالغنائم ولكن حدث فى طريق عودتها أن اعترضتها بعض قطع الأسطول البيزنطى وتقاتلا وتمكن الأسطول البيزنطى من إصابة بعض مراكب الحملة وأسر عدداً كبيراً من الاعيان[٣].

ولكنهم فى النهاية انتصروا على البيزنطيين وقفلوا راجعين إلى تونس. ولم يحالفهم الحظ بعد ذلك فى حملة سنة ٧٣٧م/ ١١٨هـ فلم تتمكن هذه الحملة من تحقيق أغراضها[٣]. ثم كانت حملة حبيب بن أبى عبدة فى سنة ٧٤٠م/ ١٢٢هـ وولده عبد الرحمن بن حبيب الذى سار الى سرقوسة، وضرب بابها بسيفه، وحقق انتصارات هائلة، وأرغم أهل سرقوسة على دفع الجزية، حتى انه عزم على البقاء بالمدينة إلى تمام فتحها لولا ثورة ميسرة[٤] بولاية إفريقية.

بعد أن استقل عبد الرحمن بن حبيب عاد ثانية لغزو الجزيرة فى سنة ٧٥٤م/ ١٣٥هـ وفرض على أهل الجزيرة الجزية مرة أخرى[٥]. وصمتت

---

(١) بقيادة عبد الله بن قطن راجع المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٢) بقيادة بكر بن سويد، المصدر السابق ص ٣٦٠ وعن تفاصيل هذه الحملة راجع، سعد زغلول، المرجع السابق ج ص ٢٧٦ - ٢٧٧.

(٣) راجع خليفة بن خياط، المصدر السابق ج ٢ ص ٣٦٢. وكان ممن أسرهم الروم ابنا قائد الحملة عثمان بن أبى عبيدة نفسه وهما عمرو وسليمان وكذلك عبد الرحمن ابن زياد بن أنعم وأنهم لازالوا فى أيدى الروم حتى ولاية عبد الرحمن بن حبيب سنة ١٢٧هـ الذى فدى عمه وناسا من أسارى المسلمين.

(٤) كان قائد هذه الحملة قثم بن عوانة الكلبى الذى نزل على مدينة أولية وأحاط به الروم وفى السنة التالية قام قثم بحملة أخرى لم يكتب لها النجاح ومات غريقا مع مركب القيادة وبعض سفنه. راجع المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٤٦.

(٥) راجع: ابن عذارى، المصدر السابق، ج١ ص ٧٣: ابن الأثير المكتبة الصقلية، ص ٢٢٠، النويرى، المصدر السابق، ج٢٤ ص ٣٥٤ قارن ابن عذارى نفس المصدر والصفحة نفسها حيث جعل هذه الغزوة سنة ٣٠ هـ. وقد توقف لسان الدين ابن الخطيب عن ذكر أحداث

=/=

المصادر العربية عن ذكر قيام حملات على جزيرة صقلية بعد هذه الحملة، إذ يبدو ان غارات المسلمين على صقلية دخلت فى مرحلة هدوء مدة تقترب من نصف القرن، ولابد من وجود تفسير لهذا الامر من الجانبين المتصارعين، ففى الجانب الاسلامى نجد ولاة إفريقية وقد انشغلوا بالفتن الداخلية والثورات(١)، فى نفس الوقت تمكنت بيزنطة من استعادة مكانتها البحرية فى النصف الثانى من القرن الثامن الميلادى/ النصف الثانى للقرن الثانى الهجرى. واحتفظت بيزنطة بهذه السيادة التى استعادتها بعد عام ٧٤٧م(٢)/ ١٣٠هـ، فسيطرت على جزائر صقلية وكريت وقبرص وسردينية وجزر البليار، وتحكمت فى المضايق الهامة الواقعة على طريق التجارة وحالت دون استخدام العرب المنافسين لها فى مياه البحر المتوسط(٣). وأصبح اسطول صقلية يحرس الخطوط الملاحية من ناحية الغرب وعملت على الإحالة دون وصول سفن التجار المصريين والسوريين إلى غرب البحر المتوسط. وبمعنى آخر فإن بيزنطة اغلقت غرب البحر المتوسط فى وجه المسلمين(٤).

-/- الغزوات العربية على صقلية بعد غزوة سنة ١٢٢ هـ حيث تجاوز عن ذكر أحداث حوالى مائة سنة ، حيث بدأ الكلام عن غزوات المسلمين فى صقلية بعد قيام دولة الأغالبة فى شمال إفريقية وتجاوز عن ذكر الحملة الكبرى التى قام بها أسد بن الفرات ٢١٢هـ (حملة الفتح) حيث أكمل الأحداث منذ سنة ٢٢١ هـ: راجع: لسان الدين بن الخطيب، المصدر السابق، ص ١٠٩ – ١١٠.

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذه الفتن والثورات، راجع: سعد زغلول، المرجع السابق، ص ٢٨٦ – ٢٩٠. وصفحات أخرى.

(٢) ارشيبالد لويس، المرجع السابق، ص ١٥٨: راجع فيما سبق ص ٨ حاشية رقم (١).

(٣) ابن الأثير، المكتبة الصقلية، ص ٢٩ - ٢٢٠ ،وعمرها الروم من جميع الجهات وعمروا فيها الحصون والمعاقل وصاروا يخرجون كل عام مراكب تطوف بالجزيرة وتذب عنها ربما صادفوا تجارا من المسلمين فيأخذونهم،: النويرى، المصدر السابق، ج ٢٤ ص ٣٥٤: مختار العبادى، دراسات ، ص ٦.

(٤) ابن الخلدون: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد كتاب العبر وديون المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر: بولاق ١٢٨٤هـ ج ٤، ص ١٩٨: ابن الأثير، المصدر السابق، ج٥، ص ١٨٦.

مع حلول القرن التاسع الميلادى (أواخر الثانى وأوائل الثالث الهجرى) أخذ الموقف داخل الإمبراطورية البيزنطية فى التغيير فقد أهملت قوتها البحرية كما اجتاحتها الفتن والاضطرابات لاسيما فى أواخر عهد الاسرة الايسورية[١] فى نفس الوقت الذى شهدت شمال إفريقية قيام دولة الأغالبة الذين حرصوا على دعم قوتهم البحرية، وأغراهم وضع بيزنطة الذى سبق الإشارة إليه على القيام بأعمال بحرية انتهت بعقد اتفاقية بين بطريرق صقلية والأغالبة مدتها عشر سنوات، جددت لمدة عشر سنوات أخرى[٢]. ولم يلتزم الاغالبية بهذه الاتفاقية فقاموا بغارات على جزيرة سردينية فى أعوام ٨١٢م/ ١٩٧هـ، ٨١٣م/ ١٩٩هـ[٣]، ومهاجمة صقلية: سنة ٨٢٠م/ ٢٠٥هـ[٤]. واستولوا فى سنة ٨٢١م/ ٢٠٦هـ على سردينية[٥].

---

(١) الكندى (أبو عمر محمد يوسف) الولاة والقضاة، طبعة روفن جست، بيروت ١٩٠٨م. ص ١٨٠: Bury, A History of the estern Roman Empire, London 192, p. 60.

- فازيليف، العرب والروم، ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة، ص ٤٨: حسنين ربيع دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة ٩٨٣م، ص ٢٠ - ١٣٥.

(2) Vasiliev, op.cit, p. 64; Amari, Storiea pp. 332 - 355.

- حرص الأغالبة على تأمين الملاحة العربية فى البحر المتوسط وتأمين التجار المسلمين فعقدوا صلحا مع قائد الأسطول البيزنطى فى صقلية لمدة عشر سنوات (بين ابراهيم بن الأغلب أمير إفريقية مع القائد قسطنطين) وعملوا فى نفس الوقت على الاهتمام بالأسطول وتقويته مما لفت أنظار البيزنطيين فى صقلية، فاضطر الأغلابة إلى تجديد الاتفاقية السابقة لمدة عشر سنوات أخرى وكانت بين أبى العباس عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب وبين جريجيورى القائد البيزنطى فى صقلية فى سنة ٨١٣م وتم على اثرها تبادل الأسرى كما تقرر تأمين سلامة التجار فى الجانبين. راجع فى هذا المصادر العربية: المالكى (أبو عبد الله بن أبى عبد الله) رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم، نشر حسين مؤنس، القاهرة ١٩٥٢م ص ٨٥ - ٨٦.

(٣) يجعل ابن الأثير الغزوات فى سنة ٢٠١ هـ/ ٨١٦م بينما يذكرها ابو عذارى لسنة ٢٠٦ هـ ولكن قارن ابن الابار (زبو عبد الله محمد الفضاعى البلنسى) الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، فى جزئين القاهرة ١٩٦٣، جـ ص ١٨١ والمكتبة، ص ٣٢٧ وقارن Amari, Storia, I, pp. 58-9.

(٤) يذكرها صاحب الحلة السيراء فى سنة ٢٠٤ هـ، المصدر السابق والصفحة نفسها.

(٥) ابن عذارى المصدر السابق، ج١ ص ١٢٤

وتدل الاستعدادات التى قام بها الأغالبة لتقوية أسطولهم وزيادته على أنهم عقدوا العزم على فتح صقلية، وأن انتظارهم انما كان لتحين الفرصة المناسبة للقيام بهذا العمل، وبالفعل واتتهم هذه الفرصة عندما حضر القائد البيزنطى اوفيميوس Euphemius الخارج على الامبراطور البيزنطى مع انصاره يطلب المساعدة من زيادة الله الأول بن ابراهيم بن الأغلب الأمير الأغلبى للوقوف فى وجه البيزنطيين[1]. وبمعنى آخر فانه كان يأمل فى معونة عربية تساعده فى الاستقلال بالجزيرة عن الحكم البيزنطى. وربما لجأ فى سبيل تحقيق ذلك إلى ذكر بعض الاخبار الكاذبة عن نقض البيزنطيين للهدنة، واحتجاز عدد من اسرى المسلمين[2]، وهكذا جاءت الفرصة التى كان ينتظرها الاغالبة فقرروا غزو صقلية[3].

فى منتصف شهر يونيو سنة ٨٢٧م/ نصف ربيع الأول سنة ٢١٢هـ وصل إلى صقلية اسطول كبير مكون من ٧٠ - ١٠٠ سفينة محملة بسبعمائة فرس[4]. وحوالى عشرة آلاف راجل[5] وكان على رأس هذا الجيش القاضى

(١) راجع النويرى، المصدر السابق ج ٢٤، ص ٣٥٤ - ٣٥٥.

(٢) يروى النويرى قصة فيمى مع مقدم البطارقة الذى عينه الامبراطور البيزنطى ويدعى قسطنطين الذى عمر أسطولا وأرسله إلى بر إفريقية وولى على هذا الأسطول فيمى (افيميوس) الذى خطف (مجازا) -ولكنها تجارا كما جاءت فى المكتبة الصقلية - وبقى مدة فى البحر فوصل خطاب الامبراطور (ميخائيل الثانى العمورى فى ذلك الوقت - ٨٢٠- ٨٢٩م) يأمر قسطنطين بعزل فيمى وتعذيبه لشىء بلغه عنه. وحينما علم فيمى حادث قسطنطين وقتله وأعلن نفسه ملكا على صقلية وولى واحد من الأرمنيين يدعى بلاطة على ناحية من جزيرة صقلية الذى قام بدوره بمحاربة فيمى وقتل عددا من أصحابه يبلغ (ألف رجل) ودخل بلاطة مدينة سرقوسة بينما خرج فيمى يستنجد بالمسلمين فى إفريقية. راجع: النويرى المصدر السابق، والصفحات نفسها. وقارن أيضا: ابن الأثير: المكتبة الصقلية، ص ٢٢١، ٢٢٢، ابن خلدون ج٤ ص ١٩٩، المكتبة ص ٤٦٦

(٣) ابن عذارى، المصدر السابق، ج١ ص ١٣٢.

(٤) ابن عذارى، المصدر نفسه والصفحة نفسها، ابن خلدون، العبر، ج٤ص ١٩٨، ١٩٩: ابن الأثير، الكامل ج ٥ ص ١٨٦: فازيليف، العرب والروم، ص ٧٢.

(٤) فازيليف، المرجع السابق، والصفحة نفسها ص١٣٢: سعد زغلول، المرجع السابق، ج٢ ص ٢١٥.

(٥) ابن عذارى: المصدر السابق، ج ١ ص ١٣٢: سعد زغلول، المرجع السابق، ج ٢ص ٢٦٥.

اسد بن الفرات قاضي إفريقية الذى تذكر المصادر العربيه أن ذلك تم بناء على طلبه من الأمير زيادة الله بن الاغلب(١)، وخرجت معه نخبة كبيرة من اشراف إفريقية من العرب والجند والبربر والأندلسيين وأهل العلم(٢).

على أية حال وصل الأسطول الى ساحل مازر صباح يوم الثلاثاء ١٦ يونية/ ١٣ من ربيع الأول. ويعد ساحل مازر أقرب نقطة من سواحل صقليه إلى افريقية، كما كان يبعد عن مركز القوات البيزنطيه في الجزيرة، واستولى أسد بن الفرات وقواته على مازر حيث غنم المسملون الكثير وتم أسر أعدادا كبيرة(٣). ورحل الجيش من مازر حيث واصل طريقة إلى مرج - ينسب إلى بلاطة(٤)- حيث تقاتل جيش المسلمين مع جيش بلاطة، الذى قتل من أصحابه الكثير، فخاف بلاطة وهرب إلى قصريانة Castrgiovanni ولكن الخوف غلبه فخرج منها متوجها إلى قلوريه Calabria فحاصره المسلمون وقتلوه(٥).

واستطاع أسد بن الفرات مع قواته التخلص من بعض المعوقات وهو في طريقه إلى سرقوسة التى حاصرها ولكنه لم يتمكن من فتحها، إذ مرض مرضاً شديداً ثم جاء إلى ربه في النهاية(٦). وكان ذلك في نفس الوقت الذى تنبهت القسطنطينية للخطر، فجمعت قوة بحرية، وطلبت المساعدة من

---

(١) ابن عذارى: المصدر السابق، ج١ ص ١٣٢: سعد زغلول، المرجع السابق، ج ٢ ص ٢١٥

(٢) ابن عذارى، المصدر نفسه والصفحة نفسها

(٣) النويرى، المصدر السابق ج ٢٤ ص ٣٥٦

(٤) النويرى، المصدر السابق، ج ٢٤ ص ٣٥٦.

(٥) خرج بلاطة من قصريانة بعد أن تملكه الخوف وعبر إلى قلورية في جنوب إيطاليا، ربما من أجل إحضار نجده لمعاونته ولكنه قتل هناك: راجع: المالكى، المصدر السابق، ج١ ص ١٨٨: ابن خلدون، المكتبة، ص [illegible]، النويرى: المصدر السابق والصفحة نفسها

(٦) بعد وفاة أسد بن الفرات ولى المسلمون عليهم محمد بن ابى الجوارى، فواصل محاصره سرقوسة لفتحها. راجع: ابن عذارى، المصدر السابق، ج١ ص ١٣٥، ابن خلدون، العبر ج ٤ ص ١٩٩: المالكى، رياض النفوس، ص ١٨.

البندقية؛ ثم وصل الاسطول البيزنطي إلى سرقوسة حيث يحاصرها المسلمون[١]. واستطاع الإسطول البيزنطي إنزال الهزيمة بالسفن الإسلامية وإجبار المسلمين إلى الاتجاه لميناء سرقوسة، ولما عجز المسملون عن الفرار بباقي سفنهم أحرقوها وانسحبوا إلى قلعة ميناو Minao وتحصنوا بها[٢]، وفي سنة ٨٢٩م/ ٢١٤هـ تمكن المسلمون من الاستيلاء على مازر التي نزلوها في أول الأمر بمساعدة النجدة الاندلسية تحت قيادة فرغلوش وقد استطاع فرغلوش تخليص المسلين المحاصرين في قلعة ميناو، كما قام بهدم اسوار القلعة[٣]، ثم جد في السير مع باقي الجيش وحاصروا مدينة بلرم الهامة الواقعة على الشاطئ الغربي لصقلية[٤]. وكان أن تم الاستيلاء على بلرم سنة ٨٣١م/ ٢١٥هـ وصارت أهم قاعدة حربية وأعظم مراكز القوة الإسلامية بصقلية وتمتعت بنوع من الحكم الذاتي، وكانت تابعة إسمياً لشمال إفريقية فأصبحت مركزاً للاساطيل الاسلامية التي قامت بالإغارة على شواطئ إيطاليا وباقي ممتلكات بيزنطة في جزيرة صقلية[٥].

وتوالى بعد ذلك سقوط قلاع جزيرة صقلية ومدنها، ففي سنة ٨٣٩م/ ٢٢٥هـ كان المسلمون يمتلكون جرصة[٦]، وقلعة البلوط[٧]، وابلاطنوا[٨]، قلعة

(١) النويري، المصدر السابق، ص ٣٥٨: Vasiliev, Byz, I, 3-4.

(٢) النويري، المصدر السابق والصفحة نفسها وقارن: ابن الاثير، المكتبة الصقلية، ص ٢٢٤، البكري (جغرافية الأندلس وأوربا) تحقيق عبد الرحمن حجي، بيروت ص ٢١.

(٣) ابن عذاري، المصدر السابق، ج١ ص ١٣٤.

(٤) النويري، المصدر السابق، ص ٣٦٠: ابن خلدون، ج ٤، ص ١١٩ حيث يذكر أن فتح بلرم كان في سنة ٢١٧هـ/ ٨٣٢م: المكتبة ص ١٦٦: قارن ابن عذاري المصدر السابق ص ١٣٧. فهو يجعل فتح بلرم في سنة ٢٢٠هـ.

(٥) ابن الأثير في المكتبة ص ٢٢٤ - ٢٢٥: تاريخ صقلية من حيث دخلها المسلمون... المكتبة، ص ٦٦، قارن النويري، المصدر السابق، ج ٢٤، ص ٣٦٠. ولكن قارن ابن الأثير، المصدر السابق، ج٥ ص ١٨٨ حيث يذكر الاستيلاء على بلرم في رجب سنة ٢١٦ هـ.

(٦) النويري، نفس المصدر والصفحة نفسها: لكن قارن المكتبة الصقلية، ص ٤٣١ حيث رجحت أنها جرجة Geragia.

(٧) النويري، المصدر السابق والصفحة نفسها.

(٨) النويري، المصدر السابق والصفحة نفسها.

قالون(١)، ومريناو(٢)، وغير ذلك من القلاع. وفى سنة ٨٣٥م/ ٢٢٠هـ تمكن المسلمون من الاستيلاء على جزيرة قوصرة(٣)، وبذلك أصبح الطريق بين الجزيرة وإفريقية مفتوحاً بعد زوال الخطر. وترتب على ذلك إرسال الإمدادات إلى جزيرة صقلية بسهولة أكثر من قبل وقوى مركز المسلمين تحالفهم مع مدينة نابلى(٤). وهو التحالف الذى زاد من قوة الأسطول العربى، مما أدى إلى إضعاف قوة أسطول بيزنطة فى تلك الناحية من مياه البحر المتوسط.

ومن بلرم حاول أميرها فى سنة ٨٣٨م/ ٢٢٤هـ الهجوم على قلعة شلفودة البحرية الواقعة على ساحل الجزيرة من الشمال، لكن هجومه انتهى بالفشل، بسبب نجدة أسطول القسطنطينية الذى أجبر المسلمين على الإنسحاب(٥). وهكذا واصل المسلمون فى صقلية كفاحهم من أجل تمام فتح الجزيرة واستطاعوا فى سنة ٧٤٣م/ ٢٢٩هـ الاستيلاء على مسينا(٦)، وبذلك

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٥ ص ٥٣: رجحت المكتبة Corléone وهى فى الأصل قاروب. راجع: النويرى، المصدر السابق والصفحة نفسها وحاشية رقم (٥).

(٢) أكدت المكتبة على هذا الاسم (مرناو Marineo) ص ٤٣١.

(٣) هذه الجزيرة تلى مدينة مازر بصقلية بينهما مجرى وهى فى شرق جزيرة ملطية وهى من جزيرة الراهب بين جنوب وشرق وتوازى الشاقه ومازر وبينهما مجرى، وكذلك من قوصرة إلى بر إفريقية مجرى، وهى مقطع للخشب الجيد يحمل منه إلى صقلية وهى جزيرة صغيرة وحصينة فيها آثار وأشجار ولها من جهة الجنوب مرسى مأمون يكب من رياح كثيرة. راجع: الحميرى، المصدر السابق، ص ٤٨٥ - ٤٨٦.

(٤) ابن الأثير، ج ٦، ص ٢٣٩- ٢٤٠. فهو يذكر أن الأسطول البيزنطى كان يحول دون وصول الحاكم الجديد للجزيرة، وعن هذا التحالف، راجع: أحمد المدنى، المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا، ص ٧١ Vasiliev, I.177-8 حيث يذكر أن تحالف نابلى مع العرب كان يهدف مقاومة الخطر الذى تهددهم من جانب أهل بنفيت (بنفيتو Benevento) ومنذ ذلك الوقت استقر المغاربة فى قلب ايطاليا وكونوا مملكة مستقلة عن الأغالبة فى صقلية، وكان من بين شروط الصلح أن تدفع نابلى مبلغا من المال كجزية سنوية وتساعدهم على أخذ مسينا.

(٥) راجع ابن عذارى، المصدر السابق، ص ١٤٥ك ابن الأثير الكامل، ج٧ ص ٤٢.

(٦) ابن الأثير، المصدر السابق، ج٧، ابن خلدون: ج ٤ص ٢٠١ وقد تمكن العرب من أخذ مدينة لنتينى فى العام الثانى.

أصبحت لهم السيطرة على موقع استراتيجى هام اتاح لهم التفوق على الاسطول البيزنطى الذى لم يكن متواجداً بشكل يكفى لحماية هذا المركز الهام من السقوط فى يد العرب المسلمين. وأعقب هذا النصر، نصر آخر، إذ تمكن المسلمون من أخذ شلفودة[١]، بعد حصارها براً وبحراً وهزيمة الأسطول البيزنطى، الذى كان يتكون من أربعين سفينة. وقد أدت هزيمتها هذه الى إرسال أسطول كبير من الشرق إلى سرقوسة تكون من ثلثمائة سفينة وعبر هذا الأسطول مضيق مسينا لإستعادة شلفودة، والتقى الأسطولان العربى والبيزنطى فى اتجاه الساحل الشمالى لصقلية، وكانت النتيجة انتصاراً عظيماً للمسلمين وفقدان بيزنطة لحوالى مائة سفينة. وتعد أكبر هزيمة لحقت بالقوات البيزنطية[٢].

ومما لا شك فيه ان هذه الانتصارات العظيمة قد رفعت من معنويات العرب فى صقلية وزادتهم قوة ساعدتهم على مواصلة الفتوحات، ففى سنة ٨٤٤م/ ٢٢٢٩هـ استطاع المسلمون إلحاق الهزيمة بأهل صقلية فى مدينة بثيرة (Butera) فتركوا فى ارض المعركة اعداداً كبيرة من قتلاهم فى مقابل خسائر طفيفة من الأنفس فى الجانب الاسلامى[٣]. وفى السنة التالية (٨٤٦ - ٨٤٧م/ ٢٣٢هـ) استولى المسلمون على مدينة لنتينى على الساحل الشرقى لصقلية شمال سرقرسة حيث ضرب عليها الحصار وانتهت المعركة مع أهلها بتسليم مدينتهم إلى العرب فى مقابل الأمان لأنفسهم وأموالهم[٤]. وسلمت كذلك أرغوس[٥] بالامان للعرب فى السنة التالية ٨٤٨م/ ٢٣٤هـ.

وعندما تولى العباس بن الفضل الأمر فى صقلية بعد وفاة أبى الأغلب

---

(١) راجع: ابن عذارى، المصدر السابق، ج١، ص ١٤٥: ابن الأثير، المصدر السابق، ج٧، ص ٢.

(٢) ابن الأثير: ج٣، ص ٢: قارن ابن عذارى ج١، ١٤٧. Amari, Storial, II. 182.

(٣) ابن الأثير، المصدر السابق، ج٧، ص ٢، المكتبة ص ٢٢٩.

(٤) ابن الأثير، المصدر السابق ص ٣: ابن خلدون المصدر السابق، ج ٤ ص ٢٠١.

(٥) ابن خلدون، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٠٢.

ابراهيم بن عبد الله، أخذ فى ممارسة نشاط مكثف فى سبيل اتمام فتح الجزيرة وانهاء الوجود البيزنطى بها، فبث السرايا فى الاماكن المحيطة، بقصريانه، وخرج بنفسه إلى قصريانه سنة ٨٥٧م/ ٢٤٣هـ وهزم أهلها حينما خرجوا للقائه، ثم تابع مسيرته إلى سرقوسة وطبرمين حيث نهب وخرب وأحرق على طول الطريق حتى نزل عند الحصن الجديد الذى كان قد بناه الروم فى طبرمين واستطاع الاستيلاء على الحصن بعد أن فرض شروطه على الروم المتحصنين به(١).

وفى سنة ٨٥٩م/٢٤٤هـ تمكن المسلمون من محاصرة سرقوسة من ناحيتى البر والبحر والتقى اسطول العرب بالأسطول البيزنطى الذى كان يتكون من اربعين شلنديا(٢) تحت قيادة شخص يدعى الكريتلى(٣) وانتهى القتال البحرى بانتصار المسلمين وأسر عشرة شلنديات برجالها، وعاد الجيش البرى والأسطول العربى إلى قواعده فى بلرم محملا بالمغانم والسبى(٤).

ثم ما لبث ان حلت بالقوات البيزنطية هزيمة أخرى كبرى حينما نجح المسلمون فى صقلية فى الاستيلاء على حصنها البرى قصريانة عام ٨٥٩م/ ٢٤٤هـ(٥)، وأصبح المسلمون بهذا النصر يمتلكون ثلثى جزيرة صقلية، بينما

---

(١) ابن الأثير، المصدر السابق، ج٧، ص ٢٤ : قارن ابن عذارى، المصدر السابق، ج١ ، ص ١٤٥.

(٢) النويرى، المصدر السابق، ج ٢٤ ص ٣٦١، عن اسم المراكب شلنديات مفردها شلند، نوع من السفن الحربية كبيرة ومسلحة لحمل المقاتلين والأسلحة راجع: درويش النخيلى، السفن الاسلاروق المعجم، الاكسندرية ١٩٧٤، ص ٧٨ - ٨١.

(٣) النويرى، المكتبة ص ٤٣٢ بحيث يذكره باسم الاقريطى.

(٤) ابن الاثير، المصدر السابق والصفحة نفسها، قارن ابن عذارى، ج ١ ص ١٤٧.

(٥) النويرى، المصدر السابق والصفحة نفسها ج ٢٤ ص ٣٦١ ويذكر النويرى أن الروم انتقلوا إلى قصريانة لحصانتها وجعلوها دار ملكهم قارن ابن عذارى ، المصدر السابق، ج ١ ص ١٤٨ ، ١٥٠ الذى جعل غزوة قصرنة سنة ٢٥٠ هـ.

Bury, East - Roman Empir, p. 397 - 98

اقتصرت ممتلكات بيزنطة فى صقلية على الساحل الشرقى، فيما حول سرقوسة وبعض الجهات الداخلية. وبعد حوالى ثمان سنوات قرر المسلمون إتمام فتح صقلية، فأرسل والى بلرم جيشاً برياً وحراقات(١)، إلى سرقوسة، واستطاعت نجدة من الأسطول البيزنطى أن ترد المهاجمين على أعقابهم فى سنة ٨٦٨م/ ٢٥٤هـ(٢)، فلم ييأس المسلمون وتوالى ضغطهم على سرقوسة حتى تمكنوا فى سنة ٨٧٧م/ ٢٦٤هـ من الاستيلاء عليها فى النهاية(٣). وبذلك دانت معظم جهات الجزيرة للمسلمين ولم يبق لبيزنطة سوى طبرمين وجزء ضئيل على المضيق تجاه ريو. واستمر الضغط على هذه الاماكن، ففقى سنة ٨٧٨م/ ٢٦٥هـ قام صاحب صقلية الحسين بن رباح باعادة الكرة على طبرمين، ودارت معركة قتل فيها من المسلمين أعداد كبيرة، ثم كانت لهم كرة أخرى وقتل اعداد كبيرة من أهل طبرمين والحامية البيزنطية(٤).

وفى عام ٨٨٠م/ ٢٦٧هـ ظهر أسطول بيزنطى فى مياه صقلية وهدد طريق التجارة بين المسلمين وبين مدن جنوب إيطاليا، واستطاع أن يستولى

---

(١) حراقات جمع (حراقة) وهى نوع من السفن الحربية التى ترمى بالنيران، استعملها المسلمون فى العصور الوسطى. وقد ورد ذكرها فى المعاجم العربية على أنها من سفن البصرة، فيها نيران يرمى بها العدو فى البحر، وصفها البستانى بأنها سفن حربية كانت تستخدم لحمل الأسلحة النارية كالنار الأغريقية. وكان بها مرام تلقى منها النيران على العدو. راجع : درويش النخيلى المرجع السابق ص ٣٢.

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق، ج٧، ص ٤٠، ٤٢ ، كان والى بلرم فى ذلك الوقت خفاجة بن سفيان وولده محمد: ابن عذارى، ص ١٥٠ - ١٥١.

(٣) ابن الأثير، المصدر السابق، ج٧ص ١٢٧، حاصرها المسلمون تسعة أشهر، فتحت بعدها وقتل من أهلها الألوف، وأخذ المسلمون منها مغانم كثيرة لم تؤخذ من مدينة أخرى، ثم أقاموا فيها بعد فتحها مدة شهرين وقاموا بهدمها بعد ذلك، ابن عذارى ، المصدر السابق، ص ١٥٥.

(٤) ابن عذارى، المصدر السابق ج ١ ص ١٥٥ - ١٥٦، وقد تمكن الأغالبة من الاستيلاء على جزيرة مالطة انتقاما من الهزيمة الأولى وبذلك أصبح لهم السيطرة على المضايق الواقعة بين صقلية وتونس.

- راجع المكتبة الصقلية ص ١٦٦ : قارن ابن الخطيب، أعمال الأعلام، قسم ١٣ ص ٢٦.

على كميات كبيرة من زيت الزيتون، وتعد هذه العملية دليلاً واضحاً على ممارسة القسطنطينية لعمليات القرصنة البحرية(١) وقام هذا الاسطول بتهديد بلرم وانتهى به الامر بعقد هدنة مع المسلمين فى عام ٨٨٥م/ ٢٧٢هـ(٢).

وفى عام ٨٨٦م/٢٧٣هـ تمكن المسلمون من الاستيلاء على قلورية، وحينما حاول الأسطول البيزنطى التصدى للمسلمين واسترجاع قلورية انهزم شر هزيمة وتحطمت سفنه(٣). ثم كانت الضربة الكبرى التى وجهها الاغالبة ضد البيزنطيين فى صقلية، حيث وجهت حملة بحرية وبرية بقيادة ابراهيم بن الاغلب فى سنة ٩٠٢م/ ٢٩٠هـ من بلرم ضد المواقع المملوكة لبيزنطة فى صقلية مثل طبرمين والجهات المحيطة بها. وانتهت الحملة بسقوط المنطقة كلها فى أيدى المسلمين ولم يبق غير موضع واحد هو طبرمين الجديدة(٤) Taormina.

هكذا وقعت صقلية كلها فى قبضة المسلمين بشمال إفريقية، على الرغم من الكفاح الطويل لبيزنطة للحيلولة دون ذلك، فقد استطاع البيزنطيون تأخير اتمام فتح الجزيرة مدة تصل لحوالى خمسة وسبعين عاماً. وكان أن اصبحت صقلية القاعدة الإسلامية البحرية التى تسيطر على الطرق التجارية فى تلك الناحية بعد أن انهارت سيطرة بيزنطة على البحر المتوسط(٥). وقد سيطر المسلمون على الجزر ذات المواقع الهامة لاغراض دفاعية فى أول الامر

(١) ابن عذارى، المصدر السابق، ج١ ص ١٥٢: ابن الأثير، المصدر السابق، ج٧ ص ١٢٧.

(٢) يذكر ابن الأثير أن الهدنة كانت بين سوادة أمير صقلية والروم، المصدر السابق ج ٧ ص ١٦٧. حيث يقول «فأتاه رسول بطريق الروم يطلب الهدنة والمفاداة فهادنه ثلاثة أشهر وفاداه ثلثمائة أسير من المسلمين، فرجع سوادة إلى بلرم» قارن ابن عذارى ج١ ص ١٧٣.

(٣) ابن الأثير، المصدر السابق، ص ١٦٩، ابن عذارى، ج ١ ص ١٥٩.

(٤) راجع ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٧، ص ١١٣ك قارن النويرى، المصدر السابق ج ٢٤، ص ٣٧٠، فتحت تورمينا الجديدة سنة ٩٠٨م / ٢٩٦هـ.

(5) Marcias: La berberic Musulaman et L'orient on Moyen Ages, paris 1946, p. 215.

وانتهت بتحقيق الاغراض التجارية والدفاعية فى وقت واحد، وبذلك اصبح للدولة الاسلامية ثلاثة مراكز قوية(١) تدعم العالم الاسلامى وتحمى طرق تجارته، وتعد صقلية أهم هذه المراكز القوية. وارتبطت صقلية بشمال إفريقية تحت حكم الأغالبة حتى عام ٩٠٩م/ ٢٩٦هـ عندما انتقل الإشراف عليها إلى الفاطميين(٢).

وفى الوقت الذى ازداد النشاط البحرى للامبراطورية البيزنطية وبالتحديد فى النصف الثانى من عهد الاسرة المقدونية، فقد استطاع نقفور فوقاس (٩٦٣ - ٩٦٩م) الاستيلاء على طرسوس وضمها ثم كان توغله فى الشام بعد ذلك واستيلائه على انطرسوس ومرقية وجبلة واللاذقية(٣)، وأنطاكية(٤). ثم توجه بعد ذلك ناحية الغرب محاولاً استعادة صقلية من قبضة المسلمين وواتته الفرصة حينما استنجد به اهل رمطة عندما حاصرهم المسلمون وقطعوا عنهم المياه سنة ٩٦٥م/ ٣٥٣هـ(٥)، وكان المسلمون قد تمكنوا من استعادة طبرمين فى سنة ٩٦٣م/ ٣٥١هـ(٦)، وقاموا بعدها

(١) القوى البحرية الثلاث هى الشام، ومصر وشمال افريقية.

(٢) كان أواخر حكم الأغالبة فى صقلية يموج بالفتن والخلافات والصراعات إلى أن انتهى الأمر بأن خلع الصقليون طاعة الأغالبة واعترفوا بأبى عبد الله الشيعى الذى فاز بإفريقية فى سنة ٢٩٥هـ، وفى سنة ٢٩٦هـ وثب أهل صقلية على الوالى الأغلبى أحمد بن الحسين بن رياح وحبسوه وسرقوا ماله وولوا على أنفسهم على بن أبى الفوارس فى ١٠ من رجب سنة ٢٩٦هـ / ١٥ابريل ٩٠٩م، راجع سعد زغلول، المرجع السابق، ص ٢٨٥ - ٢٨٦.

(3) Canard, M; Historie de Hamadanides de jazira et de syrie (paris 1953) p. 831.

(٤) مسكويه (أبو على أحمد بن محمد) تجارب الأمم (نشر أمدروز ط القاهرة ١٣٣٢ هـ/ ١٩١٤م ج٢ ص ٢٥٣.

(٥) ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٨، ص ٢١٩

- Schlumberger, G; un Empereur Byzantin an dixieme siecle Nice Phore Phocas, Paris 1890 pp. 344 - 56.

(٦) ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٨ ص ٢١٤: النويرى، المصدر السابق، ج ٢٤ ص ٣٧٠. كان المسيحيون فى طبرمين ورمطة قد استسلما من قبل للمسلمين فى صقلية وقاموا بدفع الجزية نظير بقائهم فى مدنهم. وكان رفض أهل صقلية دفع الجزية أمراً أثار المسلمين وكان ردهم أن قاموا بحصار طبرمين وحولوا المياه عنها فطلب أهلها الأمان فأجيبوا إلى ذلك وامتلك المسلمون القلعة. راجع ابن الأثير المصدر السابق ص ٢١٤ - ٢١٩.

بمحاصرة رمطة. وضيقوا عليها الخناق، وعلى الفور جهز الامبراطور البيزنطى نقفور اسطولاً قوياً يتكون من عدد كبير من السفن الحربية ونحو أربعين ألفا من المقاتلين، وأرسله إلى الجزيرة التى وصلها فى نفس الوقت الذى كان المسلمون يحصارون رمطة ويضيقون عليها الخناق. وكان أمير صقلية قد استنجد بالخليفة الفاطمى المعز لدين الله فى شمال إفريقية يطلب المعونة، وأجابه المعز إلى ذلك، وسير حملة لمساعدته فنزل جزء منها لمعاونة محاصرى رمطة فى حين انضم الباقى إلى جيش الجزيرة(١).

وعندما التقى الأسطول البيزنطى بأسطول صقلية والأسطول الفاطمى عند مضيق مسينا، عجزت القوات البيزنطية عن أن تكون ندا للقوات الاسلامية، ودارت معركة كبيرة لقى فيها قائد الحملة البيزنطية مصرعه وانهزم البيزنطيون هزيمة منكرة، مثلما انهزموا من قبل عند نفس المضيق فى عام ٨٥٩، ٨٨٨م/ ٢٤٥، ٢٧٥ هـ(٢)، بفضل استخدام المسلمين للخطاطيف وما يشبه النار الإغريقية، واستطاعوا تحطيم السفن البيزنطية والقضاء على محاولتها للسيطرة على الجزيرة. وقد تم عقد صلح بين البيزنطيين والمسلمين فى صقلية. وجنح حكام الجزيرة المسلمون إلى السلم مع بيزنطة، وذلك بسبب ما ابتليت به صقلية من مشاكل بين العرب والبربر، وفى عام ١٠٣٥م/ ٤٢٧هـ اعترف أميرها وهو أحد افراد الاسرة الكلبية بسيادة النفوذ البيزنطى(٣)، واعقب ذلك نشوب ثورة بالجزيرة بتأييد من بنى زيرى فى شمال إفريقية، واستطاع الثوار تنحية الأمير الموالى للبيزنطيين عن الحكم وإحلال أخيه محله فى حكم جزيرة صقلية(٤). وعلى أثر ذلك قام البيزنطيون

(1) Schlumberger. op.cit, pp. 446 - 7

(٢) ابن الأثير، جـ٨ ص ٢١٩ Schlumberger, op.cit, pp. 446 6.

سعيد عاشور، أوربا فى العصور الوسطى، جزءان القاهرة، ١٩٦٦م، جـ ص ٤٢٢.

(٣) النويرى، المصدر السابق، ج ٢٤ ص ٣٧٣ راجع تفاصيل هذه الحرب فى نفس المصدر فى صفحات ٣٧٠ - ٤٧٤.

- Schlumberger. op.cit, pp. 463 - 4

(٤) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٨ ص ١٥٧ Viet. op.cit, p. 277

بتجهيز جيش كبير بقيادة جورج منياس واسطولاً بقيادة ستيفن كان، ونزل منياس فى عام ١٠٣٨م/ ٤٣٠هـ[١] هو والقوات البرية على أرض صقلية، وتمكن من الاستيلاء على سرقوسة وسائر بلاد القسم الشرقى من الجزيرة، لكن البحرية الاسلامية استطاعت اختراق الحصار البحرى وخلصت شلفودة وانتهى أمر هذه الحملة بموت قائدها منياس[٢].

وبانتهاء هذه المحاولة إنتهت صفحة الصراع البيزنطى الإسلامى حول جزيرة صقلية وفقدت بيزنطة الأمل فى إعادة السيطرة على صقلية وجنوب إيطاليا. على أن الجزيرة قد دخلت مرحلة أخرى من الصراعات الداخلية والفتن مما أدى بها فى النهاية إلى سقوطها فى يد النورمانديين فى سنة ١٠٩١م/ ٤٦٥هـ[٣]. مما أنهى حكم المسلمين لصقلية.

---

(١) ارشيبالد لويس، المرجع السابق، ص ٣١٠ ، ٣١. Osstrogotsky, op.cit, p. 355.

(2) Osstrogotsky, op.cit, p. 355.

(٣) النويرى، المصدر السابق، ج ٢٤ ، ص ٣٨١.

أولاً المصادر العربية:

•ابن الآبار (أبو عبد الله محمد القضاعي البلنسي - ت سنة ٦٥٨هـ)

– الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، فى جزئين القاهرة ١٩٦٣م.

•ابن الأثير (أبو الحسن عز الدين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد... الشيباني الجزري)

– الكامل فى التاريخ، ١٢ جزء، الطبعة الأولى، الطبعة الأزهرية المصرية، القاهرة ١٣٠١هـ.

•البكري (الوزير الفقيه أبي عبيد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي) ت ٤٨٧ هـ

–كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب، جزء من كتاب المسالك والممالك، طبع رسلان الجزائر.

– جغرافية الأندلس وأوربا، تحقيق عبد الرحمن حجى الجزائر ١٩٩١م.

•البلاذري (أبي الحسن البلاذري)

– فتوح البلادن، القاهرة ، ط ١، ١٣٥٠ هـ.

•التيجاني (أبو محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم التيجاني)

–الرحلة، تونس ١٩٥٨م.

•ابن حوقل (أبو القاسم النصيبي) ت في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي

–كتاب صورة الأرض، قسمان فى مجلد واحد، منشورات مكتبة الحياة ببيروت، بدون تاريخ.

•الحميري (محمد بن عبد المنعم الصنهاجي)

–الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق. إحسان عباس. لبنان، ط. ثانية ، ١٩٨٤م.

●ابن الخطيب (لسان الدين بن الخطيب محمد بن عبد الله) ت ٧٧٦هـ.

– أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الأسلام من ملوك الإسلام، الجزء الخاص بتاريخ المغرب وصقلية، نشر أحمد مختار العبادى، الكتانى، الدار البيضاء، ١٩٦٤م.

●ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد)

–كتاب العبر وديوان ا لمبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، ١٤ جزء، دار الكتاب اللبنانى، ببيروت ١٩٨٣.

● خليفة بن خياط ،تس نة ٢٤٠هـ)

– تاريخ خليفة بن خياط، نشر اكرم العمرى، فى جزئين، بغداد ١٩٦٨.

● الرقيق (ابراهيم بن القاسم) ت بعد سنة ٤١٧ هـ.

– تاريخ افريقية والمغرب، تحقيق المنبجى الكعبى، طبع تونس ، ١٩٥٧م.

●ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشي المصري) ت ٢٥٧هـ.

–فتوح مصر والمغرب، القسم التاريخى، تحقيق عبد المنعم عامر بدون تاريخ.

– فتوح إفريقية والمغرب، حققه وقدم له عبد الله أنيس الطباع، بيروت ١٩٦٤م.

●ابن عذاري المراكشي (أبو العباس أحمد بن محمد) عاش في القرن الثامن الهجري

–البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، جزءان بيروت، ١٩٥٠م.

●ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم) ت سنة ٢٧٦هـ

–الإمامة والسياسة، فى جزئين ، طبعة القاهرة ١٣٢٨هـ.

● ابن الكردبوس

– تاريخ الأندلس، تحقيق أحمد مختار العبادى، طبع مدريد، ١٩٧١م.

●الكندي (أبو محمد محمد بن يوسف) ت ٣٥٠ هـ

- كتاب الولاة والقضاة، نشر رفن جست بيروت، ١٩٠٨.

●المالكي (أبو عبد الله بن أبي عبد الله) ت في منتصف القرن الخامس الهجري

-رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم، نشر حسين مؤسن، القاهرة ١٩٥٠م.

● مسكويه (أبو يعلي أحمد بن محمد)

-كتاب تجارب الأمم، نشر هـ ف آمدروز، جزءان، مطبعة شركة التمدن الصناعية، مصر ١٣٣٢هـ - ١٩١٤م و ١٣٣٣هـ - ١٩١٥م.

●المنجبي (أغابيوس بن قسطنطين) عاش في القرن ٤هـ / ١٠ م

-تاريخ المنبجى ، تحقيق د. عمر عبد السلام التدمرى، طرابلس - لبنان ط أولى ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

●النوري (شهاب الدين أحمد) ت ٧٣٣ هـ

-نهاية الأرب فى فنون الأدب - الجزء الأول، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب مع استدراكات وفهارس جامعة، وزارة الثقافة والإرشاد، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة القاهرة بدون تاريخ.

- الجزء ٢٤ تحقيق د. حسين نصار مراجعه د. عبد العزيز الأهوانى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

● ياقوت الحموي (شهاب الدين عبد الله بن عبد الله الرومي البغدادي)

-كتاب معجم البلدان - ٥ أجزاء بيروت ١٩٧٧م.

●اليعقوبي (أحمد يعقوب بن جعفر بن واضح)

-كتاب البلدان، ليدن المحروسة ١٨٩١.

- تاريخ اليعوبى، ثلاثة أجزاء نشرات المكتبة المرتضية فى النجف، مطبعة المغرب، النجف ١٣٥٨ هـ.

ثانياً: المصادر والمراجع الأجنبية:

* **Canard (Marius) Say F-al Daula**, Alger La Agler 1934.

- Hmadani des de Jazira et de Syrie, Paris, 1953.

* **Michael le syrien, chronique de Michel la syrien,** Partiarche Jacobite d'Antiochec 1100 - 1199 Editée en Francais par J.B. chabot, I, II, paris 1905.

* **Procopius,** History or the Wars ed Dewing New York 1914-1940.

***Theophanes; the chronicle,** An English transitation of anni mundi (1095-6305 (A.P. 602 - 813), with introduction an notes, by Harry turtl le dove, pennsylvania press 1982.

* **Amari. M,** Storia dei Muslman di sicilia nw ed Catonia 1933.

* **Brehier. L,** vie et mort de Byzance, Paris 1947.

* **Bury, J.B.,** The Invasion of Europe by the barabrians 1928.

- Centenario della Nascita dei Michel Amari tone I, p. 293 in Ency. of Ilam art sicile par des crouher Gordon.

- A History of the castern Roman Empire (London 1912)

* **Cantor** N.F., Medieval History (New York 1964)

- The Medieval World 300 - 1300 ed by contor N.Y. 1968.

* **Cheira, M. A.,** La Lutte entre Arabes et Byzantins la conqûetre et l'organisation dex vontieres aux VI et VIII siecle.

* **Chron,** Paschale ed Dindor (Bonn 1832).

* **Diehet Marcias;** Lemonde Oriented de. 395 a Pris 1081; Historire du Mayeer Age, Paris 1936.

* **Paul** -The Decon History of the lanngobards tran (W.Foulkephila 1907).

* **Lewis, A.R.,** , Nava, Power and trade in the Mediterranean.A.D. 500- 1100 Princeton 1954.

* **Marçias: E.J.,** A Hisotry of the Inconoclastic controversy.

- Story of the Byzantine Empire (New York).

* **Ostrogorsky. G.,**

- Histoire de L'Etat Byzantin traducation Franaise de J. Gouillard Paris 1977.

* **Runcinan,** S,Byzantine Civilization, London 1933.

***Schlumberger: G.** Un Empereur Byzantin au dixieme siecle Nicephor phocas (Paris 1890).

* **Vasiliev, A,** The Byzantine Empire (Mandison 1971- 73.

* **Wiet, W.,** L'Egypt Arabe Hiostoire de Nation Egyptienne IV Paris 1937.

ثالثاً: المراجع العربية الحديثة والمعربة

• **ابراهيم أحمد العدوي (دكتور)**

– الأمويون والبيزنطيون، القاهرة ١٩٥٣م

• **أحمد توفيق المدني**

– المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا، الجزائر ١٣٦٥هـ.

• **احسان عباس (دكتور)**

– العرب فى صقلية ، دراسة فى التاريخ والآداب، دار المعارف مصر ١٩٥٩م.

• **أحمد مختار العبادي (دكتور)**

– دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، الاسكندرية. ط. أولى ١٩٦٨م.

• ارشيبالد لويس

- القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط - ترجمة أحمد محمد عيسى ومراجعة غربال - القاهرة ١٩٦٠ .

• آماري ، ميشيل

- المكتبة العربية الصقلية - ليبسك ١٨٧٥م.

• حسنين ربيع (دكتور)

- دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية القاهرة ١٩٨٣م

- درويش النخيلى (دكتور)

- السفن الإسلامية على حروف المعجم، الطبعة ا لأولى، جامعة الاسكندرية ١٩٧٤م.

• رنسيمان استيفن

- الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز جاويد ومراجعة زكى بدر ١٩٦١م.

• سعد زغلول عبد الحميد (دكتور)

- تاريخ المغرب العربى، جزءان، منشأة المعارف ١٩٧٩م.

• سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور)

- أوروبا العصور الوسطى جزءان، القاهرة ١٩٦٦م

- قبرص والحروب الصليبية مكتبة النهضة العربية، القاهرة ١٩٥٧ .

• السيد الباز العريني (دكتور)

- تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة ١٩٦٥م.

• السيد عبد العزيز سالم (دكتور)

- تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام، بالاشتراك مع د. أحمد مختار العبادى، بيروت ١٩٧٢م.

• فازيليف

- العرب والروم، ترجمة محمد عبد الهادى شقيرة، نشر دار الفكر العربى، القاهرة بدون تاريخ.

• فشر

- تاريخ أوربا فى العصور الوسطى، ترجمة زيادة والعرينى والعدوى جزءان كانتور (نورمان)

- التاريخ الوسيط ترجمة د. قاسم عبده قاسم

• محمد محمد مرسي الشيخ (دكتور)

- تاريخ الامبراطورية البيزنطية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية ١٩٩٤م.

- ج.م هسي، العالم البينزطى، ترجمة وتعليق د. رأفت عبد الحميد، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٢م.

• وسام عبد العزيز فرج (دكتور)

- دراسات فى تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية ، الاسكندرية، ١٩٨٣م.

الملحق الأول:

جدول بأهم الأحداث في القسطنطينة (٣٢٤ - ١٤٥٣)

٣٢٤ – ٣٣٠	بناء المدينة وافتتاحها رسمياً
٣٢٧	موت قسطنطين الكبير
٣٦١ – ٣٦٣	محاولة جوليان المرتد إعادة الوثنية
٥٢٧ – ٥٦٥	حكم جستينان الأول ومشروعه الضخم فى القسطنطينية
٥٣٤	استعادة بيزنطة لشمال زفريقية
٥٣٧	استعادة بيزنطة لايطاليا
٦٠٢	إعتلاء فوقاس العرش البيزنطى
٦١٠	الأسرة الهرقلية حتى ٧١١ م
٦٦٨ – ٦٨٥	سنوات ثورة القصر
٧١٧	حصار المسلمين للقسطنطينية
٧٢٦	نشر القرارات الخاصة بالمشكلة الأيقونية
٧٦٥	الاضهاط الفطى لعبادة الأيقونات
٧٨٧	الإمبراطورية أيرين والسماح بعبادة الصور، ومجمع نيقية الثانى
٨٤٣	انتصار عبادة الصور وعودتها
٨٦٧	باسيل الأول وتأسيس الأسرة المقدونية (٨٦٧ – ١٠٨١)
٨٦٧	انتصارات باسيل الأول (٨٦٧ – ٨٨٦) وليو الرابع (٨٨٦ – ٩١٢) وقسطنطين السابع
٩٧٦	اعتلاء باسيل الثانى الملقب «بسفاح البلغار»
١٠٢٥	موت باسيل الثانى
١٠٥٤	القطيعة الدينية الكبرى بين الكنيستين الشرقية والغربية
١٠٨١	اعتلاء الكسيوس الأول عرش الأسرة الكومنينية
١٢٠٤	الحملة الصليبية الرابعة والاستيلاء على القسطنطينية
١٢٦١	ميخائل الثامن واستعادته القسطنطينية من اللاتين – وبداية أسرة باليولوج – وفشل المحاولات للعودة إلى كنيسة روما
١٤٥٣	محمد الثانى (الفاتح) وفتحه للقسطنطينية وتحولها إلى عاصمة للدولة العثمانية

الملحق الثاني:

قائمة بأسماء الأباطرة البيزنطيين وسنوات حكمهم

١ - دقلديانوس	٢٨٤ - ٣٠٦
٢ - قسطنطين الكبير	٣٠٦ - ٣٣٧
٣ - قسطنطيوس	٣٥٠ - ٣٦١
٤ - جوليان الكافر أو المرتد	٣٦١ - ٣٦٣
٥ - جوفيان	٣٦٣ ٣٦٤
٦ - فالنز	٣٦٤ ٣٧٨

أسرة ثيودسيوس (٣٧٩ - ٤٥٧)

١ - ثيودسيوس الكبير	٣٧٨ - ٣٩٥
٢ - أركاديوس	٣٩٥ - ٤٠٨
٣ - ثيودسيوس الثانى	٤٠٨ - ٤٥٠
٤ - مرقيان	٤٥٠ - ٤٥٧

أسرة ليو (٤٥٧ - ٥١٨)

١ - ليو الأول	٤٥٧ - ٤٧٤
٢ - ليو الثانى	٤٧٤
٣ - زينون	٤٧٤ - ٤٩١
٤ - أنستاسيوس الأول	٤٩١ - ٥١٨

أسرة جستنيان (٥١٨ - ٦١٠)

١ - جستين الأول	٥١٨ - ٥٢٧
٢ - جستنيان	٥٢٧ - ٥٦٥
٣ - جستين الثانى	٥٦٥ - ٥٧٨

٤ – طبيريوس	٥٧٨ – ٥٨٢
٥ – موريس	٥٨٢ – ٦٠٢
٦ – فوقاس	٦٠٢ – ٦١٠

أسرة هرقل (٦١٠ - ٧١٧)

– هرقل	٦١٠ – ٦٤١
– قسطنطين اثالث	٦١٣ – ٦٤١
هرقليون	٦٣٨ – ٦٤١ مارتينا (وصية)
قنسطانز الثانى	٦٤١ – ٦٦٨
قسطنطين الرابع	٦٦٨ – ٦٨٥
جستنيان الثانى	٦٨٥ – ٦٩٥
ليونيتوس (مغتصب للعرش)	٦٩٥ – ٦٩٨
طيبريوس الثالث	٦٩٨ – ٧٠٥
جستنيان الثانى	٧٠٥ – ٧١١
فيليبكوس البرواتى	٧١١ – ٧١٣
أناستاس الثانى	٧١٣ – ٧١٥
ثيودسيوس الثالث	٧١٥ – ٧١٧

أسرة الأيسورية (٧١٧ - ٨٢٠)

ليو الثالث	٧١٧ – ٧٤٠
قسطنطين الخامس	٧٤٠ – ٧٧٥
ليو الرابع	٧٧٥ – ٧٨٠
قسطنطين السادس	٧٧٥ – ٧٨٠
ايرين (وصية)	٧٨٠ – ٧٩٧
ايرين	٧٩٧ – ٨٠٢
نقفور الأول	٨٠٢ – ٨١١

ميخائيل الأول	٨٣١ – ٨١٣
ليو الخامس	٨١٣ – ٨٢٠

أسرة العمورية (٨٢٠ - ٨٦٧)

ميخائل الثانى	٨٢٠ – ٨٢٩
ثيوفيلوس	٨٢١ – ٨٢٩
ثيوفيلوس	٨٢٩ – ٨٤٢
ميخائيل الثالث	٨٤٢ – ٨٦٧
ثيودورا (وصية)	٨٤٢ – ٨٥٦
بارداس (وصى)	٨٦٢ – ٨٦٦
باسيل الأول	٨٦٦ – ٨٦٧

أسرة المقدونية (٨٦٧ - ١٠٥٧)

باسيل الأول	٨٦٧ – ٨٨٦
ليو السادس	٨٨٧ – ٩١٢
الكسندر	٩١٢ – ٩١٣
قسطنطين السابع	٩١٣ – ٩٥٩
رومانوس الأول	٩١٩ – ٩٤٤
رومانوس الثانى	٩٥٩ – ٩٦٣
نقفور فوقاس	٩٦٣ – ٩٦٩
حنا الأول	٩٦٩ – ٩٧٦
باسيل الثانى	٩٧٦ – ١٠٢٥
قسطنطين الثامن	١٠٢٥ – ١٠٢٨
زوى	١٠٢٨ – ١٠٥٠
رومانوس الثالث	١٠٢٨ – ١٠٣٤
ميخائيل الرابع	١٠٣٤ – ١٠٤١

ميخائيل الخامس	١٠٤١ - ١٠٤٢
قسطنطين التاسع	١٠٤٢ - ١٠٥٤
ثيودورا	١٠٥٤ - ١٠٥٦
ميخائيل السادس	١٠٥٦ - ١٠٥٧

أسرة دوقاس (١٠٥٩ - ١٠٨١)

اسحق كومنين	١٠٥٧ - ١٠٥٩
قسطنطين العاشر	١٠٥٩ - ١٠٦٧
ميخائيل السابع	حوالى ١٠٦٠ - ١٠٦٧
يودكيا (وصية)	١٠٦٧ - ١٠٦٨
رومانوس الرابع	١٠٦٨ - ١٠٧١
ميخائيل السابع	١٠٧١ - ١٠٧٨
نقفور الثالث	١٠٧٨ - ١٠٨١

الأسرة الكومنينية (١٠٨١ - ١١٨٥)

الكسيوس الأول	١٠٨١ - ١١١٨
حنا الثانى	١١١٨ - ١١٤٣
مانويل كومنين	١١٤٣ - ١١٨٠
الكسيوس الثانى	١١٨٠ - ١١٨٣
ماريا الأنطاكية	(وصية)
اندرونيق الأول	١١٨٣ - ١١٨٥

أسرة أنجيلوس (١١٨٥ - ١٢٠٤)

اسحق الثانى	١١٨٥ - ١١٩٥
الكسيوس الثالث	١١٩٥ - ١٢٠٣
الكسيوس الرابع	١٢٠٣ - ١٢٠٤

اسحق الثانى	١٢٠٣ - ١٢٠٤
الكسيوس الخامس	١٢٠٤

الأباطرة اللاتين في القسطنطينة

بلدوين الأول	١٢٠٤
هنرى الأول	١٢٠٦
بطرس	١٢١٧
يولاند	١٢١٧
روبرت	١٢٢١
يوحنا بريين	١٢٢٩

أباطرة نيقية

١ - تيودور الأول لاسكاريس	١٢٠٤
يوحنا الثالث	١٢٢٢
تيودور الثانى	١٢٥٤
يوحنا الرابع	١٢٥٨

١٢٦١ استعادة ميخائيل الثامن للقسطنطينية من اللاتين

عودة الأباطرة البيزنطيين إلي القسطنطينية

١ - ميخائيل الثامن	١٢٥٩
٢ - أندرونيق الثانى	١٢٨٢
٣ - أندرونيق الثالث	١٣٢٨
٤ - يوحنا الخامس	١٣٤١ - ١٣٧٦
٥ - يوحنا السادس	١٣٤١ - ١٣٥٥
٦ - أندرونيق الرابع	١٣٧٦

٧ - يوحنا الخامس (فترة ثانية)	١٣٧٩ - ١٣٩١
٨ - يوحنا السابع	١٣٩٠
٩ - مانويل الثانى	١٣٩١
١٠- يوحنا الثامن	١٤٢٥
١١- قسطنطين الحادى عشر	١٤٤٨
١٢- الفتح العثمانى للقسطنطينية	١٤٥٣

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
القسم الثاني	